وادى الرعـــــاة

الفصل الثالث والأخير المحذوف
من الرواية المسرحية الشهيرة
النص الكامل

أحمد محمود خليل

وادي الرعاة/ رواية
أحمد محمود خليل
الطبعة الأولى، ٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة، اش المعهد الديني، المرج
موبايل:٠١١٠٦٢٢١٠٣
E – mail: dar_oktob@gawab.com
المدير العام:
يحيى هاشم
تصميم الغلاف:
حاتم عرفة
رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢١٥٥
I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٥٢٤- ٣

وادى الرعـــاة

الفصل الثالث والأخير المحذوف
من الرواية المسرحية الشهيرة
النص الكامل

أحمد محمود خليل

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



إهداء أول

إلى شيماء
لولاك
ما خرج هذا العمل الفذ
ولا صاحبه
إلى النور
ولكنك اخترت الرحيل قبل ساعات قليلة من صدور الكتاب.
فماذا عساي أقول؟
إنها الدنيا، الرواية المسرحية الشهيرة.

إهداء ثان

إلى عبد الواحد محمود خليل
أخي
الأكثر حناناً بين ٩ ذكور أشقاء
والذي أثبت برحيله المفاجئ
أن هناك - على ضفاف الأطلنطي - مهرجاً أعظم يدير شئون الحياة.

دعاء

يا صاحب السماوات السبع

حررني من عبوديتك

واستعبدني في ملكوت رحمتك

دعوتك الهي دعوة عبد جشع لرب كريم

أن هب لي عقلين. فأولهما يتعبد لجلالك. وثانيهما – أثناء ذلك – يؤلف ويدبج. فيتحصن الكلم بعطر قربك وترق الكلمات سيفاً مسلولاً.

عفواً، ليس لأنها تكابد علة أو شيخوخة، بل إنها لقوية لا يطيش لها سهم أرادت له أن يصيب. ولكن رحمتك – سبحانك – قوتك، لا غنى لكلماتي عنها على أي حال.



تنويه ١

"جميع شخوص روايتنا أذكياء، واقعيون. ليس بينهم أبله واحد عداي أنا. لأني اكتفيت، وأنا منهم، وأنا بينهم، بدور المتفرج، الخيال. وربما قصرت إمكاناتي، بجلالها قاطبة، عن المساهمة بأي سهم أو قسط."

الراوي

تنويه ٢

"ما دمنا بصدد الحديث عن زمن بربري، قديم. فسوف نجد أنفسنا مضطرين إلى استعارة بعض أنماط الحديث العصري. وإن كنا سنعمل على محاولة حصرها في أضيق نطاق."

المؤلف

تنويه ٣

حرصاً على وقت القارئ غير المدرب، العجول. يمكنه البدء بالقراءه من المشهد الأول ولا يحول ذلك دون أن يلقى نظره سريعة على ما سبقه. ويمكنه دائماً تجاوز السرد إذا كان يبحث عن العمل المسرحى والمتعة السريعة. ولكن يتحتم عليه هضم كل حرف وكل كلمة، حتى الفاصلة والنقطة، إذا كان يهدف إلى قراءته والإستمتاع به ككتاب روائى مسرحى بالجملة.



قرآن كريم

"قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنون." ٩١ – البقرة

"سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق." ١٨١ – آل عمران

فى زمن ما.
هو أي زمن.
وأي زمن هو أي إنسان.
تُرى هل كان للزمن، فى أي يوم، وجود خارج عقل ونظم الإنسان؟
هل يستطيع أحدكم، فى هذه اللحظة، التأكيد على أن اللحظة الماضية لم تخدعه فى شئ ما؟
هل صحيح ما أشاعوا أن الله توقف عن الخلق؟
هل صحيح – بالنسبه لمنطق عقولنا – انه هنا وهناك فى نفس الوقت؟
هل صحيح أن الشمس تشرق وتغرب كل يوم؟
هل حقاً أن الماء لا يصعد لأعلى بسبب عدم قدرته الذاتية على الصعود، أم لوجود قوى خارجية ترغمه على عدم الصعود؟
فكر ثم اجب:
هل هناك فرق بين الماء فى مساقطه والماء بين شفاهنا؟
قال درويش من مصر:
"لا يمكن للدب أن يعيش بقلب إنسان. لأسباب عديدة، أولها أنه لن يحاول. وأولها أيضاً، أننا لن نقدم له أياً من قلوبنا العزيزة.
والسؤال هو: لماذا يستطيع الإنسان أن يعيش بقلب دب ولا يستطيع الرب – على سبيل المقاصة – أن يعيش بقلب إنسان؟"
قال بعض الحكماء فى بعض ما قالوا عن الإنسان:
".. واسمه الحقيقي كما اشتقه التاريخ وتواترته أجيال من الطير وجيوش النمل وصحائف العهد القديم: شيطان مبنى للمجهول - اعترض سفيه: تُرى، من يقدر يخلق شيطان؟ – وأن قلبه قلب دب. وشكله، رأس وجزع وأطراف، شكل الإنسان.

الإنسان الذى وضعه الرب فى القالب وهمَّ بصنعه فهمَّ به، صانعاً نفسه بنفسه، كاسرا كل قوالب السماء. ثم انه وضع يده بجيبه وقال بعزة: "كم ثمنها""؟

ولكن الإله ابتسم لجهل صغيره المشاغب وقال: "حسناً، ما دمت تريد ذلك. إذهب وعش. ولكن عيني ستكون عليك طول الوقت".
قال العلماء بلب الزهره: "وعد وأخلف".

الوقت ظهراً. ذروة الشتاء.
والمكان، سوق مزدحم بالحركة والحيوية، بالغادى والرائح، أكثر من حركة البيع والشراء ذاتها. عما يبحثون؟ لم خرجت الكتاكيت من أعشاشها والكلأ يملأ جنبات العش؟
أجاب الكتكوت الفصيح: "قدرى أن أخرج. وسوف أظل خارجاً. لأنه بعد العشاء الدسم ينبغى أن يكون ثمة "حلو."
أجسام صلبة، عالية. تتحرك بفيض الصحة وتسيح بها. حتى يُخيَل لرائيهم غير المنتمى إليهم، أن ليس يرعى بينهم شئ ما أجنبى، كالوعى مثلاً. لا شئ بالمرة، لا شئ سوى خرافهم وأنعامهم التى يسمع صوتها الجماعى بعيداً، نائياً. بينما لا يُرى منها غير واحد أو اثنين نشاهدهما يعبران سريعاً بصحبة راعيهما ذى الطول الفارع. ذلك الراعى الذى لا يكف أبداً عن ملاحقتهما بالضرب فيركضان أمامه. وحينئذ يضطر، متذمراً، للركض كى يلحق بهما. ويعود إلى ضربهما مجدداً لسرعتهما الزائدة. ويتكرر هذا المشهد أكثر من مرة.
لا موطئ قدم لمرض. لا شبهة عداء لأحد. لا مشاكل.
فأهل السوق ومجتمعهم "وادى الرعاة" قطيع إنسى شرد عن أمه. إنعزل وأنس عزلته. وفى وحدته قام ينعم بكلأ أرض طاهرة خالية من الذئاب والثعالب وقواطع الطريق. وممن يخشى الإنسان أول ما يخشى غير نفسه / جنسه.
وحينما اختلط هذا المجتمع بغيره من الشعوب الأخرى، المتحضرة. فإن مشاكله الصغيرة، المهيضة، تكوّن لها جناحان ومنقار حاد وتاه الحمام.
يقول ساشاى العبد عن بلاده المتحضرة: "إن التقدم الذى احرزناه حدث فى الإسلوب والشكل، لا فى الجوهر. وهم هنا كما هم هناك، كل ما فى الأمر أنهم هنا يحملون هراوة بينما نحن تطورنا إلى درجة وضع السم فيما بين الحروف و فى لحمها."

أخبرني الراوي أن هذا الحديث دُسّ على ساشاي. وأنه لم يستطع أن يصل إلى ما يثبت صحة نسبته إليه.

"و نحن لا نعرف على وجه اليقين متى وكيف انعزل شعب وادى الرعاة عن سائر البلدان واكتفى بنفسه وحياته على ما هى عليه." هكذا حدثني الراوي.

والسوق مفعم صاخب بالجلبة والضوضاء. ضجيج عربيد وصخب فوضوى معتاد بأية تجمع نقش بذات صدره لافتة تهمس بفظاظة: "سوق". ولو كان سوق المتعاملين بالأرقام الإثنى عشرية وباللحظات التى تزن نفسها بملايين الجنيهات والتى كانت تستوجب بداهة صوفية الأداء وعشق للشفافية بغير حدود. وما هذا إلا كونه اجتماع من ناس: إنه رسم ملون يمنح بسخاء إحدى أهم الخطوط العريضه المساهمة فى إماطة اللثام عن حقيقة ذلك الوغد: أنا وأنت.

فى الحقيقة لا أحد يعترف لنفسه بمحبة السوقية.

وهناك شعور بالغبطة الساذجة يتوزع على من نأى وابتعد وعلى من شارك وتلهى من اهل السوق. سيان. فالجدية عند كليهما "فكة" مفتقدة. الجدية فى وادى الرعاة فكرة ظهرت حديثاً لم يفطمها رحم "حورا أو وحى "قضاعه" بعد.

علق الراوي على هذه الجملة بقوله: "مازال الإنسان يفطم مرة بعد مرة – من الرحم والثدى والتسنين والتعليم الإبتدائى و.. و.. والنتيجة: فشل مر لأخذ الحياة.

والمعنى المضحك المبكى فى ذلك، أننا ما نكاد نأخذ استعداداتنا فى مواجهة الحياة واقتناصها حتى تبادر هى بالتخلى عنا".

وفاتنى أن أسأله توضيحاً عن كيفية حدوث هذا الإنقلاب. فمن مصاحبة للحياة إلى مجابهة معها؟ منذ متى وقعنا فى ذلك الفخ؟ ولماذا رضينا به؟ ولماذا لم نحاول عَدْل الهرم المقلوب؟ ولماذا أخيراً تستدعى الحياة المواجهة ويستدعى الموت التسليم؟

في جانب من السوق بعض الإماء عرايا إلا واحدة: "إناث". هذا إسمها لا جنسها. وتُدعى أحياناً "ياناس". والأمر منوط بها.

وجميعهن صففن على حجر مماثل لإحدى قواعد الهرم الأساسية قبل أن يزج بها طوعاً أو كرهاً في بنائه.

فضلاً عن هاتيك الإماء يوجد إلى جانبهم قن فتىً تغطى بزهرة شبابه. تستطيع أن تتوسم فيه أثر عز قديم. رغم أثر هزال ما انفك ينشب مخالبه فيه. وقد أطبق فمه، رغم موقعته الخاسرة سلفاً – كعبد يعرض للبيع واجترار المهانة والذل – على بسمة تعالٍ وكبر. مكتومه. تتحدى. وتكيد. ولم يفته أن يمسك حواليها تشكيلة كاملة من الإزدراء واللامبالاة ومن زخرف الصبر الجميل.

كما تضطرم هيئته. وقفته. عيناه. على بوادر صلف سافر و إمارات شر وشراسة. ثم أنه بعد برهة من اعتلائه ذرى التصلب يلين وينفثئ في نفس عميق يسحبه ثم يدفع به من أنفه في هدوء واحتشام. وكأنه شخص في لحظة كشف، تساوت لديه عزة الحياة بالسيف والموت دونها بذات السيف.

تُرى أين كان يمضي بذهنه؟ إلى أى أرض ركب عقله وخياله هذا الغريب القادم على الوادى من بلاد مجهولة؟

الأن غدا كمستمتع بما يجرى تحت بصره وحواليه من جمهرة الرواد ومن زميلاته في العبودية كعالم جليل يصغى إلى تلميذه الناشئ الذى أخذ يصفر بنفس ما كان يتسلى به وهو جرو صغير.

هل ذكرت أن تلميذه الناشئ جاوز الثمانين؟

ذلك الفتى صاحب الماضي العريق يدعى: "ساشاى". وبرغم لونه الأسمر وقسمات وجهه اللطيف فهو ما فتئ ذاكراً على نفسه متباهياً أصل عرقه الزنجي. "فالظلام أقوى كثيراً من النور." كما كان يتردد في ذلك الزمان باقتناع كبير.

قال ساشاى العبد في حديث ودود مع سيده "كاروا": "لقد ابتدأ العالم من ضلع رجل أسود، زنجي محروق. أما البياض فهو طارئ سببه الطعام الجيد والفواكه المتخمرة. وميل الإنسان للرخاوة. ولا شك عندى أننا سوف نشهد انقراض السود ذات يوم."

وسكان وادى الرعاة ذووا بشرة رمادية يغلب على وجوههم النمش. وسائر الإماء لا يلمح عليهن أقل حرج من عيون المتفرجين الفقراء أو من أيدى الأغنياء التى استحالت عيناً ثالثة تمسح أجسادهن عابثه على سبيل تفحص البضاعة الأدمية، وتثمينها. وما أكثر الغش فيها لو يعلمون.

وما أكثر ما تمتد أياديهم نحو الفج العميق، أكثر السبل وعورة وغموضاً واكتظاظاً بالمجانيب والمشعوذين والسحرة، بآلات عملهم الغريبة وروائح بخورهم النفاذ. غير أنه للحق، ولواقع الحال، ليس لأهل السوق بشئ يذكر. فحينما يتفقون على اللهو لا يكون للهوهم وتبذلهم حد.

أما مالك الإماء فيلقب بـ "زوبعه". وهو نفسه الذى ينادى لترويج بضاعته الأدمية. هل قلت: "البضاعة الآدمية؟"

باللكلمة النورانيه.

ويبدو أن تجارته شابهته، فلو رأيته بأى عين كانت، لتيقنت بأن مكانه الصحيح والطبيعى على رأس المعروضين للبيع. هذا إن لم يك جديراً بالعرض وحده.

كما أنه لا يسمح لغير أهل الموسرة والغنى بالفحص والتقليب والمعاينة الشبقية الفاجرة.

وحدث مرة أن اختص فرج إحداهن، وأطال فى مدحه، معدداً مزاياه وصلاحيته للعمل بعد سن الخمسين: "خمسون سنه أخرى على الأقل بنفس كفاءة عمله فى اليوم الأول".

فقام نفر يخدعنه بتدبير من "جربال" أحد أغنياء الوادى البارزين فانتحلوا صفة الثرى واشترطوا المعاشرة الفعلية ليتأكدوا بالفعل لا بالقول "وليس القول كالفعل فى شئ يا زوبعه" من محاسن هذا الفرج الأسطورى كما بينه بإسهاب. والأشياء الأخرى الأكثر نفعاً وشمولاً، التى تتوارى فى داخله ولن تظهر أو تتكشف إلا بالممارسة. تلك المنافع التى لم يحددها بوضوح كامل.

"ثم إنا سندفع فيها مالاً لا حصى يا زوبعه" كما صرح أحدهم ناثراً لعابه على صفحة وجهه الجافة. وبعد أن وعدوه بسعر لو أمعن النظر فيه لحظات لانكشفت له مؤامرة النصب. لكنه بلا أسف كان

دائماً المصاب رقم واحد بداء العمى إزاء المال كما هو دائم النسيان. وكانت يومئذ حديث الوادى.

وادعاء الثراء فى وادى الرعاة ليس بالأمر الهين ألبته. فالأغنياء يرتدون بالإتفاق فيما بينهم بداية، وبقانون "حورا" و "قضاعة" فيما بعد، لباساً جلدياً ثميناً بفرائه، إن وجد، دلالة على التميز فى الغنى والثراء أو بدون فراء لعامة الأغنياء. على عكس الفقراء، الأكثرية الساحقة من شعب وادى الرعاة، الذين ليس لهم غير العرى المؤكد فى سن البلوغ خاصة، أو قطع من ملابس نُسجت من الألياف الغليظة الخشنة عند اكتمال الرجولة وفى سن الكهولة والشيخوخة.

هذه الجلود ليس من السهل اقتناؤها حتى وإن توفر ما يُدفع فيها. ليس من السهل ارتداؤها لمجرد أنها هبطت عليك من السماء. إذ يتحتم أن يحصل طالبه بداية على تصريح بإرتدائه من "قضاعة" و "حورا" معاً أو من احدهما على الأقل. فيتكفل هذا بتمريره من الآخر بطريقته. ذلك التصريح الذى قد يستغرق البت فيه أعواماً وأموالاً طائلة.

أما هؤلاء الذين استطاعوا غش زوبعه فقد حصلوا على جلودهم بطرق ملتوية غير قانونيه فى جملتها. ساعدهم "جربال" ونفر من أصحابه.

كانوا أذكياء جداً بحيث لعبوا على الرجلين القطبين "قضاعة" و "حورا" كلٌ على انفراد واستغلوا بمحض الصدفة فجوات الجرف الفاصل بينهما الشبيه بالترس الصدئ يتصادم حيناً فلا يعمل ويتعاشق حيناً آخر فتدور الدائرة فهو يعمل على أية حال.

لقد برر البعض نجاح هؤلاء الصبية إلى ضربة حظ. ولكنهم ردوا نجاحهم إلى ما عبر عنه أحدهم قائلاً: "لقد ابتدأ الإنسان حياته بالخطأ. وكانت أولى محاولاته لإصلاح هذا الخطأ خطأ آخر. تلك هى القاعدة التى تحركنا على أساسها".

وفاز هؤلاء المحتالين الصغار بما أرادوا وما كانوا فى لحظة بعينها طامعين إلا فى النجاة بجلودهم. ومن هنا أتى التعبير الشائع: "أفلت بجلده".

على أية حال، اعترف بهم ضمن طبقة الأغنياء ثم صاروا أغنياء. لقد مضى ذلك الزمان دون شك واختلط الحابل بالنابل. صارت القاعدة، أجب ثم ضع السؤال.

ومن وقت لآخر، تعلوا ضحكات الإماء بلوعة وعهر وهي المستمرة قبلاً بين الغمز واللمز فتأتلف بجو المحفل ولهوهم السمج كلما أتى أحدهم تعليقاً طريفاً وخليعاً أو ابتدع فعلاً خارجاً هو من بنات أفكاره وحده. وهذا ما يدفع المارة إلى التزايد باستمرار. ومع إطراد تقدم الأحداث. ليس لرؤية العاريات المجردات فقد ألفوها كما ألفوا وجود السماء فوق رؤسهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء رفعها مرة والتأكد من وجودها صباح أي يوم. بل كان يحدوهم الإستمتاع بما لأولئك الإماء من قدرة على التلاعب المثير بأجسادهن. وكلما استثرن أثرن. إنه بشكل من الأشكال: رقص.

وأيضاً للإستمتاع بالفرجة على ما يقذفهم به "جربال" المهرج من ملح وطرائف بشكله الذى يعد فى حد ذاته طرفة مستساغة. حتى أن الطرفة التى بنصفها عطب تخرج من فمه وبأحواله العجيبة كاملة الإستواء شهية. ثم أخيراً المساهمة إن استطاع فى المزاح الجماعى وقضاء وقت طيب أهم ما يميزه جديده. ولكى يحصلوا على هذا الجديد لا مانع عندهم من الدخول إلى أرض قفر كتب على أديم سماها بخط غليظ: حقل ألغام.

هكذا هم فى وادى الرعاة لا يطيقوا الثبات ولا يقدروا عليه. فما يحدث ويراه وقليلاً من خيال سوف يحيله إلى ذاكرته وديعة سمر ينهل منها لأسابيع عدة قادمة. فالسوق وأعنى به سوق الإماء، يقام شهرياً أو نحو ذلك. ويوم انعقاده يزهو السوق الأم – الذى يقام يومياً – ويتعمد. ومنهما معاً تستمد الأمثال والنوادر وصنوف الأدب كما أنه يمثل حافزاً على الإبتكار بقوة الإحتكاك بين رواده.. وهو الحدث الكبير – المتوقع والدائم – إجتماعيا على الإطلاق.

ومعظم الحضور جاءوا تلبية لدافع الفضول العتيد.

على أية حال إنه الإعتياد فالق التبجح مردى الحياء. فأولئك النسوه خلا إناث المكتسيه سيقوا إلى هنا من بلاد كل من فيها عرايا فى أغلب الأحايين فأرديتهم لا تلبس إلا لبرد أو مرض.

ومن أين يداخلهن المرض؟ وليس هناك من طعام إلا ماتهبه الطبيعة باختيارها. "ولو أكلوا التراب ما مرضوا" وهذه العبارة الأخيرة مستعارة من إحدى عظات وتعاليم قضاعه رسول السيد/ الإله في وادى الرعاة. ومن أين يأتيهن البرد وهن يهجعن ليلاً ونهاراً تحت لحاف أو أكثر إما سيد أو إخوة أو بنى الأخ العديدين أو حتى اخت، حسب الظروف. ظروف الجسد قبل كل شئ. ودائماً كان الرجل فى وادى الرعاة جمرة تتدفأ بها أكثر من امرأة. ودائماً كان الحب عشقاً ولوقت طويل.

إختار مجتمع وادى الرعاة الجزء الأقصى من أرضه المعشوشبة وأقام عليه السوق. كان معرض زوبعة للرقيق يشغل الجزء الأوسط إلى اليمين من قلب السوق وهو كجزء من كل إلا أننا نراه يبتلع أكثر من ثلاثة أرباع السوق.

أما الجانب الآخر المرئى فهو شريحة ضئيلة من السوق الشامل تظهر فيه بعض النسوة اللائى يبعن أنواعاً معدودة من الخضروات. بطاطس، بصل، ثوم. كثير من الأعشاب الجبلية متنوعة الإستخدامات. واحد فقط – رجل – يعرض بعض الدمى وأدوات الزينة وعقود الخرز، بل وباروكات الشعر المستعار والطواقى. وإن بدا أن تجارته رائجة لكنه مظهر خادع فهو لا يبيع شيئاً إلا بشق الأنفس رغم الزحام الواضح عليه. وعلى النقيض من ذلك فإن أصحاب الخضار يبعن أكثر. فلا يعرج عليهن مشتر إلا ويشترى. والبيع والشراء هنا تبادلى. وقد اتفق القطبان حورا وقضاعه على إحتساب الذهب، هذا المعدن الأصفر التى تحرص القوافل المارة بأرضهم أيما حرص على إخفائه وإقامة الحراس عليه ليلاً ونهاراً، مقياس الغنى والثراء ووسيلة وسيطة فى البيع والشراء خصوصاً بعد أن كدس كل منهما الكثير منه ولكنهما ما زالا يتشاوران فى المسألة. ولم يعلناه فى الخلق حتى هذه الساعة مع أنه مضى على اتفاقهما أكثر من عامين.

وقليل هم من يمرون بالسوق فلا يتوقفوا إلى سوق زوبعه. وهؤلاء يكن لهم الراوى تقديرا عظيماً بشرط أن يتوقفوا إزاء أشياء أخرى أكثر أهمية من المتاجرة ببنى جنسنا.

ولكنه كعادته لم يحدد تلك الأشياء لاعتقاده أنها من الوضوح بمكان لدرجة أنّا نعرفها. بل ونحفظها عن ظهر قلب. ولأنه يستهويه كثيراً أن يسعى متلقيه للقائه فى منتصف الطريق.

على كل، فالأغلبيه من رجال السوق ونسائه تدثرن بربع لباس يستر محرم الجسم، وشعلته، كالمدفع الذى لزم موقعه وتشدق باسمه، فأعرض عن الهجوم. فإذا انفرش اللباس على ما حوله وأجاره من سلاطة العيون ووقاحة الرغبات المفاجئة فما ذاك إلا كظل عود ثقاب.

وكثيراً ما يُرى ذكر محاولاً القفز فوق مؤخرة إحداهن فيتجمعون للفرجة متصايحين، مهللين، كما لو كانوا فى حلقة مصارعة الديوك. وربما انهالوا عليه ضرباً إن كانت ترفضه وتقاومه، لا رفض التمنع وقاومنى بالتى هى أقوى بل رفضاً حقيقياً. اكبر وأعلى من إرغامه لها.

فالقبول من قواعد حياتهم الإجتماعية المستحدثة.

وغالباً ما يكون صاحب هذه القفزة اليائسة أو الباسلة فقيراً معدماً. وغالباً ما ينحى المعتدى فى لحظة المعاشرة نفسها بفعل الإثارة والحمية التى أحدثها فى المتفرجين، من قِبَل غيره ثم غيره، لينتهى الأمر إلى أقوى الحضور وأكثرهم شراسة واهتياجاً. فإذا كان من ذوى الجلود صحبها معه إلى منزله وأطفأ ظمأه بمجرد رد باب المنزل عليهما مهما كان المقيم خلفه أو كان فى انتظاره.

كل شئ فى هذا المجتمع الرعوى مفتوح، حر. ورأسمالية صادقة. الجنس مثلاً لم يك حتى الأمس القريب، منذ عشرون عاماً ينطوى على خلاف. كان أشبه ما يكون بالسهل الممتنع. أريد وتريد فنتلاقى إرادتينا. لا أكثر من ذلك ولا أقل. إلى أن اخترق قضاعة الساحة الإجتماعيه بدين ورسالة فغير وفصل وأبدل وقرر أشياء وأشياء ما كان يجرؤ غيره على الحدس بها ولو من باب الأحلام بعد وجبة عشاء دسمة. وهل كان أعتاهم شططاً يستطيع أن يُقدر – بالنسبة للقائم منها فعلاً – لأى قوة أن تغويه على المس بها. المس هنا يعنى الإحتراق.

كان دينهم من أنفسهم، ومن نصبوه عميداً عليهم، الرئيس غصن لفترة وجيزة ثم حورا الجبار من بعده.

وكانوا يعبدون متفرقين أو كعائلات أكثر منهم جماعات وزمر ما خافه كل واحد على حده. كانت عبادة ذاتية محضة. فالذى بيته على أطراف الصحراء جعل للصحراء إلهاً وراح يعبده. فلا تطمر الرمال آباره أو تؤذى قطعان ماشيته. ومن كان يقيم فى وسط الوادى عبد الشمس لضعف الإنارة والإستنارة الواصلة إلى بيته. وهكذا.

ولباس العوام غطاء يجندله أى وضع خلاف استقامة القد فإن جلس صاحبه أو صاحبته فكأنه شئ خارج على الجسم لا يحتويه بل ملقاً عليه على عواهنه. وهذا شئ غير مثير إلا لصبى يحبو إلى الشباب أو صاحب سلاح مشاغب.

والنساء عموماً فى وادى الرعاه تملن إلى اعتزال الأغطية وكسر القيود على عكس الرجال الذين يحكمون ستر عوراتهم وبالمثل يميل الأغنياء دون الفقراء إلى الإحتشام والتقيد وينعكس هذا الميل على أردية نسائهم.

ومنذ عشرين عاماً ووادى الرعاة يمر بحالة فوران لم يجد طريقه أبداً إلى السطح والسوق الذى نراه باستثناء معرض زوبعة يمتلك نصفه حورا رئيس الوادى وشركاه. وأقل من نصفه الآخر تعود ملكيته إلى قضاعه وحده دون شريك.

أما أولى الحول المقتدرين فهم المرفوعون إلى هذا أو ذاك. وهم أثرياء بفضلات وفتات موائد هذا أو ذاك. إنهم يعملون، وهذا واجب عليهم. ولكن لابد أن يحصلوا على بركات أحد القطبين وأن يدفعوا. كى يحل لهم كسب ما تبقى من الفتات وهو كاف جداً لإبقائهم ضمن المركب الأول.

لم يعرف وادى الرعاة على طول زمانه ثورات العامة لا لشئ إلا لكون العامه أنفسهم لا ترضى القيام بذلك بل وتحرمه وإن ماتوا جوعاً على بعد أمتار من أكوام الطعام المكدس فى مخازن الساده. لأن ناموس الحياة يحتم أن يكونوا عبيداً بالمجاز والسادة سادة فى الحقيقة والواقع.

ولكن الثورات عرفوها تأتى دائماً من القمة وحاشيتها وترمى إليهم – إلى السفح- بمعظم اللهب الناتج عن الثورة أو كله إلا قليلاً.

وعلى كلٍ فقد ظهر حورا وقضاعة يداً بيد أرض وادى الرعاة من الأثرياء الراسخة أقدامهم ذوى الأسر العريقة أصحاب الإستقلالية الحقيقية - إستقلالية بالوراثة - فى شق طريقهم فى الحياة حسبما يتراءى لهم. وخلقا من ريم الأرض وملحه ما يحل محلهم. أو ينافس من لم يستطيعا كسره منهم.

أما الأشياء الغريبة، تماثيل، أقمشة مصنعه من الكتان، وسوق الحيوانات المدجنه والطيور، الحلقان والخواتم والبخور. تلك الأشياء التى باتت تطفو فى السوق من آن لآخر وتتزايد من آن لآخر كأرنبة شيطانية فتباع لحساب قضاعة. وإلى أن يتجاسر أحد سكان الوادى فيبتاعها فإنها تُحدث ما يُحدثه سوق زوبعة من ردود أفعال. ولكنها بعدئذ تصبح لها قيمة مضاعفة.

صحيح أن حورا التفت إلى انفراد صاحبه بتلك التجارة غير الرائجة فكل جديد يعرض يظل يتداول شهوراً حتى يجد له مرسى يستقر عليه. إلا أنه أرجعه فى نهاية الأمر إلى غرام قضاعة الصبيانى بتلك الألعاب – المنتجات – الغريبة والتى كانت تأتيهم دائماً عبر القوافل من ناحية الغرب. وعدها بمثابة إلهاء سماوى للبائع والمشترى على السواء. ولكنه لم يلتفت إلى إعجابه هو نفسه ببعضها.

أما قضاعة فكان له فيها وجهة نظر.

ومما يلفت النظر أن لكل مهنة فى الوادى قائد جنده المتسوقين جميعاً، واحد فقط يديرها بما يشبه إسلوب الإحتكار فى عصرنا المتحضر. إنه لا يفعل شيئاً أكثر من أنه صاحب الفكرة، فيأتى بالمنتجين لها، وبالمشترين، ويقبض الثمن.

أما السواد الأعظم فى وادى الرعاة فيعمل بالرعى.

وقد أخذ وادى الرعاة مؤخراً ينقسم ويتكتل على نحو غير مسبوق حول بعض الشخصيات العامة المسيطرة. ولا يُشترط لإدارة ترنيمة الصراع نغم معين أو عرف نافذ. هذا يحدث فقط بين الكبار وليس بين الكبار والصغار. ولا يلزم فى وادى الرعاة وقوف الآباء فى صف الأبناء فهذه عاطفة لم تزل مشوشة وغير ناضجة. وعلى

النقيض، فحين يفلت الإبن من طوع أبيه وينسلخ عن إرادته فإنه يعده عدواً لئيماً فى الحضيض. واستمرار الولاء الأبوى للإبن مرهون باختيار وميل حر ليس إلا.

من بين كل الإماء المعروضة للبيع. نرى اناث، وحدها توسدت مقاطع وجهها ونامت جملة تفاصيله على آية من آيات التأفف والفتور والإنسحاق كالفصيح الذى صدمه الخرس فانخرس.

صرخ فيّ الراوى فيما كانت عيناي تتابعان باستغراق تام دوائر الدخان الكثيف التى ينفثها من فمه: "تيقظ. هذه إناث، هامتها بين ترابها بقعة ماء عذب وسط زيت يحترق. هلم نطالع هذه الجملة وهى تلدها بعنف. فى حين تتراجع ضوضاء السوق فتظهر خافتة بنفس درجة كثافتها كأنه تسجيل مكشوف لحركة و اضطراب سوق آخر. لنسمع اناث:

- تبارك عزرائيل.. ما أحوجنى الأن إلى يد عزرائيل الطيبة.. أبتهل إليك إلهى.. أرشد هذا الأعمى لمكانى.. يا ليت باستطاعتى صفعه على قفاه هذا الغر الكسول. أى إلهى.. إنى أتلوث.. نبض فؤادى الساجد لجلالك يتلوث.. أى إلهي، يا من تترنم باسمك أغنياتى الصغيره، يا من آلم حبك قلبى.. وأنا قلبى ضعيف.. إلهى يا حبيبى.. هل أطرد قداسة اسمك من قلبى لأحافظن عليه من دنس الشر الساقط بالقلب؟.. ماذا يجب علىَّ أخبرنى؟.. قلت لنا ادعونى أستجب لكم. دعوتك: أمتنى كالقديسات أو كما الحشرات. لم تستجب.. قلت استعيذوا بى من أجل الحياة ومن شياطينها المرده. فلم تمنع عنا فرصة الإستعانة بك على الموت والعزرائيل المأفون؟ لم سخرت عزرائيل ضدنا وليس معنا؟.. يأتى حين لا نرغب فى حضوره، يقتحم خلواتنا الحميمية. يحضر حفلات زفافنا دون دعوة. يتسلل من النوافذ المغلقة منذ دقيقة واحدة. يأتى من وراء ظهر مولود صغير يستقبل فجره الأول، يطعن ويختفى دونما أثر.. عزرائيل بروفيسير الجريمة الكاملة..

أما عندما نرغب فى حضوره، عندما تلهب السياط ظهورنا، ونرغم على سف التراب. عندما يعشش الألم فى كل خطوة ويفرخ

فى صدورنا دوداً نهمة لا تشبع مهما أكلت فإنه يظل مختفياً.. إلهى، لم لم نقرر لنا حرية الموت إن نحن طلبناه؟ أهى الحياة نزل خرب نرسل إليه فتوصد أبوابه فى أعقابنا غيلة وغدراً متوحدين عزل فى مواجهة عزرائيل وإبليس وعشرات من مطاريد رحمتك الجبابرة. أى إلهى.. إبليس هناك عند الزاوية. فى مفترق الطرق، حيث يعشش دائماً يتربص بك. ينتظر اللحظة المناسبة. إبليس جنتلمان، بأقل نداء لا تشعر إلا وتراه ماشياً معك، يده بيدك. وقلما يساوم وسوف يبيعك حاجتك بأبخس ثمن. الشيطان قادم يا إلهى وأخشى أن يسبق. هل عمالك يا إلهى أقل جدية وإخلاصاً منه؟"

اناث أم هذه الكلمات تتجاوب بالحركة الهادئة التى تنسجم فجأة بسلاسة ويسر مع تابلوه العرض الراقص الصامت الشبيه بالباليه التى تقوم به الإماء رفيقاتها فوق الحجر. معبرين بكثافة وتفرد رائعين عما يمتطى كلمات اناث من ألوان المشاعر المختلطه والأدق من ذلك: المتناقضة. بين الله والشيطان. الخير والشر وجموع الملائكة المسبحين وعزرائيل المسأفون والإنسان المعجون بمية العفاريت.

ويبقى صوت السوق مسموعاً فى خلفية المنظر ويعظم متخللاً فجوات خطابها (الإماء الداعرة، الريح، المواشى، اللغط، وباقة من نداءات الباعة المتجولين: جرائد، كريستال، دولار، فراوله، رشاشات لعب أطفال).

دقائق وتنتهى اللوحة. تنظر اناث حولها فى تعجب حقيقى جهم وتفزع. تعود إلى السكون المطلق. ويعود السوق إلى صمت الفولاذ كظلال من أصل حقيقى. وتستأنف:

- رباه.. لئن لا تنشلنى من هذا العذاب.. هذه أرضك ونحن عبيدك. الأرض قذرة والعبيد قتلة.. لا، ليس إلى ملكوت عرشك الوضاء.. خذنى إلى العدم.. أمتنى أو أجر روحى إليه.. أكاد أظن فى نفسى الخطيئة ولأنتحرن. أنا أكثر من يستريب فى نفسه. وأضعف من ان احتمل الريبة فى نفسى".

تضيف اناث فيما يشبه الولولة:

- لا بد أنى عصيت أو قصرت فى حقك، أنت يا خالقى ومعبودى وحبيبى.

وتتعلق اناث بهذه الخاطرة الطارئة كمفرج لكربتها - خاطرة الإثم المجهول. والظن بالخطيئة - فتضيف بحسرة من كان فاعلاً حراً، ثم فى لحظة شُل. فعجز عن تناول جرعة دواء تحيى أوصال فعله الأصيل: مهزلة.

وأضافت:

- غير انى لا أدريه.. لا أدريه.. لا أدريه.

وأخيراً تطعن شرفها، وجعها، طعنة سكين كان هدية من عدو مقيت:

- رباه.. لا تنجدنى من فوهة هذه الدوامة.. إفتك بى.. ضعنى على حافة بركان. عذبنى. لأنى علمت أنى مذنبة. إنك محق فيما شتته لى يا حبيبى. ولتغفر جهلى وذنبى الذى لا أدريه.

قال الرواى بتأثر:

- لله درك يا اناث. ما علمت مؤمناً، خالصاً، مثلك. مهما حاولنا الإغتسال بضوء الشمس، فستبقين على مسافة كبيرة منا.

وبعد أن فاضت نفسها بهذا المنولوج السرى وبعد أن استودعته فى أحشائها كمحصول ذكرى طيبة من تجربة دامية خف تهيبها وخفتت ارتعاشاتها وراحت أمضى ثباتاً وقناعة بضرورة وأحقية ما هى فيه من استعباد ومذلة:

إذن فقد اطلعنا على دخيلة نفسها بغير ادنى قدر من التثقيف خالياً من الشوائب والشوشرة وحزم الصناعة الضوئية المبهره ويعود السوق أدراجه لحالته المزمنة من الفوضى والحماقة والخلطة العكرة التى ابتدأ بها. ولكن اناث التى بدأت غير اناث التى أصبحت.

تُرى متى نشهد انقراض الأسواق؟

تنتهى إناث من عرضها ويظلم السوق. فيما نستمع إلى هذا الصوت الجنونى المكلوم قائلاً كغارة انتحارية. يغنى كلماته حيناً وينطقها كما هى حيناً آخر يصاحبه عزف بسيط لناى بدائى. شديد النقاء.

مع إظلام المكان يعتلى القمر عرشه الذهبى غير أن السحب الكثيفة السريعه تحيل دون بهائه وإشراقه معظم الوقت فنرى السوق بأحشائه معتماً نراه بلا تفاصيل. وربما شعرنا بأعين المتفرجين وهى تتحسس وجوده بسبب حركته العنيفة التى يضج بها المكان ولانبعاث صوته من اكثر من زاوية.

يقول المنجون (هكذا اسمه: المنجون، وليس المجنون) صاحب الصوت دون أن يظهر بنفسه:

- يا وطناً أهديت المأوى
وتعريت
باسم عذارى الأرواح التعبة
باسم الملأ الأعلى
خذ منديلاً
جفف أدمعنا

تتسلط الآن على المنجون دائرة من النور فيما تتكاثف ظلمة المكان حوله. يظهر المجنون مرتدياً جلباباً فضياً مزركشاً بلا أكمام بلا ياقة بلا أزرار ويعجب المرء كيف لبسه وطوق الجلباب يضيق كثيراً حول عنقه. تبدو يداه أحياناً مصلوبتين إلى جانبيه ونلاحظ أنه ينتعل – بينما شعب وادى الرعاة حفاة – خرقة قماش من الكتان لفها حول قدمه لفاً طويلاً فبدتا متضخمتين وأشبه بأقدام وحش أسطورى. ولم يظهر أنهما تعيقاه عن الحركة السهلة. نشاهد المنجون وكأنه يسعى إلى الهروب من بؤرة الضوء الأبيض التى تتابعه بإصرار بحركاته الغريبة الشاذة المنفرة بشكله المريع بسبب إهماله لنفسه سنوات طويلة فتفرقت شعرات رأسه واستطالت لحيته وأظافره ولم تسلم منه قيد عقلة إصبع لم تتوسخ وتتراكم عليها القاذورات ويبدو فى كل هذا بشكله وحركاته الصعبة معاً كانه يجرب تشكيل لوحة تجريدية من ألغاز الفن الحديث. حقاً، كان مريعاً، حتى انه بمجرد إلقاء الضوء عليه ندت عن مشاهديه آهة فزع واستنكار.

وغالباً ما يبد[illegible] المنجون من دائرة الضوء المتماوجة ليس أكثر من ثوان معدودة كأنها توهمه.

يُسمع صوت جوقة تتثاءب. فيما يستدير برأسه كل من حضر السوق ناحية الصوت المجيب صامتين. ثم يعودون فيستديرون ناحية المنجون عندما يجيبهم وهكذا.

الجوقة:
- ما هذا؟ إنسان؟
حق هذا أم هذيان؟
يتلفت المنجون مفتشاً عن مصدر الصوت الرهيب. ويكمل بخوف:
- يا وطناً لم بان
وهو الشمس
يا وطن الغد والأمس
الأيام تكر
وصراخى يصبح همس.
الجوقة:
- إنتبهوا
هذا الذى أيقظنا
يحلم صحيان
يحلم فى وضح نهار
إستدعوا الشرطى.
يفزع المنجون، يرتج، يصرخ:
- لا. لا
يسمع صوت الجوقة رهيباً:
- الآن الآن
وطنى الآن مكان
المنجون:
- لا. لا
كأنهما فى صراع على الموت والحياة. يُسمع صوت الجوقة أشد وأعنف كمارش عسكرى يشوبه فى البداية وتراً ساخراً لا يلبث أن يذوى.
الجوقة:

- كان يا ما كان.
أما اليوم
وطنك في قدمك
وطنك عشك.
يتلوى المنجون كمن أصابه مس ويتخبط كالأفعى في قعر النار:
- كفاكم رجماً بخيل
لن أسمع رأيكم وإن قتل
رايتي فوق المدى
والدول
لن ابصر طنين وطن توهمتموه إله
ولن يردد أناشيدكم البلبل
بأفواهكم سدادة
رغم الكلام الكثير
وكلماتكم مصمتة
لن يفهمها إلا القليل
لن تطير
وأنا لن أرى شفاهكم كي لا أفهم كلامكم
لأني عتي الذكاء في قبيلة البله.
الجوقة:
- مجنون
والمجانين تموت قبل الأوان.
مجنون
كالموهوبين
أو كما زهر الأقحوان
مجنون وينشد للعقلاء قصيدة الحياة؟
المنجون:
- والحقيقة؟
الجوقة:
- إرث رث.
المنجون:

- والغرس؟

الجوقه:

- إزرع نقلع إبنى نهدم علم نفسد.

قال المنجون متوسلاً:

- يا أهلى وناسى.

ردت الجوقة متهكمة. تغنى الكلمة وتحكم قفلتها الغنائية بشكل بديع

- ونااااسى.

المنجون:

- الوطن الوطن..

الجوقة:

- اقتلوه

اصلبوه.

المنجون:

- هو..

يسقط مغشياً عليه.

إضاءة كاملة

المشهد الأول

حين يملأ الضياء المكان يكون المنجون واقفاً غير بعيد عن حلبة زوبعة وسوقه الخاص وبينما يعترى وجوههم شيئاً من القلق والنفور حالما يروه ويتراجعون مشكلين حلقة حوله. وحلقة أخرى اكبر حول الإماء. إلا أنه ينشأ فى مخاطبتهم بود وتدريجياً يستأثر بانتباههم. وكانت اناث أكثرهم التفاتاً إليه. اما ساشاى فكان يرمقه بمقت عظيم مع أن المنجون كان غالباً ما يتوجه إليه بالذات بخطابه وعندئذ لا يتردد ساشاى عن ان يصوب إليه نظرات حارقة، مباشرة وصريحة. أما الآخرون فكلهم اتفقوا على الغمز واللمز محتقرين إياه

قال المنجون مخاطباً أهل السوق:

- يا قومى.

كلمت كل الخلق

أمن كل الخلق

إلا قومى.

نرى زوبعة يقف وسط كوكبة من المتسوقين حتى الآن ثلة قليلة هى مجموعة زبائنه المعتادة الحريصين على حضور سوقه فى كل مرة.

وقد بكروا بالحضور اليوم لما أشيع بأنه سوف يعرض مجموعة رائعة من العبيد الحسان وبضمنهم بنت سيد "الخروج". وكان على رأس هؤلاء جربال المهووس بسوق زوبعة وبزوبعة نفسه.

يبدو زوبعة قلقاً فما أن يشرع المنجون فى ترديد مقطع من أناشيده السابقة حتى يسارع بإفراغ كبته وضيقه فيه:

- كُف أيها المنجون. كفى.

جربال: هدئ من روعك يا زوبعة.

قال صوت متحذلقاً:

- قل له لا تعصفى يا زوبعه.

تجاهله جربال وهو يشير نحو المنجون بعدم إكتراث:

- إنه قليل العقل يا زوبعتى الصغيرة.

إندفع زوبعة نحوه بغضب قائلاً:

- لم لا يدفع قلة عقله تلك بعيداً عني؟ ولم لا يوقفها على روحه؟ أم تراها ثقلت على جنابه فمن واجبي أن أتقاسمها وإياه؟ ولماذا أنا دون كل الخلق؟

يبتعد زوبعه بعصبية ويلحق به جربال.

- يا رجل من قال أنه يعنيك بغبائه؟

- حسناً يا اخى "جربال". فلماذا يترك السوق كله إلا هنا؟ دائماً هنا؟ إني أشك في هذا المخلوق.

يحلق جربال في المنجون ساخراً من زوبعة. بينما يرنو الأخير إلى وجهه بإستنكار شديد و عدم إقتناع. وإستأنف جربال على غير توقع مفزعاً صاحبه:

- لو لم يكن ذا عقل قليل "ويتمثل كلمته بإصبعيه كأنهما طرفي ملقاط يمسك بشئ إما ثمين نادر أو حارق" لما أصابتنا رعونته. وما كنا أدركناها يا أنجس من آخر سنتي في مصاريني.

ثم ينتبه فجأة. يصيح في وجهه وهو يبتعد عنه:

- من تحسب نفسك تخاطب؟ المنجون أم أنا؟ وانا مالي.

يفكر زوبعة برهة. ثم يتول وهو يلحق بجربال حيث وقف على رأس المنجون الذى تقتفذ على الأرض ككومة زبالة. فلا تكاد تشخصه العين كآدمي برأسه المدفون بين قائميه، بأعضائه التي يحتويها جملة جلبابه منزوع الكمام.

- أتظن صوته رخيماً آثراً حتى يبيح لنفسه أن يتغنى به دون خجل أو مواربة على مسمع منا؟ كيف يجرؤ على تلطيخ أسماعنا بوسخه هذا الشاذ المقرف؟ إن التهاون مفسده على أية حال.

قال جربال مفاجئاً زوبعه:

تعلم يا زبى أني أشك في قدراتك الحسيه "ثم يشهر أصبعه في وجه السماء. يتكلم كخطيب مؤتمرات شعبية مزمن" وحياة السيد/ الإله إن صوته لشاذ.

ثم يضيف متعمداً إغاظة صاحبه:

- صوت رشيق. رشيق.

ويكمل بإستغراب مصطنع:

إذا كان لك رأى آخر قله. أنت يا منجون، صاحبك زوبعة يريدك في كلمة.

قال زوبعه مرتداً على عقبيه. متزلفاً له:

- جربال يا عزيزى. أرجوك.

- ألنت خائف؟

- أنا لا أخاف وحش الفلا.

ثم كالباكي الشاكي:

- ولكنى أعمل ألف حساب للجرذان والمجانين.

- لا تخف يا زبى. إرفع رأسك. تعال. صدقنى، إن صوته رشيق الثر. وكلماته لها نسق عجيب. ولها سحر وجاذبية غير مبرره.

- ماذا؟

ولزوبعة الحق كل الحق فى سؤاله وفى إستنكاره. فجربال المولع بالسباب والألفاظ النابية على نحو لافت للنظر وغير مسبوق على الإطلاق فى وادى الرعاة كانت له القدرة نفسها على رص الكلمات الجيده. وكان مثله فى كلا الحالتين مثل الشاعر دائب البحث عن اللفظ الدقيق والمعنى المبتكر. ويردف جربال قائلاً:

- صوته. أعنى صوته فى ذاته من دون الهراء الجميل الذى يتكلم به.

قال زوبعه بإهمال:

- جايز.

- أتشكك فى رأيى يا دوده. إن ما يحيرنى بحق هو ما يقوله. من أين يجتلبه؟ كلام عجيب غير مفهوم. ومع ذلك، يمس شغاف القلب. من ذا الذى يجتليه؟ أراهن بعمرى على ثمالة عمرك أنك تستطيع يا زبى وتحاول خداعنا بإدعاءاتك الزائفة عن كراهيته. هل تتذكر؟ ذات مرة كان يتكلم عن إنسان لا يشبه أى أحد من الناس، ولا يرى، يمسك بيده الشمال وحدها، البرق والرعد والسحب والأرض والثيران وقبة السماء ومالم يشاهده أياً منا فى حياته ومماته على السواء.

- أتذكر. كان ذلك فى الشتاء قبل الماضى.

- إذا كان هذا الإنسان يجمع بيده الشمال وحدها كل هؤلاء. فما بالك بالذى فى يده اليمنى؟ شئ أعجب من خيالى وقتما أحييك مخلصاً

- أما أنا فإحساسى بهذا المنجون معقد. إذ لا أكاد..
قاطعة جربال بسرعة قائلاً:
- تقول معقد؟ انت نفسك من قمة رأسك إلى اخمص قدميك لست اكثر من عقدة غمست بالنفط قبل شد طرفيها بواسطة ثورين
- نعم لا أكاد أطيقه ومع ذلك تأخذنى به رأفة شديده. أشعر فى أحيان كثيرة أنه يعنينى بالذات بكلامه المبهم بل وأشعر أنه يطاردنى. لا أفهم يا عزيزى جربال لماذا كلما طالعت صفحة وجهه الرديئة حسبته توهماً. فانفض رأسى هكذا.. علّه يتلاشى. فأفاجأ أنكم جميعاً ترونه.
يلكمه جربال بخفة:
- ما هذا الذى فعلته؟ لقد جعلت شعبى يرتج بين ساقى. أرجوك يا زوبعة لا تهز رأسك هكذا، كما فعلت مرة أخرى. وإلا ثار شعبى عليك. مفهوم؟
يبدى زوبعة امتعاضه بحركة شفتيه ويواصل ما بدأه:
- إنه مع هذا، حقيقة، حقيقة تثير غيرة أعصابى وتقلقها.
- وماذا كنت تتوقع بعدما دلست عليه، ودفعته إلى الجنون. إنه تقريظ الضمير أيها المخادع.
أسرع زوبعه ينفى منفعلاً:
- كذب، لم يحدث. هذه وشاية. انا لم أعرفه قط فى حياتى. ولم تك لى به أى علاقة. وما يقال عن مشاركته لى فى تجارتى محض افتراء، دسها علىّ حاقد غيور. ثم كيف أشارك من كان ليس موجوداً فى الأصل. أعنى، لا عنوان ولا أرض له.
- لا أجد مفراً من تصديقك هذه المرة يا بلعومى القذر، مهما دفعت فيه – ليناً – مرّرّه.
- وأكثر من ذلك، كيف يمكن أن أشارك من مرآه يذكرنى بتلك الفترة البتيمه التى عشتها عالة على أمى.
- أمك؟ لم نعرف لك أم قط، يا زوبعه.
- وهل استولدتنى الريح من بطن قوقعة؟ مؤكد كان لى أم. و لقد سكنت فى أحشائها وطعمت بالمجان، أحسن طعام، لمدة سبعة أشهر
ويضيف ضاحكاً:

كانت تظنه حملاً كاذباً كسابقه. وظلت تُمنى نفسها بكونه مجرد إنتفاخ ومياه زائدة. وحين تأكد لديها حقيقة حملها اختصرت شهورى التسعه إلى سبعه. ما كان بوسعها أن تفعل أكثر من ذلك على أى حال. إيهٍ جربال. ياليت شعرى، كانت أفضل سِنِى عمرى.

- ولكنها يا رمه كانت شهوراً وليست أعواما؟

- وما أفهمك أنت فى الحساب.

- معك حق يا زبى. فماذا حدث عندما فاجأها الطلق بالأمر الواقع، ورأت بأم عينيها دودة بطنها، انت؟

قال زوبعه ضاحكاً:

- لو كانت تعلم، كانت قتلتنى.

ورد جربال بشجن:

- أو طردتك.

- وهل كان بوسعها أن تفعل وامتنعت؟

- وما منعها يا زبى؟

- فكرتْ فى اللحظة الأخيرة أنها سوف تحتاج إلى من يخدمها فى كبرها، وكانت تعلم أن إجهاض جنين يكلف أكثر من ولادته. لقد كانت إمرأة شرهة، أكوله، ذات خلق سئ.

وقال آخر ما تكلم به مشدداً عليه ناظراً إلى جربال مما مكن الأخير من إدراك رائحة الإحتراق بسهوله:

- إلام تلمح يا أعفن من ريح بطنى؟

- والسيد/ الإله ما قصدت شيئاً. لقد كانت إمراة شرهة ذات خلق سئ، مثلى تماماً.

- وماذا تظن؟ هذا صحيح مائة بالمائة.

- ولكنها ظلت حتى الرمق الأخير محافظة بإصرار عجيب على ألا تبوح لى باسم أبى.

جربال: الحقيقة يا زبى أنك كنت متعلقاً بتلك المرأة السحاقية على نحو فريد.

- أمى؟

- نعم تلك المرأة السحاقية، أمك. كان إرتباطك بها مثار إهتمام الوادى شرقه وغربه. وكنا نتسائل أى جريرة إرتكبت وأى حظ أسود نالت؟

قال زوبعة متشككاً:

- ألأنى كنت أرافقها؟

يومئ جربال برأسه متصنعا الخجل والبراءة. فيما قال زوبعة:

- ها قد ماتت على أى حال وأورثتنى فراغا قاتلاً. أتعلم يا صاحبى، أنا الوحيد فى وادى الرعاة الذى أعال نفسه منذ اول ساعة بعد مولده.

إنتبه له جربال مكشراً:

هل تسخر منى يا ضفضعة بلا بطن؟

أبداً والسيد/ الإله.

فكيف تعول نفسك بعد ساعة من ولادتك؟ هل تتغابى أم أنك كاذب لعين؟

لا. دعنى أشرح لك. قالت لى المرأة التى كانت أمي أنى كنت منذ ساعتي الأولى إذا رأيت زائراً لنا أو ماراً بدارنا أو حملني أحدهم مداعباً صرخت صراخاً حاداً موصولاً "كأنه الكلام". فإذا أراد أن يسكتنى بغير أن يدس فى يدى مالاً أو فى فمى طعاماً لم أسكت عنه. إذا مكث صرخت، وإذا أراد الفرار صرخت أكثر فاجبره على العوده والدفع. وإعتاد الناس ذلك منى. بل إن بعضهم راح يغضبنى عمداً حتى أصرخ فيعطينى فأسكت. وعندما أصبحت ابن أربع أو خمس سنوات لم يعودوا يأبهون لصراخي الذى كان "كأنه الكلام" فأخذت أجوب الوادى من أدناه إلى أقصاه أتشمم مأدبة طعام أو حفل رقص أو ما شابه وهكذا عشت أعيل نفسى بنفسى حتى بدأت تجارتى فى العبيد.

قال جربال: بالمناسبة يا زوبعتي الجميلة، كأنها قطفت من شجرة حنظل تواً، كيف بدأت تجارة العبيد؟

رد زوبعة بسرعة متعالياً فى بدء كلامه:

- إسمع يا سيدى، أنا لا أعلم كيف بدأت فى الدنيا. ولكننى أعلم يقيناً كيف بدأت فى الدنيا لدينا. فى أيام الرئيس "غصن" – رحمه

المولى سيدنا/ الإله حدث أن حورا وكان نائب الرئيس وقتئذ، كان يدين رجلاً يدعى "تواكل" والرجل أفلس تماماً وصار ريشه فى الهواء، لا أرض و لا أنعام ولا أموال من أى نوع. وكان كثير "العيال". ولم يجد الرجل ضامنين له عند حورا.

ويخفض زوبعة صوته وهو يطرد بخوف"

- كان حورا مفترياً شرساً.

ويعود إلى صوته الطبيعى:

- فلم يجد ما يعوضه عن ماله إلا أن يتنازل الرجل عن أولاده له. ووافق "تواكل" بارتياح كبير فبعد كل تسعة أشهر يستطيع أن يعوضهم تباعاً. ولم يبد فى هذه الحادثة عند هذا الحد أى شئ لافت للنظر. بل إن حورا دفع لـ "تواكل" ما إعتبره فرق سعر بين دينه وجملة الأولاد. بينى وبينك أشك أن حورا دفع شيئاً. على أية حال، هذا ما تردد بين الناس وقتها.

ولكن عندما أراد حورا أن يبيع الغلمان الكبار من أولاد تواكل، وقف ضده كل سادة الوادى. وكان أعنفهم فى اعتراضه هو الرئيس غصن نفسه "فالناس لا تباع ولا تشترى" وإذا كان وافق على تنازل تواكل عن أولاده وإمتلاك حورا لهم فلأنه ما من وسيلة ترد لحورا حقه إلاها. وأنه كما قال: "كنت أريد أن أعلم الناس فى وادى الرعاة ولو بدرس قاس أن يحسنوا التصرف غير معرضين حياتهم وحياة من حولهم للخطر دون أن أضطر إلى تشريع ما ينص على معاقبة من يؤتى فعلاً خطراً يعرض حياة غيره أو أملاكه للخطر".

أما أن يعود حورا فيبيع الغلمان فهذه تجارة وهذا مرفوض. وجرى جدال حامى بين الرئيس ونائبه وإنسحب الكبار تاركين غصن يلاطم أمواج البحر – حورا - وحده. وكانت حجة حورا أنه طالما أن الرئيس أقر بإمتلاكه الغلمان فمن حقه بيعهم لمن يشاء وقتما يشاء. وإلا فكيف تكون له ملكيتهم فيما الملكية حق يقدسه كل سكان الوادى وأولهم وليس آخرهم الرئيس غصن نفسه. كيف تكون له ملكية شئ ما ولا يكون له حق التصرف فى الشئ نفسه بيعاً أو شراءأو بأى طريقة أخرى حسب ما يقتضى الحال. ولست أعرف كيف انتهى الرئيس غصن إلى الموافقة. ربما إعتبرها حالة فريدة لن تتكرر.

فما الذى كررها؟

فى يوم طلبنى سيدى حورا وقال إنه يريد أعلى ثمن فى أحد غلمان "تواكل". وكان أبدى قوة وشجاعة كبيرة وأنه يفكر أن يعرضه فى مزاد على سادة الوادى. وطلب منى القيام بذلك وحقق له الغلام على هذا النحو من البيع سعر ممتاز. ثم طلبنى السيد "شمبارى" وكرر نفس العمل. وهكذا بدأنا تجارة الرقيق وأصبحنا نقوم بصفقات كبيرة مع القوافل وأحياناً نبيع لها أكثر مما نشترى. كان سيدى حورا فى مطلع حكمه قد إستن لنفسه حق تنزيل أى مواطن إلى درجة العبيد. وحدثت وفرة فى العبيد فأعطانى أمراً صارماً بضرورة التخلص منهم بسرعه. لم أجد بداً من بيعهم للقوافل بأى سعر وتحويل الثمن إليه. إلى أن جاء مولاى قضاعة فأخذ هذا الحق لمولانا السيد/ الإله. ومن ساعتها لم نعد نسمع بإستخدام هذا الحق، الذى لا يكون بطبيعة الحال إلا على الرعاع من وادى الرعاة، لا من قبل سيدنا حورا ولا من قِبَل السيد/ الإله.

قال جربال: فى الحقيقة يا صديق زبى، إننا طالما إستغربنا هذه التجارة وكنا ننظر إلى القوافل بعبيدها الذين يفوقون سادتها عدداً متسائلين: كيف يمكن لإنسان أن يمتلك إنساناً آخر. إن القرد لا يمتلك القرد ولا الشجرة تمتلك شجره. وحتى الجبل لا يستطيع أن يمتلك صخوره. فكيف إستطاع الإنسان أن ينفرد بهذا العمل وحده؟ إنسان واحد يمتلك العشرات ولا يستطيعون مجتمعين قهر كلمته عليهم. لكنى سمعت أن الرئيس غصن هو من دفع فرق السعر بين دين حورا وأولاد تواكل.

زوبعة: ما علينا من كل ذلك.

جربال: نعم ما علينا. حدثنى عن أمك.

- لقد ماتت على أى حال وأورثتنى فراغاً قاتلاً.

جربال: وحياة السيد/ الإله لا تأتى بسيرة الموت على لسانك. أى وجه قبيح سوف تلبس الحياة حداداً عليك إذا ما إفتقدناك للأبد؟ أرجوك يا زوبعه لا تدعنى أستشعر البؤس والحزن منذ الآن.

يندهش زوبعه. إذ أنه لم يكن يتكلم عن موته هو. ولكنه يرضى. مثل تلك السخريات هى التى تبقيه، وإن وحده، بإعتقاد أن جربال

مخلص محب لـه و لتجارته. أما الشتائم والنعوت خارج دائرة الإحتشام فإنها لا تحزنه بل ولا يكاد يلتفت إليها فقد أمست تجرى على لسان صاحبه كما يجرى اللعاب فى فمه. ولا يستطيع أحد أن يؤكد على أن ما قاله جربال على سبيل السخرية لم يمس شغاف قلبه فعلاً بعد ما قاله. لقد بدا زوبعة هذا اليوم كمن كان يقف على أبواب الفناء منذ زمن بعيد

كان المنجون حتى هذه اللحظه متكوماً فى مكانه تحت أقدام زوبعه وجربال وبينما إنشغل زوبعه بمتابعة صاحبه الماكر وبالكلمة السريعة التى قذف بها من بين أسنانه ولم يستطع اجتلاءها. يضرب جربال المنجون بقدمه خفيه ويتراجع خلف زوبعه كما النسمه. ينقلب المنجون ويمس وجهه قدم زوبعه فيصرخ هذا جذعاً ويتقهقر ولكنه يجد صعوبه فى الهرب لإصطدامه بجربال خلفه مباشرة والذى يتعمد إبقائه فى مواجهة المنجون.

قال زوبعه وقد أمن:

اللعنه.

ثم أضاف سائلاً جربال:

أتعلم من أين يتعيش هذا البشع؟

إسأل زبى. هو أعلم منى.

يسكت زوبعه حيناً ويعود إلى تساؤله على نحو آخر:

- أموت وأعرف أين يقطن وكيف يعيش؟

قال جربال نافراً:

- لا أدرى يا زبى. إنه كما تعلم نادراً ما يظهر. يتغيب طويلاً ثم يطل علينا كزوبعه. "ويضيف منبهاً زوبعه بإصبعه " - هى إستثناء الهدوء – بكلامه العويص وليس أعسر من كلماته سوى أسماله.

ينهض المنجون بحميه ونشاط تزول حالما يتحدث. ينشد بصوت خفيض وهو ينسحب حزيناً. يخلى جميع الرواد له طريقاً فى مهابة وإجلال غريبين.

- لو تعلمون يا خلق
وطنى وطنك
فى الحق

وإنى
لأنى
أحبكم
أدلكم
حى على الفلاح
فى أوردة ملاح يجوب الغمام
سدوا طريقى من خلف و من أمام.
قال زوبعة ثائراً:
- بل إفسحوا له الطريق من خلف ومن أمام. إفرشوه بالرياحين وإحملوه على الأعناق.
ويهجم زوبعه على الجميع فيتراجعوا صانعين صفين كما كانوا. يمشى من بينها المنجون في إنكسار واضح. بطيئاً. مما يجعل زوبعه فى غاية الحنق عليه.
قال جربال مخاطباً زوبعه:
- أراهن على ما شئت من رهان يا زبى أنك الوحيد الذى يفهم هذا المجنون.
رد زوبعه مدعياً الخوف فخاف فعلاً. ولكنه من أعماقه عد كلمة جربال بمثابة إطراء له.
- جربال يا عزيزى، إخرس.
جربال: لماذا إذن فهمت دون كل هؤلاء، مقالته؟
ويمرر يده على جوانب السوق فى مبالغة واضحة. أمسك زوبعه عن أى تعليق. وإن لم يقدر على تحاشى الإمساك بحجر صغير وقبيل أن يقذف به المنجون يستدير هذا فجأة مسدداً له نظرة خاطفه بعين دامعه متراجعاً للخلف خطوة باتجاهه كأنه شاهد فعلته الآثمه. فيجمد زوبعه فرقاً على حاله. يقول المنجون باكياً فى حالة من الصرع.
- ويلك
ويلكم جميعاً يا أحبابى
عار على يعض كرامتى
جرثومة فى جبين فطرتى
أن أك منكم

أو تكونوا منى
يتوارى المنجون نهائياً إلى العمق حيث تتراءى أطلال صحراء قريبة. بينما أسقط زوبعه الحجر فى الإتجاه المعاكس لما أراده بتراخ واضح كأن أحدهم قبض على معصم يده فجاة حالما إلتفت إليه المنجون رهبة ووجلاً لم يخفى على البعض فضحكوا.
إنشغل زوبعه بنفسه وقد إنفرد به القلق ثانية حتى يلمح صخره فى محيط الخلق البشرى المتكاثر بإطراد حول الحجر بارزاً بلفائف شعره الأفحم الكث الأشعث. فناداه:
- صخره، صخره.
جربال: كفى.
ويدفعه بعيداً عنه بغلظه فيوشك أن يتعثر قاطعاً عدة خطوات فاقداً إتزانه. فيطرد جربال ساخراً:
كاد زوبعه أن يقع. ولكن زوبعه لم يقع.
ويدنو منه هامساً كالمعتذر:
- رفقاً، إنك تضر بأذنى.
لا يهتم زوبعه. بينما يلتقط شاب خبيث. ذلك المتحذلق إياه حصوه رفيعه من تحت قدميه ويصيب بها هامة زوبعه الذى يعلو صراخه:
- يا صخره.
يرسل صخره بصره سريعاً. فيلوح إليه زوبعه أن تعال. إلا أن صخره يهمله بعد أن يصده لمرة واحدة بيده معرضاً عنه أن إذهب إلى الجحيم. أو إلى الفردوس المهم ان تغور. ويدرك زوبعه النبيه أساساً أن لابد مما ليس منه بد فيذيع بعضاً مما أراده سراً. نادى ثانية بإلحاح وعجلة.
صخره.
يصل إليه صخره ببصره دون ان يحرك ساكناً. منتظراً. والإنتظار عمل غير حضارى كما يردد سيد القصر المهيب، حوراً. على النقيض من المهيب قضاعة الذى يقول برويه: "العجلة من الشيطان يا أولادى".
قال زوبعه بلطف متكلف، برجاء:
- هلا أتيت هنا؟

يجيبه صخره شذراً لإندماجه مع عبث القوم وفى البؤرة منها بشبه إحتجاج:

- لماذا؟

رد زوبعه بنفاد صبر لم يرد لثمالته الهلاك فى مراشقته صخره النظرات السيئات:

- أرجوك. أقبل هنا. لا تطل.

قال صخره متحاملاً على نفسه وقد ضج منه:

- تعال أنت وكفاك عواء ككلب وطئ ذنبه.

وللمرة الثانية يجد زوبعه أن ليس بد مما لابد منه فيفشى بعضاً أخر مما أراد أن يتم فى تكتم، ويتحرك كثيراً جداً فى مكانه دون ان يتحرك فعلياً قبل ان يحزم أمره أخيراً ويقترب منه متودداً ويقول بالهمس كأنما ضاق زوره وأنه يوشك أن يفضى إليه بمشروع سرقه فى مركز شرطه:

- حبيبى صخره. هل لك أن ترعى مالى حتى أقضى مأرباً؟

يزعق صخره فى مرح لافتاً نظر الجميع إليهما. بينما كان يولى إنتباهه ووجهه إلى الإماء إذ كانت إحداهن تعطى مؤخرتها العارية للقوم وتلويها بإثارة عالية:

- أين؟

ينحشر جربال فيما بينهما وهو نجم الحلقه وأكثر الرهط هرجاً وتهريجاً مع انتمائه لذوى الجلود فهو لا يستنكف مخالطة شطر مجتمعه الآخر: الصعاليك. لأنهم، وببساطة، شطر مجتمعه الآخر. بل ومصاحبتهم. إنه منساق بقوة لطبيعة تكوينه النفسى والجسمانى وقد ساعدته بدانته العظيمة على هيكل طويل عريض على تزعم هذا السوق الخاص كلما إنعقد. وطالما سوف ينعقد.

وهو عاشق لبدانته يغريه زيادتها لا نقصانها ويكاد يطير رضى وحبوراً وهو ينتقل بين الناس كالطود بكتلة اللحم والشحم المترهله على صدره ومن أجنابه بقصد ومن دون قصد فتأخذ أثدائه التى ربما فاقت أثداء كثير من النساء الحوامل فى الوادى فى الإرتجاج باعثة فى نفسه شعوراً هادئاً بالخفه والرشاقه.

صحيح أن قضاعه وحورا وقفا ضده فى سلوكه غير المستساغ مع المدقعين والمشردين بطول وعرض الوادى غير ان محاولاتهما جميعاً باءت بالفشل فإستسلما للأمر الواقع متخطين فى هدوء هذه الصدمه سيما وأن ليس لجربال من أخطاء تؤخذ عليه غير هذه الكبوه التى عبر عنها فى وجهيهما بصراحه متناهيه وجديه بدت ملائمة له تماماً: "لا يستطيع إله أو رئيس الوقوف بينى وبين ما تهفوا إليه نفسى، إنها وكما تعلمون: "نفسى" واشتهر هذا الرد بين الناس.

وبذا أكبره العوام وهاموش الناس من دون كل الكبار فى الوادى ومالوا إليه، ولو كان المنجون قابلاً للتأنس لفتح جربال له ذراعيه على مصراعيهما لإحتضانه وكفالته. ونادراً ما رؤى مسامرا لأحد الكبار. والحقيقه أنه كان شخصية نادرة فعلاً، ولولا أن بعض هؤلاء الكبار شاهدوا بام أعينهم كيف يتعامل معه الغوغاء نداً لند بل وأحياناً يتطاولون عليه لإقتفوا أثره وما عموا عنه فيما إعتبروه تطاولاً، والذى كانت تتضمنه أكثر كلمات العوام تجاوزاً لم يكن إلا على سبيل التهريج الخالص، ولكنهم ظلوا عمياناً فلم يزوا ذلك الحنان والإكبار الخفى الذى يكنونه لجربال بشكل لم يعطى إلا للرئيس الصالح "غصن" مع الفارق بطبيعة الحال بين مكانتيهما فى الوادى. كان جربال يدرك بشكل واضح، حاجة هؤلاء الناس نفسياً إلى الركوب على أكتافه، وهز أقدامهم فى وجهه. كان يعلم وكان يغفر.

وجدير بالذكر، أن حورا رفض إشراك جربال فى القتال إبان الحرب التى هلك فيها الرئيس غصن. زاعما أن وجوده فى الصفوف الأماميه، على رأس فرقه كما جرت العاده عند إشتراك الكبار فى الحروب، سوف يعيق خططه ويكون وبالاً على طريق النصر. فى إشارة واضحة إلى بدانته المفرطة. وأن وجوده فى المعركة سوف يثير ضحك مرؤوسيه ويضعف حماسهم للقتال.

ولكن جربال تطوع للقتال كجندى مشاة عادى. صحيح أنه لم يبدى بطولة خارقة. ولكنه كان شجاعاً مقداماً. وكان يثير من حوله للتقدم بشكل نادر.

كان يتقدم أقرانه بشجاعة نادرة. فيدفعهم حبهم له إلى سرعة التقدم خلفه وسبقه بما يتيح لهم تغطيته وحمايته. وهكذا كان الأمر معظم

فترات دوام المعركة. وليخط جربال أول حرف فى سطر مشاركة القادة فى المعارك بانفسهم.

قال جربال موجهاً كلامه للجميع، مجيباً على سؤال صخره:

- لابد أنه ذاهب فى داهيه.

علق صوت:

- يريد أن يذهب وحده. باللأنانيه.

وقال صوت آخر:

- بل يريد ألا نعرف الطريق.

قال زوبعه كأنما ينفى عن نفسه تهمة التجديف:

- لا. وحق السيد/ الإله. صدقونى.

جربال: ماذا إذن؟ أتذهب لتباشر سير الأمور هناك. يا للوغد. يبيع نفسه لأول دافع يقابله.

ثم يضيف موجهاً خطابه إلى صخره:

لا تحل محله يا صخره حتى ينبأنا النبأ الحق. إلى أين؟ وما يروم؟ القصة بأكملها من البداية إلى النهاية. إنه لا ريب لأمر جد خطير فما عهدناه يفعل شئ كهذا من قبل.

ثم إلى زوبعه. يستدرجه:

- كذبنى لو تقدر يا فقاعه.

قال زوبعه مسالماً، يستدر شفقة صاحبه:

- لا أكذبك يا جربال يا أعز أصحابى. لا أنت ولا زبى.

يسرع جربال مشاكساً إلى إلتقاط النواة التى أراد زوبعه أن يدعم بها موقفه أو يحيده بها على الأقل. قال ضاحكاً:

لا. لا. لا. لا تجاملنى فى زبى. و لا شأن لصداقتنا ها هنا. هنا أنا لا أعرفك.

ثم يميل عليه قائلاً له بصوت لا يسمعه إلا هو:

تعلم ألا تتمسح بصداقة أحد فى المواقف المصيريه كى لا تقع فى أخطاء قاتله.

ثم يعود إلى رفع عقيرته:

- إنك صديقي الكبير من بعيد. صداقتي للجميع. سلهم. ولكني لا أصحبها معي في الأسواق، إنها في بيتي. حاضرة على الدوام. فمرحباً بك دائماً لا هنا، بل هناك.

أمن زوبعه بعد كلمة جربال الأخيره أنه على وشك أن يرفع الرايه ففكر: "ما دامت الهزيمة واقعه لا محاله فلنحصل على السلام." وإعتراه شعور المعزول على أطراف مسقط رأسه، دينه وامراته، محرم عليه دخوله ومن نفاه سوى هذا الدين عينه وتلك المرأة عينها. لقد خاب فأله على أية حال. ولكنه قال ثائراً:

- ماذا تريد يا جربال؟ ماذا تريدون جميعكم يا اوباش؟

ويأخذ في مطاردة العراه ومن يرتدون الكتان متحاشياً الاسياد أو مهوشاً أمامهم وكلما فرق جماعة عادت أخرى وهكذا عدة مرات. ثم يعودون إلى التجمع مرة أخيرة في حذر بعد أن كف عنهم طيشه وجنونه.

قال جربال بتهوين:

- نريد مساعدتك. من يدري؟

ومرة ثالثة يجد زوبعه أن ليس بد مما لابد منه فيقول في قهر مضطراً إلى البوح باخر ما تبقى في الكأس:

- أبول. أريد أن أبول.

وفي الحال والتو يخيم الصمت – المصطنع – على الجميع باتفاق غير معلن لحظات، ثقيلاً بارداً، إلى أن يخرقه جربال بصيحة النصر:

ألم أقل لكم؟ أين النفير؟ البول. البول.

قال زوبعه مأخوذاً بوقع كلمته عليهم. والصمت الذي جرى جارفاً، كشلال صامت:

- هل أصبح البول جريمة في وادي الرعاه. هل حرمه السيد/ الإله. لم يخبرني أحد؟

قال جربال مستنكفاً:

- وحق السيد/ الإله لا تجدف. إلحق نفسك بصلاة زائدة عند مغيب الشمس.

ينخرط القوم فى الضحك عالياً ساخرين منه كاشفين عن خدعتهم ويعلق زوبعه ساخطاً:

تباً لكم، أيتها الخراف الخبيثة.

و يذهب فيقعى فى ركن غير بعيد. يتقدم منه جربال وينهضه كقديس. يطوق كاهليه بذراعه اليمنى مفتعلاً حنان الـ بابا الآثر فى وقته المناسب. ومقلداً بإتقان إلى حد ما طريقة كلام الحكماء المعتمدين على نمط واحد لا يتغير: تقدم فى العمر، لحية مرسله جميله، صوت هادئ، رخيم إن أمكن.نظرات قوية مباشرة. وعاون جربال فى إخراج المنظر بنجاح كامل بدنه العملاق فى مقابلة جائرة مع ضمور وضآلة زوبعه الجسديه والنفسيه معاً. ثم يوجه خطابه للناس أجمعين وهو على هذا النحو. قال موبخاً الكل:

- إنه لصادق حقاً يا ساده. وزبى شخصياً لا يكذبه. فلماذا تكذبونه؟

يرمقه زوبعه بضيق ظاهر وكأبه إلا أنه لا يحاول أبداً قضم راحة يده السمينه والثقيله التى ثبت نظره عليها لحظات. بينما لا تلبث أطراف أنامل جربال تنبش مكانها على كتفه برفق أحسه زوبعه يعمل فى نفسه عمل المنشار المسنون على لوح خشب أبيض.

لكن يا زوبعه أنت لم تبع واحده من أولائك "يشير إلى القين بيده ثانية" وها هو النهار ينسلخ من كبد السماء ولا أظن أن أحدهم سوف يمسكه لك حتى يدركك مشتر. إصغ لصاحبك جربال لم لا..؟

يضحك جربال بشراهه تعادل بدانته العظيمة فلا يستطيع أن يثبت ذراعه على كتف زوبعه وإن لم يرفعها مشيراً إلى الإماء بأطراف أصابعه من فوق كتف زوبعه، ممعناً النظر فى وجهه وهو يكمل:

- لم لا تصعد وتقضى حاجتك فى فرج إحداهن؟

قال صخرة بإستغراب من عاين الهول لحظة بعد رخاء الدهر كله:

- أمامنا؟ يا له من فاسق.

صوت: لطالما أحسست بالشر يتطاير من عينيه.

صوت آخر: إنها نهاية الزمن.

قال زوبعه مصعوقاً. يمنعه جربال بذراعه عن الحركه:

- هل رأيتمونى أشمر عن ساعدى يا أنجاس؟
صوت ثالث: ولم لا؟ دعوه يفعل. سيكون حادثة العمر والبلاد.
قال جربال محتشماً وقوراً:
- حقاً يا زوبعه. هل تضمن أن تجد أختك فى المنزل الان. "يعنى زوجته" ماذا تفعل لو لم تجدها. لا، لا، أريدك أن تفكر على نحو أفضل من هذا يا زبى. وأن تتوقع مثل تلك الأشياء التى ترسب فى نفوسنا مغثه إن نحن إفتقدناها. أخبرنى، هل فكرت ماذا تفعل إذا لم تجدها؟ يا له من موقف عصيب. نعم لقد مررت بمثله. لماذا إذن يا زبى نعرض عن المأمون وتسعى لمخاطرة جمه.
صحره: إنما هى نفسه الأمارة بالسوء يا جربال.
جربال: إنك غريب الأطوار فعلاً يا زوبعه. هيا لا تتردد.
يدفعه جربال إلى الأمام بإتجاه الإماء. ثم يتقدم وراءه مرة أخرى، يحاول أن يضع يده على كتفه مجدداً فيرده زوبعه بشراسه متنمراً. ويستطرد جربال بأدب جم:
- تصرف. ويا له من صرف أشرنا عليك به. هل تظننى أخدعك أو أوقع بك؟ معاذ السيد/ الإله. كل ما فى الأمر أنها سابقه أولى. تقدم الصفوف وسوف ترى العشرات تترى من ورائك.
زوبعه: هل تتبعنى أنت؟
قال جربال متأثراً لغير ما سبب:
- لعمرى طالما أردت أن أصير متبوعاً لا تابعاً. وها أنت تضيع فرصة عمرك سدى. هيا يا زبى لعل عين الحسد تكرى عن طولك.
يلاحظ جربال أن صاحبه لم يبال بشفافيته أو كان شارداً فيدفعه بكلتا يديه نحو الإماء قائلا:
- هيا يا زبى، اتعبتنى.
يتراجع زوبعه مذعوراً بينما تتزاحم الإماء على حافة الحجر خلا إناث وأمة أخرى مهمله.
الأصل هنا فى مجتمع وادى الرعاة أن المرء إذا أراد أن يبول يتحتم عليه ألا يبول أرضاً كى لا تتدنس الأرض وهم لها عابدون. حسب تعاليم قضاعه وبسلطان حورا. لابد من إيجاد أنثى كما أشار جربال آنفاً فتستقبله. لابد أن يقع بفرج المرأة أولاً برغم ما يجشم ذلك

من عناء كما فى حالة زوبعه الآن. وهى نادرة على كل حال. إلا أن العيب لدنهم وهو عيب يكاد يبلغ منزلة التحريم هو ان يمارس هذا الفعل علناً وبرغم هذا الإلزام العرفى الشديد فثمة من يتهاون فى تنفيذه، كأى إلزام أخر، فلا يوجد فى وادى الرعاة: "حرام مطلق". تلك المشكله التى أعيى قضاعه، بصفته رسول السيد/ الإله فى الوادى، البحث عن حل نهائي لها. ولكن توجد تفرقة صارمة بين أفعال يحرم ممارستها علناً وأخرى مباحه. يقول حورا فى وثيقة مهمه أتاح لى الراوى الإطلاع عليها فى معرض رده على انتقادات قضاعه وشكواه من عدم إنضباط الأهل فى الوادى انضباطاً تاماً:

"أعلم أن البعض يتحايلون على قراراتنا وبعضهم لا يأبه لها فى قرارة نفسه. وهذا خير ما تقدمه لنا الحياة الآن، وأفضل ألف مره من أن يرفضونها صراحة، وفى العلن. اعلم يا قضاعه أنه يتحتم علينا فى بعض القرارات أن نترك للمواطنين مساحة من حريه وإمكان عدم الإلتزام بها فى السر. لا بأس إن فعلوا".

ولو أنه لا يوجد زواج فى الوادى حتى الآن بالمعنى المتعارف عليه فإن ذلك لم يحل دون أن يستأثر الأغنياء والرجلان الكبيران خصوصاً بنساء معينه يحرم على سواهم الإقتراب منها. وليس للعوام مثل ذلك. ومعظم هؤلاء السادة الكبار نادراً ما يعيش مع غير النساء التى إرتضاها لنفسه، وربما زاد على ما عنده واحدة كل فترة. إنه تقريباً زواج كامل لا ينقصه إلا العقد. وتقرير الفكرة.

وكان هذا التحريم من بنات أفكار قضاعه وحده، وكان يدفعه إليها محاولة السيطرة على النسل وتحسينه. وعلى الأسرار وعدم إفشائها.

وعلى العموم، فإنهم فى وادى الرعاة كانوا يتقدمون إلى إعتبار الأخت زوجة خاصه من طبقة الأسياد وأولى النعم. فأول ممارسة الجنس عادة تكون معهن. والألفه الحاصله بطول المعاشره الحياتيه بين الذكور والإناث وقبيل التفتح الجنسى كان لها تأثير كبير.

ان التسلل بين تلك المحرمات علانية أندر من ثبات قطرة ماء على أرنبة الأنف. وهم فى وادى الرعاة يعتبرون أن البول هو سبب الحمل الرئيسي وليس أى شئ آخر عداه. أما المنى من الرجل كما هو من المرأة فرجس تتطهر منه النفس ويتخلص منه الجسد أولا

بأول، ألا يشعرون براحة قصوى بعد تفريغه؟ إنهم يسرعون إلى تخليص الجسم منه لأن في ذلك صحة الجسم. ودليلهم،أن للمنى رائحة شئ فاسد أو فى طريقه إلى الفساد. أما البول فهو سائل وليس لزجاً وقلما تجد له رائحه. والحمل ذاته عمل غير طبيعى واقع كالسيف المسلط على رقاب نسائهم لأنه يدنيهم كثيراً من الحيوانات التى وجدت لخدمتهم. إن الحمل والرضاعه ثم النمو بكافة أشكاله وحتى الموت لا يختلفون فيه عن اى حيوان ويبقى لهم الإختلاف والتميز – قشة النجاة من ذلك السقوط المريع – فى أرواحهم.

ولما كانوا لا يعرفون عن طبيعة أرواحهم أنفسهم شيئاً فما طمعوا بمعرفة أى شئ عن أرواح الحيوانات. ومن ثم عجزوا عن إستصغارها وظلوا دائماً يحاولون الخروج من هذا المأزق الخطير ومن تلك الدائرة المقيته التى تلفهم والحيوان فى سلة واحدة.

وتوصلوا إلى ما قبل ظهور قضاعه ورسالته أنهم ألهه فى ذاتهم وأن الحيوانات تمثل – بالنيابه - ألهة مناظرة لهم، لا يعرف أحد أين يسكنون، وكان طبيعياً أن يعبد إله إلهاً مثله، اكثر قوة وبطشاً منه.

ولما كانت النساء هن من يحبلن ويرضعن وليس لأجسادهن جمال وقوة أجساد الرجال فقد حملوهن كل دناءة خلقهم. فهم، أى الرجال، آلهة. وما النساء إلا جنس حيوانى أقرب وأدنى إليهم من أى جنس حيوانى آخر.

الواقع انهم فى وادى الرعاة بدأوا بالبول فى أفواه النساء ثم تطوروا إلى ما هم عليه الآن.

لم يكد زوبعه يتم تراجعه وإنفلاته من أيادى الإماء المتزاحمه على حافة الحجر حتى تلقاه جربال قائلاً وهو يدفعه نحوهن مجدداً:

هلم يا رجل لا تجبن فى إستغلال ما لك.

صخره: أنا أعرف لماذا يتأبى صاحبك؟

ينظر إليه زوبعه بإهتمام. ويكمل صخره:

- ذلك أنه عجوز خبيث حصل بطول العمر على جرعة خبث لا نظير لها، فهو يستغلنى ويستغلك أما أن يستغل ما ملكت يمناه فهو بخل وهو جهل.

قالت فتاة من الإماء، فى خلاعه:

- إننى رهن إشارة سيدى فليُشر.
قال شاب: ها أنا ذا أشر
صخره: تقول سيدى أرعن
قال الشاب نفسه فى شجاعه نادرة. ولعلها ثقة بالنفس والعضلات معاً، وهو من المحاربين البارزين رغم حداثة سنه ومن محبى الطعن والطعان. وكان يرتدى الكتان:
- ولو. ماذا تعرف عنى؟ لو جربتنى لوجدتنى خيراً من "سيدى".
يحاكى الشاب نطق الأمة لكلمة "سيدى" ويأخذ فى إستعراض قوته وعضلاته. بينما يميل جربال على صخره ويسر له بشئ فيقول صخره متمنعاً مغالباً ضحكه:
كلا. كلا يا جربال. رفقاً بزوبعه إنه اليوم محسود لا محاله.
ثم يردف جاداً وهو ينظر إلى زوبعه الذى يرتجف متوقعاً شراً حالما يسمع إسمه. هو وحده يتوقع ذلك.
- الخطأ خطأه ولا عزاء. عشرة فتيات يطرحهن للبيع دفعة واحده. يا له من فاجر، فاسق.
طلع صوت مقاطعاً بلهفة صبيانيه:
- بل إحدى عشر.
قال زوبعه وهو يتقدم نحوه، هادئا:
- إننى سعيد جداً يا هذا. لقد شرفت سوقى. لا أدرى كيف يمكن أن تمضى حياتنا لو لم تنطوى الدنيا على قبس النور من أمثالك.
وكان قد صار الرجل فى متناول يده فإنهال عليه لطماً وسباً:
- يا وغد يا حقير يا إبن الكلبه، ألم تر البحر عكراً بما فيه الكفايه وتريد أنت أيضاً أن تخوض فيه.
خرج صوت مناصراً الرجل، ومحاذراً من زوبعه القريب:
- إنه جزاء الافتراء والبغى. سوف تضحى أخر الأمر دفقة النهاية وصحوة الموت.
صخره: بل أراد أن يستثمر فرصة العيد السانحة. يا للجشع. يا للنذالة. خب ومكر.

جربال: هاتي الإماء ذهبن بعقله. أجل. فقد علمت أنه مضي على مكوثهن في داره تسع ليال يسمنهن ويلمعهن لأجل هذا اليوم الموعود. واي أحمق يا زبى لابد أن يتكيس إن مر عليه تسع مع عشر.

نفس الصوت وبنفس الصبيانيه:

- بل إحدى عشر.

جربال: إحدى عشر كما قال زبى هناك. والكارثة أن صاحبنا زوبعه كيس فضى تسع مع إحدى عشر، فالتاث وجن، هو من كانت اللوثة تحلق حول رأسه منذ ثمانين سنه. أليس هذا عمرك يا زوبعه

لا يجيبه. فيما يقول صخره:

- لقد سمعت أن فيهن واحده كالبدر.

تفحص جربال الفتيات بسرعة راغبا في إطلاق قذيفته الجديدة نحو زوبعه.

- أين هي؟ لا أري أي بدر هنا؟

وأضاف ناظرا إلى زوبعه:

- ولكني أري المحاق.

يشعر زوبعه أن التيار يتدفق ضده هادرا وإنه ليوم كرب، لم يبع ولا واحدة حتى هذه اللحظة فيما يعيث الموج فسادا علي صدره وذراعيه الواهنين.

وكان عقد عزمه بأمل كبير علي يوم مجيد وأرباح طائلة، لماذا؟ مع أنه لا يبدي مقاومه تستحق الذكر فأخذ يتلفت حواليه وقبل أن يسبح مع التيار فيغرق كالعادة، إذ أنهم لن يكفوا عنه حتى يغرقوه سيان عندهم أكان يسبح مع التيار أو ضده، تراءي له من بعيد ما ظنه طوق النجاة و الصاري الذي يعدل فلكه علي السطح الهائج وفي الاعماق المتحفزه للوثوب إلي السطح فصاح بلهفة كالغريق لا ينشد إنقاذ نفسه وحسب بل وتدمير عدوه.

- "كاروا".. "كاروا".

أحدث ندائه أو بالأحرى اللقب شيئا من التوجس والخوف في أفئدة المحفل. وهبطت بهجتهم بقدر ملحوظ حتى الإماء فكأنها عدوي هدأن إلى حد كبير وهن الجاهلات بالصغير والكبير في وادي الرعاة. ولما

تبين زوبعه صدق حدسه فعلا أخذت قلبه نشوة عالية وتقدم بضعة خطوات يلاقي القادم.

تقدم "كارو" من الجمع بخطي ثابتة بطيئة. لا مفر للثبات من الانتظام ولا إنتظام بغير إتئاد ولكل صواب إعوجاج في نهاية الأمر: حكاية مخزية. ينضم كاروا للجمع فيطبق عليهم الصمت كمفرش ثقيل في ليلة صيف. ورويدا رويدا يتحللون من الشدة والجمود ويعودون إلى ما كانوا عليه من بساط صاخب.

قال كاروا مخاطبا زوبعه:

- زوبعه؟ ماذا دهاك؟ أي مصيبة حللت بها فاشتكت؟

وأنشأ كاروا ينقل بصره في الملأ بينما إنتقل إليه زوبعه في محيط الحشد متلهفا وهمس:

- أريد أن أمضي لحاجة ولا أحد. أعني لا أحد..

قاطعه كاروا باستعداد واضح للمرح:

- لا تجد أم لا أحد؟

ارتبك زوبعه. وبدا أنه لا يفهم. بدا كتلميذ وجه إليه معلمه وسط أترابه استفسارا ساذجا عن صحة إسم بلده هل هو المنيا أم المانيا. كان الولد يعلم تفاهة السؤال ولكنه عجز عن الرد. قال مرتبكا:

- أظن لا أحد.

قال كاروا مروعاً بتكلف:

لا أحد؟

ثم أضاف ساخرا:

مطلقا؟

أجاب زوبعه بتردد واضح، بريبه:

- نعم.. نعم.

رد كاروا هازئا به:

- لا احد يوم أحد. هذا عجيب.

سكن زوبعه مخصما عن أن يفهم رغم كل الإجابات لم أخصوه؟ ورغم كل الإجابات أخصوه. وقف مكروب النفس لاعنا هذا الغموض غير محتملا له. ولاعنا هذا الزمن بينما يشرئب كاروا وكان قصير القامة نوعا ما ولا تتجلي عليه قوة جسمانيه مع أنه

حظي بنصيب وافر منها، زاده بالتدريب الشاق. إنها مدفونة فيه ومكتنزة فمن يراه وهو يسبح لا يراه وهو علي الشاطئ

كان كاروا أنبغ أبناء الوادي قدرة علي إشعال الجبل بشراره من حجرين في يوم شتوي. كان يفوق الجميع باستغلاله ما هو ممكن بأفضل ما هو ممكن.

يشرنب كاروا برأسه تارة و تارة. وسرعان ما ينحي النخلتين المتجاورتين اللتين تسدان الأفق أمامه بإشارة واحدة غير مهذبة من يده ويبدو أنهما شقيقان.

الآن يري بوضوح كامل فتيات زوبعه التي ما برح يلحظهن باستمرار.

التفت كاروا إلى زوبعه الذي اضطرب علي الإثر.

- تقول لا أحد أم لا تجد منهن طاعة؟

قالت فتاة من الإماء. نفس الفتاة السابقة:

- مازلت رهن إشارة سيدي، فليأت.

وتشير إلي ما بين ساقيها وهي تفتحهما، مرة من الأمام ومرة من الخلف.

صوت: إنه نظيف. أليس كذلك؟

صوت آخر: هذا عمل الملعون زوبعه. يُقال أنه يستخدم أعشاب سحرية لتنظيفه من الخارج.

الصوت الأول: هذا واضح. انه يبدو.. كثمرة شهية..

الآخر: ولكن، هل هذا حلال؟

الأول: ماذا؟

الآخر: أعني استخدام السحر والأعشاب في تنظيفه.

الأول: لم أسمع مولانا قضاعة يحرمه. حتى لو كان في الشريعة ما يحرمه فإن لمولانا قضاعة كلمته عند السيد/ الإله.

قال جربال رداً علي كلمة كاروا وقد رضي الآن فقط عن وجودة غير المتوقع غير المستحب بينهم:

- بل يستحي لوجودنا يا ابن سيدنا.

وأسقط في يد زوبعه. في يده وفي قدمه. فغدا شاحبا كأرض قفر، يتصبب عرقا وحيرة.لقد طلع كاروا بالموسى التي برزت به امرأة

العزيز على نساء المدينة فقسمت تقولهن عليها وملكت القيل والقال عليهن.وليس أنكى ولا أمر على امرؤ من أمل جذل غير مرتقب يعلن عن نفسه بعد دقيقة واحدة من ميلاده الميمون تلفه وخوائه. وعليه فقد راح زوبعه يحدث نفسه كاظما غيظه بطاقة تفوق طاقة احتماله:

- لولا أنه إبن سيدنا..

صاح الشاب علي الملأ وقد كان إلى جانبه

- لولا أنه إبن سيدنا.. أكمل يا زوبعه

أفاق زوبعه فوجد نفسه دون منطق معقول يهوي إلى ملجأ المنبوذين المقهورين وكل الأشياء كثبان رمليه تسحبه إلى أسفل وهذه المرة بسبب سافل تافه من ذوى الكتان. هل تواطأت الدنيا بأسرها علي تدميره وإذلاله؟

أوشك عقله أن يذهب واعترته حمي التخبط والهذيان ولفه دوار حاد. حقا، لماذا صارت قلوب الأنام غليظة كشوم الجنوب. أنىَّ كان هذا الجنوب. لا تغفل عن القسوة ولا تبرح ناثرة جمرات القهر عشوائيا. هل يحسبون الموت راحة؟ فأي سلام في معاناة الراحة؟ مالبث زوبعه أن صحي مما غشيه فانهال صفعا ولكما وركلا علي الشاب مسير الذاريات العفنة، ذلك المفتون بقوته، المعتد بنفسه المتجرئ دوما، غير المنتمي إلى ذوي الجلود، ولم يتسمي بعد.

ففي وادي الرعاة لا يتسمي مواطنوه بعد مولدهم مباشرة وإنما بالصدفة بحكم حادثه ما يلم بها كل الوادي أو معظمه. وفي الأغلب الأعم شريحته العليا.

ولا يتم تقرير الإسم أو الإعتراف به كمنحه إلا من قبل الساده ويتحتم على حامله أن يذكر من أسماه إذا سُئِل في هذا. ويستثنى من ذلك. أن يفرض الإسم نفسه على الطبقة العليا آتيا من جوف تنور. أعنى من قاع الوادى وهى حالة شديدة الندرة إنما تحدث على أى حال ومعلوم أن الأسماء فى وادى الرعاة تورث. وهى توزن بقيمة تساوى نصف الميراث المادى وأحيانا تزيد على ذلك.

ولا يستطيع المرء أن يقدم لنفسه اسما كيفما شاء. وقد يقضي بعضهم، وهم كثر، حياتهم بدون اسم. وعلى كل فالشطر الأعظم من

سكان الوادي لم يتسمي بعد وغير مستبعد أن يتسمي ذلك الشاب اليافع منذ هذه اللحظة بـ "ركله" وقد ينحرف الاسم في نهاية الأمر فيلفظ علي غير ما كان يعني بداية. ويتشوه وهو في تشوهه سيبقي ويستمر. وبرغم العديد من الركلات التي غمر بها زوبعه الشاب بحقد وغل كبيرين فقد أخذها الشاب الذكي مأخذ الهذر كما أنها كانت واهنة، عشوائية فتمكن بسهولة من استقبال وامتصاص جميع تلك الضربات. وكان من الذكاء بحيث لم يردها إلى صاحبها، فالقضاء يحكم بين الناس جميعا، ولكن العدالة لا تكون بين من ينتمي لذوي الجلود ومن ينتمي لمرتدي الكتان وعكس ذلك لا يكون من طبيعة الأشيا . فالتعدي من الأخير على الأول خط أحمر، من يتجاوزه قضى على أي مستقبل محتمل للانتقال من هذه الفئة إلى تلك.

التفت كاروا الذي تأدي إليه بعض ما قيل. وكان يشق طريقه لحظتها إلى الصف الأمامي المواجه مباشرة للحجر العظيم. من يدري؟ لعل اسرؤ ما نبتت في مخيلته أول لبنة في صرح الهرم العظيم من مرأه لهذا الجلمود الصلد المربع. الذى كانت تتوسطه قطعة أخري مربعة. وما ينقصه إلا وجود شيء ثالث فوق الثانية.

من يدري، هل يخلق الوجود أفكارنا؟

واصطدمت نظرة كاروا المتوعدة بعيني زوبعه فصاح اعتباطا جملة واحدة وهو يرمق الشاب الذي أثاره ببغضاء

- لولا أنة ابن سيدنا الرئيس حامينا وراعينا. لولا تواجده بيننا لأكلنا الغوغاء أمثال هذا الحقير النذل.

حاول الشاب المهان أن يرد على زوبعه كلمته ويقتص لنفسه بيده متجاوزا كل الظروف الاجتماعية بجرة قلم. فاستعد له زوبعه تهيؤ الشجاع لموت مقرر إلا أن كاروا منع الشاب بكلمة لم تثن:

دعة.

ثم أضاف بهدوء:

- كأن شيئا لم يكن.

وضحك الناس جميعا إذ تباطأ زوبعه عن أن يفك رموز استعداده الخائب. غير أنه استقبل ضحكاتهم على غير ما تعني فشرع يتشجع ويثق في نفسه وقدراته. أصبح يجد الكثير منها الآن.

إنها الرياح لا مسير لها عدا هواها وليس يعطيها الأمان إلا مؤمنا بالقدر، هوي أيضا، إنما أكثر هوسا.
ها هي تباشير الاعتدال تبزغ ولن تلبث أن تقوم في صفه. عندئذ سار كاروا في طريقه نحو الإماء واستدار إلى زوبعه الذي لزم مكانه في آخر الكتلة البشرية المتراصة حول الحجر الكبير ومن فوقه العبيد إحدى عشر أمه. اناث. ساشاي. وسأله:
- لماذا تتغطى هذه يا أعمى؟
يعني بإصبعه اناث دون أن يشير إليها على نحو دقيق:
- ماذا تداري؟
قال جربال متحمسا:
- أجل يا كاروا نريد لعمرك أن نعرف ماذا تخبئ؟ هذا إذا كانت هي التي تخفي شيئا وليس آخر ماكر كعهدنا به
رد زوبعه بانفعال لا يخلو من نسمة عتاب واستسلام:
- ماذا تقصد؟ هل مكرت عليك يوما.
أسرع جربال يقول وهو الذي لا يفوت فرصة لصاحبه يستنشق فيها هواء نقيا:
- أو كنت تفعل وأبقي لك منك شيئا يتذكر حتى ما فعلت بك؟
يضيف بعد لحظة مفكرا:
- ربما كنت تركت لك التي بوسعها أن تدرك موات كل شيء.
هل كان يعني قلبه؟ روحه؟ شيئا آخر؟
ويضيف بعد لحظة مشاكسا كعادته:
- ربما كنت تركت لك زبى. يا زبى.
- أهذا صحيح؟
- يا للعار أو لا تصدق جربال؟
يتدخل كاروا بينهما ناهرا:
- كفى.
وإثر ذلك قفز على الحجر برشاقة ممتازة فصرخ زوبعه متضرعا
- كلا يا كاروا. كلا. انتظر.
وتوجه إليه توجه طاغية يضرب ذات اليمين وذات الشمال ويتجنبه الجميع قبل أن تصل إليهم أياديه الكثيرة.

قال كاروا بغضب جم:
- لماذا؟
قال زوبعه من تحت الحجر مباشرة برجاء لطيف:
- انزل أحدثك.
لا يحفل كاروا به. فيحاول أن يصعد إليه غير أن كاروا يضربه بقدمه بغطرسة فيسقطه على الأرض. ينهض زوبعه بسرعة غير متوقعه ويهجم على الحجر ثانية محاولا الصعود فيهرس كاروا أصابع يده بقدميه مزمجرا فيه دون أن يرفعها:
- قف. كما أنت.

يتجمد زوبعه في مكانه فورا دون أن ينبث بنبرة احتجاج واحدة ويسحب كاروا قدميه بهدوء. إلا أن الشاب الذي اعتدي عليه زوبعه قبل قليل يز عق فيه مغلظا نبرته كضابط حرب:
- يقول لك ابن سيدنا، كما كنت.

يتراجع زوبعه هلعا إلى الصف الأخير ويضحك القوم على غفلته فيعاود أدراجه بعد اكتشاف بطيء للخدعة ضاعف من ضحكهم. عاد متنمرا، يتفرس في الوقوف جميعا بطريقة هازلة يؤدي إليها كبر سنه وحجمه القليل، لعله يكتشف صاحبها ومارا مرور الكرام على الشاب دون غيره من الناس الذين سكنوا فجأة محملقين فيه إذا حملق. مشددين على النظر فيه وهو يتجاوزهم. وعندما مر بجربال، راح هذا يشاغله بغمزات غريبة تؤدي إلى الشاب فيتجاهلها وتؤدي إلى غيره فيتابعها بإلحاح إلى أن هجم عليه جربال ثائرا.
- أنت. إنه أنت.

قال زوبعه محاولا الخلاص من يد صاحبه:
- وحياة ربنا السيد/ الإله ما أنا.

وإذ هما على هذه الحال أخذ كاروا يتحسس ملابس اناث فتحول الاهتمام إليه من الجمهور كافة وعندما نزل بيده على صدرها راح يعلو ويهبط بوضوح كأن حية سامة تسعي على صدر عاشق فذ للحياة ولن تتواني عن دس إبرتها القاتلة في قلبه رأسا مع أي بادرة دفاع تنم عنه. فإن لم يدفعها عن نفسه لم يضمن ألا تنغرس في قلبه – الإبرة السامة ذاتها.

وهنا يريد زوبعه أن يصعد مغافلا كاروا لكن الأخير يطرق أصابعه المعلقة بالحجر بقدمه مغتاظا دون أن يحول انتباهه عن اناث وعن صدرها بالتحديد. بينما لم تكن هي تنظر إليه مباشرة بل فيما وراء ظهره نحو اللانهاية بعينين شبه مفتوحتين.

ويبدو أن الخوف رفع من هرموناتها الأنثوية إلى مداها. فقد استوي ثدياها وتكورا.. وكأن دماء الشهوة تتدفق فيهما، وتغرق ما حولهما.

يتأوه زوبعه من الألم طويلا ويتأفف بأسلوب صبياني بيّن. بينما لا يعيره كاروا أو أي أحد آخر أدنى اهتمام. فكلهم راح يتابع كاروا والأمة المكتسية اناث. ولو أن بصحبتها باقة أزهار متفتحة، منتقاة، إلا أنهم شدوا بخيط غليظ إلى الوردة المغمضة. ثم يصرخ فيه كاروا صرخة مدوية:

- كما كنت.

يتسمر زوبعه في مكانه هذه المرة غافلا ومشغولا بآلام أصابعه فيزأر فيه كاروا منثنيا عليه من فوق الحجر، في أم وجهه، قابضا علي ثدي اناث جاذبا إياها معه في انحنائه

- كما كنت يا تيس

ولم يكن في حل بنعته بالحمار. فالحمار في وادي الرعاة يومئذ كان جميلا ونبيلا ونابها كالحصان في أيامنا هذه. ويعود زوبعه كليمونة ممصوصة إلى آخر الحلقة.

شرع جربال يحث كاروا بهمة عالية، والأخير يتبع الإرشادات علي جسد اناث بيده. بأناة ودقة.

جربال: تحت يا ابن سيدنا. لا فض فوك. انزل بقدر. لا.

يدب من يجاوره الأرض بقدمه. يبدو مستثارا للغاية. بينما تشاكس يد كاروا دليلها.

جربال: لا.. إلى السماء. قليل إلى اليمين. فوق. ليس هكذا. أوف. انزل ثانية.. انزل أكثر، يسارا مقدار شبر. قف. هنا.

وبالفعل توقف كاروا بيده على فرج اناث. فيما يضيف جربال في راحة تبدو أظهر على من يجاوره:

- هذا هو. هنا. تحت يدك تماما ما تخفي. فإذا لم يكن هو. ففيه، في بطنه. ولعله شيء خاص، خاص جدا.

كاروا: تقصد أن أحدا نسي به شيئا ما يخصه.

جربال: بالضبط. شيء كرأس الفجل.

يتمايل الرجل المجاور لجربال طربا وثملا من عبارته الأخيرة. كان كاروا في هذه اللحظة منحنيا برأسه على الموضع الذي وصل إليه بقيادة الحادى الماهر جربال. ولم يكف بفمه عن دغدغة هذه الوهده الغناء كأنما يفتش فعلا عن شيء.

جربال: كن حذرا يا ابن سيدنا ربما يجرحك. استخدم يدك أفضل.

ثم يضيف وهو ييمم وجهه نحو زوبعه:

- أنا أدري بصاحبه.

قال كاروا متصنعا اليأس:

- يبدو أننا خدعنا ويتحتم علينا أن نبدأ البحث من جديد.

جربال: إيهٍ كاروا. إنك تثلج صدري باقتراحك البديع هذا.

كاروا: ولكني هذه المرة سوف أدخل فيه.

جربال: علي البركة.

كاروا: وحدي؟

تساءل كاروا وانتظر رده. فقال جربال بدون تأخير.

- وهل تركت لي أي خيار؟

يرفع كاروا رأسه إلى اناث دون يده. كان يريد أن يري تعابير وجهها ورد الفعل علي ما يفعله في محميتها الطبيعية فيراها مطبقة عينيها علي دمعة لم يستشفها من قبل. واهتز فؤاده لحظة. فصاح في دهشة بعد أن ينتصب رافعا يده عن اناث:

- انظروا.

يقطع حديثه والسكون الذي ألقي به ندائه صراخ زوبعه المتوسل المستجير. مخاطبا كاروا من تحت الحجر.

- سيدي..

يهم كاروا بتمزيق ثوب اناث فيواصل زوبعه.

- أرجوك يا سيدي، لا تكشف عورتي. انك تتسبب في خسارتي أيما خسارة.

يسدد كارو ا إليه نظرة وعيد ويأمره بإتقان لغوي.
- ازدرد لسانك.
الشاب: إن له قدرة واضحة على الثرثرة.
يعاود كاروا النظر إلى زوبعه بإشفاق. ثم يقول بعد لحظة.
- أفصح عما تخبئ أو لا تفتح فمك.
ويضيف بمرح:
- يا لئيم.
جربال: لماذا لا نسألها مباشرة. هي بالتأكيد كانت حاضرة وقتما خبئ ما خبأ.
يتهالك زوبعه نادبا حظه، نائحاً كعجوز شمطاء، مغتما بجوار الحجر. وقد عاد إلى سيرته الأولى مستسلما لبطش قدر أقوى من كل محاولات السيطرة عليه. ناعيا وطأته الشديدة فوق كاهليه إلى ألف هاجس وهاجس ومن ثم تاهت عليه حسبته.
ومن بين المارة يتوقف رجل مميز بردائه الأسود كأنما هو من زمن آخر. حسن الطلعة إلى حد ما. مقرون الحاجبين. يحمل وجهه سمات نبل عميق، ويظهر النمش بوجهه طاغيا أكثر من غيره. لا ينتبه إليه أحد ولا يحاول هو لفت الأنظار إليه. بينما القوم لاهون في عبثهم مع الإماء ومع كاروا الذي راح يتسلى بإناث. إنه قضاعة رسول السيد/ الإله في وادي الرعاة.
قال كاروا وعيناه تتمليان في وجه اناث:
- تغمضين عينيك؟ ليكن. سوف نري إذا ما كان باستطاعتنا أن نفتحهما أم لا؟ وبعدها سوف تخبرينا بنفسك وبالتفصيل لم كنت تغمضينهما.
كان كاروا في هذه اللحظة أقرب ما يكون إليها وعيناه في أم عينيها تحديدا. كان ثمة إحساس ناعم يجرى الهوينى بصدره بغموض مستحب يتمطع في وجه هذه الأمة الأسود.
فتقاطيع الوجه أكثر جاذبيه من كل ما رأي من نساء. الأنف و الفم نمنمات حسن زاهر. الوجنتان – وإن شابَهُما السواد – تتدفق فيهما حياة من نوع لا يدري بأي اسم يصفه. ولكن حاجبيها كانا غليظين منفرين يدفعان الناظر إليها بتجاهل الثمرة مهما حلا طعمها. من اجل

قبح جزء تلف الكل. وكان شعرها ملتفا مربوطا بغطاء قذر. وما ظهر منه مهوشاً وأكثر قذارة. هناك عيب أو نقص ما في وجهها يغري بإفشاء سره.

تفتح اناث مآقيها بغتة علي مصراعيها فتنغرس بكليتها في عيني كاروا المتحفزتين كوميض البرق فتخطف اناث طرفها وتغضه بسرعة بينما يزيغ بصر كاروا هنيهة ويشهق. ثم يهتف علي ما رأي وحده فيتعجب القوم من رد فعل لفعل لم يشهدوا عليه:

- وحياة السيد/ الإله. وقداسة اسمه ما نظرت مثل هاتين العينين أي أهداب. وأي حدقة. أي جمال وأي فتنة. إنها أحجار جميله بلون الخضرة. ما أبدعهما.

يا ليلة العيد السعيد
يا ملك الحسان في السماوات والأرضيين
أوردة في بستان الربيع؟
أم نواره بصدر السيد/ الإله؟
تسبح لها مزامير الدنيا
وتغني لأجلها الحياة
تطرزها هاله من نجوم بعيده
أورقها من حرير وعبيد
سلاما عليك أيتها العينان

هذه الفرحة والظفر الطفولي الجارف الذي أبداه كاروا تجاه عيني اناث كان بالنسبة إليه كصدي ذكريات بعيدة من أصل هو الأجمل والأروع على الإطلاق.

يسحبها كاروا للأمام خطوة فتطاوعه في شيء جم من الرفض والتصلب. تقدمت اناث عن ثلة أترابها العاريات فأصبحن كخلفية مضيئة لبقعة من السواد. وبرغم ذلك فهي مقدمه وهن خلفيه. ويستأنف كاروا بعد ذلك مهددا فيما يترقب الحشد الكبير النتيجة.

كاروا: افتحي عينيك يا فتاه. افتحيها وإلا..

يهزها بلين فتهتز بقوة. يرجها بقوة كصانع القشدة فتتصلب بين يديه.

صوت: إنها لا تعبأ.

صوت: انظروا، تتحرك كقائم من الخشب.
صوت: انه كاروا بن سيدنا الرئيس يا أمه.
استشعر جربال حلاوة عينيها من كلمات كاروا واستدرك ما فاته من وسامة وجهها رغم نحافته كما بينا من قبل. قال برأفة:
- كيف تدري من هو يا زبي أنت وهو وقد كانت عيناها مطبقتين؟ اعذروها. سامحونا يا بن سيدنا.
يضع كاروا كلتا يديه على جانبي كتفها وقد أثارته التعليقات المتتالية وينزع ثوبها المتسخ البالي نزعة واحدة، مرة واحدة. كان الثوب مستعملا لعدة أشهر ماضية لم يفارق حشوه لحظة واحدة. تبصق اناث فورا في وجه كاروا فيما يتراجع إلى الوراء من هول ما رأي، مترنحا، ذاهلا.
ويبدو السوق وكأن علي رأسه الطير.. تحاول اناث أن تسترد ما نزع عنها من دثار فامتدت عشرات الأيدي تتجاذبه وتمنعها من الوصول إليه.
تسري نغمة استحسان ومديح وتتري التعليقات فينسي القوم إهانة كاروا حتى أنه أمام الكشف الجديد المذهل المفاجئ فترت همته في تأديبها والاقتصاص منها، وأي قصاص.
لم يكن أمام كاروا – الذكي - حتى ولو أراد ذلك إلا أن ينسحب أو يرجئ عقابه لها إزاء تعليقات القوم المشدوهة. لقد وجدوا أنفسهم بغتة وجها لوجه أمام جسد لا تشوبه شائبة. طولا، ونضجا، واكتمالا.. وتناسق مدهش في الأعضاء. وبشرة نميره، بلون أبيض، اقرب إلى الوردي لم يعهدوا مثله قط. وكان لجسدها سطوة حسن وجمال خرافي.
أما اناث فبعد قشعريرة عابرة أحست معها بوخزة برد وألم نافذة فتماسك وتقاوم الانهيار بقوة مسلمة أمرها لربها للمرة الألف خلال الشهور العشر الأخيرة.
صوت ١: تأملوا، لكان جسدها لم تمسسه يد بشر من قبل.
صوت ٢: كأن يد الشمس لم تنم عليه.
صوت ٣: كأنه لم يستنشق الهواء إلا الساعة.
صوت ٤: ياهووه.

صوت ٥: أي أم طاهرة ولدتها؟

قال جربال هامسا، لنفسه، بشجن:

- ولادة كريمة.

قال صوت ٥ مستطردا:

- وتلك التي أرضعتها. وتلك التي ربتها؟ أي دنيا خلقتها؟

قال جربال محدثاً نفسه:

- أي دنيا هزمتها؟

يبصق على الأرض خفية، محتجا، و مخاطراً بخسف واحدة من أشد حرمات الوادي قداسة. ولكن من كان يرى؟ من كان يسمع؟ من كان لحظتئذ ليهتم إن رأى وإن سمع؟

يحاول صخره بتهور أن يصعد على الحجر ليرى عن قرب أكثر، يتحسس أو يلحس فيما كانت عيناه تتمزق بين قطعة وأخرى من جسد اناث، حتى استقرت نهمه جوعي على ما بين ساقيها. تود – عيناه بنفسيهما – لو تستطع أن تفتحهما قليلا.. أكثر.. فيرده كاروا مدحوراً.

ويتراجع الشاب المعتد بقوته من تلقاء نفسه وكان يهم بالصعود هو الآخر، وبنفسه ما كان بنفس صخره. وعيناه لا تبرحان الرمانتين المتفجرتين بالشهوة. كان جسم اناث يصهل طالبا راكبيه، فيما لم تك على علم كاف بذلك.

قال كاروا ناهرا صخره:

- ارجع. لا تحاول يا عزيزي. لا يحاولن احدكم الصعود وإلا سفكت دمه.

ويفيق زوبعه المنكوب بالوهم والنسيان على ترهات قومه وكان جالسا تحت الحجر مقهورا، مستندا بظهره إليه. ينهض ويرى على قدر بصره الأعشى فيفاجأ ببشرتها الجميلة الناعمة للغاية، والتي تنسال بتموجاتها في رشاقة وانسيابية لا مثيل لها. كان آخر من يفاجأ بما يرى. بسحر الحقيقة. فيصعق ثم يصيح بصوت متهدج محتدم، وكأنه تناول زجاجة ترياق جنسي كاملة.

قال زوبعة لنفسه وللجميع:

- كذبت على. خدعتني بنت الحية. قالت إن جسمها محروق بشع، أجرب. تفشت فيه الدمامل والحروق فحرمتني من كل هذا النعيم.

جربال: أما زال عندك نفس لهذا النعيم يازبى؟

ووثب زوبعه كالقردة فوق الحجر.

عند هذا الحد مضى قضاعة رسول السيد/ الإله فى طريقه دون أن يشعر احد بحضوره أو بانصرافه. فلم يكن أكثرهم عفه وتعففا يتمنى لنفسه لفتة إلى الوراء مضيعاً من بين أصابعه ثانية واحده من لذة الاستمتاع بمشهد هذا النجم السماوي الساطع على الأرض بالخطأ أو بالخديعة، المولود منذ لحظات تحت أعينهم، وعلى بعد خطوتين منهم قبل أن يأفل فى عباءة مشتر محظوظ أو تحت جناح نسر عتيد.

توارت اناث أو حاولت أن تتوارى خلف قريناتها. فما أبشع أن يتستر عار رافض عريه بعار آخر راض ومتباه بالعرى نفسه. ولكنهن كن يلفظنها. يدفعنها بالأيدي أو يتحركن من أمامها فيكشفنها. بينما كانت يداها طول الوقت حائرتين لا تدرى ماذا تدارى وماذا تخلى للذئاب تنهشه. وأخيرا تضع يديها متصالبتين فوق ما بين فخذيها. تاركة كل شيء آخر من جسدها إلى نفسه، وهواه.

وساد هرج ومرج. وأصبح السوق أكثر لغوا وفوضى بتسلق زوبعة الحجر، بخفة قرد عجوز لم يتوقعها احد انعكست على جمهور المتفرجين ولاسيما ميلهم كموجة واحدة خلف اناث، أينما ولت. وتنحى كاروا جانبا. وابتعد عن قلب الحجر مفضلا فى الوقت المناسب تماما الركون إلى الهدوء والفرجة مكتفيا بانفراده بالموقع الأمامي، وحده بلا شريك. وما برح يتأمل اناث بمتعة وبقوة خفيه لا يدرى مبعثها تلزمه على مواصلة ارتشاف النظر السكري منها، ومن عينيها النجلاوين تحديدا. وودت نفسه لو تمنع عنها ثورة زوبعة، ويحملها إلى داره فى التو واللحظة، لكنه لم يفعل شيئا من هذا. ربما إضطرب حسن تفكيره بفعل سحر الجمال المباغت، فى حده الأقصى.

تحولت اناث آخر الأمر إلى ساشاى فاحتضنته من الخلف وراحت تدور به فى مواجهة زوبعه الثائر كأن الحجر صار ساقيه فهم ثابتون والأرض من حولهم هي التي تدور. وكلما حاول زوبعة إن يهجم

عليها التصقت بظهر ساشاي أكثر فهل كانت تنتظر أن ينفرج ظهره عن نفق أم أصبح ظهره بابا يطاوع إلى مالا نهاية ولا يفتح.

توقف زوبعة بعد عدة محاولات لاهثا، قبالة ساشاي. واستعدت له اناث -لاهثة أيضاً- بدرعها البشرى. ساشاى. ممسكه بجانبيه بكلتا يديها في قوة وبأس شديدين. وكلما هم بها. لم تدفع ساشاي ليتصدى له بل اندفعت هي في ظهره وتتالت محاولات زوبعة، وتتالت معها اندفاعات اناث في ظهر ساشاي.

وفي مرحلة بعينها استحال المشهد المأساوي مغلفاً، بإحكام بأنغام الفكاهة الأصيلة. فبهذه الحركة العفوية المتتابعة من اناث صارت صورتها لصق ساشاي من الخلف كصورة ذكر الكلب في جماع.

وضحك الجمهور حتى الثمالة. حتى كاروا اغرورقت مآقيه بعبرات الضحك المتهافت. ولكن شيئا ما كان يُوخز صدره. وتنقبض نفسه لنفس الشيء. انه ليس سعيدا بالمرة.

أما ساشاي فقد استخفه الدفء. وحمى الضحك المستشرية في الجميع، كان يشعر بحلمتي ثدييها صلبة قوية على سطح ظهره العاري، وكلما تماسا به التذ أيما التذاذ، فلم يرغب في أن يتخلص منها وترك لها نفسه راضيا مرضيا، متجاهلا ومحتقرا صيحات احتجاج نفر من الجمهور.

وظن زوبعة لحظة أن كان يهم بجذب ساشاي وإلقائه من فوق الحجر لوقوفه حائلا بينه وبين اناث أنهم يقصدونه بضحكاتهم المجلجلة. فهبط لاهثا خائر القوى وهو يترنح من الدوار ويرطن يأسا. وما أن ثبتت قدماه على الأرض حتى خطف خرق ملابسها التي وجدها مصادفة في متناول يده وقذف بها وجه اناث فاحتج الذي كان يمسك بها.

- لماذا أعطيتها ملابسها؟

قال جربال بغلظة:

- ولمن يعطي.. ملا بســـ.. ها.. ها.. لأبوك؟

كان جربال يشـدد على الضــمير تأكـيدا على أحقية صـاحبة الملابس بملابسـ.. ها.

قال زوبعة باطمئنان نفسي مؤقت، كتاجر أريب، لذات الرجل

- مثل هذه. ويُتفرج عليها بلا مقابل، هذا ما لم يقل به عاقل قط.
قال الرجل:
- أو ندفع قبل أن نشترى؟ هذا ما لم يقل به عاقل قط.
توجه زوبعة إلى اناث قائلا:
- اسمعي أيتها الكاذبة الخسيسة. أنتِ اليوم عبدي. وقريبا أبيعك بأعلى ثمن.
ثم يضيف متوعدا وواعدا نفسه:
- سأعلمكِ الالتزام وأشياء أخرى.
قال جربال فى خبث:
- ليكن بعد غد يا زوبعة.
رد زوبعة فى سذاجة.
- أصبت. ليكن بعد غد. ولكن لماذا؟
قال جربال كإنسان طيب الفؤاد. كقطعة حلوى، هشة:
- هي اليوم لي وغدا لك. سأعلمها الأشياء الأخرى أفضل منك.
رد زوبعة بصفاء ذهن نادر بالنسبة إليه:
- هكذا. دعني أوقظك يا صديقي فأنت حالم فى كابوس.
قال جربال متملقا زوبعة:
- أنا صديقك الصدوق، جربال.
رد زوبعة متمكنا من رقبة صاحبه:
- آه. طبعا. وهذا حلم يقظة. ماذا أصابك يا زبى.
ويميل عليه قائلا بصوت خفيض لا يسمعه غيره:
- تعلّم ألا تتمسح بصداقة احد فى المواقف المصيرية كي لا تقع فى أخطاء قاتلة.
نفس مقالة جربال سابقا له.
ما أن سمع جربال ذلك حتى قال مهددا، مكشرا عن أنيابه:
- هكذا إذن؟
قال زوبعة متحديا زوبعة:
- هكذا.
قال جربال بصوت خفيض مقربا فمه من أذن زوبعة:
وشرفي لأعلمنك الأدب يا شبيه زبى فى قلة أدبه.

ثم يعلو صوته:

- يا قوم. هذا الرجل، روث البهائم، سيلطخ هذه العروس البيضاء ببرازه واسالوني عنه.

الشاب: احك. تكلم.

جربال: انه لا يقرب المياه إلا إذا عطش. ولا يستنجى بالماء أو بالحجارة أو أوالح الذرة الفارغة، لا شيء.

الرجل: يا له من رجل مقرف.

صوت: ما أفدحها خسارة عندما يتلوث وجه القمر.

قال جربال بتأثر مصطنع يكاد يصل الى حد البكاء:

- لن تصبح وجه القمر بعد الآن.

قال صخرة قلقا، نكِدا:

- لماذا؟ اجبني وحياة السيد/ الإله يا جربال، لماذا؟

جربال: لأنه، هذا الحقير كحيوان منوي، لا يأتي النساء إلا من دبر. وسوف يترك عليها ما يصيبكم بالعنة إذ تواقعوها بعده.

خرج صوت قوى مهددا:

- إن لم تبعها اليوم ما اشتريناها منك قط. إن لم تعرضها للبيع الآن، فلا تعرضها أبدا.

تعرّف زوبعه على صاحب الصوت. كان واحدا من المعدمين فى الأرض، أرض وادي الرعاة. وبطبيعة الحال لن يشتري ولن يبيع. لم يرد عليه زوبعه وإنما رفع يده عاليا وأثنى أصبعه الأوسط له. تجهم الرجل ونكس رأسه. وصمت للأبد.

قال الراوى:

فى وادى الرعاة تُستخدم تلك الإشارة كجرس تنبيه للمتكلم على أنه تجاوز طبقته الاجتماعية. وتلتزمه بالصمت الفورى. أو يعتبر موافقا على العقوبة التى يرتضيها مستخدم الإشارة –وهو هنا زوبعة– إذا شكاه للرئيس. ويُعطى هذا الحق للصفوة من مرتدى الجلود.

طوح الشاب بقبضته قائلا:

- يجب أن نمنعه بالقوة.

صوت: وأنا معك. كلنا معك. لا يمكن أن نخليه يلوث وجه الماء النمير.

وأكمل صوت آخر:

- اكتشافنا جميعا. لايمكن.

كان جربال ينصت إلى تلك التعليقات ومثلها وقد أمسكت بتلابيبه سعادة غامرة لنجاحه الكبير في إلقاء هذا الدرس البسيط على زوبعه المتمرد. ولكن الأخير قال متفوقا على نفسه دارسا كل ما قيل في فكر موفق:

- أو مثل هذه الجوهرة لا تباع ولو استعملت مقدار ألف يوم في يوم؟ الجواهر، مثلها، يصقلها الاستعمال لا أن يضرها.

جربال: الاستعمال الحسن، يا زبى.

زوبعه: الاستعمال هو الاستعمال. الفارق يتوقف على نوع المعدن. والمعدن هنا، نفيس للغاية. إن كلماتكم لا ترهبني. ومن أجل هذه. "يشير إلى اناث فتخفض بصرها" سوف تأتوني زاحفين.

ربما كانت هذه هي الجولة الأولى والأخيرة التي يكسبها زوبعه من صاحبه الماكر جربال. أما هذا الأخير فقد أخذه العجب من تحسن مستوى تلميذه الهرم فجأة. في الوقت الضائع من حياته. ومسرورا لانتصار زوبعه المهزوم دائما. كان جربال في شعوره ذاك رجلا فاضلا بحق.

وطلع صوت مهادن:

- اسمع يا زوبعه. الأفضل لك ولنا أن تعرضها للبيع الآن. ومن تؤول إليه اليوم، تصبح له كل يوم.

قال صخره مفكرا إلى لا أحد على التعيين:

- كيف يمكن أن تكون فتاه جسمها أبيض كالنور ووجهها أسود كالتنور؟

جربال: وما يعنينا من الوجه يا أحمق؟

صخره: حقا. أنت هكذا دائما، قذر. مع أنها – قذارتك – ميزتك. ولكن، كيف؟

حاول جربال لفت انتباههم إلى بعيد. ولعله كان يستشرف الحقيقة. فقال مخاطباً زوبعة:

- إسمع يا فرخ زبى. لم لا تقترح سعرا في هذه الأنثى، وننتهي؟ إنها تمسك بمجاميع قلوبنا كما يمسك السيد/ الإله بجميع أقدارنا. ولست أرتاح لطول بقائها بيننا دون سيد يهش عليها.

رد زوبعه مستأسدا، بغباء:

- وما أكون؟

قال جربال:

- أنت جناح بعوضه مكسور. أنت وهم.

زوبعه: على كل، أنا لست في عجلة من أمري. مازال أمامنا وقت طويل والسادة لم ترتوي أعينهم منها بعد.

ويشير إلى صف من ذوي الجلود تجمعوا، وحافظوا على تجمعهم. على عكس عامة الناس المتفرقون، هنا وهناك. طول الوقت.

جربال: أتعلم يا زوبعه، إني أحبك لأنك وغد لئيم. وحياة السيد/ الإله إن لك في قلبي معزة زبى سواء بسواء.

ويخفض صوته وهو يسر إليه:

- وأنا حاولت أن أفهمك يا من له غباء زبى حين يقتحم أرضا بكرا ولا يعرف كيف يثبت رايته عليها. انّ من غير الصائب ألا تعرضها للبيع الآن وفورا.

كان كاروا منذ سؤال صخره الذي وصفه "بالملاحظة الدقيقة" فابتدع للتو تعبيرا طريفا سوف يقدر له أن ينتقل من فم إلى فم ومن وطن إلى وطن ومن الأرض إلى السماء ومن السماء إلى الإله، فيرفع الأخير كأسه ويشرب نخبا مع نفسه، فرحا بإبداعات دميته المتتالية.

كان كاروا يعاكس إناث بيده في حذر باعتبارها قط برى، فائق الذكورة.

فعلق صخره مستهجنا:

- هل تخشاها يا ابن سيدنا كاروا؟

قال كاروا متأنياً:

- لا تنسى أبدا أن ذروة الجمال تلسع.

وقفه

كـارو ا: أتريـد يـا صـخره أن تعـرف إجابـة شـافيه لــ "ملاحظتـك الدقيقة"؟

صخره: طبعا يا كاروا.

مد كـاروا يده بتـؤدة وببساطه يمسح بإصبعه وجـه انـاث ويمصه بـشبق مُحْدِثًا صـوت المـصيص. فبـدا للحظـة كخنثـي محتـرف. وقـال بلهجة المنتصر:

- هل عرفت؟

تلفت صخره حواليه. ولم يفهم. ولا غيره فهم.

فأعاد كاروا ما فعله شارحا:

- انظروا إلى أصبعي. لقد أصبح أسودا. إنه طلاء. فحم نباتي.

قال زوبعه مستأسدا:

- سحقا لك. أزيليه. ألا هشمت ضلوعك.

صخره: غريب. كيف لم يفطن إلية زوبعه؟

قال زوبعه مدافعا عن نفسه:

- لم ينتبه إليه أيضا أي واحد فيكم.

صخره: ولكنها كانت تقيم في بيتك يا رجل.

كـاورا: كيـف كـان سـيعلم وهـي لـم تدعـه يمـسها. ألـيس كـذلك يـا زوبعه؟

قال الراوى:

- أطرق زوبعه. وبدا الجميع مدهوشين. كيف لم تدعه يصلها؟

في وادي الرعاة النساء لا تمنع نفسها عن طلب الرجـال لهن متـى شاءوا. باستثناء نساء المعبد أو نـساء حوراء فـي القصـر. هذا غريـب جدا بالنسبة إليهم ومنكر.

المشهد الثاني

تظلم الساحة التي يحتلها سوق زوبعه ويبقى الجزء الآخر مضاء. وفي أقصى طرف منه في العمق نشاهد المنظر التالي:

بعيدا في طرف السوق جلست علي كعبيها سيدة هيفاء ترمش باستمرار. يبدو عليها الإرهاق والتعب رغم حسنها البادي علي استحياء. ورغم أنها من خادمات السيد/ الإله المترفات حسبما يشاع في الوادي من أقصاه لأدناه. في نهاية العقد الثالث من عمرها.

كانت السيده تفاضل بين ثمرات البطاطس المنبسطة بانتظام علي أوراق الشجر الأخضر المرصوصة بعناية فائقة. وإذا بغلام طويل القامة لا يتجاوز عمره الخامسة عشر يقبل متسكعاً. وعندما يقع بصره علي السيدة يتسمر في مكانه لمراقبتها. فالمرأة في وادى الرعـاة حين تجلـس لا يبدو لدثارها عمل أو علي الأقل تتعطل وظيفته.

ولما يكل بصر الغلام المركز تركيزا شديداً في ملاحقة المكشوف من الشعلة وما حولها طالبا بعينيه مساحة ومدى أكبر غير منتبها ولا واعيا إلى ما تقوم به المرأة من صنعة الإخفاء والإظهار بمهارة واقتدار.

ولما يمد يده ليُعدّل من وضع الفارس المنتصب، المتحفز لشق البحر. تتلاقي أعينهما ويتبادلان الرغبة في منتصف الطريق. تبتسم هي ويرتبك هو. فتنسحب من أمام البائع ويلحق بها الغلام في شيء من التردد والمنعة وشيء من التودد والإقبال فتلتفت إليه مشجعة باسمة بإرهاق. والأنثى صياد ظافر معظم وقتها، كما أن الرجل صياد فاشل معظم وقته. فيهرع الغلام إليها مماحكاً ويهمس لها بفرحة سنه.

الغلام: متى؟

السيدة: الآن؟

قال الغلام منفعلا:

- الآن؟

يتلفت حواليه في أنحاء السوق. يتدارك بعد لحظة قائلا:
- كيف؟
السيدة: تعال. اتبعني وحسب.
وهما يسيران جعلت السيدة تتونس بالكلام:
- إن مولاي قضاعة يحرم علينا الوصال بغيره بدعوى أننا في خدمة السيد/ الإله. ومع ذلك فإن لي سنه ونيف. أتري.. ونيف؟ أقوم على خدمته ولم يتذكرني. بل أصبحت لا أري مولاي قضاعة نفسه إلا نادرا. هو أيضا منذ سنة ونيف لم يطلبني.
الغلام: ولماذا يحرم عليكن الاتصال بغيره.
السيدة: أجل. إلا هو. يزعم أنه ينفذ مشيئة السيد/ الإله. هذا الذي لم أره قط طوال فترة إقامتي في المعبد.
يقول إن معاشرته إيانا إنما يقوم بها السيد/ الإله عن طريقه وبواسطته فنكاحه لنا تطهير لآثامنا. وكلما زادت الآثام زادت عدد مرات النكاح، وطبعا فأيا منا لا تجرؤ علي القول أن آثامها لا حدود لها. هذا إن لم تقل أنها بلا خطيئة أو إثم أصلا. وأنت تعلم عقاب المذنبين في الأرض.
يدس الغلام اصبعه في أذنه ويخضها بعنف ثم يسألها:
- كيف يعاشركن السيد/ الإله عن طريقه؟ لا أفهم.
قالت السيدة بلا مبالاة. وتمرد خفي يطبع كلامها:
- يدخل جسم مولاي.
تسكن برهة ثم تستأنف مستنكرة:
- فأين هو ساعتها؟ إن مولاي قضاعة شائك وما يلبث مرددا أشياء غريبة من حين لآخر. مره كان يقعدني على عضوه، إنه الوضع الأكثر انسجاما مع نفسه. فأخذ فجاة يرتل شيئاً من أناشيده، بينما كنت ارجز عليه وأتوسل إليه أن يرتل نشيدي أنا.
يبتسم الغلام ببلاهة. وربما كانت براءة. فهما يتشابهان. بينما تكمل السيدة كلامها:
- قال انه هو نفسه غير موجود. تخيل؟
الغلام: ألا تؤمنين بالسيد/ الإله؟
ترددت السيدة لبرهة وهى تتملى فى عينيه الواسعتين ثم قالت:

- أصدقك القول، هذه الأحوال الشاذة التي تكتنف مولاي تخيفني أكثر مما تبث في نفسي الطمأنينة. ولست اعتقد في تخاريفه أكثر مما أعتقد في استحلامي من ضفدعة. وأحسب أن الظلام يداخلن نفسه أكثر مما تشي بالنور والوضوح. لا أكتمك سرا فقد سمعت انه بصدد ترقيم كل من يتردد على المعبد.

الغلام: لم اسمع بمثل ذلك الكلام من قبل.

السيدة: ولن تسمع. إذا كنا نحن تحت أقدام السيد/ الإله مباشرة تصل إلينا الأنباء مترنحه بإعياء الوصول. فكيف بكم أنتم القائمين في الساحة على الدوام.

استمر الغلام يقول مدهوشا:

- ولا تكلم احد بمثل ما تكلمتِ به عن مولانا قضاعة.ألا تخافين؟

قالت السيدة بعد لحظة. ثائرة:

- أي شيء يحيل بيني وبين هذا "تقبض على يد الغلام غاضبة وتحشرها على ما بين ساقيها" فاني لا اعتقد به وحسب، بل وامقته. لقد التقطني مولاي قضاعة من الشارع. وكنت أكاد أطير فرحا لإصطفائه إياي، ولإقامتي الدائمة في المعبد. كان سمته في عيني وقتها كالسمش او بدراً. وربما لا يزال. لكن ما حدث بعد ذلك..

تتوقف السيدة وتواجه الغلام قائلة:

- احسبها معي. عندما كنا صغاراً لم يكن الجنس شيئا بالنسبة لنا. لأنه وقتئذ لم يكن بالفعل شيئا. وعندما نهرم ونشيخ سيعود الأمر إلى ما كان عليه. ولن نغضب ولن نعترض. لأنه لم يعد يمثل لنا شيئا. ولكن الآن، أنا أو أنت نطلبه، نشتهيه، نرغبه. انه يستهلكنا. اوه، أعني، إن أجسامنا تقودنا إليه بعصا غليظة. فلماذا نعذب أنفسنا ونقاومه. هو سيتآكل من تلقاء نفسه. كما بدأ وحده، سيغيض ماؤه وحده. إن السيد/ الإله خلقنا على هذه الفطرة، فلماذا نعدلها نحن أو هو؟ وأنا سعيت منذ البداية للقاء مولانا قضاعة وأنبأته بشيء من هذا.

الغلام: حقاً. فماذا قال؟

السيدة: قال هذه مشيئة السيد/ الإله. وانه سوف ينقل احتجاجي إليه. والحقيقة إني خفت، فعدت ورجوته ألا يفعل. من يدرى. ربما

غضب عليّ السيد/ الإله ومسخني قردة. وأنا لا أكاد أطيق النظر إلى وجوههم، فما بالك أن أكون واحده منهم.

الغلام: إذا كان السيد/ الإله يتقمص روح مولانا قضاعة حين يواقعه فهل تحسين بذلك. أعني بفارق؟

قالت السيدة زاهدة:

- لست ادري. فلم يضاجعني مولاي قضاعة غير مرة أو اثنتين خلال عام و..

تُمسك. تنظر إليه كما لو انها تدعوه لإتمام جملتها وفعلا يتمها متململاً:

- ونيف. اعلم.

السيدة: إيه. لم تتسنى لي الفرصة كي امسك بالعلامة الفارقة بينهما لم اعرف أبدا أيهما يكون فوقي. اعتقد انه في كلا المرتين لم يكن الأمر متماثلا. لم اعرف لأيهما كانت المرة الأولى. كانت أجمل وأكمل. ولكني لم اسكت كما قلت لك. لقد ملأت المعبد هياجا وصراخا. ولو أن الأمر انتهى بي الآن الى أني لم اعد استطيع مقابلة مولاي قضاعة. بعد أن منع عني حراسه لقاءه وفي أخر مرة سألت عنه كاد احدهم يكسر ذراعي وهو يردني محذرا من محاولة السعي للقائه مرة أخرى. وا أسفاه، أهملني مولاي قضاعة ونسيني السيد/ الإله. ثم فوجئت بهم يكلفوني بالإشراف على مشتريات المعبد من الطعام. وهو عمل شاق جدا لو تعلم. يستنزف جهدي أولاً بأول. حتى هذا "وتشير السيدة إلى فرجها" كدت أظنه غير موجود، ولكني في لحظات قليلة عندما انفرد بنفسي، يصبح لما أوشكت على نسيانه زئير أسد جرحه الجوع. يكاد يفتك بنفسه قبل غيره.

قال الغلام مشيرا إلى قضاعة:

قد يكون هو من منعك.

السيدة: كيف؟

الغلام: منعوك بأمره.

نظرت السيدة في عينيه الواسعتين بشره. وأمسكت بعضوه المتأهب منذ زمن لنضال القادة العظام بالفطرة. لحظات تمنت لو لا تنقضي إلا أن خجل الغلام وخوفه المفاجئ جعل آلته تتراجع عن كل

ما كسبته من ارض فى الفضاء المحيط بها. ولم تكن السيدة غافلة لحظة عن استعداده الطيب منذ أن التقيا. قالت بأسى وهى تشعر بانسحاب آلته وتفهمه:

- آه. ليتني استطيع أن اعرف.

الغلام: ماذا؟

السيدة: الفرق بين مجامعة السيد/ الإله. ومولاي قضاعة.

أشرق وجه الغلام عن ابتسامة محبة واستعاد غزاله توثبه:

- حسنا. لعلى استطيع مساعدتك فى اجتلاء الحقيقة.

قالت السيدة بسعادة انقلبت إلى همّ:

- نعم. لقد طفح بى الكيل. إن الناس ترغب فى مياهي ولا تجرؤ على مجرد الاقتراب وتناول جرعة. وذلك لأني خادمة عند السيد/ الإله. هل تحسبني كنت هكذا. لقد كنت من أجمل نساء الوادي. واسأل عنى. اسأل عن "جداريه".

ثم تستدرك وهى تلتصق بالغلام. بدلال:

- طبعا أنت تقدر كل ما أطلعتك عليه.

قال الغلام بعد برهة:

- لا باس. لكن لا تكرريه على احد.

السيدة: ما اسمك؟

الغلام: ليس لي اسم.

السيدة: ليكن اسمك: "برنل".

الغلام: ولكن. لا يحق لي..

قاطعته السيدة:

- إذا سُئلت. قل إن مديرة شئون الطعام فى المعبد أسمتني. لن يعترضك احد.

الغلام: ما معنى برنل؟

السيدة: معناه شراب الشعير.

برنل: اسم جميل.

السيدة: ولكن إياك أن تُطلع احد على ما سوف يكون بيننا. لا تتسبب لي فى مشاكل أنا فى غنى عنها مع مولاي قضاعة. ويا هلاكي لو يعلم سيدي حورا.

برنل: حاضر.
ويضيف عابثا:
- ولكن. ماذا سوف يكون بيننا؟
شعرت السيدة برضي تام لسؤاله وما ينم عنه فقالت شاكرة
- لا شيء. سأنثر لك بعض الهشيم شديد الجفاف شديد العطش وأكومه لك في كومة لم ترى مثلها في تنوعها. وعليك أنت أن تدخل فيها بمشعل النار بقوة. ولأطول فترة ممكنه ولا تدعها إلا وهي كومة رماد.
برنل: حاضر.
السيدة: من ابوك؟
برنل: لا اعرف.
يتدارك زهوا وتيها:
- غير أن أمي كاشفتني ذات ليلة على سرها.
ويضيف هامسا:
- إن لي شقيق يرتدى الجلد.
قالت السيدة بتعجب وإكبار:
- حقا؟
برنل: نعم. نعم. واليوم سوف تفرح كثيرا عندما تعلم أنى سُميت.
قالت السيدة بدلال:
- حسن. إني ظمأى.
وبدلال اكبر قالت:
- وأرجو أن أجد لديك ما يشفي غليلي ويجيب على أسئلتي. إنى كلى شغف لأن اعرف الحقيقة.
برنل: صحيح؟ يسرني أن أكون أحد روافد علمك، دائما.
ويستدرك الغلام فجأة ملتاعا:
- ولكنك لم تخبريني حتى الآن، أين..؟
السيدة: لقد وصلنا.. هناك.
تشير نحو رابية متكسرة عريضة متعوجة وغير مرتفعة كثيرا.
قال برنل بدهشة:
- فوق الرابية؟

ابتسمت السيدة. ومع كل لحظة كانت تقترب بها من هدفها كان وجهها يصبح أكثر انسيابا، وطلاوة. قالت:

- بل خلفها.

وتضيف بشجن:

- كنت اخذ آخي هناك ونحن صغار. إن لي فيها ذكريات جميلة. والرمال هناك ناعمة، سوف تعجبك على أي حال.

برنل: لنسرع إذن.

السيدة: اسبقني إليها، للاحتياط.

يتقدمان باتجاهها. ويتواريان خلفها.

المشهد الثالث

يضاء سوق زوبعه. بينما نري في طرف قاص جدا الربوة التي استجارت بظلها السيدة والغلام برنل.

كان السوق يقع في أرض جبلية معشوشبه. فوادي الرعاة أرض قاحلة لا يُزرع من أرضها إلا القليل. ولمرة واحده في العام وهو الموسم المطري الطويل نسبيا مما يتسبب في الأغلب الأعم في إفساد زراعتهم. ومازالوا رغم كل شيء يحاولون. ورغم أنهم يمتلكون مصدر مياه دائم فاعتمادهم الأساسي علي الرعي.

والزراعة هنا لسبب أو لآخر مهنة حقيرة حتى من وجهة نظر أحقر مواطني الوادي وممارسيها علي السواء.

والحجر العظيم الذى اتخذه زوبعه معرضاً دائمياً لتجارته يقع في المنتصف إلى اليمين من السوق ويحتل بجداره: ثلاثة أرباع المكان. فبدأ كأنه الكل وهو جزء.

لقد ولد السوق طبيعيا بادئ الأمر في قلب الوادي ولكن تم نقله إلى موقعه الحالي على مشارف الوادي اتفاقا بين حورا و قضاعة. وبمكر رفيع تمكن قضاعة من أن يبعده – وقت نقله – عن منزله الكائن على مشارف الوادي من ناحية الغرب والمعروف فيما بعد باسم المعبد.

يلمح صخرة زوبعه قلقا فيدنو منه ويكلمه في رفق:

- زوبعه أخي. ألم تعد لك حاجة تريد تحقيقها؟

ويجيب زوبعه متوجسا أن يصبح هدفا سهلا لتسلية القوم ولهوهم مرة أخري. فقال بانبهار:

- وى! لقد نسيت.

ينتظر صخرة أن يتكلم التاجر العجوز طالبا خدمته فلا يتكلم أبدا ثم يقول أخيرا قانطا:

- ها قد ذكرتك. هل نسيت مجددا؟

رد زوبعه بجفاء مفاجئا صخرة:

- وماذا يهمك من ذلك؟ ماذا يهمك من أمري كله؟

قال صخرة بهدوء وحزم:
- لك أم لا؟
زوبعه: نعم. لماذا؟
قال صخرة متهللا:
- اتفقنا؟
قال زوبعه جذعا:
علام؟
ثم عاد صارخا بدهشة بالكلمة عينها مما لفت نظر جربال إليهما:
- علام؟
صخرة: سأحل محلك؟
زوبعه: في مقابل ماذا؟
صخرة: بلا أي مقابل. نحن اخوة يا زوبعه. طلب بسيط، رجاء. تؤجرني الغاده.
ويتوجه برأسه وعينيه وعنقه الذي بدا الآن في نظر زوبعه أطول من اللازم ناحية اناث.
تساءل زوبعه مبحلقا في بلاهة:
- ما معني أؤجرها؟
صخرة: أي تملكني إياها مؤقتا، ليوم أو أكثر. وأعدك بشرفي أن أردها.
صاح جربال المتنصت دائما. كنفير النصر.
- ابتكار رائع.
قال زوبعه مخاطبا صخرة:
- شرفك هو مالك. وأنت شرفك غير واضح لي تماما.
ويسأله بعد حين:
- لو تجاوزنا وعدك. فماذا تفعل بها؟
ينبهر صخرة. يتحير. يدوخ. ويفيق من تعجبه قائلا:
- سل هؤلاء يجبنك.
يلوح بكفه نحو الإماء الغارقات في المجون مع بعض الرواد ذوي الجلود. يلاحظ زوبعه أن بينهم الشاب القوي فيتنهد ويمسك على

غضب كما تنهد من قبله ذووا الجلود وأمسكوا علي غضب. ويضيف صخرة بحماس وهو يجذبه للإلتفات إليه

- ثم إن ذلك لا يهمك في شيء. وما يعنيك إلا الأجر.

قال زوبعه متشككا:

- الأجر؟

قال صخرة في اعتداد وتأكيد ومازال ساحبا في عقبيه زوبعه محاولا الابتعاد به عن جربال الذي يلاحقهما بآذان صاغية. يبتعدان عن الحجر حينا. يلفان ويدوران ويعودان إليه حينا آخر. وخلفهما - دائماً - على بعد خطوة، جربال.

- قطعا. سأعطيك جرو صغير نظير تأجيرها.

رفع جربال يده في خبث قائلا:

- حسب المدة.

هاهم. من هذا العبث يخرجون أروع الأفكار. كأطفال يلعبون بالمحار والصدف الحبلى باللؤلؤ. وأثناء اللعب يكسرون الملل، فيكسرونها فتنفطر عن لؤلؤة جميلة. تكون جميلة لأنك لا تستطيع أن تراها قبيحة.

تجاهل صخرة إشارة جربال وأكمل بامتعاض:

- ناهيك عن خدمتي المجانية لك الآن. هيا وافق وسوف..

قاطعه زوبعه بحسن نية. بإصرار:

- اعلم أولا ماذا تفعل بها؟

يضحك جربال بقوة. لكن أيا من صخرة أو زوبعه لا يعيرانه أي اهتمام ويواصل الضغط علي التاجر العجوز بإلحاح ولهفه: وبصبر الحجارة علي العطش. وما بها من شرر. فقال بتقريريه: باردة:

- سوف تصبحني في رحلة صيد.

أسرع زوبعه يقول مروعا، متألماً:

- أوه. وإذا هوجمتما فأسرتما. وقد تصاب بأذى. نعم، أكيد. سوف تتأذى. لأنك ستفر ناجيا بجلدك ولن يهمك ساعتئذ زوبعه وأموال زوبعه.

قال صخرة بصبر لا حدود له:

- لا تخف. لن يحدث أي شيء.

زوبعه: وما أدراني؟
قال صخرة متحاملا علي نفسه:
- تعْلم أنه منذ أمد بعيد لم يبادر أحد بالإغارة علينا، باستثناء بعض اللصوص الذين يخرجون من عباءة الوادي نفسه. فلماذا بعد كل هذا الزمن سوف يأتون اليوم تحديدا. يوم خروجي للصيد. كما أن اللصوص يسلبون الغنائم الحية، التي لها قيمه وليس الإماء التي لا قيمة لها. انتظر وجرب مرة واحدة.
زوبعه: ما هذه الترهات. ألم تشكوا القوافل بأسهم؟
صخرة: مالنا والقوافل؟
زوبعه: كيف؟
صخرة: هم يخشون سيدنا حورا. ولا يجرؤون علي إغضابه والتعدي علي شعبه.
زوبعه: لا. يجب أن توفر لي، بين قبضتي هاتين، ضماناً يكفل حقي عندك. هيه. انتظر، إسمع للنهايه، ليس لإناث وحدها. بل وضمان أنك لست بميت، أو مقتول، أو مأسور، قبل أن تردها عليّ.
قال صخرة عاجزا عن مجاراة العجوز زوبعه:
- وكيف يكون ذلك؟
زوبعه: لا أعلم. هي مشكلتك.
قال صخرة محاولا باستماتة، وكلما سعت عيناه فوق الحجر ورأي اناث، علم أن جائزة صبره ومحاولته لكسب الأمة ليلة واحده أعظم من أي جهد يبذل في سبيل الحصول عليها:
- سوف أعوضك عن فقدها إن حدث وفقدتها. سأدفع لك ثمنها مضاعفا إذا أصابها خدش واحد. والقوم شهود. أهذا يرضيك؟
كان جربال يتابع محاورتهما بشغف وانبهار كبيرين. بحلم وسعة صدر صخره. وفكر زوبعه السقيم. رويدا رويدا تلتفت الأنظار إليهم جميعا. فقال:
- أنا أول من يشهد أنك ستمزقها بأسنانك.
وأضاف محدثا نفسه:
- المسكينة تستحق أفضل من ذلك.
يرشقه صخرة بنظرة عدم ارتياح وادانه بينما يصرخ زوبعه:

- أرأيت؟ أسمعت؟ صديقي جربال يوافقني.
نفذ صبر صخرة فعلا. فقال ملأنا:
- لعمري. إنك أبعد الناس طرا غباء وبله.
زوبعه: ماذا؟
صخرة: كما سمعت. اغرب عن وجهي. لو كنت أطلب مقابلة السيد/ الإله شخصيا لحظيت به بنصف ما تكلمت به معك.
قال زوبعه متذللا:
- أتسبني يا صخرة؟
قال صخرة كاظما غيظه. ملاطفا:
- الحق يا زوبعه اني استأجرها للمتعة. لا صيد ولا هم يحزنون. فلن تغادر الفتاه منزلك إلا إلى منزلي، ومن منزلي إلى منزلك. هكذا ببساطه. الأمر بسيط جدا كما ذكرت. هيه، ما قولك؟
قال زوبعه كمن شفى من داء وبيل وأصبح فوجد نفسه يمسك بتلابيب الصحة جمعاء:
- المتعة. آه، المتعة لمن ملك. ليست كل الناس تحلم بكرسي حورا.
صخرة: والتأجير ملكية مؤقتة. وبإمكانك أن تأجرها لغيري. وهكذا إلى ما لا نهاية.
كتب الراوي متعجبا في دفتر ملاحظاته: كيف أن المِلكية، والتي تعني امتلاك الأشياء تشبه المَلَكية، والتي هي نظام حكم وإدارة. كيف أمكن استخلاص لقب المَلِك. من قلب هذه المِلكية. كيف سمحت البشرية وأمنت علي وجود مَلِك له مِلكية كل شيء. وبضمن هذه الأشياء شيء ثانوي اسمه الإنسان؟
جربال: أحسنت يا صخرة. لطالما رأيت فيك شباب زبى. حقا يا زوبعه، لم تبيعها وهي وحدها تملأ الحظيرة؟ إنها ستغنيك بمقدار ما يغني الحسن هذه الفتاه. شاة حلوب ولو أنها لراع جحود.
يبدو على صخرة الارتياح والرضي ولكن جربال يضيف متخابثا
- غير أن المحزن في الموضوع أنها ستكلفك أموالا طائلة حتى تتمكن من رعايتها وتحسين ألبانها على الوجه الأكمل. والصواب عندي أن تبيعها مرة واحدة دفعة واحدة.

زوبعه: صحيح. هذا مؤكد لن أؤجرها. ولكني سأضيف علي ثمنها فائدة لإحتمال تأجيرها مستقبلاً من قِبَل مشتريها.

جربال: أحسنت أيها الوغد العجوز.

يلفظ صخرة كلماته من بين أسنانه بحلم غير محمود عاقبته:

- وهل هبطت عليك من السماء أم دفعت فيها وأنفقت عليها بأضعاف ما دفعته؟ وما اشتريتها، دعني أذكرك، إلا كي تبيعها وتكسب.

يهدأ صخرة ويتراجع عن الضغط عليه. فكل من رآه وهو يكلم زوبعه يعتقد أنه سوف يطوح في اللحظة التالية بقبضة يده في وجهه ناسفا صفحة وجوده من علي ظهر الأرض. مرسلا إياه إلى بارئه وفي قفاه لافتة: زائد عن الحاجة.

ويستأنف برخاوة محاولا إقناع تاجر العبيد العجوز:

افهمني يا زوبعه..

ويتوقف. يستعيذ. يتمتم بسباب. يرطن بكلمات غير مفهومة. وأخيراً يواجه زوبعه بثقة نافثا خرطوشة هواء ساخنة:

- أنت في كل مرة تؤجرها كأنك تبيعها من جديد. وبهذه الطريقة سيتضاعف مكسبك طالما تستطيع أن تؤجرها مرة ثانيه. وفي النهاية حين تري أن إيراداتها أقل من مصروفاتها تبيعها مرة واحدة أخيرة.

يهرش زوبعه رأسه بمزاج عال ثم يتساءل بصوت مجنح موجها خطابه للكافة مستثنيا جربال بإصبعه.

- ما عدا أنت. هل ترون فكرته مصيبة يا ناس؟

قال جربال متحفزا:

- ما عداى أنا؟ هه؟

تراجع زوبعه بسرعة:

- لم أقصد ذلك. إن رأيك عندي يعادل بوحده رأي كل هؤلاء.

همس جربال في أذن صاحبه:

- نعم يا منافق. إن فكرته "مصيبة". أسرع، واقتنصها.

واستشرت همهمة استحسان وموافقة قوية للفكرة. فما من أحد من الحضور إلا وتاق لإمتطاء صهوة هذه المهره الصاهلة ذات البشرة

البيضاء. وما من أحد إلا ومني نفسه بالأمل ولو لم يكن في مقدوره أن يدفع الآن أو في أي وقت آخر.

وبرغم ذلك صاح فيهم زوبعه مسرورا، كملك على رعايا أحسنت إنجاز ما هو منوط بها:

- يا رعاع. لم أسمع إلا طنينا لا يترجم بغير طنين.

صوت: وطين.

يقولها وهو يغادر السوق.

خرج صوت قوى، يوافق ويشجع على إبداء نفس رأيه:

- نعم الفكرة. أليس كذلك يا إخوان؟

وعادت تتفشي فيهم نفس النغمة الكورالية التي يفوح منها عبق الشهوة العمياء.

قال الراوى:

- ما الذي يؤخرهم دائما عن أن يستقل كل واحد برأيه، حتى ولو كان موافقا. الجانب الآمن على الدوام من الطريق؟

قال زوبعه بتسليم الأمر الناهي وأيضا بنرجسية. يتأخر في الرد عليهم فيثيرهم. يتكلم ببطء فيثيرهم أكثر:

- لا. ما.. نع.. عندي..

تنفجر عاصفة من التهليل والتصفيق ويحملوه على الأعناق. ويتابع جربال صاحبه المنتصر بوجد صوفي سعيدا. ثم ينتفض حاملا القوم على الإصغاء:

- يا قوم. أترفعون على رءوسكم مصاص زبي هذا؟ يا للعار. هل نسيتم كل جرائمه في حق شعب وادي الرعاة.

وعلى حين غرة يسقطوه. ولم يفكر أحد أن يتساءل عن ماهية هذه الجرائم التي يمكن أن يقترفها كائن مخروف طفيلى مثل زوبعه. ربما ردها كل واحد على شيء ما مطمور في نفسه.

إنهم على استعداد دائم -- طبيعي -- لإلصاق الجريمة بأيّ كان. ولو كانت المقدمات العقلية التي تؤدي إلى عكس ذلك تمتد من المحيط إلى المحيط. وهذا ما لم يكن جربال يعلمه وحسب. بل كان موقنا منه. ومن حسن حظ زوبعه أن سقط واقفا لخفة وزنه ليجد نفسه وجها

لوجه في مواجهة الشاب إياه. فيهرول إلى صخرة وهو لا ينى يتوقف ملتفتا إليه:

- أنا موافق ولكن بشرط أن تخلصني من ذلك الوغد.

ويشير إلى الشاب فيما يقول صخرة معترضا:

- ولكن..؟

قال زوبعه مهددا:

- ولكن ماذا؟

قال صخرة مرغماً ذليلاً: طيب.

يتقدم صخرة نحو الشاب ويسر في أذنه. يبدوان من حركات أيديهما كما لو كانا يتفاوضان علي شيء ما وينصرف الشاب إثر ذلك من السوق كله. ناظرا نحو اناث نظرة خاطفة متعمداً المرور من أمام زوبعه الذي يجفل ويحتمي دون مبرر بظهر جربال. وكان الجميع يتابع المشهد من أوله، حتى ظن بعضهم أن شجارا سوف ينشب بين الشاب وصخرة. متسائلين كيف يمكن أن ينشأ شجارا كهذا بينما قوانين الوادي تنص علي امتناع ذلك وتحرمه إذا كان حاضرا - أو حضر بعد حصوله - سيدا من ذوي الجلود. فما بالك فوق من كانوا حاضرين، كان يوجد كاروا. ابن سيدنا الرئيس.

عندئذ أحس كاروا أن اناث ستفلت من يده وهو الذي وقف يتفرج معتقدا أن مآلها في النهاية إليه. وهو الذي عدها ملكه منذ أن بصقت علي وجهه فيما عدها قلبه علي نحو غامض مَلكته. وأن الجدل، لجدته، ولأن أحد طرفيه العجوز الخرفان زوبعه، فاشل لا محاله ولن يسفر عن شيء. أي شيء. اللهم إضحاك الجمهور وإضحاكه. وهل يمكن أن يكون وهو كاروا ابن العظيم حورا من ذاك الصنف الغريب من الناس الذي يهان مرة ويظل طول عمره منتظرا الإهانة اللاحقة للانتقام وغسل روحه. باعتبار أن ما جري جري، وعليه انتظار تكرارها؟

لقد ارتبط معها رغم كل شيء -حين بصقت في وجهه- بعقد واجب التنفيذ. وبعلاقة لا مندوحه عنها. فلم يزل يشعر حتى الآن ببصاقها المالح تحت لسانه.

لقد وضعها كما ظن تحت قدميه منذ أهانته علنا. ولم يُقدر كاروا الأريب ابن حورا الرئيس المهيب أنه وضعها، في الحقيقة، بين ضلوع قفصه الصدري، وتحت جفنيه منذ اللحظة السابقة لإهانته عندما فتحت عينيها بغتة فانطلق سهم لا يُرى وأصابه. وفي اللحظة التالية – ببصقها في وجهه - كان قد أعطاها تأكيد الحجز بطريقة مختلفة لنفس المكانة.

نزل كاروا من فوق الحجر وأسر إلي زوبعه ببضعة كلمات تهللت لها أسارير وجهه ثم تقدم من صخرة الغارق حتى رأسه في نشوي انتصاره الصعب علي التاجر صعب المراس مع بعض الرفاق. كان واضحا أنه يجول ويصول بينهم حاملا لواء انتصاره زهوا وخيلاء بما صنع بزوبعه.

قال زوبعه مخاطبا صخرة بلامبالاة:

معذرة صخرة. إن كاروا ابن سيدنا حورا سيكفل مقامي وبلا مقابل.

ألجم صخرة وغامت روحه وانطفأ مرحه. أبعد كل ما بذل من جهد واجتهاد وخلت المصفاة من أدرانها....؟

إلا أنه استشعر الحقيقة الباطنة وبدأ يلتمس الكره لكاروا.

المشهد الرابع

يتوارى الشطر الأعظم من السوق. الجزء الذي كان يشغله زوبعه وسوقه الخاص ويحل محله الجزء الآخر الذي كان بضمنة من بعيد الربوة التي اختفى فى حضنها برنل والسيدة.

إذن فالربوة تبرز فى صدر ساحة العرض بينما يتباعد أو يُقصى بعيداً سوق زوبعه ويظهر إلى جانب الربوة بوضوح ما كان ظاهراً من قبل على استحياء. إنه تبادل عكسي بين سوق زوبعه والسوق الأم.

نرى زوبعه مشرقاً تارة ومغرباً تارة يتشمم بغيته وكلما ظهر لنا اقترابه من تحصيل هدفه أظهر على نحو صبياني تماسكاً موجعاً لمنع فيضان بوله من السيلان. نراه يميل على واحده فأخرى من النساء المارات بالسوق ومن البائعات ويسر إليهن بشيء، ولا ندرى لماذا عرج على البائع الذكر الوحيد فى السوق. على نحو ما فعل مع الأخريات؟

وبدا من ردود أفعالهن أنه يسألهن شيئاً إذا فوق طاقتهن إنما فيه ما فيه من وقاحة لذيذة. فهذه ترمقه من أعلى لأدنى وتتركه احتقاراً. وهذه تضحك منه مودعه إياه فى دلال وغنج. وتلك تنهره غاضبة متأففة.

وأخيراً تستجيب له إحداهن، فى خريف العمر. تبدو فى ضعف عمره. وضعفيّ حجمه. ولكنها فى الحقيقة أصغر من نصف عمره. كان قد باعها منذ زمن بعيد. وإن لم لم يتعرف عليها تعرفت هي عليه ونظرت نحوه فى حنين سادر ساهمة. بينما يقول زوبعه مطمئناً المرأة

- سأقضى حاجتي سريعاً.

المرأة: ألن..؟

وتتوقف عن إتمام جملتها فى قنوط وزهد مفاجئ.

قال زوبعه بإهمال:

- فى مرةٍ أخرى.

قالت المرأة بحزن شديد. غير مستطيعة التراجع:

- ليس لي حظ كبير.

حدّث زوبعه نفسه وهو يمشي إلى جوار المرأة المتغضنة كلوزة قطن لم تتفتح بعد انتهاء الحصاد، فيما بدا هو إلى جانبها كابن البرص:

- هذا أفضل من لاشيء.

ويضيف وهو يتمعن في ترهلات جسدها التي توشك أن تنفرط من الخلف ومن الأمام:

- بل إنها الأفضل على الإطلاق. نعم. فلن أصبر على مالي بيد غيري وإن صبرت لم يصبر هو. وربما أوحى جربال إلى كاروا ابن سيدنا أن يقول لي أنني تأخرت وأن صبره كان إلى نفاد. وأنه اضطر لإنفاق بعض مالي كي يعيل ما تبقى منه. ألم يفعل جربال بأحدهم ذلك ذات مرة. ثم أن بيتي بعيد و...

ولم يعد يتأدى بعد شيئا مما يقول إلى أن يفارق المكان بصحبة المرأة لمدة دقيقه. في حين تبرز السيدة وغلامها في الحال من خلف الربوة. يدرجان خطوات قليلة باتجاه السوق. ينظر كلاهما للآخر سعيدا ممتناً. ثم تتكلم السيدة المنتشية بدلال. وهي تغمز:

- مرة أخرى؟

ابتسم برنل قائلاً على الفور:

- لا ضير بتاتاً.

يرجعان ركضاً. وكانت تسبقه ويسبقها إلى ما خلف الربوه. يدخل زوبعه من اليمين وأمارات الارتياح بادية عليه. إذن قضى حاجته أخيراً. يتوقف. يصوب نظرة إلى الربوة. يحدث نفسه:

يتوجب عليّ أن أستريح قليلا قبل أن أعود أدراجي إلى هؤلاء الملاعين.

يمشي الهويني، متسكعا، وهو يقول مفكراً وفي فضاء ذهنه يتلألأ، من باب المغارة المفتوح، الزهرة / الكنز المسمى إناث:

- آه لو أن الزهور تباع ورقة ورقه؟ لو أن عبيرها يباع بالشم من أوراقها، ليس إلا؟

ويعمق فكرته أكثر بقوله:

- آه لو أن فم الزهرة يباع ويشترى وحده.

ويصل بفكرته إلى الذروة:

- آه لو أستطيع أن أؤجر فم الزهرة وحده دون أن أضطر إلى المخاطرة بفقده كلية أو بتشوه وجرح الهيكل الفاتن الذي يحتويه ويغذيه.. يا لها من فتاة، لابد أن فم زهرتها السفلي مغر شهي كفمها العلوي.

كانت هذه الهاجسه الأوهى من خيوط العنكبوت هي اللبنة الأولى في صرح الدعارة العظيم. ولكن من سوف يتذكر زوبعه العظيم بفكرته هذه. يتقدم زوبعه نحو الربوة وما أن يصل إليها حتى يثب جالساً على طرفها سعيداً خالي البال. يرنو إلى الأفق. يبقى لحظات مع نفسه. ثم يتجسم على قسمات وجهه المطمور منذ أمد بعيد فطر الإنصات العجيب فالذهول.

يهب نازلاً. يدور نصف دوره حول الربوة. يثني رأسه خلفها مشدوهاً ويشهق. يبقى صامتاً مبحلقاً لفتره، مائلاً على حاله. ذائغ البصر. مسلوب الإراده. كأنه يشاهد حلية تتلألأ بألوان متدرجه يختلف عليها الجمال المبهر والسحر من أدنى لأرقى باستمرار وبسرعه. ممارسة اللذه متعة والفرجة عليها لاسيما بين طرفين غير متكافئين في حالة شبق، الذكر فيهما عربيد عتي، متعة أخرى تضاهيها وقد تزيد. فلا تستطيع أن تحول عينيك عنهما ولو أردت ذلك.

قال زوبعه لنفسه. هامساً. متصابياً. ثم مأخوذاً بعد ذلك:

- رائع. حلو. وى، إنها من فتيات السيد/ الإله، ويل لها. ها هو الوشم الذى يشبه الهلال يزين معصم يدها.

صمت زوبعه متدبراً هنيهه ثم همس بحماس:

- فكره.

يشيح بوجهه أماماً باتجاه السوق. يمد إحدى قدميه ويضرب صاحب النصيب منهما ويرجع إلى مكانه على حافة الربوه من الأمام. فيقفز برنل نهجاً، وشعره الطويل الناعم مفككاً من ضفيرته. ولا يظهر لنا منه خلف الربوه إلا صدر عار. ويبدو أن السيده لم تر ولم تسمع. فهي بين الحين والحين تشد الصبي إلى أسفل، وبالتحديد،

فإنها إختلت بنصفه السفلى متخذة منه بجميع أجزائه لعبة تهدهدها، رفعاً وحطاً، مصاً وقضماً. فكان برنل يسقط وينهض كل فتره.

رنا زوبعه إلى وجه الغلام فطالع على صفحته الغضه علامات يوم القيامه إذ تقوم لأجله وحده. فقال بحنان وقتى بطبيعة الحال:

إطمئن يا هذا. لن أشى بك. ومع ذلك فإن لى عندك حاجة فى غاية البساطه تؤديها ويمر الخطر بسلام. لن نسأله كيف أو إلى أين؟

ويشير بيده بمعنى الذى يذهب ولا يعود. ولكن تطمينه للفتى لم يؤتى ثمرته المرجوه: فيشفق عليه ويرثى لحاله الأشعث، محولاً وجهه عنه إلى الأمام، متكئاً بظهره على نتوء بارز فى ظهر الربوه. وفى هذه الأثناء يسقط برنل بينما لا يتوقف زوبعه عن محادثته الأبويه له وعيناه تتمليان فى الفضاء وسلسلة الجبال على مدى الشوف. قال:

خدمة بسيطة. ستأتى معى. تنادى على بضاعتى حتى ينفض السوق. هل تعرفنى؟

ويجيب على نفسه بفخر:

- أنا زوبعه نجم وادى الرعاه.

ثم يقول متراجعاً:

- بعد سيدى حورا ومولانا قضاعه طبعاً. أنا تاجر العبيد الذى ليس له نظير. خلاف ذلك قد أنفحك اجراً فى نهاية اليوم إن كسبنا جيداً. إنها فكرة صخره على أى حال. ما رأيك؟ موافق طبعاً. لا تنسى أن رقبتك التعسه بين فكى رحى لا ترحم. قضاعه والرئيس حورا بذات نفسيهما فمن السهل أن يطيحا بها كما يطيح الزمن بلحظاته.

وكان لبرنل فعلاً عنق طويل بارز للعيان كأول ما يلحظ المرء فى كونه.

وعند هذا الحد يمر رجل ينتبه إلى مناجاة زوبعه لنفسه، أوحسبها هكذا. وكان قد حضر مقطعاً مما دار بسوقه. فوقف. ثم دنى حذراً وجلاً يضرب كفاً بكف دون أن يحدث صوتاً.

كانت الجديه الباديه على زوبعه وهو يتحدث تُرغم من يراه على أن يفكر كثيراً قبل أن يقرر مقاطعته.

وبينما الرجل يدنو ويدنو.. يلتفت زوبعه إلى الوراء فلا يجد لبرنل أثراً ويلتفت إلى الناحية الأخرى إلى يمينه فيجد الرجل ويجفل كلاهما ويفر الرجل متعثراً وهو يذكر قبل أن يتوارى إلى الوراء:

- هذه حاجته إذن. جُن زوبعه. يا لهذه الدنيا الفانيه. ويإله من رجل حذق. حينما شعر بعفريت الجنون يراوده أراد أن يختلي بنفسه ويجن بها، وحده، في الهواء الطلق.

ثم خاطب زوبعه مباشرة قبيل ذهابه النهائي:

- وماذا تفعل العيون لمجنون يا مجنون؟

يعود زوبعه إلى سيرته من أولها حانقاً مغتاظاً. ينصت. يعجب. ينظر. يراقب مأخوذاً. يهمهم. يمد قدمه. يضرب. يتراجع إلى مكانه دون أن ينظر فلا يرى برنل وهو يتسلل خفية هارباً من خلف الربوه وانتظر فطال انتظاره.

زوبعه الذي لم يتعلم أبداً رغم طول مخالطته القطبين على قدر متساو من الصداقة لكليهما: أن "الإنتظار" صناعه بدائيه لم يرغبا فيها يوماً. وإن ادعى قضاعه من جانبه، أن السيد الإله يباركه.

وكانت السيده قد اجتلت له وانتظرت شرسة متنمرة فلم يلتفت إليها غافلاً. فتعود وتختبئ. وما كاد يعاود الرفس مرة ثالثة حتى امتدت كف السيده ولطمته بعنف صارخة في أم وجهه وهي تعمش أكثر من ذي قبل مما أدى إلى فزعه وإرباكه أكثر من شعوره بالمرارة والمهانة.

- ماذا تريد يا جيفة البشر؟

إنه، زوبعه، مكبل الإراده. والعلامه التي بيدها تعني أنها في حمى السيد/ الإله. وهو يرهبه أكثر مما أراد رسوله للناس أن ترهبه. فيشعر بضيق وحرج مقيت ويشير بيده كمراهق ضبطه أهله يمارس العاده السريه بيد ويده الآخرى تتحسس نقب غلام. كان حضوره في خياله طاغياً لدرجة أنه ظن أنهم رأوهما معاً.

النقب: دائرة التهديد الدائم من كل السلطات أنى كانت.

ثم يتفوه أخيراً كمن عف حموضة العلف:

- أريده.

السيده: من تريد يا دوده؟

ثم تضيف بعزه وسؤدد:

- إمشى حالا، وإلا أنبأت مولاى قضاعه أنك راودتنى عن نفسى.

"هى نفسها الحجه الأزليه. حتى فى وادى الرعاه. لها نفس الدوى ونفس الصيت بين السمعه. كأنها السيوف المسلطه على الرقاب فى الخيه الأفعوانيه إلى أن تقوم الساعه".

قال الراوى لى ذلك. ولم ينتظر تعليقى وإنما صفق الباب فى وجهى واعتزلنى ساعه ثم عاد يحكى دون أن يلتفت إلى الوراء.

دار زوبعه مضطربا، تنتفض اطرافه، حول الربوه فلا يجد لبرنل أثراً. ويظهر من الناحية الأخرى للربوه وهو يصيح متألماً:

- زاغ الوغد إذن. هكذا؟ عدمت نفسى إن عدمت وجوده. لأنقبن عنه الأرض. ولأعثرن عليه ولو كان فى نقب البهائم:

المشهد الخامس

سوق زوبعه الآن يشغل ساحة العرض بأكملها. كانت إناث قد أزالت عن وجهها السواد المصطنع وبانت بشرتها الراقية الحلوة الأثيرة، أرق من نور الصباح. وبدت كما لو أنها استطالت، بعد النظافة، بضعة سنتيمترات أكسبتها جلالاً بيناً.

تدخل إناث من جانب اليمين وبرفقتها أكثر من أمة من نفس الإماء كن قد صاحبنها إلى الغدير القريب للإغتسال. وبالأصح، لإزالة القناع الكريه عن وجهها. وينضمون جميعاً إلى صويحباتهن فوق الحجر.

فاجأت اناث القوم بمشهدها الجديد للمرة الثانية بما هو أكثر حلاوة واشتهاء من ذات الكأس المسكر. فوقع فيهم موقع الدهشة وصمتوا توقيراً وتبجيلاً لملاك سماوى وقع بالخطأ فى أرضهم. صمتوا وكأن على رؤوسهم الطير وجيوش النمل، اكلة اللحوم، حتى أن أحدهم لم يجرؤ على لمسها وهى تمر من بينهم صاعدة فوق الحجر.

إلا كاروا أنبه شباب الوادى، بمجرد أن غاب زوبعه لقضاء حاجته أمر باصطحابها إلى الغدير لتُنظف من قِبَل أترابها. و عهد إلى جربال بحراستها. كان كاروا النبيه يرى ما تحت الغطاء ويتوقعه، و صدق توقعه.

لم تمانع اناث لا من فكرة الإستحمام والنظافه ولا من أن يقوم بذلك زملاؤها كما أمر كاروا بصرامه: "قمن بذلك ولا تدعنها تلمس جلد بشرتها أبداً". فقط طلبت من جربال بأدب جميل ألا ينظر. أنصت إليها الرجل بأدب أجمل. ولم يتكلم. فهل فعل؟

وبحركة لا إراديه تفرد اناث شعرها وتطلقه على أكتافها بلمسة أنثوية بارعة. بعد أن نُظف ومُشط واختفت كأن لم تكن من شعرها سحابات التبلد والجفاف الصحراوى الذى يحيل الأرض السمراء الرصينه إلى صحراء قاحلة مجنونة. لقد أعادت الفتيات تأهيلها كما لو كانت قد قامت من سريرها وجلست إلى المرأة تستعيد لمسات الجمال الذى عبث به الرقاد الطويل وأحلام العرس.فهى الآن شقراء بغير تعسف وهم فى وادى الرعاة، الأكثرية المطلقة خاصة الجيل الجديد، جيل السلام بعد هزيمته ثم انتصاره على قبائل الخروج

المجمعه من شتات الأرض عند تخوم الوادى، ما رأوا مثلها قط. وبمثل تلك التفاصيل الموحيه بجمال وشر مستطير. وعاد حاجباها الغليظان شبه المفروشين رفيعين لهما دقة الفرشاة إذ تغزل من الألوان شطآناً وماء جُعل منه كل شئ حى. ماء من المستحيل أن يفيض وإن كان على وشك أن يفعل، فى كل لحظة.

وكان لونها الأبيض الناعم، الخالى من النمش، مثار إعجابهم الأول.

وبإمكان جربال الثاقب النظر أن يلاحظ منذ هذه اللحظة اهتمام ساشاى بمراقبتها عن كثب واستراق النظر إليها من حين لآخر إلا أنها لم تبد إهتماماً مماثلاً به رغم تصادم نظراتهما أكثر من مرة وما تبع ذلك من وجيب كان لساشاى منه نصيب الأسد. وكان معظم شعور جربال مرتكزاً على غرابة تلك النظرات وتميزها. فيما شعرت اناث تجاه تلك النظرات، بفضول برئ لسبر أغوارها فخلف لديها إنشغالاً لم تقدر على وأده فى مهده.

قال جربال بمكر للإماء ساعياً إلى كسر حلقة السكون التى لا يطيقها:

- ما قولكن أيتها الفتيات فى هذه التى تسب جمالكن فى صمت بليغ؟

نفرت إحدى الإماء تقول بقوة:

- فاتنه.

وتستطرد بازدراء:

- ولكنها لا تصلح إلا لعشق القلوب. إنها قد ترطب النفس ساعه: وبالتأكيد سوف تشبعها شأن النجيل فيما إكتنز.

وقالت أمة ثانية:

- بل هى أداة شائقة من ادوات الزينة يعتنى بها كثيراً. لا يجوز لك أن تتوقف عن رعايتها. وليس لديها ما تعطى سوى بهرجة زائفة ونشوى فارغه مثل لذة الوحده فى أيامها الثلاث الأول.

قالت الثالثة مؤكدة على رأى سابقتها. مراوحة نظرها بين جربال والثانية:

- على أننا إذا أهملناها بضعة أيام اعتلت وغارت نضارتها ثم لا يلبث أن يتلاشى بريقها مخلفة فى النفس حسرة وحزناً عميقاً. إن مثلها ينضجن على نظرات الإعجاب وبذور الطعام الطعام الجيد. إنها بحق – لوحدها – وليمة من الأطباق المزركشه. وعلى كل طبق إسم طعام شهى – دون الطعام نفسه. جرب يا سيدى وتجهم فى وجهها.

راوح جربال نظره بين الأمة الثالثة واناث ثم قال:

- اعذرينى يا فتاة، قلبى لا يطاوعنى.

وقالت رابعة فى تأفف واضح. باستياء:

- إنها رقيقة. دقيقة. رائقة الرسم، جميلة الصنعة إلى درجة أنى أكاد أتصورها فى خيالى، هذه اللحظة، وهى تتكسر إذا حلمت بمضاجعة ذكر يتسند على عصا.

وتضيف فى مجون إلى جربال:

- فما بالك برجل مثل سيدى؟

ينتشى جربال ويقبل على اللهو أكثر بشهية أكبر:

قال جربال: لقد أجمعتن على رأى واحد فى الحقيقه.

ثم يشير لخامسة لم يبد عليها عليها نية الكلام. ومهملة. متجاهلا صراخ الآخريات وتنازعهن طلباً للكلام فى أوكازيون جربال للرأى الحر

- فما رأيك أنت؟

كانت أصغرهن وأقبحهن. ربما كانت كثمرة نيئة لم تستوى بعد. وهى التى ندت عنها صرخة إعجاب جميله كاستغاثة من أحد الخالدين فى العالم الآخر، إستغاثة من وفرة النعيم، من الخلود. حال أن بان نعومة ولطف جلد اناث وتكوين جسدها الرخامى شديد التناغم. عندما مزق كاروا ثوبها. وكذا فهى تقبله الظل. على الأقل بعينى وبعين الكثيرين من جمهور السوق حتى أن بعضهم احتج لإعطائها فرصة الحديث متجاهلاً الأخريات الحسناوات.

والغريب المدهش أنها لم تأخذ بطرف الكلام إلا بعد أن لزم السوق الصمت وكفوا عن الصفير والإحتجاج وبدأوا فى الترقب والتطلع لعرض الدمية الدميمة.

قالت الخامسه: إنى أعجب بها كملاك مثل أى رجل بينكم وربما أكثر غير أنى أحتقرها كذلك الشعر الذى بدأ ينبت فى قدمى.

سألها جربال معجباً بأدائها:

- ولماذا أيتها الحسناء؟

قالت الخامسة بعد لحظات فى إشارة واضحة الى وضعها كأمة:

- لست مضطراً سيدى لمجاملتى لأنى ساتكلم بطبيعة الحال. إن مراتى الوحيده هى عيون الرجال. فانا أعرف قدرى بلا زيادة أو نقصان.

قال جربال معجباً بها أكثر فأكثر:

- حسن. أخبرينى لماذا أيتها الغادة؟

ويردف بعد فاصل مناسب:

- سيدتى الجميلة.

تفتح الخامسة شفتيها عن ابتسامة مرهقة. تستغرب إصرار جربال – الأملح منها وجهاً – على نعتها بالحسناء. فتتفرس فيه هو لحظات ثم تجيب فى حرية كاملة وبطلاقة جذبت إليها الأفئدة بعد الأسماع:

- لأنها شئ خطر وإن كان جميلاً. ألا ترى عجباً أن شيئاً مهملاً متروك إستعمالة قطعاً يفرض نفسه بعظمة على الأقل جمالاً الأكثر منه فائدة وعطاء. هل تحسب أن الدر أكثر فائده لنا من لآلئ الرمل؟ ومع ذلك، فهى كآنية الخزف، آية فى الجمال، بالمقابل لمثيلتها، آنية أيضاً، لكن من الفخار، تستأثر بكل العناية والإهتمام ويوليها النظر نفسه أول شئ تماماً كالشهد مازال يأسر انتباه الذباب منذ آلاف السنين ولم يتغير شئ. ولهذا فإعجابى بها واقعى وإنكارى إياه لن يجدى. ولن يغير من واقع الأمر شيئاً. ولا يمنع ذلك عن انى أحتقرها. والإنسان لا يفترق كثيراً عن الذباب فى هذا المجال كليهما بلا عقل، أو عنده ولا يحسن إستخدامه، فالنتيجه واحدة.

تصمت الخامسة لحظات وتسأل:

- أخبرنى يا سيدى ما نصف "ذباب"؟

فيما كان يبدو على جربال التفكير فى الإجابة. وبالأحرى ترتيب إجابه ساخنة تلهب الحاضرين قبل الألف. قالت الخامسة:

- هذا يكفي سيدي. لا تجب. الغريب بالنسبة لي، أنكم جميعاً تنظرون إلى الشكل. لم يتحدث أحد عما وراء شكلها النبيل، غاية النبل. الرفيع، غاية الرفعة. إننا لم نسمع صوتها قط منذ الصباح. حتى ونحن نحممها لم تفه بكلمة واحدة. من يدري، ربما كان وراء كل ذلك الحسن الذي يكفي عشرات النساء مثلي عقلا خبلا، مجنونا. أو نفسا وضيعة.

جربال: ربما. وربما إن تكلمَتْ شدت. إننا لا نريد منها كلاما ولا فعلا. نريدها كما هي. هذا أيتها الخامسة يكفيها. أليس كذلك؟

تنظر الخامسة إلى اناث. ولا تجيب. واستأنف جربال مخاطبا الإماء

- إني في قرارة نفسي ولا تغضبن أيتها العزيزات. وخصوصا أنت.

أشار للخامسة. وأكمل وهو يجري قطعة كبيرة من لسانه علي شفتيه ويتأمل اناث بوقاحة اضطرتها إلى أن تغض بصرها عنه:

- أتمنى لو أحظي بوصالها وإن تهشمت تحتي ولم أبلغ مرادي تماما منها. إن خطأكن جميعا افتراض أنها آنية لا تستعمل. وكأنها حقيقة مفروغ منها. إن الحياة لا تجري لنا علي هذا النحو، إننا نحتاج إلى الجمال في حد ذاته لتسكن إليه نفوسنا المتعبة بالعمل وبزبنا.

ثم يقول مشيرا للخامسة:

- إنني أرجو أن أكون نصف الذباب الذي يلقي حتفه في العسل. هه ما قولك؟

لم تكن اناث بهذا الضعف والوهن الذي حاولن تصويرها به. صحيح أنها فقدت كثيرا من وزنها بسبب حالتها النفسية السيئة ولكن ربما خدعهن جمالها العظيم ورقتها الفريدة. وعموما فلباس الجمال ضيق ومتهافت علي ذويه منذ قديم الزمن. ردت الخامسة علي جربال باستنكار واضح:

- حقا. إنني أعذرك. فأنا نفسي اختلط عليّ الأمر، فكأني اشتهيتها كأي واحد منكم. فجمالها غير عادي وهذا يجعلها أكبر من أن تطولها الكلمات إن مدحَ وإن ذما. لأنها واقع حي. والكلمات، أي الكلمات، مجرد محاولة لخلق واقع حي شبيه قد تنجح وقد تخفق وإذا نجحت

فليس الأصل كالصورة وإن تطابقا. كما أن صوت تحطمها لابد ممتع. انه جزء أبدي من تلك المحنة الشهيرة: متعة الجنس. وليتني أكون علي مقربة منها ومنك يا سيدي وهي تستجير بما لا تتمني هي نفسها أن تجار منه إلا أن يصل بها إلى مداه، رغم صراخها الذي سيكون فظا مؤلما لأي إنسان خلا الذي تعتريه حمي وصالها. وأنا لم أعتمد علي فرض عدم استعمالها في كلامي. ولكني لا أستطيع أن أتجاوز علي اعتبارها فخ خطر علي من ستكون في عصمته.

قال جربال مسترسلا كالحالم:

- أتمني لو أركبها ولو ذابت بين ذراعي قبل أن أتيقن إني شربت من أحضانها كأس منيتي. أتمني..

الخامسة: إن كنت تصر فحاذر. قد يؤذيك صوت تهشمها بطريقة أو بأخرى.

قال جربال بشجن أثار الجميع. كأنما يتحدث بلسانهم:

- فات الأوان. لقد تبدت الفتاة بقوة كبدعة صادفت هوي في النفوس. والسماء كما نراها طبل أجوف. أملس. فسيح الرجي. ومع ذلك فهي لا تخلو من نسر شارد أو عسس مقامر. فات الأوان يا سيدتي. لهذا فكل ما قلته عنها حلم خالص لن أسعي به علي أرض الواقع.

تبتهج الخامسة. ويرضي كاروا. بينما يكتئب ساشاي ويضيق صدره.

وسألت الخامسة جربال بثمالة بهجتها المفاجئة:

- سيدي. هل يمكن أن أقبلها؟

رد جربال ضاحكا، موجزا:

- وتضاجعيها إن شئت.

كانت لجربال خصلة لا أدر بأي بر أرسي بها عليه فالحزن لا يأخذ منه غير لحظته بينما كان يعطي للمرح والضحك ما استطاع أن يعطيه من وقت وكأنه يستحلب الزمن استحلابا. كان في الحقيقة يتمطع بلحظات الهنا. ولا يؤلمه أكثر من أن يمنعه أحدهم أو بقوة الأمر الواقع، الداهم، من إرسال واستقبال طرفة ما.

تتقدم الأمـة الخامسة مـن انـاث فتهـرب منهـا لكـن الأخريـات بتحريض مـن الجمهور يمسكنها ويشللن حركتهـا وتنتهـي بين ثلاثة أشداء من قريناتهـا. اثنتـان كل واحدة منهمـا تمسك بإحدى يديها إلى جانبها والثالثة ترغمها وهي تجذب شعرها من الخلف علي الانتصاب بوجهها إلى الأمام في مواجهة الخامسة.

قالت الثالثة وهي تلكزها بنبرة إدانة وتوبيخ:

- فيم كل هذا؟ إنها قبلة والسلام؟

وانـاث علـي هذا النحو تقدمت منهـا الخامسة كرجل يتقدم نحو عروسه يساعدها علي فك أزرار ثوبها العالقة في ليلة العمر.

قالت الخامسة لإناث برقة وهي تواجهها:

- انك جميلة جدا. لم تقع عيناي علي مثل هذا الجمال من قبل. لا تخافي.

صوت: اصمتوا. نريد أن نسمع.

صوت آخر: ارفعي صوتك يا أمه. نريد أن نسمع ما تقوليه.

بدت الخامسة ر كأنها لم تسمع شيئا. وحين تضع أناملها برفق متناه وتلمس بحكة خفيفة من ثديي إنـاث الصخريين الحلمة الوردية الصغيرة تنتفض اناث. فتقول لها الخامسه بحزم. بود. بكلمات أرهف من شفرة الحلاقة:

- لا. أرجوك. اهدئي. تجاوبي معي فلا تشعري بأذى.

وتمكنت الخامسه فعـلا مـن إمتـصاص نفورهـا ولكـن انـاث لا تستطيع مغالبة البكاء فتدمع عيناها، تمسح الخامسة دموعها بخدها، لا بيدها، بحنان بالغ وشفتاها لا تكفان عن الهمس المباشر فى أذنها بشئ مـا. ومن دون أن تشعر انـاث تمسح الخامسه كل جسدها بيد حاره قويه وناعمه. ولكنها لم تقترب من قدس الأقداس.

قال جربال معبرا عما جاش بصدور القوم:

- عريها إن شئت.

لا ترد الخامسه. وتمضى فيما هى فيه وفى النهايه تكتفى بتقبيلها من شفتيها بعد أن تأخذ وجهها الملتهب حياء بيديها قبلة طويلة ساخنة متدرجة بقوتها وحرارتها وحجمها حتى تصل إلى درجة الغليان. وتهصرها هصرا لذيذا فينتقل إلى انـاث إحساس شيطانى بالإلتذاذ

والرغبــة وتـــستكين تمامـــاً مـــسلمة شـــفتيها لـــشفتى صـــاحبتها الـشهوانيين.فيمـا كانـت الإمـاء اللائـى يـشللن حركتهـا يرنـون إليهـا باندهاش بعدما شعرن جميعاً بارتخاء ذراعها وميلها إلى الإستسلام. وهكذا فحين أخذت الخامسة شفتيها من شفتى اناث لم يك ثمة داع لأن يرفعن قيدها لأنه لم يعد موجوداً بالفعل.

بعد أن تفرقت الإماء تحاول اناث أن تمسح شفتيها ساخطة على نفسها متحاشية النظر إلى النهايه فى عينى الخامسه بينما يخاطب جربال الخامسه:

- لا أعتقد أنك تريدين معاشرتها فعلاً، أليس كذلك؟

الخامسه: ألم أقل لك يا سيدى أنى أحتقر أمثالها.

وتستدرك بعد لحظه:

- تسألنى إن كنت أريد سحاقها أم..؟

يتدخل كاروا مانعاً الإسترسال فى ذلك الإتجاه ومضاعفاته قائلاً:

- كلا. لن يحدث. اتركاها وشأنها.

جربال: إن.. هذا الزوبعه، أف له، تيس نزق. ضيع نصف عمره ناسياً ونصفه الآخر قيد التأجيل. لو كنت مكانه لقفلت راجعاً بالإماء كلهن.

قال كاروا بنغمة الواثق من ترجمة إسمه إلى مصطلح علمى:

- هل تصدق إدعاء زوبعه بشأن الفتاه؟

جربال: ولم لا؟

كاروا: يالك من ساذج. خبل. ألم ير قدميها البيضاوين؟

رد جربال مستنكراً:

- لم تلفت أنظارنا نحن أيضاً؟

كاروا: ألم تر ساقيه التى لا تكادان تحملانه؟ أم فاتك ذلك أيضاً؟ ثم كيف اشتراها؟ هل باعته القافلة إياها ولا تدرك هى الآخرى أى كنز دفين تبيعه بحفنة رمال.

إلى هنا ويقترب زوبعه دون أن يشعر أحد به. وكان المتحلقون قد تناقصوا إلى نصفهم تقريباً عندما ذهب. فقد ذهب بالإثاره والمرح أيضاً ثم عادوا وتضاعفوا بعودته تدريجياً. أما اناث نجمة العرض

وشهابه الصامت كأنه إكتفى بالإضاءة ولم يبال بالمتعبدين. وكانت لا تلبث على الدوام تحاول الإختفاء عن الأنظار من خلال قريناتها.

عاد زوبعه وبيده "برنل". وقبل دخوله عليهم استوقفه قائلاً:

- أنا.. ثالث نجوم وادى الرعاه تجعلنى أحدث نفسى كالمجانين. وألطم من فرج. أنا.. تجعلنى سخريه لجلف مهين.

برنل: كان الكف كفها والخد خدك فما ذنبى أنا. ثم اننا جميعاً نحدث انفسنا ولا ينفى ذلك وجود الآخر.

قال زوبعه: مأخوذاً:

- ماذا؟ إخرس. لا تلت. المهم الآن ألا تنسى حرفاً مما درست لك. هل تتذكر كل شئ؟

أجابه برنل متذمراً:

- أجل. حفظته.

زوبعه: جميل. اسمع أيها الغلام. استعمل عقلك كما كنت تستعمل عضوك. هل تذكر؟ لماذا لا ترد. أجبنى.

- نعم أتذكر.

ولما يجد زوبعه منه إهمالاً وشبه عصيان ويشتبه بالجملة فى ولائه قال:

- هذا كاروا إبن سيدنا، هناك. هل أناديه ليذكرك؟

انتبه برنل وقال بخوف عظيم:

- كلا. أرجوك.

زوبعه: كما اتفقنا إذن. تحمل الرزل من الزبائن. وإياك من الضجر وعدم التلطف. حذار أن تغضب زبوناً أو تعبس أنت فى وجهه. هذا السوق أقمته بسنى عمرى كله ولن أسمح لوضيع مثلك أن يعرضه للخطر. ناغى المترددين مهما كانوا، وكن صبوراً بشوشاً. فإذا أبليت حسناً جعلتك تعمل معى باستمرار وهيأت لك أجراً ما.

قال برنل محدثاً نفسه:

- آه زوبعه. اى دفعة أمل تعطينى إياها؟ إنك ولا شك مخادع كبير.

زوبعه: إنتظر. ما اسمك؟

قال الغلام: برنل.

زوبعه: ومن أسماك؟

يتلعثم الغلام ويرتعب فيما قال زوبعه مطمئناً:

- لا تخف. فهمت. سرك فى قارورة والقارورة فى بئر والبئر ردمناه.

يدخل عليهم زوبعه وهو يجر وراءه برنل من يده. كان منظرهما معاً مضحكاً للغاية. فزوبعه العجوز قصير نحيف أشبه بالمسخ منه إلى إنسان طبيعى. وبرنل الغلام اليافع، كان نحيفاً طويلاً، ذو عنق ظرافى، واسع العينين أقرب إلى الجحوظ منها الى الإستواء، وبشرة نضرة. فضلاً عن ان يكون لأولها الأمر والنهى على ثانيهما.

وكان زوبعه ترامى إلى مسمعه آخر ما دار بين الجماعة. فبادر كاروا بالكلام.. وبمجرد إلتفاتهم نحوه انفجروا ضاحكين. ومن حسن حظه أنه تابع الكلام بقوة ففوت عليهم فرصة ثمينة لجره إلى دور مهرج السيرك بينما يقدر نفسه بـ "مهرج الملوك".

- هذه هى الحقيقة يا كاروا. إن أصحاب القافلة غشوا فيها. وكان معهم من أمثالها بصورتها الحقيقيه، أى ملونات، أكثر من واحدة. ولو أننى أردت شراء واحدة منهن فإنه كان على أن أبيع نفسى فوق كل ما أملك لأوفى بثمنها. إن الملونات على الأرض شهب نادرة كما أخبرنى سيد القافلة.

كاروا: أى أنك أخذتها بثمن واحد من أولاءك القين؟

ثم يؤكد هامساً:

- وربما أقل.

ينتبه زوبعه إلى بضاعته وجلوسهن جميعاً فى استرخاء كلّ حسب هواها فيزمجر فيهن بعدما استشعرت غريزته التجارية الخطر من تعليق كاروا الهامس:

- قفن أيتها المنحوسات.

يديره كاروا نحوه شاكاً فى نواياه:

- تبا لك. لا تتحايل وأجبنى.

قال زوبعه صاغراً:

- الواقع أنهم عرضوها علىّ من تلقاء أنفسهم. فى بادئ الأمر رفضت فهى ضعيفة هشة كما ترى. كما أنها سوداء قبيحة. فكادوا يعطونيها بدون مقابل.
ثم التفت محدثاً جربال المتابع سراً:
- إن لها خلال عديده سيئه.
جربال: أنت أدرى يا زبى.
قال كاروا يخاطب زوبعه الملتفت إلى جربال:
- أيها الوضيع. إبق معى.
قال زوبعه صاغراً: معك يا إبن سيدنا. لقد اعطونيها بنصف ثمن واحده من هؤلاء.
كاروا: وما الثمن الذى دفعته فى الواحدة من هؤلاء؟
أجابه زوبعه برجاء. متحسباً بشدة من رد فعل كاروا:
- سيدى وابن سيدى كاروا، لا أقدر.. تعلم..
قاطعه كاروا بنفور وقرف:
- ألم يخبروك عن علة ذلك؟
قال زوبعه متودداً إلى كاروا كأنه يخصه بأسرار عليا:
- طبعاً. فبسببها قابلت صاحب القافلة لأول مرة. ذلك أنه لم يكن يستحب لقائى رغم كل محاولاتى الطيبة من قبل. حتى أنى اكتفيت اضطراراً فى النهاية الى التعامل مع رجاله أو مع من ينوب عنه. ولكنه وعدنى أن التعامل سوف يكون معه مباشرة من الآن فصاعداً. يا له من رجل.
قال كاروا بحنق واضح على زوبعه وعلى صاحب القافلة على السواء:
- ولماذا كل ذلك؟
زوبعه: ألم أقل لك؟
قال كاروا زافراً بصبر:
- كلا. لم تقل.
زوبعه: لقد اشترط علىّ سيد القافلة المهيب ألا أذيقها غير الوجع والعناء. كان واضحاً أن رغبته فى أن يسومها سوء العذاب هو ما أبقاها حية.

كاروا: إذن هو انتقام. لماذا ينتقم سيد من أمة إلى هذه الدرجة؟ ماذا فعلت؟

ويتمعن في إناث. فلا يجد عندها ما يشير إلى خطورة من أي نوع

زوبعه: ألم أقل لك؟

أخذ كاروا بخناقه:

- تكلم أيها الكلب الوضيع. أقسم برأس السيد/ الإله لأهدرن دمك إن لم تدفق بكل ما تعرفه دفعة واحدة.

جربال: رحماك كاروا. فمن كان في مثل عمره لا يستطيع أن يدفق مرة واحدة. إن الدفقة الواحدة تأخذ منه ثلاثة ليال.

كاروا: تكلم.

قال زوبعه خاضعاً ذليلاً:

- قال صاحب القافلة أنها تسبب حالة عصيان بين صفوف القافلة لا سيما بين العبيد.

كاروا: كيف؟

زوبعه: لا أعرف. لم يخبرني. هذا بخلاف أنها تتمنع على الشواذ ممن يرغبون فيها، على صورتها القديمه، وتهدد بذبحه ثم الإنتحار. وأنت تعلم يا ابن سيدنا أن الرجل منا في وادى الرعاة إن لم يجد قبولا من أي أنثى، تركها وذهب إلى غيرها. إنهن كثر على أي حال. ويبدو أن الأمر عند هؤلاء القوم مختلف عما لدينا. ولغة التهديد والإرهاب من ناحيتهم لم تثمر معها كأنها تطلب الموت. ولولا رغبته في أن يستفيد منها بشئ ولو كان ثمناً بخساً لكان ألقى بها إلى ذئاب الجبل. كان قد أنفق عليها الكثير بالفعل حسب قوله. قال أنه يعطيها لمن هم قادرون على ترويضها.

ويضيف بكبرياء عظيم:

- يقصدنا نحن. ثم أنه حذرني من طيشها وشبهها بفأرة ذى أنياب. وأوصاني ألا ألو جهدا في سبيل تعذيبها. وحياة السيد/ الإله هذا كل ما أعرفه.

يستدير كاروا نحو اناث وكأنه يحاول أن يجد صدى لمقالة زوبعه في هذه التحفة الفنية الرائعة فينشط دبيب صدره الغامض يحدثه بلغة لا يستطيع فهمها. بينما يتوجه زوبعه إلى برنل بعد أن يصُف الإماء

صفاً واحداً ويبث فيهن الحمية والنشاط والغيرة على مصالحه باعتبار أن عكس ذلك ليس فى صالحهن أنفسهن. ويقول مخاطباً برنل

هيا. هيا يا هذا، إبدأ عملك. إصعد.

يعجز برنل عن تسلق الحجر من أول مرة لانهاكه الشديد من قبل وعدم تركيزه. وينزلق فيضحك الجمهور. ويندفع زوبعه إلى عابرة من العامة ويسوقه من شعره. يركبه برنل مرتبكاً ويصعد.

صخره: من هذا الولد يا زوبعه.؟

زوبعه: إنه.. متطوع لمساعدتى.

جربال: متطوع أم..؟

ويمسك بابتسامه.

قال برنل من جانبه متعجلاً، بغضب أحمق

- أنا حر. أفعل ما عن لى وقتما يعن لى. أنا حر. كأى واحد منكم. حر. وما دمت لا أعترض على ما تفعلونه فلا يحق لكم أن تتدخلوا فيما أفعل ولا حتى بمجرد السؤال فيما ارتضيته لنفسى ولا يضر بأى واحد منكم.

وابتلع ريقه واستدرك:

- ثم انه سوف يمنحنى أجراً.

يكتم زوبعه حنقه من كبوة برنل ويتكدر. ولولا اعتبار هؤلاء الناس وخاصة كاروا لكلمات برنل السريعة على أنها هلاوس طفل أغر إلتاث عقله بمرافقته لزوبعه لأذوه مثلما تؤذى النيران الأطفال. ويضحك كاروا قائلاً:

- اليوم نؤجر الغلمان والنساء. وغداً من يدرى؟ أى قوة خفية تتربص بنا؟

جربال: وإنها لتقذفنا بأسوأ أفكارها يا كاروا. وزبى هذا هو السبب.

يعنى زوبعه ويشير إليه.

صرخ زوبعه على برنل

- إنطلق أيها الثور الصغير. إستأنف عملك.

نادى برنل مرتلاً بصوت رخيم أثر وحنجرة نقية. فخلب الأسماع. فوجئ به زوبعه قبل الجميع وتلألأت على صفحة وجهه آيات

الإمتنـان والزهـو بابتكـاره هذا الإسـلوب الطريـف وباختيـاره الحـسن لمناديه إلى أن قال الغلام:

- هلموا يا أولى الأحلام.

ثم أضاف بركاكة مفاجئة:

- يا أبصار إعقلى ويا عقول ابصري ويا فطنة أقبلي..

قال جربال فى تهكم مستتر:

- يـا أبـصار اعقلـي ويـا عقـول ابـصري. جيـد يـا هـذا. اسـتمر. استمر..

برنل: انتبهوا يا سادة.. الخلاصـة. بضاعة ممتازة. يا أهل الـوادي. يـا أسياد الأرض. من ذا الـذي نـاداني.. مـن يتقدم الـسباق. الـصفوة يـا ساده. هلموا.. أقبلوا..

وحـاول برنـل أن يجذب أقرب الإمـاء إلـى يده للإقدام خطـوة مـن الصف إلى الأمام، فتشبثت الأمة بموضـعها وتحجرت فـى يده. فعلـت ذلـك مداعبـة فارتبـك الغـلام واتجـه إلـى أكثـرهن سـمنة وتضاريـساً فوجدها كسابقتها.

- لا.. إنها تلك.

يجـرى إلـى أخـرى ويـصدم ثالثـه وتُعلـق إحـداهن قدمـه فيتعثـر و يـنفض الـصف محـدثاً فوضـى كبيـرة وأخيـراً تقـبض علـى يـده الأمـة الخامسة وتتقدم به إلى حافة الحجر ويلاحظ جربال ذلك بانبهار.

برنل: تلك.

ويتفرس فى وجهها محاولاً تذكر أي الإماء تكون.

- بنت سيد.. سيد..

وانتفض صوت صخره متذمراً نافراً:

- لا يهمنا النسب فأوجز.

رد كاروا على الفور باشمئزاز:

- كيف لا يهمنا؟ هذا جنون لا ريب فيه.

ويتوجه إلى برنل من أسفل الحجر يستشيط غضباً ويسأله بعنف

- بنت من؟

تلعثم المنادى رهبة من السؤال والسائل. وبدا أنه اضـطرب ونـسى فأجاب زوبعه نيابة عنه:

- بنت سيد الخروج.

أنس كاروا إلى الجواب وأسس عليه بفخر وهو يعنى صخره:

- أو بنت سيد الخروج كواحدة من رعاياه؟

انطلق صوت منافق من أئمة الوادي يخترق لنفسه طريقاً مخاطباً الكافة. ويدعى "برطس". كان قد حضر منذ دقائق:

- هذا حق يا ساده. أو كاروا ابن سيدنا الرئيس العظيم حورا مثل صخره؟. يجب، أقول لكم، الاعتراف ان الحق سابق على الباطل ولكل قدر مقام.

ثم قال يخاطب صخره وهو يتحرك باتجاهه:

- ومع ذلك فإني أنبه بصخره ألا يأخذ كل ما يُدس له حجة على ذويها. ليس في كل الأحوال العمل واجب. العمل شرف. العمل كرامه

نهق صخره والحقد على كاروا ينهش قلبه:

- إذا نصح من كان خله الجنون وظله مجنون. فكل نصيحة بعدئذ فراغ و ليس كل رام بمستحق منا عناء صد ضرباته الجوفاء.

كان صخره يعنى برده الجاف من دون ذره شك واحده المدعو برطس ولكن كاروا اعتقد أن في كلماته تعريضاً جارحاً بمكانته المقدسة. وأنه كان يعنيه بمقالته دون سواه فذهل طويلاً ثم تقدم له متوعداً:

- ألا تبالي؟

ألقى صخره وهو من صغار ذوى الجلود ويعمل لدن قضاعة منذ حداثة سنه نظرة تمزقت على رؤوس الأشهاد سدى. فأدرك حجم تهوره وانه اندفع أكثر من اللازم. ولكنه – كيفما حسب – لم يجد بداً من ارتياد مصيره والمضي في موقفه إلى النهاية.

ولم يغب عن باله رغم تحفظه على ذلك رعاية قضاعة المتميزة له. تلك الرعاية التي عمل قضاعة دائماً على عدم منحه الفرصة كي يتعرف على حقيقتها لا بكونها متميزة بل متحيزة. ولا بكونه عاملاً عنده بل ربيبه.

لم يبد على أحد من الحضور، مهما كان، نية مسامحته إن هو تراجع أمام جبروت الرئيس حورا والد كاروا. ليس لعدم احترامهم أو لإنتفاء مهابتهم واجلالهم لرئيسهم، بل لأن تقاليد حياتهم الاجتماعية

تقضي بألا يتراجع المرء مرغماً إن طلب للتحدي أمام الملأ مهما كان الخصم. فهم يعدون ذلك جبنا وهو مدان ومرفوض وتفتح على صاحبه فخاً لا ينجيه منه غير الموت البطئ، وحيداً. فلا أحد يتعامل معه بيعاً أو شراء ولا يكلمه أحد.. إلى آخر القائمة التي تنتهي حتماً بالموت البطئ.

أما أن يكون الخصم هو الرئيس حورا بنفسه أو ممثلاً في شخص ولده فهذه حالة جديدة تماماً ومن حق صخره أن يتساءل إن كان يمكن أن يسامحوه أو لا؟ وعلى أية حال فقد استقر رأيه بسرعة على اعتبار أنه يتشاجر مع الولد لا الوالد ولو كان الفارق بينها شعره فالشعرة موجودة والفارق موجود.

لم تبدو لعينيه وهي ترين على الرؤوس جميعاً نية الجماهير – من السادة – في التدخل لصالحه أو فيما بينه وبين كاروا ومصالحتهما. على العكس من ذلك فقد استثيروا للفرجة على موقعة حامية الوطيس أحد طرفيها كاروا ابن سيدنا حورا، عينه. ومنذ متى كان سيدهم حورا ممثلاً في ابنه طرفاً في أي نزاع؟

إنه فاطره ومهندسيه.

استعد الجمهور بشهية مفتوحة على آخرها للمعركة المشرفة فاستبقوا وانكمشوا على بعضهم مفسحين المجال للخصمين وجهاً لوجه كأنهم يدعونهما للنزال صانعين حولهما ما يشبه قاب قوسين أو أدنى. ولاحظ أن النقطة المفتوحة من القوسين كانت تلك التي يملأها كاروا. ووجد صخره نفسه يقول في خضوع و استكانة موجعة على نقيض ما اعتزم.

- بلى يا كاروا ابن سيدنا..

قهقه كاروا ملء شدقيه حتى أغرقت عيناه السحب وأمطرت. وشاركه الجمهور تشفية من حمل ضل طريقه إلى عرين الأسد. بينما استاءت وتعاطفت قلة قليلة مع صخره أولهم وآخرهم: جربان.

تدارك صخره رغم أنفه إزاء فحيح الأفعى وقال متلعثماً:

- أي والسيد/ الإله لا أبالي بالخواء الذي على شاكلتك.

حدجه كاروا متفكراً هنيهه ثم قال:

- من أين استقيت تلك الجسارة يا ابن الحثالة؟

وباغت صخره الجميع وانطلق صوب غريمه سهماً رشق هدفه من خفاء فانفلق. ولم يعط كاروا الشجاع فرصة الاستعداد لصده. كل ما استطاع كاروا أن يفعله بمهارة تنم عن تدريب عال أن يأخذه معه في سقوطه المهين على الأرض. وشتان ما بين سقوطهما معاً وسقوطه وحده بينما يقف صخره على رأسه ولو كان وقوف الشجر الميت.

انكفأ كاروا وجثم صخره فوقه ودارت المعركة. وبينما يدور الصراع عليهما دورته العادية بالجوارح ولا شئ غير الجوارح والحظ. فهما متكافئان جسمانياً والأرض يغطيها العشب البري وصاحب المبادرة لن يفقدها مهما جرى. ولولا أن صخره كان صاحب المبادرة الأول لكان كاروا بتدريبه العالي سحقه سحقاً. المبادرة عادلت التدريب الجيد.

أما المتفرجون، كل من مكث حتى هذه الساعة من آل السوق فقد التموا كالهاموش على الشعلة وجاءوا مهرولين كالشظايا من كل حدب وصوب. انفض السوق عملياً بانفجار هذا الشجار وبانفجار الشرارة الأولى فضل بعضهم وهم لا يتعدون أصابع اليد الواحدة أن ينسحبوا من السوق وبرأيهم انه لا أحد يدرى إلى أي مدى تنتهي آثار القنبلة المتفجرة تواً. وما عدا ذلك فثغاء حيوان أعجم في معركة ليس لهم فيها شروى نقير. التهبت الجماهير المحتشدة حماسة وبالأخص الإماء اللائي كن يشجعن الغالب الضارب مهما كان. مرة كاروا، مرة صخره. فتدفقت إثارتهم وسال كأسها. ساشاى الوحيد الذي كان يراقبهما بعاطفة محايدة أو ميتة. أما جربال فإنه تراجع حتى حافة الحجر فبدا في وسط الحلقة الصاخبة كالمعزول الملفوظ. مالت عليه الأمة الخامسة هامسة بشئ فظلا يتحدثان دون أن تتحول عيونهما سيما جربال عن المعركة والمتعاركين.

قالت الخامسة كأنما تستكمل حديثاً لم نسمعه. أو تنهيه:

- سوف تأخذك الحياة من ذكراي.

قال جربال بأسى، شارداً: يؤسفني أن أحدهما سيغادر دنيانا عما قريب ما لم تحدث معجزة. يحسن ألا أنظر إليهما. لا أحب النظر إلى من لن أنظره ثانية.

ويعطيهما ظهره مواصلا الحديث الحميمى مع الخامسة. وتقوم هبه ريح ويبلج من آخر السوق قضاعة.

يلمح الضجيج واحتشاد الجمع فورا. يأخذ فى الاقتراب الهوينى محاذرا متسللاً يعمد إلى اكتشاف الحادث أولاً قبل أن يعلن عن نفسه. ولكن واحداً من الرعية يراه ومن فوره زمجر فى سائر الورى بلهجة تحذير وخوف:

- مولانا قضاعة.

وسجد الرجل بغتة بتلقائية كاعتذار عما حدث. ربما. كتنصل أو كإدانة على تورط العامى صخره فى اعتداء لا تقبله السماء – كما هو متوقع – على كاروا. ربما. وتبعه الجميع دون تفكير وخروا سجداً إلا المتعاركين اللذين غفلا طرقعة الصيحة وطرقعة الصمت المفاجئ. غير أن قضاعة أشاح عنهم بوجهه إلى نفسه فبقوا ساجدين على غير قصد منه. مفسرين صمته على أنه غضب. متوهمين سكونه سكون ما قبل العاصفة الهوجاء.

أو أنه يعد مع السيد/ الإله أمراً جللاً.

بينما انزلق قضاعة إلى الماضي إلى ذكرياته. إلى ما قبل ثمانية عشر عاماً وبضعة أشهر. وما ذكرياته غير ذكرى وحيده يتيمه. هذه الذكرى الدامية التي قامت على أنقاضها دفة حياته العملية وكانت قوة دفع سيارته إلى اليوم. إلى هذه اللحظة. لطالما انتظر هذه اللحظة. لحظة القوه المطلقة. لحظة التمكن.

تلك اللحظة التي لم يكن يعرف متى ولا كيف يحصل عليها ولا بأية وسيله يعقر لجامها. وها هي تأتيه بنفسها. إنه للحق كان دائم التنقيب والعمل لإقتناصها وما خلا وسيلة أو طريقة إلا واتبعها أو جربها. وحاول دائماً أن يعقلها محملاً نفسه فوق طاقتها ومستنزفاً لها: أن يعرف.

وإلى أن تنتهي المعركة وحتى تعلن نتيجة الصراع التي لن تزيد عن واحد من اثنين أو بحدوث معجزه كما تمنى جربال تمنحهما بطاقة السفر معاً على نفس القطار دون أن تكون ثمة ضرورة لأن يتخلف أحدهما، لعل الراوي فى الصفحات التالية يستطيع أن يحدثنا

بإيجاز عن هذه الذكريات. ولماذا سعى قضاعة رسول السيد/ الإله
فى وادى الرعاة لحصاد القوة المطلقة مهما كلف الأمر؟

المشهد السادس

تتتابع بقع من الضوء الأحمر، الأصفر، الأزرق، كل الألوان عدا الأبيض. يبدو في الأفق قمر بالغ النقاء يعمر المكان بضوئه القمرى الناعم.

يدلف الراوى على مهل تطوف به كلمح البصر زفة من الحيوية والاستبشار بسهرة ناجحة. لا يلبث أن ينتبه متأخرا لإنشغاله بتحية الجمهور الى البقع الحمراء فيهرع ناحيتها متلهفاً لكنه لا يلحق بها. يتوقف على محيطها حزيناً يرقب اختلاف الألوان بعبوس. بألم. حتى يعود الأحمر من جديد. يحاول أن يطولها فتتحرك فارة منه أكثر من مرة. وأخيراً يثب بداخلها – وقد طابت نفسه – بخفة وظرف كما لو كان يعبر منخفضاً صغيراً جداً فى الأرض ملأوه (هم) بالوحل.

يؤسفنى أن أنتحل واحدة من أكثر تعبيرات الراوى ترديداً بين شفتيه الرائعتين. لطالما تحدث معى باهتمام عن ذلك الضمير الجمعى الغائب: "هم". وهو ما يعنى على كل حال، هاجسه الدائم.

والمثير الى ابعد حدود الإثارة أن "هم" المجهولين هاجسهم الدائم: "هو". الكائن المفرد الغائب.

انتبه، سوف يلزمه المسطح الأحمر الى نهاية العرض.

وصفه واحد من المتفرجين بالآتى:

بسيط جداً. رائع جداً. أنيق. يرتدى لباس عصرى كامل. ينم مظهره وتناسق ألوانه عن حس رفيع وذائقة عالية. وتنم خطوط ألوانه عن طبع صارم من التحفظ والتحرر ككفتى ميزان حساس. فى أوج رشاقته. طويل. يتمتع ببنية سليمة وعضل طبيعى. يتهدل فوق كتفيه فرو نسائى أرجوانى اللون يعلقه بعناية فائقة فوق مشجب فضى غير لامع قائم بذاته خلف البار. ولا يعود الى ارتدائه مرة أخرى. نظارة شمسية ذات حجم كبير تراوح مكانها ما بين عينيه ويديه طول الوقت. سيجار. حذاء رياضى "كوتشى". يشرب ويدخن ويتكلم بدقة متناهية، وحيث أنه لا يهملها قط، فسرعان ما تبدو بألفة طبيعية عفوية تماماً.

لم يبد فى أى لحظة انه على عجلة من أمره. يُوجز حين يتحتم الإيجاز ويُسهب لضرورة الإسهاب.

لسلوكه – حركة وكلاماً – طلاوة واتزان تأسر مستمعيه دون فكاك. وله أسلوب حضرى متميز رائق. ويكاد يمثل لنا نحن المشاهدين نموذجاً حيا اقرب الى الفوز بالحقيقة الممكنة منه الى السقوط فى هاوية الخيال للإنسان السوبر. الإنسان كما ينبغى أن يكون بما ينبغى له أن يكون. ولو أنه – رغم ذلك – لا يمكننا أن نضع روحه فى الميزان نفسه.

قال الراوى فيما قال ذات مرة: "حين يغتنى الناس وتظل ظلالهم تنشع برائحة عدم الاستحمام الطويل فإن أمامنا خللاً هائلاً فى روح الإنسان يتحتم البحث فى علته وفى دوائه."

والراوى مثقف. هادئ. دقيق. منظم. نظيف تماما. حر. غير مثقل بأية أعباء وظيفية أو بمعنى آخر: قسرية. حتى وإن بدت غير ذلك.

وغالبا ما يمثل بيديه الرائعتين النظيفتين تماما كالرخام فى القصور الرئاسية بعضا من فقرات كلامه الذى تتخلله – أحياناً – لفظة أجنبية شائعة ليست من لغة واحدة بعينها.

وهو لا يغادر منطقته على يسار المسرح حيث يوجد بار مفتوح باتجاه المنطقة اليمنى – نصف المسرح الأيمن – منطقة العرض الفعلى – وليس باتجاه الجمهور.

بخلفية البار خريطة ضخمة مضيئة ذات ألوان زاهية كُتب على هامشها بخط حسن: "وادى الرعاة". وهى نموذج مكبر لخريطة بدائية كان ساشاى قد رسمها.

ثمة فونوغراف نادر فوق البار عند زاوية التقائه بالحائط يساراً. يرسل موسيقى كلاسيكية حالمة. يقوم الراوى على فترات متباعدة بتغييرها الى بعض المعزوفات المنفرده الحزينة جداً، الحديثة جداً. ومنها مقطوعة لا تزيد عن دقيقتين اقرب الى النواح الليلى منها الى موسيقى تناجى الروح. والحقيقة ان تلك المقطوعة بالذات فى كل مرة اسمعنيها الراوى كانت تبدو كسكين تنظف روحى ولا تترك لى منها إلا القليل. وكذلك يسمعنا الراوى بعض الأغانى القصيرة، الجميلة،

فنستمع معه الى مقطع من أغنية الساعات، وموال الصبر المدهش، لصباح ومدبولى على الترتيب.

أمام البار مقعدان اثنان من مقاعده العالية ذوى مسندين خيط قماشهما من القطيفة الحمراء. وبالقرب من مدخل البار قريبا من منتصف المسرح يوجد مكتب صغير دائرى من الزجاج الخالص النقى شبيه الكريستال يجلس الراوى إليه بعض الفترات فيبدو أبطال العرض الأخرين فى متناول ذراعه ولكن لا يحدث أبدا اى اختلاط بينهما ولا يحدث أبدا أن يدخل الراوى منطقتهم او العكس. كأنما يفصل بينهما جدار وهمى لا يمكن اختراقه. وهذا صحيح فعلا، لا على وجه التشبيه.

وفيما بدا أن الراوى يشاهدهم كما نشاهدهم ويبدو تفاعله وتأثره بأحداثه أضعاف تأثرنا بهم. أحيانا متوافقاً مع ما يعلمه وأحيانا مكملاً له وأحياناً مخالفاً مناقضا لما لدية وما عنده من وثائق أو معرفة سابقة. فإنهم لا يشاهدوه كما لا يشاهدونا بأى حال.

حين سألت الراوى جاداً عن مكتبه الدائرى قال ساخرا:"خشيت أن ينشأ صراع بينى وبين نفسى على مقعد الرئيس." وعندما لاحظت انه لا يوجد سوى مقعد واحد فقط خلف المكتب لم أرد أن أسأله شيئا قد يظهر غبائى. وهو الأمر الذى سوف يشكل بكل تأكيد فى حالة حدوثه إعاقة كبيرة فى انسيابية واستمرارية علاقتى به. وأنا حريص على دوامها الى ابعد حد، لأن: "الغباء شئ غير إنسانى بالمرة". بنص كلماته.

كان الكرسى خلف المكتب مصنوعاً من الخيزران ومصبوغاً باللون الأبيض الحليبى. وبدا لى كرسيا ثميناً رفيع الصنعة.

وفوق سطح المكتب انتصب تمثالان صغيران بحدود الثلاثين سنتيمتر على قاعدة واحدة يمثلان قضاعه وحورا فى حالة اشتباك

ولن يكون بوسعنا أن نستدل على نتيجة محددة من ذلك الاشتباك الغامض إلا من خلال الإضاءة الكاملة فى آخر العرض حيث يكون الراوى قد قام بنقلهما الى سطح البار. وبواسطة النور والظل وحده سوف نستطيع أن نرى ما أراد النحات أن يصل بنا إليه. وهو ما لم يكن ظاهرا بحال على التمثالين الصغيرين المنشأين على قاعدة

واحدة. كما أننا سوف نرى مع صورتيهما المنعكسة انعكاس أخر لكل ما هو فوق سطح البار. وما كان فوقه إلا الكئوس وقنانى الخمر.

إما أن التمثال اكتسب هذا الوضع الجديد إبان العرض ونما كأى كائن حى. أو بسبب الضوء والظل وزاوية الالتقاط. فضلاً عن أننا فى تلك اللحظة وحدها سوف نكتشف ملامح حورا وقضاعه الكامنين فى التمثال المزدوج. وأكرر: "ذو القاعدة الواحدة".

وعندئذ سوف نعرف لماذا أولاهما الراوى عنايته؟ ولماذا كان ينظر إليهما باستمرار أثناء حديثة كما لو كان يستنطقهما التأكيد على صحة أقواله.

كل شئ فى منطقة الراوى يوحى بنظام ونظافة التشريفات الملكية الدال بطبيعته على ذوق عظيم وجهد أعظم. كما يوحى هو نفسه - الراوى – بالرفاهية فى حدها الأقصى. لا كملك إن افلح هنا أخفق هناك، بل كعبد صالح حالفه التوفيق بالخلاص من الأشرار الثلاثة، أشر ما أنتج الإنسان: الفقر والجهل والمرض.

كما يوجد حشد هائل نظيف ومرتب وبراق من مستلزمات البار الممتاز وغالبا ما يخاطب الراوى جمهوره وكأنه جمهور غائب يحجز بينه وبينهم شيئاً ما قد يظهره مترفعاً عليهم. ربما بسبب ما توفر له من أفضلية سابقة عليهم بمراحل، سلوكاً وحياة. دون أن يتلبسه بتوفيق كبير دور المعلم على حفنه من التلاميذ متوسطى الذكاء. وما يؤكد ذلك حرص الراوى على الدقة وصدق خطابة الواضح.

إذن فالجمهور يبدو معظم الوقت على هامش حركته مع كونه يتوجه بخطابة إليهم وموجود بالأساس لأجلهم. وبرغم حضورهم الدائم فى ذاكرته فهو مستغرق دائما فى شئ ما. ولو كانت أفكاره ذاتها.

ويلاحظ أن حركة الراوى فى منطقته مفتوحة تماما وغير مقيدة فهو يتناول وجبه طعام خفيفة – ساندويتش- يجهزه بنفسه. يختفى دقائق خلف الكواليس ويعود، ربما فى سبيل قضاء حاجته. كما أنه هو الذى يقوم بإعداد مشروبه الخاص سواء كان مشروبا من العصير

الطبيعى أو كوكتيلاً من الخمر. ويفعل ذلك بمهارة لا يعوزنا الإشارة إليها. كل ذلك والعرض مستمر.

لا يجمع الراوى مع منطقة الحدث على يمين المسرح غير الخلفية: إطار القمر البازغ بقوة والأفق.

وأرض البار مفروشة بموكيت وثير أخضر – كأنه بما نقش عليه من نجيل وعشب – امتداد لأرض السوق. وهذا ما يمنح الناظر انطباعاً حراً بوجود وحدة ما بين المنطقتين.

وإذ يترامى الى أسماعنا فى وجود الراوى أصوات خافته لهدير مكائن نائية أو منبه سيارة مارقة وباستمرار: رعشه مكيف.

فإنه عندما يكشف النقاب عن منطقة الحدث اليمنى ومتزامنا مع بداية عرضها يتلون الجو بعاصفة رملية مغبرة وتعوي الريح كوحش جائع. ونستمع لإشارات مباشرة دالة على مكان صحراوى ومجتمع بدائى.

توجه الراوى اثر دخوله الى قرص القمر البهى بأسى بينما تعمل أصابه فى ثنيات الفرو بحنان وقد علقة لتوه فوق الحامل.

قال الراوى مخاطبا القمر:

"مرحبا يا هذا. ليتك تعرف كم أحبك. ويا ليت بمقدورى أن أكون معك. هناك. أنا وأنت، وحدنا. لكنى هنا، كى أحكى لهم تاريخك المجيد أيها السيد وما تم حذفه من المقرر."

يضغط الراوى بإصبعه على جهاز تسجيل يبدو وكأنه يتكلم فيه ولكنها، كما أعلمنى الراوى على غير عادته: "مجرد خدعة لجأت إليها، حتى لا يشعر ناظرى أنى القى عليه دروسا." ويا لها من حيله بارعة.

قال:

"اليوم سيداتى وسادتى"

ثم إلى طفلة حلوة بين الجمهور كما يراها فى خيالة:

"آنستى الحلوة، سأقص عليكم حكاية ذلك الزمان البربرى حين أمسى للصوت لأول مرة معنى بالاتفاق على معناه.

وقد اتفقت مع صديق لي على الاستعانة ببعض المشاهد التمثيلية لعرضها عليكم سينمائياً لتوضيح بعض فقرات كلامي. وأتمنى أن تحوز تلك المشاهد الصغيرة، السريعة، رضاكم وتسعدكم.

طبعاً تعلمون ان الزمن ظرف فكيف أصبح فعلاً؟ وما هي طبيعة فعله البربري؟ وهل كان ثمة أصلاً زمناً بربرياً وآخر متمدين؟ وهل يمكن أن نجد الجواب محصوراً في قولنا زمن البرابرة عوضاً عن الزمن البربري؟"

يطفئ سيجارة في فم مطفأة لها شكل حوت من السانستيل الجيد ويتجه الى الطاولة الزجاجية فيلتقط من فوقها ملفاً نقش عليه بخط أحمر عريض: "زمن البرابرة". يقلب صفحاته ثم يقول بعد أن يعود الى صفحته الأولى:

"مسجل لدي أن قضاعه كان الإبن الوحيد الذكر لغصن رئيس وادي الرعاة السابق وقد قُتل... يشق علي كثيرا أن انتقل بكم دفعة واحدة الى تلك الحقيقة المفجعة.

أنكم لن تتألموا لمقتله إن قتل أو لموته أن شرب جرعة ماء وتمدد فمات".

يمثل الراوي بيده الإنبساط والتمدد فالموت على نحو رائع. ويكمل:

"بسبب أن لا علاقته لكم به. ولكن هل صحيح أن لا وجه شبة أو صلة بينكم وبينه؟ سوف نرى على أية حال.

وفي الواقع أولى بكم أن تجزعوا وان تتوجعوا لهلاكه، هذا الرئيس الصالح، العادل. هل تحسبون أن إتيان العدل شئ يسير؟ العدل كالفضيلة يعوزها إنساناً فذ لتُسلم له قيادها.

وسوف أجيز لنفسي أن أناشدكم: إذا رأيتم صرحاً عظيماً ينهار بعد أقل من لحظتين من ميلاده فلا توندوا حزنكم. إحزنوا ما شاءت نفوسكم وإياكم والبكاء فليس كالحزن النبيل مطهراً للنفوس. ولا أظنكم تدفعون عنه ضرائب.

كان قضاعه وقت اغتيال والده الرئيس غصن حدثاً أتم لتوه ثلاثة عشر ربيعاً. وكانت شقيقته قد أخذت تكشف عنه بنجاح لأول مرة ورقة التوت بعد عدة محاولات سابقة باءت جميعها بالفشل والإحباط.

كانت تكبره بضعف عمره تقريبا، تحبه كأخ، وتعشقه كذكر. وكانت تترقب بنفاد صبر وبشوق عظيم لحظة ازدهار المحصول وتيبسه لتكون أول يد تمتد لقطفه وفق ما جنح بها خيالها ألف مرة ومرة.

حسناً، لقد بدأ لتوهما يضعان الريش في الطائر لحظة أن قامت القيامة وهدر الوادى بالنبأ المشئوم: "الرئيس مات. الرئيس قتل." غير أن الغلام ما استطاع وهو مأخوذ من مربط روحه بين ساقى اللذة وبين ذارعين أمضهما الصبر واللهفة إلا أن يتم مرغماً ما كان قد بدأه ودموعه تغرق وجهه وتبلل الوجه الآخر المحموم.

كانت لوجهه فى ذلك الحين سيماء الملائكة الطيبين ولبريق عينية خصوصا اندفاع جنسى مقتحم وجاذبية آثرة للجنس الآخر. لقد ذهب كل ذلك وبقى الأثر.

لم يكن فى ذلك الزمان من العار أو من الخطيئة أو من باب الشعرية مضاجعة الأخت أو معاشرتها. وكانت المرأة وهى تمنح نفسها لأخيها تقول كما نقول فى عصرنا المتحضر: "هيا يا حبيبى شد اللجام. أنى مستعدة لتسافر بى وراء الغمام".

ولم يكن الرجال فى وادى الرعاة أبهين للجنس بالقدر الذى أصبحوا عليه إلا عندما أعطى قضاعه النساء الحق فى منع أنفسهن عمن يردن. وعاد من باب آخر يمنح احلى النساء وأكثرهن جمالاً وفتنه لرواد معبده ولأكابر الناس فى الوادى خصوصاً.

وكانت النساء تزود عن إخوتهم الصغار من الذكور بالقدر الذى يذود به الرجل الآن عما يسمى "حريمه". وهى كلمة مطاطة شأن كل كلماتنا الآن، فهى تعنى: الزوجة والأخت والعمة والخالة وربما كل من حملت تاء التأنيث فى بيته وشارعه وربما حيّه ومدينته.

أعلم أن بعضكم سوف يدور رأسه استهجاناً أو استغراباً وقد يتقزز بعضكم أو يغادر. لكن صبرا، فما أكثر الحقائق الخالصة التى نمر عليها جيئة وذهاباً ونكاد ندرسها بأقدامنا دون أن نلتفت نحوها بمقدار من الاهتمام، أو نضع خلفها خلسة، علامة استفهام ونولى الإدبار". مثل الراوى الجيئة والذهاب بتكرار نكاد نرى بعده القمح طحيناً.

"كأننا مثل من جلس منذ سنة شاهراً سن قلمه وأمامه الورق الأبيض المسطر ومازال يترصد أول السطر. والى الآن، من قال أن زواج الأشقاء قد أنتهى؟

والآن، خلوا بيني وبين السؤال: حتام نتعامى بينما تتقلب الحقائق تحت أجفاننا وهي مسجاة عارية؟

بناء على ما لدي من وثائق فإن قضاعه لم يكرر تجربة الجنس ردحاً طويلاً من الزمان وتحاشا النبوغ في مضمارها اللهم لماماً، إن جاز التعبير. عفواً، إن جاز أو لم يجز فقد قلناه وانتهى الأمر. أليس كذلك؟

كان لتلك التجربة التي عاشها قضاعه ودموعه التي انهمرت مدراراً فالهبت شريكة فراشه شهوة وسيطرة، ولم يعرف هويتها، أنعي لوالده الرئيس غصن أم بسبب الفعل اللذيذ الى قامت به أخته معه. وهو على أيه حال، طالما سمع أن الأولاد – وليس البنات – يبكون عند قيامهم بهذا الفعل العجيب أول مرة. وحينها طاف بخيالة صورة شقيقته عندما أبصرته قادما من بعيد، كانت تستحلب معزة كامرأة ناعمة فانقلبت يداها برؤيته الى منشار حاد يوشك أن يمزق ثدي الحيوان الأعجم. لولا أنه عوى وانطلق كالمقذوف هائما على وجهه نحو التل القريب، مثيراً في الأرض وفي نفس الغلام عفرة كثيفة. وكان لتلك المسألة في نفس قضاعه الغلام أثراً كبيراً على نفسه كعضة كلب حفر بدوره أثراً واضحاً في تعاليمه اللاحقة للناس.

أما حورا الرئيس الحالي لوادي الرعاه فقد كان في ذينك الحين الذارع اليمنى، وبديهي: "الأمينة" للرئيس غصن حسبما ظهر لسائر الناس في الوادي.

ذلك الثعلب اللئيم، حورا، بلغ درجة من الاحتراس والمكر لم يرتقيها سواه. فكان يبطن كما يظهر. تصوروا، لم يكن يأتمن على ما يضمره فعلاً – لب عقله وضميره – غير نفسه. نفسه وحسب. ولو كان للنفس نفسا ونفوسا أخر، لكانت موجودة عند حورا وحده. فأن يجد الوقت بعد ذلك للاحتياط من نفسه ومن نفوسه جميعا فذلك من حسن حظه ولا شك إذ كانت المخاطرة في تلك الأيام الموغلة في القدم اقسى مما يمكن ان يجنح بنا خيالنا المتحضر فلا تلاعب

بالألفاظ. لا تسويف. لا مراوغة ولا نصوص أغرقنا في تفاصيلها لغرض إحكامها فانتفخت ثغراتها كثدي امرأة نفخته الهرمونات. ولا محاماة مهنتها – العلنية- قتل البراءة. وتخليص الرؤوس من بين حلقات الدرس أو من خلف قضيبين على غرفة نسميها زنزانة.

في الزمن البربري الغابر ما كان لأحد أن يتجاسر على اتهام غيره أياً كان دون بينه. وان امتلكها فحقه أصبح كالخاتم حول إصبعه. والبينة في عرفهم كانت تعني التلبس ولا شئ آخر. أما الكلام عن الحجة، والدليل، والقرائن وما الى ذلك فلا اعتبار لها عندهم. وان عرفوها جميعاً بأسماء أخرى. وبذلك لا يحق إلا الحق فوراً. والعقاب مذهل: الموت. لأنه كان دائما، الموت، بسيطاً ومباشراً.

وكانوا لا يفرقون بين حالة وأخرى وكل الجرائم تتساوى. القتل كالسرقة كالفرار من الحرب كالبصق على الأرض. طالما اتفقوا على تصنيفها جريمة. والعقاب من ثم واحد: الموت، ذلك السهل الممتنع.

نعم، ليس بالإمكان أن يمثل متهم دون أن يكون متهماً بالفعل. تلك كانت قاعدتهم القانونية الوحيدة فيما يخص الجريمة. بحسب توصيفهم لها.

هكذا تدبر حورا أمره فلاحق سيده غصن بنصف عين مفتوحة. وسوف أقول متحملاً المسئولية كاملة عن رأيي هذا: من رأى منكم حورا غير كامن تحت جلدة سيده "غصن" فليرمني بحجر.

لقد أفنيت من عمري أعواماً تلو أعوام بين مئات المخطوطات وآلاف من التجارب الشخصية الحية فضلاً عما أنفقته في ملاحقة حورا نفسه ولا يزال يدهشني قلب ذلك الرجل المدعو: حورا. وعندما سنحت الفرصة نهض حورا وحده مشمراً عن ساعديه بمؤامرة اغتيال وليه ورئيسه من ألفها ليائها.

هذا ما سجله التاريخ بأمانه وثقه وعدل. لا أعني التاريخ كما هو مسجل في شذرات هنا أو هناك بل كما أسرده أنا عليكم. فهم من تشمموا ونقبوا في أطلال وادي الرعاة. وأنا من عاش في ربوعه. ناهيكم عن احتفاظي بكلمة السر. "فهم هكذا"، ولم أكن قط "هكذا"، وما خلصت إليه في أعوام وأوصله إليكم خلال ساعات استلب من ذخائر عمري الكثير. ولو أني كنت محظوظا فعشت عمري الخاص

كما قررت ان يكون. لم تستدرجنى متعة الركض والمغامرة عبر الدروب غير المأهولة بغية ترقيمها بعلامات مرورية ومن ثم التوقيع تحتها بزهو وكبرياء. إنها متعة العدو حتى انقطاع النفس بينما السرير على بعد خطوتين.

لم تغونى متعة النفس عن متعة الجسد وطريقها المطروق بألف مصباح. وهذا لعمرى درب من التوفيق قلما يحظى به الكثيرون من شاكلتى، الأمر الذى لا يدل على تفانيهم بقدر ما يطفف من نضجهم وصواب نظرتهم علميه كانت أو اجتماعية.

وأما عن غناى الذى حتماً لاحظتموه وأتمنى ألا تحسدونى عليه بقدر ما أتمنى أن تحذوا حذوى فى طريقة الحصول علية فأنا بعد العمل بالتجارة البسيطة بضع سنين اشتريت قطعة أرض زراعية لم أؤجرها ولم أبعها ولست أزرعها بيدى. فأنا أؤجر المهندس الزراعى والعامل الفلاح والمكائن. إننى بالمختصر المفيد استثمرها من مكتبى هذا، من أمام هذا البار، ودائما أزيد من مساحتها. لقد نجحت فى ذلك لسبب بسيط هو أننى أتحاسب مع كل العاملين حسب الإنتاج، نوع من المشاركة الباطنية بلا أوراق أو عقود.

لم أجد فى نفسى هوى للاستحواذ على تسعون بالمائة من أرباح المحصول وإلقاء الفتات للعاملين معى، بل إنى آخذ حصة مثل ما للمهندس والعامل، وفى هذا نوع من المشاركة الباطنية الاجتماعية بينى وبينهم بلا أوراق، بلا عقود. وطبعاً، كنت أضع على الدوام هامش خسارة محتمل فى كفاءة المهندس وجهد الفلاح وعطب المكائن.

عموماً، أنا لم أرد التشكيك فى تاريخ وادى الرعاة غير أنى أخال الأمر يحتاج إلى لفتة توضيح قاسية كانفتاح عين الموتى بغتة فى أفلام الرعب. فمن وجهة نظرى الشخصية جداً أن التاريخ يكتبه الحاكم وليس المحكوم الذى لا يفقه شيئا عن صناعة الخبر مع أنه هو الذى يزرع الحنطة. إذن فلكى تكتب تاريخاً صحيحاً معافاً يتعين عليك أن تكون ملكاً أو حاكماً. وهو شرط كدفاع منيع يستحيل اختراقه، يعوض عن ذلك أن تكون موهوباً بالفطرة أو بالوحى أو بشم التراب.

ويحز في نفسي أن هؤلاء الذين يكتبون تاريخكم اليوم هم أناس بائسين في الأغلب الأعم. يقولون: انظر. تعلم. هذا حقل ما نجو، وذلك موز، وأما ذاك فحقل.. إنهم للأسف لا يتحدثون عن التربة. ويزيد الطين بله ان يكونوا عاكفين على التخصص بمزيد من التخصص. وفي النهاية أقول لكم: حذار ان يكتب تاريخكم حاكم.

لا داعي للحيرة، فالمسألة كما بينت لكم بحذافيرها.

لقد عاهدتكم منذ البداية أن أعرض عليكم بضاعتي مصفاة خالصة مادام قد وسعني ذلك واليكم تفصيل ما حدث في وادي الرعاة.

انتهز حوار فرصة إغارة خارجية، وكان ذلك عندهم من المألوف المعتاد، مثله مثل الإنسان تصفعه على خد فتجد له خداً آخر.

كانت الغارات بالنسبة لوادي الرعاة، جحيماً بدرجة تنور كبير مشعول طول النهار على بعد ياردة واحدة من فراشك، صيفاً. ونادراً ما يشتعل ليلاً. فالمغيرون كسكان وادي الرعاة أنفسهم كانوا يرهبون الظلام رهبتهم من طقطقة أغصان الحطب في النار المقدسة. وكان لإله الظلام جماهيريته الواسعة قديما كما هي حديثاً، وكان للنار مثلها قديما وحديثاً.

كانت معظم القبائل تحرم الإغارة ليلاً، خاصة في أيام اختفاء صاحبي هذا "يشير الى القمر" لقضاء بعض مشاغله. كل كائن له مشاغله وهمومه الخاصة، والجميع يبحث عن "هو".

وبعد اختراعهم المشاعل بدأت بعض القبائل تتحلل من هذا الإلتزام العرفي الديني باعتبار ان ركوب الظلام في الإغارة ييسر عليهم الظفر بالغنيمة بخسائر أقل. هل يوجد بين الكائنات من هو أمهر من بني الإنسان في ركوب أية وسيلة جديدة، مهما كانت، طالما كانت تمكنه أو تقربه من الهدف سنتيمتر واحد أكثر. ومهما كانت مضاعفات هذا السلوك على النظام العام وعليه هو نفسه في المستقبل البعيد.

ولكن، تلك المرة كانت غير كل مرة. اذ زادت ألسنة اللهب وتضاعف الوقود من الناس والحجارة وتصارخ الوادي: الصمود. الصمود.

كـان لعدد وعدة المغيرين مفاجـأة لهـا وقـع الـصاعقة علـى أقدام محاربى الوادى البواسل فضلاً عن تخلى هؤلاء المعتدين عن نهجهم الحربى نسبياً، فر وكر، للمرة الأولى.

لـم يكونـوا، كمـا تحـدث النـاس فيمـا بعـد، يريـدون الأنعـام والإبـل والمياه وبعض العبيد كالعادة بل كـان هدفهم الإبـادة. ولـم يمضوا أبعد من ذلك فيقولوا الأرض بالنتيجة لإبادة سكانها.

لم يكن لوادى الرعـاة جيشاً نظامياً بـالمعنى المفهوم ولكنهم كـانوا يحاربون عن بكره أبيهم وكل من استطاع ان يفعل شيئا فعلـه، وكل من استطاع أن يحمل شيئا حملـه، يتقدمهم جمهره متميزة فـى أدائهـا وشجاعتها كـانوا يبـادرون دون وعـى كامل بـأدوارهم بمجـرد اشتعال الفتيل الى، ترأس أو قيادة الأداء العام للمعركـة وحـال أن تنتهـى الغـارة يعـودون الـى مكـانتهم الإجتماعيـة قبل أن يعـودوا الـى إشـغالهم كـأى واحد من سكان الوادى. كان كل سيد يحارب وحوله عبيده ونسائه.

ولقد لاحظت "يقلب الـراوى مجموعـة مـن الأوراق فـى يـده" ان معظم هذه النخبة كانوا ينتمون الـى الأسـرة الكبيرة – أسـرة غـصن – ومن دار فى فلكها.

إنه لأمر غريب حقاً، كأن الفقراء فقراء فى البطولة كمـا هم فقراء البطن. هل لإمـتلاء الـبطن دور مـا فـى الفروسية ومـا الـى ذلـك مـن أحـوال عظيمـة. اغتـنم حـورا الآسـن كبركـة مـاء راكـد منـذ قـرون الفرصة وقتل سيده ورئيسه غصن ثم أذاع كأسد هصور خسر لبؤتـه فى معركة حقيرة مع أرنب برى أن سيدة غصن عـاش شريفاً ومـات بطلاً صنديدا. وطفرت من عينـه دمعه ثقيلـة تبعهـا سيل من الدموع الحارة. ولو قدر لهم أن يحللوها لوجدوها دمعه فرح تُؤذن وتـؤذن فـى نفسه ببدء عهدة هو، حاكمهم الجديد.

حالما قتل حورا مولاه ورئيسه غصن بذل جهداً وشجاعة خارقة حتـى كـاد ان يصبح بمفردة نصف قوة المحـاربين من وادى الرعـاة. وشهد الجميع بطولتـه، وحكوا عنهـا بعدئذ لسنوات.. ربمـا حدثـه قلبـه وقتئذ انه لا يدافع عن وادى الرعاة، قدر ما يدافع عن مُلكه هو.

مـن المـشكوك فيـه أن نحـدد بدقـة متـى وضـع حـورا خطتـه؟ لكـن المؤكد الى حد معقول قياساً الـى قدراتنا التعقبيـة الهزيلـة ونحـن نتتبـع

تاريخاً موغلاً في القدم كورقة بالية في حوض ماء لا تستطيع مسها. فلا أنت تستطيع قلبها على وجهها الآخر ولا حتى تثبتها ولكنك تستطيع ان تقرأ عليها، في حركتها، بعض السطور من وجه واحد.

المؤكد أنه لم يخط خطأ ولم يخبط الألوان. بيد أنه في تلك الساعات العصبية من اندلاع القتال بل في تلك الثواني المعدودات التي لاح فيها الحلم المعشش هناك في مكان ما من شعاب قفصه الصدري قرين الفعل والتحقق في آن.

هل فوجئ حورا بوجوده – حلم رئاسة وادي الرعاة - وبقدرته على نفض ريشة والتحليق كطير جارح مثلما فوجئ سيده غصن بطعنته الفذة. ليس بالإمكان أن نجزم بشئ من ذلك. ولكن حورا هب من لحظته فخطط ونفذ بضربه واحده موفقة مطيحاً بكل رؤوس الحية الأسطورية دفعة واحدة. غير أن حورا الشاب آنئذ ما كان باستطاعته مهما أوتي من قوة الشباب وضراوتها ان يروض قوة الشباب ذاتها، ففاته في غمرة ازدحام ما تكشف تحت بصره، في تلك اللحظة الفارقة، كبقعة من الضوء لاحت فوق عشرات الكمائن والألغام وانكفأت قبل أن يلحق بها البصر بكل ما كشفت عنه. هكذا بالضبط فاته الإلمام بكل نتائج ضربته الغادرة، كلها في سلة واحدة.

وهكذا أيضا كان نجاحه يشبه نجاح لص حازق تمكن من فتح الخزينة الأمنع. فخلبت عينة المجوهرات وأخذ يعب منها ما شاء. ولكن فاته منها واحدة أو إثنتان كان بينهما أهم جوهرة.

فلم يستطع أن يغتصب الملك عقب مصرع الرئيس غصن من أسرته القوية التي أهالت عليه السد فكاد يجرفه، لمجرد أن قال كلاماً في السلطة. ألم يحكموا وادي الرعاة أباً عن جد وسلفاً عن خلف؟ بل ومن ذا الذي يشتط به الخيال فيتصور الحكم غير هذا الحكم ومن غير تلك الأسرة؟ من؟ أن من العار التفكير في ذلك.

ولقب "الرئيس" ذاته مولود حديث جداً، وما طفر فوق السطح إلا على عهد الرئيس غصن. وبالتحديد مترادفاً مع انفراد هذا بالحكم دون أسرته. كان مجلس حكماء الأسرة، وجميعهم من كبار السن، يدير شئون الوادي، على نحو جماعي. وكان غصن أصغرهم سناً وأحدث من انضم إلى المجلس.

وظل الرئيس غصن حتى شق صدره الخنجر ذائع الصيت فى عصرنا المتقدم واعنى به خنجر الخيانة.

حقاً، من بات يصيبه الغثيان أو يطأطئ رأسه نحو الأرض، أو يتأمل السماء بعين كسيرة حالما يسمع به: أخ خان أخيه. ومواطن خان وطنه وقس خان ربه ونفس خانت نفسها. لقد شاع فماع.

آه، ما أسرع التغييرات التى تجتاج وادى الرعاة بعد كمون طويل يكاد يكون مستحيلاً بغير أن يكون الموت هو المرادف الصحيح له. بمجرد أن تحركت المياه الراكدة فوق السطح لم يستقر فوران البئر عند القاع.

على كل، ظل الرئيس غصن حتى الرمق الأخير يصرف أمور الحكم بين الناس بالعدل باعتباره حكماً بين الناس وليس تحكما فى رقابهم. لقد فهم ذلك منذ البداية ومن ثم درج عليه. وبالمحصلة النهائية خرج إلينا رئيساً صالحاً محبوباً ومهاباً هيبة أعطاها الناس له عن طيب خاطر.

كان يردد باستمرار على منتقديه من أسرته عينها: "عملى هو أن أمسك العصا من منتصفها وان أبقى على كفتى الميزان مضبوطة ليلاً نهاراً، أما شئون الرعى وغير ذلك فلها ناسها".

وقال: "أرفض أن أعمل وحدى بينما الآخرون يعملون للحصول على قسط أوفر من الراحة والغنى."

كانت فكرته هذه أعمق من مجرد المعنى السطحى واللفظ البسيط التى تبدو عليها. لقد أراد وخاصة فى أيامه الأخيرة أن يضع مقولته تلك موضع التطبيق. ولكن لا للناس ولا أسرته سمحوا له بذلك.

ووقف غصن حتى النهاية ضد محاولات أسرته المستميتة لإغراقه فى خضم حياة الناس بالتدخل حتى فى مفاصل أقدامهم وتحت ألسنتهم، إن استطاع. لم يكن غصن حاكما عادلاً وحسب بل وبحسب ما كان العدل فى مفهوم العامة.

انتم فى غنى عن التعريف أن بين عدل الأغنياء – الأغنياء فى كل شئ - الذين لا يعدموا الحجة والحيلة، والقوة بمفهومها الواسع، أى الثروة مع العلم، لارتهانهم فئة أخرى من الخلق مهنتها الحصرية إمدادهم بالقوة عينها، أى الثروة مع العلم. وذلك – مرة أخرى -

لإرتهانهم المال فى خزائنهم دون سواهم. وعدل الفقراء – الفقراء فى كل حاجة- ما لا يمكن القفز عليه هكذا، كأنك تهش ذبابة اعتباطاً ويأساً من النيل منها فتجدها على الأرض تحت قدميك.

وقفه

يا للتعاسة، حتى أنا حينما أخذت أقارن بين عدل الأغنياء وعدل الفقراء. وأنا أتعاطف مع الأخيرين إلى درجة أنى فكرت يوما أن أهب حياتى وثروتى لأجلهم عن طيب خاطر، وهو تعاطف عقلى كما هو وجدانى، حيث لا ضامن لى ألا أكون واحدا منهم غدا. أنا أو أبنائي من بعدي. وإذن فمن الواجب أن أعدهم واعد أرضهم لاستقبالى فى حياة كريمة اذا ما انزلقت قدمى إليها وتحتم علىّ الإقامة بينهم.

لا أخفى عليكم سرا، إنى أعشق أبنائى الذين سوف يُولدون بعد مائة أو مائتى عام. ويقلقنى جدا مستقبلهم.

حتى أنا على ما بينت قدمت فى حديثى الأغنياء على الفقراء. حتى "هم" فى الكلام المجرد سابقون متقدمون.

ولو أن أحدا لم يسألنى لماذا لم أفعل؟ لماذا لم أقدم على تلك التضحية النبيلة ما من شك فى ذلك؟ فسوف أتقدم بشهادتي مجانا: لأنى كلما تقدمت فى أبحاثى عن شعب وادى الرعاة وجدت ما يبعدنى تدريجيا عن مجرد إعادة التفكير فى تلك التضحية النبيلة بالنفس من أجل أوغاد مهملين منافقين جبناء."

يُسمع صوت طرق خارجي. يغادر الراوى البار دقيقة ثم يذكر فور عودته:

"وان لم يسعفنى الوقت أو الجهد بالأحرى كى أناقش هذه المسألة الأكثر حيوية وأهميه من خبر برج بيزا الذى أعلنوا عن سقوطه قبل لحظات."وبشير بيده إلى حيث خرج ودخل". فإن ما يبدو لأول وهلة أن العدل هو ما اصطف إلى جانب العامة، الأكثرية.

قد لا يحصل بذلك العدل بذاته.العدل المجرد. غير أن الرئيس غصن كان يدرك العدل على هذا النحو وعلى أساسه بنى مجده وجماهيريته.

قبل ذلك كانت أسرة غصن هى التى تحكم مجتمع وادى الرعاة كله، وهو مجتمع محدود الموارد متخم بالسكان قياسا إلى أقدم المجتمعات القريبة إليهم. مجتمع دينى وحشى فى ديانته. لم يعرف عنهم أبداً عبادتهم للأوثان. معزول بقسوة، بطبيعة الأرض نفسها، كأنما تقف وراءها يد مدبره حاقدة، لئيمة.

من يدري؟ ربما كانت يدا مساعده كريمه على نحو آخر، ومن وجهة نظر أخرى.

انظروا..."

يتجه الراوى بالشرح على الخريطة المعلقة خلف البار. مستعينا بعصا ليزر به:

"هنا وادى الرعاة. أترون؟ فى الشمال كما فى الغرب سلسلة جبلية وعرة. الجنوب مفتوح على صحراء تخالطها بحار من الكثبان الرملية السهلكة. ولولا ذلك لكان بإمكانهم على مسافة شهرين من المسير المعتدل بالإبل أن يتواصلوا مع إمبراطورية متقدمة تسيد على نصف المعمورة أنئذ. ولعلهم فى ذات يوم يريدون مناطحتها فيحيل بينهم وما يريدون نفس الحاجز الصحراوى الذى طالما أمنهم.

أما من الشرق الصحراوى المطروق على مسافة مئات الكيلومترات فيوجد نهر. هنا.. واسع وكريم وعلى ضفافه تشيد بسرعة فائقة وبإبداع إنسانى محض معجزة حضارية سوف تبقى هكذا إلى أبد الأبدين. ولا أظنهم فى وادى الرعاة ــ الحفاة - استدلوا عليها.

وبهذا يقع الوادى فعليا بين فكىّ كماشة لحضارتين واحدة تزدهر باطراد وأخرى تنبى بازدهار لا مثيل له.

فمن هنا وهنا... وهنا. فى الجهات الأربع يرفع ابن وادى الرعاة رأسه فلا يرى غير الهلاك، رمال وفراغ وأرض قاحلة ووحوش تعدو هنا وهناك خلف أرزاقها سريعة القدمين. فاندفعوا دفعاً إلى الالتصاق بأرضهم وعشق ترابها. ولولا القوافل بأحوالها الغريبة فى عيونهم. والغارات لإعتقدوا أن لا حياة إلا فى واديهم. وان الأرض كل الأرض أرضهم.

فى الربيع تبدأ الثلوج فى الذوبان فوق تلك القمم. ومهما حصل فإنها لا تتسبب بفيضانات مدمرة. إذ تنحدر صاخبة نحو الوادى

كمجموعة أشرار يتقدمون باتجاه عذراء عند نهاية الزقاق المسدود. حتى أن من يراهم من بعيد يحسب ان لن يبقوا فيها على أثر. لكنها تتجمع بفعل ساحر في شخص واحد يقعى تحت قدميها مُسلماً وينصرف. إذ تنحرف المياه بحدة عن مسارها المستقيم آخذه بالتجمع فى مصب طبيعى متماسك ومحكم حفره الزمن بأظافره لتنتهى فى حوض طبيعى أسفل الوادى مباشرة. هنا. ولهذا الحوض الواسع من المياه يدين وادى الرعاة بحياته ووجوده. صحيح ان الحوض يقع فعلياً فى نقطة التماس مع أرضهم إلا أنهم فضلوا منذ زمن بعيد هجره والإقامة على ميعدة ميل أو أكثر منه تفادياً لغارات طالبى المياه العديدين، ولا سيما قبائل الخروج، ثم جاء حورا وقضاعه فصححوا هذا الخطأ الفاحش.

عبر تلك السلسة الجبلية فى الشمال والغرب تأتى القوافل مارة بالعديد والعديد من البلدان الصغيرة. ويا له من طريق ملتو ضيق وعر. لقد ركب المضطر ومازال راكباً الصعب.

هذه القوافل تمر بالوادى فى طريقها إلى هنا.. حيث يقطن فى أقصى جنوب ذلك النهر مجتمع آخر متقدم بقدر طفيف عن وادى الرعاة ولكنهم تميزوا بثراء أرضهم من المواد الخام فهم منذ بعض الوقت رغم تصحر الجزء الأعظم من أرضهم هندسوا الزراعة وأدركوا كيفية عمل بعض التقنيات البسيطة. ولو.. انظروا.. تجنبنا سلسلة الجبال الأولى هذه إلى نهايتها عند السفح قبل أن ترتطم بالبحر فسنحصل على طريق استراتيجى سهل يربط بين هذا المجتمع هنا والمجتمعات التى تعيش وراء السلسة الجبلية. وبين هذا المجتمع وذاك. ولأصبح وادى الرعاة فى أسوأ الأحوال همزة وصل تجارية خطيرة بين أكثر المجتمعات العمرانية الموجودة آنذاك.

وثمة هنا فى تلك الأنحاء المتجاورة جنوب وغرب الوادى تتبعثر قبائل صغيرة من البدو الرحل قليلة الشأن. ولعل أهمها على الإطلاق قبائل "الخروج" عير أن حاجتها فى مواسم الجفاف أو تمرد الطبيعة ومرضها ترغمها على النيل من الكنز المفتوح الدائم: الوادى. الذى صحى فوجد نفسه محتكراً المياه بصفه دائمة. تخطف منه مقدار حفنه وتفر باتجاه الصحراء المفتوحة على مدى الشوف.

وباعتقادى أن الهجوم الأخير كان تحالفاً بين أكثر من قبيلة بزعامة "الخروج" وكان منظماً جداً لهذا نالوا من شوكة الوادى أن لم نقل كسروها. وموت الرئيس غصن فى الغارة الكبرى خلف فى نفوس أهلنا فى الوادى نزعاً دائماً الى الخوف من المغيرين. والذى لم يستمر طويلاً بفضل سياسات حورا الحكمية الشجاعة القاسية الذى صرح فى زمانه الغابر قائلاً: "على الرجل الصالح أن يضع حياته كلها تحت خط أحمر".

وبالمناسبة فان سكان وادى الرعاة – كخطأ فادح سيدفعون ثمنه باهظاً فى المستقبل – قلما اهتموا بتلك القوافل. فكانوا يستقبلونها بحس بليد، وترفع زائف. لا بناسها ولا بما حملت ولا بأرضها وكيف تكون؟ ولا باتجاهها وماذا تريد؟ تماماً كما تنظر العير لنا أو ننظر لها. كما ينظر البدائيون للسيارة ونحن نبادلهم النظر من داخل نوافذها المعتمة. ذلك أنهم لم يغفلوا قط عن حقيقة واحده تملأ أفق حياتهم: "ان واديهم الأعظم والأفضل على وجه الأرض."

يبتعد الراوى عن الخريطة يبقى بعض الوقت ممسكاً بعصا الإشارة ذهبية اللون الشبيهة برمح صغير.

"يلذ لى دائما أن اقعد على هذه الخريطة. متمعنا متأملا. إنها نموذج مكبر لخريطة رسمها العبقرى ساشاى بنسبة خطأ لا يتجاوز اثنين بالمائة. يا له من فتى. يلذ لى دائما أن امسك بالعصا وأشرح لضيوفى حكاية وادى الرعاة."

يأخذ الراوى فى مطالعة بعض الأوراق لدقائق. يشغل الفونغراف. يشرب كأساً. يستمع لأغنية الساعات متأملا. ثم يعود فينهيها زافرا بسعادة. ينهض مواصلاً حديثة:

"كان القرار والحكم قبل فترة حكم الرئيس غصن جماعياً. لم يكن ثمة تداخل فى الألوان." وكان السهل سهلاً، والتل تلاً، وما ساد عليهما جبلا." هذا ما يزعمه الاثرياء عن زمن ما قبل حكم الرئيس غصن، فى مجالسهم الخاصة. لهذا لم تكن هناك صعوبة جدية أو عناء يذكر فى اتخاذ القرار. فالكبار، والسبعة الكبار خصوصاً، متفقون بالبداهة على ما يجب أن يكون وهم متفقون بداهة لتساويهم الطبيعى فى الحقوق والواجبات باستثناء غصن الذى بدا بينهم ومن

وسطهم كتمرد بسيط، عصيراً واعتصر أكثر من اللازم. تمرد سلوكي أو طباعي وليس تمرداً عقائدياً يتجسد كحلقة أولى في سلسة حلقات متتالية يمكن أن تسحب البساط من تحت أقدامهم. فهو يناقش ويهاجم ويميل كعباد الشمس للحق باعتباره ظرف ما في حالة ما بدون تعيين على الإطلاق اللهم بقدر ما يمثله الأفق لعيوننا. وليس بأية حال حقاً مجرداً. ومن هنا برز وتعين وشغل مجتمع وادى الرعاة وتدريجياً الى أن أصبح الرئيس.

وبرأيي المتواضع أنه لو كان امتد به العمر سنوات معدودة أخرى لكان فاعلاً ما بقى الأثرياء يتخوفون حدوثه. لأنه كان قد بدأ – تحت ضغط التأييد الشعبى الجارف من العامة لمذهبة النقى – يفكر.

فالواضح انه كان يقود وادى الرعاة – بتأثير حورا – نحو مجتمع عقائدى مغلق. يقول حورا لسيدة غصن فى نص موثق: "إذا كان من الضرورى أن يكون وادينا منغلقاً على نفسه فالأفضل أن يكون منغلقاً على شئ ما. فلولا أن الهراء لا ينطوى على شئ ما كان هراء".

بدأ غصن يتشيع للفقراء بما هو حق أساسى لهم وليس – بأى حال- على حساب الأغنياء. ولكن وفق هذا المنهج العادل البسيط هل يمكن لشجرة الغنى ان تثمر: ومن البداية أن تنمو؟

ولولا صلاحه الذاتى المحض لنشبت الحرب بينه وبين ذويه وأهلة قبل أن تحصل بينه وبين عامة الأغنياء ومن تعلق بتلابيبهم. بيد انه عمل بإخلاص متناه وبجدية صارمة ضد تصادمه مع قومه وذويه الأقربين داعياً إياهم للمرة الأولى فى المجتمعات القديمة بأسرها بذوى الرحم ففوت على حورا – المتربص – الفرصة تلو الفرصة للوقيعة فيما بينه وبينهم بعد سنوات من العمل الشاق الدؤوب للتمكن بالانفراد بغصن كأقوى حليف له ومقدماً نفسه لذويه كبديل جذاب.

كان الناس قد أحبوا غصن واستهواهم الى حد كبير ما يدعو إليه من أفكار – لم يتحقق معظمها – تصب في جيوبهم ولو بطريقة غير مباشرة. فاستحالت محاولة ايذائه – وقد أصبح الرئيس بقوة الأمر الواقع – ضرباً من الجنون المحض وعبث شيطان أخرق.

وعموماً فلن يقدم الأغنياء – دون غيرهم – على عمل ضده قد ينجح وقد لا ينجح؟ وعلى العكس، دفعهم الخوف الى الإرتماء فى أحضانه فزادوه قوة وبأساً وما أرادوا من صميم قلوبهم غير دق عنقه بالحديد والنار.

وبسبب عبقرية الشر التى تمتع بها حورا، مساعده، وطموحه الذاتى الخاص الذى ما انفك يغذى به نفس مولاه ويدسه له من حيث لا يدرى أو كان يدرى ويتجاهل. وحيث أنه يرافقه بحرص الشمس على حب الظهور يومياً من لحظة استيقاظه وحتى يداعب النعاس الجميل مخيلته صار غصن على درجة ممتازة من المهارة وحسن الإدراك. فلم يتوان عن الإفادة من كل بدع وحيل مساعدة حورا بعد ان يلبسها شخصيته هو. وتصبح من نسيجه هو. من ذلك أن حورا أشار على سيده بأن يفرض على أثرياء الوادى ضريبة سنوية على تجارتهم. ولكن غصن طلب أن يتبرعوا بحصص سنوية من الغلال تخزن لحين حاجة الوادى إليها فى موسم قحط أو حرب. واقتنعوا بسهولة بطلبة ونسوا أنهم بالفعل كانوا كلٌ على انفراد يفعل مثل ذلك منذ زمن بعيد. ولكن غصن كان يعنى "بالحاجة إليها" حاجة الفقراء أولاً وأخيرا.

ولئن اختلط الأمر على أغلب العارفين فلم يُعرف متى يبدأ فعل غصن ومتى ينتهى فعل حورا، فمن نافلة القول أن نعود لنؤكد من جديد على شخصية غصن الراسخة القوية فلم يكن بالشخص الضعيف المهزوز. وكان ذا بنيان سليم قوى وان عابة غلظة فى الوجه أقرب الى القبح لم يرها فيه إلا أعدائه والمستشعرين بعداوته. وكانت هذه الملامح الخشبية تورثهم إرثاً مقيماً من الخشية والتطلع.

كان حورا لغصن رغم كل شئ، كفارق السن بينهما – الفرق بين عمر حورا والرئيس غصن يعادل الفرق بين حورا وقضاعه ابن الرئيس غصن – وباعتباره مقحماً عن الأسرة الحاكمة، عماداً وظهيراً خطيراً.

لا أريد أن اسنط وأقول لولا وجود حورا الى جانب غصن لما استطاع الثبات فوق قمة السلطة ولكنه من دون مراء كان له قسطاً

وافرا في احتفاظ غصن بما انتزعه وحده دون أية مساعدة خارجية ولو أنها كانت لفترة قصيرة: ثلاث سنوات.

نبت حورا من قاع مجتمع وادى الرعاة فأمكنه ان يدل مولاه غصن على الطريق الى هناك. فأعاد صيانته وإنارته من جديد. لم يفعل حورا ذلك حباً أو رغبة فى المساعدة. فلئن كان ثمة من يحتقر الفقر والفقراء فى وادى الرعاة فلن يغلب حورا فى ذلك المضمار. وإنما لإدراكه الموجة الطويلة التى تعمل عليها نفس سيدة وتقربه منه حتى صار فى النهاية قريباً له بالدم.

لم يكن من السهل على حورا الغريب عن الأسرة ان يغدو ذراع الرئيس اليمنى فاعتمد دائما ومنذ وقت مبكر على أن يظهر قليلاً من النفاق، وطبعة المتعجرف لا يتحمل المزيد منه، وكثيرا من الجهد والعمل، عمل النجابة والدهاء على مدار الساعة. حتى إذا قدر له أن يتسلم السلطة بعد غصن ما كان لديه إلا أقل القليل مما يمكن ان يضيفه الى أفكاره السابقة أو يستحدثه بفضل مشاحنات نفسه الصاخبة الطويلة مع نفسه وأحلامها وما ينبغى عمله أو السكوت عنه.

كان حورا يحارب بدهاء، منفردا، حكمة الكبار السبعة من الأسرة العتيده. وكان النصر حليفه دائما كأنما عقد معه عقداً أبدياً لم يلزمه بأكثر من الحضور فى الموعد المحدد على مدار الساعة فى قلب سدنه الحكم. ليس لخطل فيما يتفوهون به بل لإستطاعته قضم ما يقدمون وإخفاقهم فى هضم ما يتقدم به. بلسان غصن فى البداية ثم بلسانه مباشرة بعد ذلك. تارة عن عجز ومرات عديدة عن إهمال وسوء فطنه وكلا الفريقين صحيح. حورا وغصن من جانب والحكماء السبعة من جانب آخر، لو استثنينا حساب النوايا.

وحتى إذا كانت مقترحاته، لاسيما ما تعلق منها بتوطين السلطة فى يد غصن بمفردة، ضده الآن فهى معه على المدى البعيد. لأن حورا كان ينطلق بأحلامه وطموحاته من فضاء لا يشتمل على وجود الرئيس غصن بنفس الأرض التى يرتكز عليها الرئيس نفسه الآن. لذلك ما فتئ ينظر الى كافة قرارات الرئيس التى يصدرها كطعام نيئ سيأكله فيما بعد وعليه أن ينضجه منذ الآن.

لشد ما كان يتأذى إذا ما رأى قراراً يمر من أمامه وربما بيديه ولسانه يخالف رأيه ومعتقدات نفسه الحقيقية.

كان حورا يستثمر الى أقصى مدى ميل الرئيس للتوحد وعدم الإكثار من الكلام فينفتح هو أكثر حتى قام في النهاية مقام لسانه. ومن سخرية القدر، أن ذروة تمكنه من مكانته بجوار غصن ذراعاً أيمن، وحيدة. كانت ليلة مقتل الرئيس.

كان حورا في بهيم الليل، وحدة، يضع وعيناه تخرقان السماء كنصل سكين فتوشك ان تنزف، عدة سيناريوهات محتملة لأمر يريد تحقيقه، لم يك من بينها القتل، أو لأمر يريد نفيه، ربما كان من بينها القتل، فضلا عما كانت له من حسن بديهية وذكاء فطرى ممتاز. كان رجلا ذو قوة خيالية رائعة وواقعي الى ابعد مدى.

من القرارات التي وقف حورا وراءها توصية سيده غصن بأن يؤول الحكم بعد انقضاء الأجل المحتوم الى ابنه قضاعه – ليسد الطريق على الأسرة – في خطوة لم يسبق لها مثيل في وادى الرعاة وبتلك الحجة نفسها يثير العداوة بين غصن وأهله. كان الأهل سريعوا الاستثارة ضد ابنهم غصن، ولكن غصن كان يبدى طول الوقت خضوعا واحتراماً لهم. ويمتص غضبهم بشتى الطرق. ومع الوقت ينفذ ما أراد.

غير أن سكان الوادى إزاء حبهم لرجلهم الأول – ومعبودهم – ما كانوا يفكروا أو يسمعوا بأفضل مما كانوا عليه قبل سطوع نجم معبودهم الفاتن برغم ما واظب على دفعه إليهم خاصة في زمنه الأخير من أفكار وأطروحات كانت تغلى لها سرائر الكبار السبعة والأغنياء على السواء، مغلولة أياديهم حتى عنقها عن تدبير أى عمل يرد على الرئيس رشده المنفلت. لعدة أسباب:

أولا: انقسامهم الدائم في طريقة معالجة المسألة برمتها.

ثانياً: الخوف.

ثالثاً: الأمل في حدوث إنقاذ خارجي من خلال الآخرين يتمثل في حادثة ما أو شخص ما.

رابعاً: عدم تقديرهم لوجود حورا الى جانب الرئيس بأكثر من كونه "لا شئ".

خامساً: قدرتهم الفعلية حتى هذه اللحظة بتوقيف أو تجميد تسعة أعشار بدع الرئيس. فالرجل قال الكثير وفعل القليل – الكثير فعلاً فى عيون الفقراء والأغنياء على حد سواء وان اختلف التقدير أو التصنيف شراً وخيراً - من أجل الفقراء.

وهو معهم ولا يمكن ان يفعل إلا ما هو صالح. وحتى إن أخطأ فإنهم يلتمسون له الأعذار بأفضل وأصخب مما يلتمسها هو نفسه لنفسه. وبذلك انشغلوا عن أنفسهم به. فلم يستثمروا فرصة وجوده على رأس السلطة لصالح مستقبلهم وتكريساً لمكتسباتهم قدر ما أهملوا فى حاضرهم ومستقبلهم. فما برحوا يعللون ويهللون لكل كبيرة وصغيرة يتنخى بها الرئيس حتى إذا ما أخذتهم الحقيقة المرة وغارت الغمامة تبينوا أنهم لم يعودوا موجودين بين عشية وضحاها. وإزاء الفيض الهائل من مقترحات الرئيس غصن العادلة لم يحدث فى كل مرة يصنع لهم جديداً أن تساءلوا عن مصير القرارات السابقة وبأى أرض باتت ليلتها.

كان غصن يهدف الى تعليمهم قبل أن يهدف الى إطعامهم. لكنهم كانوا سباقين دائما الى طبق الطعام وليس الى السؤال: رأس المعرفة وسفح العدالة.

ظل حورا يعمل بلا هوادة كى يظهر، وليس للمناسبات هنا دور، فى مسوح الزهاد الأتقياء. ومن ناحية ثانية كان موفقاً فى فهم طبيعة نفسه المنحطة وعلى علم تام بعقداتها. كانت نفسه حقلاً ملغوماً وشفراتها بين يديه وحده فى منتهى الوضوح والثبات. ففهم من خلال المقارنة والتجربة والاختلاط الواسع بالناس من القمة حتى القاع نفوس كل الناس، البسطاء والأسوياء والمنحرفون والأغنياء وحتى قمة الوادى التى ليس لها مثيل: غصن. ومن دونهم ومن فوقهم كما هى كانعكاس لنفسه هو فحيد نفسه أو أغناها من زلات السقوط وما كان بغير ناج منها لولا هذا.

وللحقيقة فهو لم يعترف قط بنفس سويه ولم يتخيل أو يتوقع أو يعرف بإمكان وجودها. كما لم يعترف قط بالفضيلة: "فى القاع يؤمنون بها ولا يستطيعون العمل بمتطلباتها لضيق ذات اليد. فى القمة يؤمنون بها، كلاماً، لأنفسهم. وفعلاً واجب التنفيذ لسواهم من

الأدنون. لم ولن يفكروا فى العمل بها لانفتاح ذات اليد. فى الوسط تتقلب الآيات فإما صاعد وإما نازل: لا ثبات ولا إقامة دائمة.

لا يسمح لك بالإقامة فيها لفترات طويلة فهى تستقبل من فوق ومن تحت وتلفظ أيضاً، كمجرد محطة للاستراحة، الى ما فوق والى ما تحت. والخطر لا يأتى إلا من فوق ومن تحت. وأما الوسط فهو محطة عبور، حتى بالنسبة لمن يتمسك بالإقامة فيها، لا تستحق ان يقف المرء إزاءها بأكثر من مجرد الرغبة بالبول فيها ومواصلة المسير.

ولهذا السبب أيضاً نجح فى الاستمرار فى تغذية أنانية رئيسه وبث الدفء والحرارة فيها طول الوقت بطريقة سلسه. ولما كانت مقترحاته لا ينقصها البراءة والطهر الكافيين لجعل غصن يتقبل منه اللقمة تلو اللقمة، مفسحاً له المكانة الكبرى من بعده. وليست الأولى بكل تأكيد. فقد ظل الى اللحظة الأخيرة مانحاً إياها الى أسرته، بدءاً من بناء بيت خاص للرئيس متميز فى معماره عن سائر البيوت يكون للرئيس فى حياته. ولكن غصن كعادته طوّر هذا الاقتراح ليكون البيت الكبير مقاماً للرئيس الحالى فى حياته، ولكل رئيس قادم من بعده. أى أنه ملكية خاصة للرؤساء. ولم يمض أبعد من ذلك ليقول أنه ملكية عامة لوادى الرعاة بأسره. وليته فعل. ويسمى المنزل الكبير.

وتلك كانت آخر خطوة فى سلم نقل السلطة كلية واحتكارها فى يد غصن وحده وانتهاء بإعلان وادى الرعاة مملكة دون أن يعلقوا اللافتة لجهلهم بالاسم.

ما لم يدركه حورا دوماً ان العلة الأولى، أرضية وجوده الى يمين غصن لسنوات عديدة حتى قبل انفراد الرئيس بالسلطة لم تستند بتمامها إلى المعيته وخدماته الجليلة وحدهما بل لانتسابه المبدئى الى الدرك الأسفل من وادى الرعاة. وذلك ما قصده غصن قصداً وإن لم تتح له الفرصة لإعلامه بذلك فى أى وقت من أوقات سمرهما الطويل.

لقد زعم غصن بشاعرية فجه فى محاولة منه لتسكين قلقة ومردود عليها من ضميره أولاء، ولتطمين السبعة الكبار من أسرته العتيدة.

انه لا يملك من بيت الرئاسة — إذ يعيش فيه — حق الموت تحت قبته عندما تحين ساعته بقدر ما يحق لأى واحد من سكان وادى الرعاة.

كان انتقال غصن للسكن بمفرده فى بيت الرئاسة يوماً مشهوداً غطت صخب احتفالاته على صخب نفسه وخوفها الفطرى من الوحدة التى لم يألفها من قبل ولا ألفها قبله سواه. وعلى أى حال، فلم يعش فيه أكثر من ثلاث سنوات.

حين قال حورا كلاما فى السلطة بعد مصرع الرئيس مباشره كادت تفتك به أسرة قضاعه بن غصن العظيمة لولا أنه بدهاء محارب فذ وبعرض حصيف بارع ابتدع فى حينها ما أسماه "حق الوصاية". فبسبب ما جوبه به من رفض عنيد وقوى بل وتهديد صريح بالموت تلجلج حورا فى مفتتح دفاعه عن نفسه واعتصر فزل لسانه وهو يتخبط معتذرا فى كلمته التى أراد بها سحب مقالته الأولى فقال الوصاية.. وحق الوصاية وعندها كأنما انشقت الأرض عن أفضل فرسانها لحمايته والذود عنه. تماسك وبدأ يتثبت بكلمته والحق بدعته بقوله وقد رأى الآذان جميعها مصغية وحمأة الهجوم الأول عليه خبت: "وهذا الحق لى وحدى بالتزكية لعدم وجود منافسين. ومن قضاعه؟ ابنكم. وماذا سأفعل؟ سأحمى حكمة. وإنى لقادر على ذلك." وتلك لعمرى بدعة أخرى. ألم يك كما زعم بإخلاص كلب ونعومة أفعى نائب الرئيس ومستشاره والمقرب إليه لعده سنوات. ألم يكلفه الرئيس المغدور غصن أن يحل محله فى بعض قضايا النزاع الكبرى. فضلاً عن ذلك، فالجماهير تؤازره.

نعم كانت الجماهير، بعد ما شاع وذاع عن بطولته الخارقة بعد مقتل الرئيس مباشرة، تؤيده بقوة مبعثها العاطفة نتيجة هلعها بالآتى، بعد ان ذهب عنهم فى طرفة عين نصيرهم الأول وحاميهم الرئيس غصن. ولو أنهم لم يتساءلوا عن حقيقة ما فعله لهم بصرف النظر عن مشاريع الصابون وماذا بقى لهم منها غير التسجيل التاريخى وحكايات المدافئ؟ واستعر تأييدهم له بتأثير ما أخذ يروج له سريعاً عن علاقته بالرئيس ومشاركته إياه فى إتخاذ كل قرار صدر لصالحهم ومطعما ذلك كله بحكايات وهمية وحقيقية عن إنسانية الرئيس من واقع حياته الشخصية. وطبعا احتفظ حورا لنفسه دائما

بدور مساعد البطل/ البطل في كل صوره وحكاية يقوم بإخراجها من الصفر الى الواحد الصحيح. وهو الأمر الذى نفاه جملة وتفصيلاً في لقائه الأول – المغلق - بأسرة غصن.

كان السبعة الكبار لغز الألغاز بالنسبة لحورا، ولقلبه وعقله حتى أنهم كانوا يبدون كتوأم واحد. أو شخص واحد بسبعة رؤوس، وإذا ما انضم إليهم أحد من الأسرة صار بسرعة وكأنه توأمهم جميعاً فإذا كان قصيراً أصبح في طولهم، وإن كان بديناً صار في مثل رشاقتهم. كان حورا يهابهم مجتمعين، فإذا التقى بأحدهم منفرداً رآه مثلما يرى أى جربوع في الوادى والحقيقة ان أحداً لم يرهم إلا مجتمعين.

وعندما اراد السبعة الكبار من أسرة غصن دفن حورا حيا بكل ترهاته عن الحكم والوصاية وحق الوصاية الخ إكتشفوا فجأة أن الرجل يسبقهم بأميال وان اذرعتهم مهما مدوها تعجز عن أن تطوله.

أما شعب وادى الرعاة فلم يقطع برأى واحد في حورا. فقسم منهم قال بأنه الأصلح. وهو منهم في أول الأمر وفي نهايته. وقسم آخر شك في نواياه. وكأنهم – بلا دليل – رأوه على حقيقته.

يبدو أنه مهما فعلت الحية لتضليل مقتفي الأثر فلابد وأن تترك أثراً طالما تسير. ولا يتبقى لها إلا أن تطير وهذا مستحيل.

فترة

من الأوهام العظيمة التي اجترحها سكان وادى الرعاة إيمانهم المطلق بتمثيل النعمة والنقمة في شخص واحد. له ذراعان وقدمان مثل ما لهم. صحيح أن ما فعلة الرئيس غصن لأجلهم لم يقربه سواه، يكفي أنه وقف الى جانبهم وفي صفهم علناً ودون مواربة.

"العدل مكدس بالاكوام في الوادى. ويبقى أن يوزع بالتساوى بين الناس". هذا مقطتف من إحدى خطب الرئيس غصن.

لم يتصور شعب وادى الرعاه إمكانية وجود من يبذه أو يتفوق عليه في هذا، بل في إمكانيه أن تتكرر التجربة والشخص مهما كان ولم يفكروا قط في أذرعهم وأقدامهم المماثلة لما كانت لغصن.

لم يتيحوا لعيونهم قط الفرصة للنظر بحرية والرؤية بعيداً عن الضوء الساطع. لا أستطيع لومهم فحين تعتمد عشرات الأذرع في أمنها على ذراع واحدة فإن. كان النصر من حقها تحت لوائه

فالهزيمة نصيبها لا محالة فيما لو دارت الدائرة فاستدارت عليهم تلك الذارع – نفسها- بوحدها. ساعتها لن تطاوعهم إرادة العصيان وإن أرادوها.

كان حورا، في حياة الرئيس غصن النجم المتألق، شبحاً لا طيباً ولا شريراً لم يَزل لسانه أو يده بما يؤخذ ضده في الأوقات العصيبة كما هو الحال الآن. ولكنه كان موجوداً هنالك الى جوار رئيسهم المحبوب طوال الوقت. وثمة كلام متفرق هنا وهناك على أنه هو من قادهم الى النصر على طغمة العدو بعد ما تسلم الراية من يد الرئيس المحناة بالدم. والحقيقة أن رغبة الانتقام الوحشية حال سماعهم الخبر – وبجملتهم حورا، هي التي دفعتهم الى تمزيق العدو وليس أي شئ آخر، وهذا ما يعرفه تمام المعرفة حورا الشجاع. ويلح على أن أدعوه الوغد فلا أقدر.

نعم لا أقدر، فليس لأنني أنعته بألف صفه ذميمة أن أمتنع عن وصفه بألف صفه حميدة، طالما وجدت.

ويشهد البعض على مسامع حورا نفسه أنه قتل قاتل الرئيس وانتقم بعد ان طارده في الصحراء نصف نهار. وأنهم شاهدوه يفصل رأس كل من يجندله، بسرعة ليس لها مثيل، وقبل أن يهوى المقتول على الأرض تكون رأسه سابقة لجسمه ارتطاماً بالأرض و.. و.. وبالجملة فهو صاحب فضل الانتصار والانتقام. لهذا عوضوا لا شعورياً عن الرئيس الراحل به، بينما قضاعه ما انفك طفلاً غريراً. ومادام الرئيس في حياته وضع ثقته فيه وولاة فإنهم لفاعلين.

يا سلام. مازالوا يركضون خلف الرئيس تحت التراب البارد.

سمع حورا بهذا الكلام المنثور المتفرق كغيرة من الناس فلم يدم عجبه من الرعاع بقدر ما استغرقه نظمه من جديد وإعادة صبه ثم راح يوزعه بأناة في هداه الليل همسا وتلميحاً حتى كاد بفعل حماسته أن يضع البيض مقشرا بين الضرس والناب وهو ما حرص تمام الحرص ألا يقربه.

إذن فهو كما أشاع في أوساط العامة أحق بأن يقوم على تنشئه الصغير قضاعه فيلقنه خفايا ومعطيات الحكم السديد على ضرب أبيه. ألم يتعلم هو نفسه من الرئيس المغدور العظيم مبادئ

الحق والعدل والخير حتى امتلات جعبته: فمن واجبه الذى لن يتنازل عنه، وفاء لسيده ولابنه،أن يردها لصاحبها الحقيقى: قضاعه.

ومن باب آخر،أخذ يردد بثبات فى وجه السبعة الكبار وفى أوساط الأثرياء أنه يعمل للحفاظ على وحده الوادى واستقراره لأن شعب وادى الرعاة لم يعد يقبل بعوده الحكم للأسرة دون قضاعه. وتهدد وتتوعد. وأنه أفضل ضامن لمصالحهم ومكتسباتهم ودوامها. حتى أنه طلب من هؤلاء صراحة تأييد الناس ومسايرتهم فى إرادتها.أى تأييد اختياره وصيا على قضاعه.

وذكر لهم تلميحا أنه كان يكافح من أجل أن يخفف من غلواء الرئيس. وطالما أحبط الكثير من قراراته التى كان يحاول إصدارها ضد مصالحهم مباشرة. فهو لم يرضى قط عن سياساته ضدهم وأنه فعل ما كان مستطاعا فعله ولم يقصر.

وأما عامة الأثرياء ومتوسطى الثراء فلم يبذل حورا جهدا حقيقيا لاستمالتهم الى صفه. لأنه فهم سريعا أنهم استقروا منذ زمن على تثبيت أقدامهم حيث هم وأينما مالت الدفة مالوا. كما فهم هؤلاء بدورهم – دون عامة الشعب- أن الصراع الأن تحدد بين الأسرة والعامة. وأما حورا نفسه فلم يشعروا بوجوده حتى لو عُين وصيا على قضاعه ومديرا لإدارة الحكم ودفتها. وكان الأغنياء ناقمين على الأسرة بسبب غصن. ألم ينشأ ويخرج من بين ظهرانيهم؟ الم يسبغوا عليه رغم كل شئ حمايتهم؟ ألم يحجبوا عن الناس أنهم ضده؟ ألم يمتنعوا عن إعلان الحرب عليه صراحة؟

استطاع حورا أن يقنع السبعة الكبار فى زمنهم البربرى أن الحكم فن واقتدار وموهبة، أو هكذا أصبح على عهد إبنهم الرئيس غصن- وأن وسائلهم البالية لم تعد تصلح فى إدارة وقيادة شعب وادى الرعاة.

وانه – وحده - يجيد التعامل مع الناس فقراء وأغنياء، زراع وصناع ورعاة. وحده يستطيع أن يسوس السلطة وإن عرجت إلى ذروة الجبل أو مشت تتطوح على حافة جرف مميت.

ولأنه خلط الأوراق ولعب بزهر مغشوش فقد رأوا صدق مقالته. فضلاً عما له من قبضة مدربة للحفاظ على الملك وولى العهد لدرايته

و كفاءته، التى شهد بها الرئيس غصن نفسه أمامهم، فى شئون الحكم والسيادة المطلقة.

نعم، وعدهم بالسيادة المطلقة. تلك التى حدها أو شذبها الرئيس غصن دون أن يلين أو يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء متماسكا بصلابة على مبدئه النبيل بعدم الإصطدام وذويه إلى حد الإقتتال.

هذا، ولم يكن ما أحدثه غصن – دون قصد - من قلقله لسلطتهم الراسخة وظهور بعض مراكز القوى غائبا عن بالهم وهم يستمعون إلى كلمة ووعد حورا التى داعبت أحلامهم بالأيام الخوالى. وبعد أن أصبح الحكم – بعد موت غصن- سلطانا له جاذبية هائلة. ومن جانبهم بعد مضى بعد الوقت كانوا قد كفوا عن العبث فى حفره انطمرت حتى رأسها.

ذهب غصن وجاء حورا فدغدغ حلمهم الموءود وحفزهم على نبش الميت.

حين كان حورا وله الحق كل الحق يردد باستماتة وعصبيه أقوالا عن خبرته وكفاءته المشهود بها كانت الأسرة تصيخ تقريبا إلى الخواء. فهو يتكلم عن المشروع الطموح بنقل الوادى بأسره، وليس جزءاً منه كما هو الحال الآن، إلى ما حول الحوض المائى.

وكان يُشبّه ذلك بنقل القلب من الشمال إلى اليمين لأسباب عسكرية فى المقام الأول. لم ينتبه إلى صفتها تلك إلا صاحبها الأساسى: حورا. و"أن الوقت قد حان كى يكون فى قلبنا ولا نكون على أطرافه".

وعن تشجيع الوادى على اقتحام فن الزراعة الوليدة وعن تنظيم الصيد البرى وتحديد نوع ما يصاد وما لا يصاد. وإنماء ثروتهم الرعوية. انجازات فعليه تحسب له ولكنها وقت أن كان يتكلم لم تكن أعمال عقله وبذر يده بل انجازات الرئيس غصن بعينه عدا الإقتراح الخاص بنقل الوادى الذى شارك فيه الجميع بلا استثناء، بعد جهد مضنى من الرئيس غصن لحمل الجمع على المشاركة فيه بإبداء الرأى. وعدُّوه فى قرارة أنفسهم بمثابة سطو غير شريف من حورا على أعمال الرئيس غصن ونسبتها إلى نفسه.

وعلـى كـل، فهـذا الفـراغ الـذى رأوه يطفـو عليـه، ومـا قالـه دون حرص كبير، أكد لهم أنه بالون فارغ. فكان هذا التقييم إلـى جانبـه فـى ناحية من النواحى. حورا وحده الذى لم يحسب أن صـورته ممسوخة إلـى هـذا الحـد فـى عيـونهم بـل ولـم تطبـع بدايـة علـى الـشريط الخـام لأسباب عديدة:

أولا: لأنه من الرعاع.

ثانيا: أنه يفتقد الأنصار والأسرة القوية والتاريخ وما إلى ذلك.

ثالثـا: أنـه كـان مجرد "خيـال" لشخصية عتيدة كشخصيه الرئيس غصن.

ولم يحدث أن نُسب إليه قرارا مهماً فى حياة الرئيس المغدور.

رابعا: أنه كان حاضرا فى أذهانهم بصورة المحارب القدير الذى لم ولن يفهم إلا فيه الطعن والطعان.

وبعد أن أقنع حورا ذوى الحق الأصليين، السبعة الكبار من أسرة قضاعه بوجـود مخـاطر- وهميـه بطبيعـة الحـال- وعقلانيـة فـى نفس الوقت- تهدد العرش. إن هم أقدموا على إزاحتـه عن الوصـاية. فضلا عن أنه تآمر مع بعض رؤوسهم الكبيرة من دون السبعة الكبار بجرأة خالفت لمرة أولى نادرة طبعه الحذر المتشكك. دفعه إليها دفعا خوفه الهائل من انفلات الفرصة. وكان يعلم بداية فى هؤلاء زيغ عن الحق. وأنهم سعدوا بموت الرئيس وبهذه النهايـة دون غيرها. هذه الرؤوس التى وإن لم تمثل فى مجموع الأسرة إلا مـا تمثلـه القطـرة فـى المحيط إلا أنها بمشورة حورا وتحريضه ومتابعته الدائبة لهم أرغت وأزبدت وكـان لهـا تأثيرها الواضـح فـى القرار النهـائى وفـى انكسار الموجـة المعاكسة الأكثر حزماً وإباء برفضهم منحـة تـصريحا بالوصـاية علـى قضاعه. وأهمهم: "إسنا". والثمن أو الصفقة: اطلاق يدهم فى الوادى. وهكذا إلى آخر ما أسعفه ذهنه آنذاك".

يغلـق الـراوى الملـف الـذى كـان مفتوحـا حينئـذ بـين يديـه. ويـشرع متحدثا بحماسة واضـحة بعد أن يفتح نظارتـه وينظفهـا بقطعـة حمـراء من الحرير الطبيعى. وبضعها على حافة البار فتظهر عينـاه العسليتان الأكثر رونقا – بأسباب طبيعيه جميلة - من كل مـا أتحفنـا بـه مـن قبل من مميزات إنسانيه رائعة.

"مات غصن فانشغلت الجماهير بالحزن واليأس ولم يدروا إلا لماماً بالحرب الناشبة بين حورا الذى فرض نفسه ممثلا عنهم وبين الأسرة.بينما أدرك الأغنياء أخيراً أن الصراع بعد عام ونصف من المحاجاة والجدل تحدد واستقر بين حورا وإسنا أحد الزعماء السبعة للأسرة العظيمة.

هذا الرجل المدعو حورا للحق أقول كان ذا لب لا يقر له قرار. كان بمثابة خبير عسكرى من الطراز الأول. حاد الذكاء - ماكر. قوى الشكيمة.مراوغ.شجاع. لا مذهب ولا دين له غير هوى نفسه. وكان يتفتق ذهنه عن شرر يخلب الأبصار. وفوق ذلك كله، كان ذا خيال جامح. وقدره رهيبة على اللعب بقلوب الناس وأهوائهم.

وبالفعل سلمت له أسرة قضاعه ابن غصن بالسلطة والسلطان. بشرط أن يتعهد فى إعلان عام أمام سكان وادى الرعاة. ويكرر هذا الإعلان على مدى ثلاثة أيام متتالية. أحقية قضاعه بالحكم بناء على توصية الرئيس غصن عندما يبلغ تمام العشرين على أن يتراجع هو ليلعب نفس الدور الذى لعبه فى حياة الرئيس السابق،مساعدا أو نائبا لقضاعه.

بذل إسنا مجهودا خرافيا رغم تقدم سنه. وحشد خلفه الأسرة على هذا الشرط. فلم يتنازلوا عن هذا الإعلان الصريح من قِبَل حورا. رغم كل محاولاته المحمومة للإلتفات عليه وامتصاص زخمه ولكنه استمات فكسب شبرا ومد الوقت إلى الخامسة والعشرين بدلا من العشرين على أن يتضمن الإعلان صراحة فقرة تشير إلى وجوده فى المستقبل كنائب وحيد للرئيس القادم قضاعه.

ويبدو أن الحرباء مهما تلونت مكشوفة لا محالة كما قضت حكمة الطبيعة على العفونة بكشف نفسها ولو كانت فى قمقم.

وافقت الأسرة على أساس نفعى بحت. وأن السلطة مآلها الطبيعى والحتمى فى نهاية المطاف عائد إليهم.

وعندما شكك إسنا عم قضاعه المخضرم الفطن، وأحد أبرز أعمدتها الرئيسية السبعة فى نوايا حورا ودون دليل بطبيعة الحال غير فراسته وحدسه. "ألا يبدى حورا تلهفاً فى طلبه حق الوصاية؟ الا يزورنا كل يوم حاملا فى يده صرة باقتراح جديد؟ ألا يعودنا

بكلمات جديدة بنفس الإقتراح السابق المرفوض؟" وهذا ما رآه إسنا لا يشير ولا يبشر بأى خير، حتى أنه ذات مره استوقف حورا بباب البيت الكبير ناظرا فى عينيه، متفرسا. فما كان من حورا الا أن هرب بعينيه منه. ولم يتكلما بشيئ على الإطلاق.

قيل لإسنا باستخفاف من الأسرة ومن المخلصين لأنفسهم ولحكم الأسرة، قبل سواهم من أصحاب الوجوه المتعددة، وأمام حورا نفسه وتحت بصره وسمعه: "ومن حورا؟".

وبتفكيرهم أنهم لن يتركوه يلهو بالنار فتحرقه وتحرق الوادى بأسره معه.

لن يتيحوا له الفرصة كى ينفرد بالحكم من دونهم. وسوف يشاركونه القرار فى الخفاء. انه لن يعدو عن أن يكون واجهة يلعبون من ورائها ما شاءوا. وسوف يطيب لهم اللعب بحرية دون وجود عين تراقب وتسأل.

لأنها إذا سئلت حاسبت.

سوف يُصدرونه عليهم كبش فداء طول الوقت. يا لها من لعبة وهم متشوقون إلى خوضها بفرح طفولي عابث وغير مسئول.

هكذا "هم". وهكذا ردوا بغلظة على الزعيم النابه إسنا. بيد أن ما حدث كان شيئا مغايرا تماما لكل التوقعات.

فحورا أبدى للأسرة من لطف المعشر ولين العريكة والكرم اللامحدود، إلى حد التصاغر أمام أحدثهم سنا ومكانة، ما فاق كل تصور. وأسرع يستجيب لكل ما يطلبون بإشارة من أيديهم. وبالتالى استطاع أن يكسب فى خلال عدة أشهر موافقة الأسرة له على الإقامة الدائمة فى بيت الرئيس بصحبة ولى العرش: قضاعه الصغير. وخاض معركة فرعية كسبها أيضا من أول جولة حين أراد بعضهم أن يقيم معه فى نفس البيت الكبير تاركا لهم حق الزيارة ليس إلا. بينما لم يكن ينام الليل متلذذا بالتفكير الصامت فى نصب الفخاخ لصيدهم تباعا وحسب الأولوية.

وكم من أيام قضاها أرقا مسهدا فى نصب أخرى ذودا عن نفسه حيث عشرات الأسنة المصوبة إلى صدره من كل اتجاه. وهل ينسى أنه ابن تراب وادى الزراعة ولم يكن قط ابن ذهبه. كيف ينسى وحدته

وافتقاده لأدنى حماية. ليس عنده أسره قضاعه. والأصحاب من رابع المستحيلات أن يثق فيهم. وكل ما يبدونه نحوه يعلم أنه زيف وخداع. حتى فى تلك المرات التى كانت تستهويه فيها صداقة أو صديق. كان يبادر إلى بترها بقسوة. طاردا الصديق شر طردة من البيت الكبير.

اما العامة وهو خرج من وسطهم فإنه لا يحس – وقد استقر له الأمر بحق الوصاية - بوجودهم على الإطلاق. لقد استغلهم للوصول إلى مكانته هذه ولم يساعدوه للوصول إليها. وكأنهم قرأوا سريره نفسه فبادلوه تجاهل بتجاهل. وإن ظل يرى أن ما يقال عن قوتهم فهو صحيح مائة بالمائة، كالنار الكامنة فى بئر زيت.

فى أثناء ما كان قضاعه ينمو كان حورا يزحف كالثعبان فى كل الشقوق. ينمى سلطانه ويبسط نفوذه ويكسب أرضا جديدة كل يوم وكل ساعة فتتكاثر شيعته كطحالب الماء العفن.

يمتد ويتشعب ويتلاعب بنفوس الخلق كيفما شاء فيسوقهم بما ظنوا أنها إرادتهم حقا. ويقضى كالطاعون على أعمده الأسرة العظيمة الراسخة الواحد تلو الأخر بلا ضجة، بلا شبهة: قضاء وقدر. وبسبب حرصه على هذا الأسلوب فى تعامله مع الأسرة بالذات. استغرقه تقويض دعائمها واقتلاع جذورها الضاربة فى أعماق أرض وادى الرعاة سنوات عديدة.

يا له من قذر صبور.

ويا لحظه المجيد. فقد تفتحت مواهبه القذرة وبلغت مداركه الذروة بعد أن سكنت نفسه بانفراده بالأمر والنهى كوصى على الصبى: قضاعه.

ولما تم له التخلص من كل الرموز الكبار والأقوياء بنهم وشراهة لم تعرف الكلل. وكانت أكثر دويا مما كان عليه أمره مع الموالين له من ذات الأسرة العريقة الذين أغرقهم بطوفان هائل من آلاعيبه ودسائسه وأشاع بينهم روح التآمر والعداوة فشتتهم وقضى بعضهم على بعض.

وكانت الورقة الرابحة التى استخدمها هذه المرة لتغطية رائحة الدم التى باتت تزكم الأنوف ورقة الحرب الغائلة التى سفك فيها دم غصن الطيب باعتبارها "مؤامرة دبرتها الأسرة بالاشتراك مع قبائل

"الخروج" للخلاص منه عندما أراد ان يشق لراية الحق نهراً يجرى فى القمم العالية. وهو لابد منتقم للدم الطاهر".

لقد بث فى بقايا الأسرة الرعب من إعلانه هذا. فمهما فعل فيهم بتلك الحجة لن يستطيعوا أن ينبثوا ببنت شفة. وغصن كان معبود جماهير الوادى.

وهكذا رأت العامة انهيار الأسرة المتتابع قصاصا طبيعيا لحفنه خونه حقراء.

كان حورا فى طريقه الصعب هذا يتفادى الثغرات كى لا تصبح هى نفسها طريقهم إليه فى المستقبل فقد كان بامكانه أن يقول عن هؤلاء: "ولا بد لى أن انتصر للعدالة" واجهة براقة ومكاسبها لا تحصى ولكنها على المدى البعيد تلزمه بأشياء فوق طاقته. فهى إذن ضده شخصيا وكلمة العدل والعدالة تؤلم قلبه على الدوام. ولكنه قال: "ولا بد لى أن أنتقم للدم الطاهر".

كان حورا ذا بأس شديد فى اتخاذ القرار. لكنه لم يكن يلقيه كعظمة سمينة إلى كلابه المتوحشين دون أن يمسح عنها بصماته.

لم يثبت حورا فى خضم تفجر الأفكار الانتقامية والسادية على أسلوب واحد فى معالجة وتصفية خصومه فتارة يلجأ لاهثا ككلب للاغتيال المدبر كمأسى التراجيديا العظيمة وتارة يهتم بصنع المكائد شخصيا لبعض الوقت فيجد فيها عزاء وتسلية فى وحدته ذات الوجه البشع.

ولكنه فى النهاية طلع من تلك المعمعة نظيفا أبيض الوجه واليدين.

قال ما قال وفعل ما فعل ولم يمسك عليه أيا من كان روح الدناءة والخسة مباشرة، أو كدليل ملموس على جرائمه. وحتى أبسط أعماله قذارة كان يفتتها إلى عشرات الوحدات الصغيرة فلا يتجمع لكلاب صيده أن تعى ماهية العمل الذى تؤديه.

كان حورا شابا باسلا طموحا وغير نبيل.

وهكذا ولى حكم الأسرة مخلفا وراءه صيتاً سيئاً ووجوه مشوهة.

واستقل حورا بالحكم نهائيا وواقعيا. وكان ذلك أول خروج للسلطة من دارها التى لا يعرف متى بدأ فيها. وهل بدأ فيها أول ما بدأ أم انتقل إليها من مكان آخر. مجهول. ولكن أحدا من سكان وادى الرعاة

لم يستفهم لبعد الزمن والسلطة في دار غصن والد قضاعه. ولإيمانهم العميق أنه حكم مقدر كما قدر النار أن تلسع.

لم يكد حورا يفيق من غسل يديه من دماء أسرة قضاعه حتى انتبه إلى قضاعه نفسه.

لم تتبقى أمامه إلا عقبة كأداء أن سلطته غير مشروعة نتيجة وجود قضاعه، صاحب الحق الأصيل فيها دون منازع والتى أقر وأعترف بها علانية، على قيد الحياة.

وأيضا فات أوان القضاء على قضاعه دون مساءلة أن لم تكن اليوم فغدا أو بعد غد، كما أنه لن ينسى أنه وعد بالحفاظ عليه ورهن سلامته بحق الوصاية نفسها بل وحمل نفسه مسئولية أى سهم جارح أو طائش قد يصيبه. هذا ما اضطره إليه أسنا، في آخر لحظة. فأعلنه كأنما يجترع كأس الهزيمة في كل مشروعه، مع أن ما حصل عليه حتى الآن، إن عرض على أى حكم عدل، فإنه سوف يعده بدون تردد نجاح ساحق.

كان حورا ينحو في تربية قضاعه كوصى عليه منحى ما هو صالح وطيب وخير فعمد دوما إلى خلخلة طبيعته الشجاعة الموروثة عن الأسرة وإكسابه عقيدة الصلاح المجرد وتربيته على الخوف والطاعة العمياء له. وفوق كل ذلك الفوز بقلبه. لولا أن الأسرة قبل انهيارها المزرى كانت تضعف من أثر تلاعبه في نفس الناشىء الصغير دون قصد.

وعندما التفت إليه حورا، وتفرغ له، زاد من جرعة تربيته القائمة على الخوف والطاعة، وحرم عليه قطعيا الإختلاط بالناس وبالعامة منهم على وجه الخصوص.

قضى قضاعه ثمانية أعوام في وصاية حورا، هى الفتره التى استغرقها في إبادة أهله وتقويض دعائم أسرته. وهى فتره خطره في حياة أى إنسان وأخطر من طفولته المبكرة.

ويبدو أن حورا كان محقا بعدم إفلات أى أثر للأسرة مهما طال الزمن. ففى ذات يوم طلب لقاء قضاعه سرا الشيخ "زمن".

كان "زمن" يعتبر ثانى أثنين بعد حورا من العاملين الفاعلين تحت إمرة الرئيس غصن الغريبين عن الأسرة. وهو أول من فتح لحورا

بـاب الوصـول للأسـرة ولغـصن فتفـوق عليـه. وفـضل هـو التراجـع مفسحاً المجال لصاحبه حورا، بسبب طبيعته المحبة للسكينة والهدوء.

تساءل قضاعه عن سر هذه الدعوة، والإلحاح عليها، وعلى سريتها، خصوصا عن الرئيس حورا، بحسب ما بين الرسول. وفكر أن يبلغ مولاه حورا، ولكنه تراجع فى آخر لحظة.

بالرغم من كل تدابير حورا الاحترازية المحكمة بان أن هناك من كان يراه دون قطعة ملابس واحدة.

وفى الحقيقة فان علاقة حورا بالشيخ الهرم "زمن" كانت سلسة إلى أبعد حد. ولم يكن أحد ليظن إلا أن الشيخ المخضرم يجله. ولا ندرى ماذا حدث بينهما أبدا.

لنرى ماذا حدث فى هذا اللقاء.

المشهد السابع

في منطقة الحدث. كهف عظيم. ريح عاتية. صحراء لا نهاية لها. الشيخ زمن في فراش المرض. قضاعه الشاب جالساً عند رأسه. أخذ زمن يدى قضاعه بين يديه وقال بكد واضح:

"أى قضاعه بنى، إنى أحس وقتى قد حان. لم أعد آمن على نفسى من غدر وطغيان حورا. وبرغم علتى المبرحة فلا أشك لحظة إلا أنه سوف يسبق القضاء إلى حتماً. إنى لا محالة ملاق حتفى على يديه ولو من دون يديه. لو وقفت فى زورى لقمة فاختنقت فسوف أموت متأكداً أن حورا هو الذى تآمر معها على قتلى."

يتوجع الشيخ زمن ويكمل متألماً: "آه. إنها الشيخوخة اللعينة. لم أعد استشعر فى نفسى القوة التى تعيننى على الدفاع عن نفسى فى مواجهتها معاً. حورا والمرض. لم يذر لى الملعون شيئاً أنصبه محل ذراعى ان تخاذل وتخلى عنى. لقد سكنت سلطته الذرى ولكنى مخبرك لا مفر."

يرتعش الشيخ الجليل حتى يخيل للمرء أنه سينتهى حالاً وتفرغ كأسه فى اللحظة التالية. لقد أفسدت الشيخوخة الممتدة، اذ كان طاعناً جداً فى السن، كل ملامحه الإنسانية حتى أن عين قضاعه لم تكن تطيق النظر إليه طويلاً.

قال قضاعه مشفقاً: "كلى آذان صاغية أيها الشيخ زمن".

يتحرج زمن طويلا ثم يقول: "إن سيدنا غصن، والدك، قتل".

رد قضاعه بهدوء، مستشعرا الشر: "لا أفهم. الوادى كله يعلم أن أبى قتل فى الحرب".

قال زمن ثائرا، فلما لم تسعفه صحته ثار أكثر: "لا. لا تفهمنى خطأ. لم يلق الرئيس غصن مصرعه فى الغارة الكبرى بل تردى على يد حورا. حورا اغتاله".

قضاعه: "حورا؟ أبى؟"

لم يكن باستطاعة قضاعه الذى تربى سنوات طويلة على الخوف أكثر مما تربى على المحبة والحنان الطبيعى إلا أن يقول ما قاله

بعفوية باردة. وثار الشيخ زمن في وجهه: "بل حورا عدوك. ابصق هذه الكلمة".

ويفتح الشيخ له يده ليفعل فيرضخ الشاب ممتعضاً ويبصق في الكف الممدود المتوسل إليه، ويكمل الشيخ زمن:

"ليس هذا فقط، بل وكل أفراد عائلتك، إن الفضل، وليس ذلك فضلاً بل عاراً وشراً أبدياً، لإندثار شجرة عائلتك يعود بتمامه الى حورا. بصورة مباشرة وغير مباشرة. وعمك إسنا كان آخرهم. أتظنه فى مثل سنة كان قادراً على تسلق الجبل في جنوب الوادى فتزل قدمه ويسقط صريعاً. انه لم يكن قادراً على التجوال السهل حول غزال نشوية. ومن أنبأنا بالحادث الجلل؟ عبدان لئيمان زعما أنهما كانا يرافقاه في رحلة إستشفاء. وبعد أيام يزعمون أنهما انتحرا حزناً على سيدهما لأنهما أهملا وقصرا فى رعايته. و يسقطون من نفس المكان. هل هذا معقول؟"

بعد فترة يستدرك الشيخ زمن:

"طبعاً معقول. مادام أشاوس وادينا العظيم يفتون ان عقدة الذنب دفعتهم دفعاً لا شعورياً لارتياد نفس المكان لكي تسلك أرواحهم نفس الطريق التي سلكته روح العظيم إسنا. فربما خدموه في أرض الظلمات بحرص أكبر. وخالك "عبير".. هل لدغته عقربة فمات؟ من منا يموت بلدغة عقرب؟ هل سمعت قط ان أحدهم، في الوادى، مات بلدغة عقرب؟ وأنت؟ الم تسأل نفسك قط عن حقيقة أى أمر من أمور حورا؟ بعدما كاشفتك به، إرجع بذاكرتك الى أى كلمة فاه بها حورا ولن تجدها مستقرة فى محلها. إسمع، بعد أن تعود راقب كل تصرف يأتيه، كل همسه، وسف ترى أنى لم أتجنى عليه بحرف واحد قلته عنه.

يا بني، اسمع لي وأحفظ عني. لن تستطيع لقائي ثانية لتراجعني في أى كلمة. واحترس. سوف يحاول حورا عدوك وقاتل أهلك وسافح دم سيدنا العظيم الرئيس غصن. سوف يحاول ولن يكف عن المحاولة بألف طريقة أن يأسرك بغير قيد حتى تبايعه أو تنزل له عن الحكم. ومن العسير عليه أن يسلك الطريق الآخر، الذى لا يوجد أسهر منه في ارتياده ولو أن ذلك يعد ضرباً من الجنون. ولكنه احتمال

وارد. فوالدك طيب الإله ثراه كان محبوباً لسنوات، وان كانت قليلة، فإنها بنظر الشعب تعادل الدهر كله. ولا أظن حورا يخاطر بفقدك قبل ان يحاول المستحيل معك كي يحصل على مراده. لأنه إن أهلكك ثار زعماء الوادى ضده ونازعوه السلطة. إنه رغم كل شئ يحتمى بشرعيتك. وبالأقل يستمد منها شرعيته هو. مهما فعل حورا لن يستطيع أن يغطى على أصله الوضيع. وبدون هذه الشرعية التى يستمدها منك سوف يجد أحقر إنسان فى وادى الرعاة نفسه متسائلاً لم لا أكون الرئيس؟ ماذا يزيد عنى حورا؟

قضاعه ولدى، السلطة من حقك. ومن أجلك قادها حورا وهش عليها. أجل يا بنى، لقد عاهد نفسه والناس بأن يرعى سلطانك كإبن له يحميه ويحميك معه حتى تشب عن الطوق وتتسلم الراية. لقد أعلن على مسمع ومرأى الوادى بأسره. أن السلطة من حقك وراجعه إليك. فحورا من مواليك وليس رئيسك. أراهن بثمالة عمرى انه لم يذكر لك ذلك مرة واحدة. رحم الإله الزعيم النابه إسنا."

اضطرب قضاعه. لم يعد يعلم، أيفرح لأنه فى لحظة أصبح رئيس وادى الرعاة، أم يحزن لمقتل والده؟ ولكن حورا، هو الذى رباه، وهو لم يرى أى يد تمتد بالعطاء الجذل إلا يده. ماذا يفعل؟

لقد إضطربت نفسه ومازالت، قال وهو لم يزل فى اضطرابه:

"نعم، لم يذكر ذلك أبداً. أسمع لك وكأنى فى حلم مرعب مؤطر بالذهب. إذن فحورا خادمى. وأنا لست ابنه. أذن فأنا الرئيس وأنا الملك. يا له من حلم جميل."

زمن: "ليس حلماً يا ولدى. أفق. انها الحقيقة وإنه كابوس. وحورا ليس سوى ظل قذر الى جوار عرشك. لا تفرط فى حقك. فى عرشك. لأجل أبيك العظيم. ولأن حورا عفن يجب التخلص منه حرقاً. حورا آبق. سفاح. قاتل. وهذا حقك. فمد يدك وخذه.

قضاعه ولدى، لا تأمن لحورا أنه أنعم من حية رقطاء تجوس تحت جلدك. لا تأمن لحية ولو قد جلدك من سمها. استعد حقك المهضوم من تلك البطن الشرهة. وانقذ شعب وادى الرعاة. انهم صامتون وما باليد حيله. انه صمت العجز والخوف. وتذكر دائما

حورا خنجر باتر وسام، وليكن شعارك آناء الليل والنهار: الانتقام. الانتقام".

فكر قضاعه ثوانٍ بدت للشيخ الهرم فى مثل عمره وجلدته. ثم قال:

"وبماذا تنصحنى يا عم وأنا وحدى أعزل فى مواجهة جبار عظيم كحورا؟"

زمن: "انتظر السنتين الباقيتين وانقض عليه. ولتأخذ ثأر كل الذين ذهبوا ضحية جشعه الدموى وما أكثر النكرات التى أوقعها حظها العاثر بين براثن أنانيته البغيضة وهلكوا فى معركة ليس لهم فيها شروى نقير. العشرات والمئات هلكوا بهذه الطريقة ولم يسمع بهم أحد. وأسرتك التى كانت مضرب الأمثال.. أين هى؟ ومن بقى؟ أين أطلالها؟ سوف تجد الناس معك والى جانبك تطالب لك ومعك بحقك المسلوب وحقها فى الخلاص من الظلم الجاثم على صدورهم، إن لم يعض هدد بالعض طول الوقت. ولكن الناس لن تطالب به نيابة عنك اذا لم ترك تطلبه وتحارب لأجله.

انطقها كالوميض الخاطف وانظر ماذا يحدث؟ "أريد عرشى". هذه الصيحة بوحدها سوف تشل حورا وتسلبه اتزانه، أهم مميزاته. لن تستطيع دحره إلا بإفقاده توازنه. انها نقطة ضعفه الوحيدة فيما أعلم. اذا فقد توازنه أخطأ. وإذا أخطأ – لعدم تعوده إتيان الأخطاء – تتابعت أخطاؤه. والناس الذين أوفوا لوالدك ميتا كما لم يوفوا لأى إنسان آخر حياً كان أو ميتاً لن يتخلوا عنك. "أريد عرشى" هى تميمتك السحرية. تأكد، وابن حساباتك على ذلك، أنها ستعميه ولو لبعض الوقت وتفقده توازنه. ولحظتئذ، لا تضيع الفرصة وانشب أسنانك وأظافرك فى لحمة وعنقه وفيما تستطيع الوصول إليه من عدته وعتاده ولا تدعه حتى يسلم لك بالنزع الأخير غير مأسوف عليه، بدون هذا فأنت خاسر وأنت هالك.

إننى واثق من قدرتك على تحقيق ذلك وأنت مؤهل تماماً له. وأرجو أن تمنح نفسك كامل الثقة بقدرتها وكفاءتها على انجاز ما نصبوا إليه جميعاً: العدل."

قال قضاعه بأسى:

"الناس تنسى. ليس لها غير نفسها ولحظتها ومشغولة على الدوام بمشاكلها الخاصة التى لا تنتهى. إنهم لا يرتفعون قيد شعره عن السطح."

زمن: "خطأ. الاستهانة بالناس وقدرتها خطأ فاحش. ان للناس خطاً أحمراً ان تجاوزه أياً كان أغرقوا السفينة بمن فيها. ان قدرتهم على التضحية والعطاء لا حدود لها. وحتى ان نسوا، وان لم يفهموا، فلن ينسى حورا وعده وإعلانه الصريح انك الرئيس الحقيقى للوادى.

ستهزمه عدم الشرعية من داخله. وعلى الأقل، ستنخر فى كيانه فيهرم ويهون فى أيام كل يوم منها يعادل سنة من الضرب المباشر فيه.

والناس يا بنى يعوزهم على الدوام من يقودهم. وهم دائماً على استعداد لتسليم لجامهم عن طيب خاطر لقائد. أى قائد. المهم، أن يروا فيه قائداً عادلاً صادقا ولو لم تصل إليهم خيرات عدله وصدقه وصلاحه. إن وجدوه تبعوه حتى مشارق القبر. مع أنهم يكفيهم بحسب قولك أنت عناء البطن ومشاكلها التى لا تنتهى."

أصبح قضاعه الشاب بين يدى الشيخ زمن كما ريشة فى مهب الريح فقال بعدم اتزان واضح:

"هل هناك شئ آخر تود إطلاعى عليه. أو لم تطلعنى عليه؟"

قال زمن متأثرا من أدب قضاعه أبن الرئيس الفاضل غصن:

"نعم. لأجل هذه المكاشفة الأمينة انتزع ولدى من الضياع الذى سيلحقه بعد مماتى او إغتيالى على الأرجح. احمى لحمى، صغيرى، الذى لم أرزق سواه على كبر. ولدى "صخره".

قال قضاعه بأدب جم: "إطمئن".

زمن: "عدنى. أقسم برأس أبيك والانتقام المقدس."

قضاعه: "أقسم".

بعد لحظات يتساءل قضاعه كأم رؤوم، كأنه لا يتناول فجيعة إفناء المُلك – مُلكه – والمَلك – والده:

"ولكن يا شيخ زمن من أدراك بكل هذا؟.. أكنت شريكة؟"

غاص زمن فى الخزى وقال:

"لا أتنصل يا ولدى. كنت خادمه وأموت على هذه الدرجة الدنيا. وحتى ولدى صخره لم أفعل شيئاً يؤمن مستقبله".

قضاعه: "فكيف تمكن من أبى؟ أبى كما أعلم كان محارباً لا يشق له غبار".

قال زمن مجهداً:

"كان والدك صالحاً ولكن حورا محارب لم يشهد له الوادى مثيلاً".

قضاعه: "فكيف تمكن من أبى؟ أجبنى. هل بارزه وانتصر عليه؟"

زمن: "لا يهم ذلك الآن. لم أعد أستطيع الكلام. المزيد من الكلام سوف يقتلنى".

قال قضاعه بإصرار هادئ:

"أرجوك. بح لى. لابد أن أعلم. أكنت شريكه؟"

زمن: "لو تعلم مقدار المخاطرة ومقدار الألم الذى تكبدته كى أرتب لهذا اللقاء ما أعدت سؤالك".

قضاعه: "إن قلت أن حورا لم يشارك غير نفسه فهذا ما لا أصدقه".

زمن: "يا بنى. لا تقطع برأى من شأنه أن يصادر كل الاحتمالات فكل شئ مهما كان ممكن الحدوث. يا بنى، إن السماء تبدو رقعة واحدة بلا فتق واحد ومع هذا فهى ليست بحائط سد. هذه نصيحة أرجو أن تتقبلها كهدية وتتذكرنى بها.

إننى غير متأكد إن كان حورا قد اتفق مع العدو سلفاً فى الغارة الدامية أم اهتبلها فرصة وقضى مرامه الدنس. والمؤكد أن الدم الذى انغمس فيه خنجره ليشهد الوادى فيما بعد على بطولته وتضحيته كان دم أبيك وكانت دماء الخيانة. يا بنى، هذا مكان أمين. اذا ضاقت بك السبل فالجأ إليه. انه قريب من الوادى ومن طريق القوافل سوف تجد فيه الونس ولكنه أخفى من الظلام فى قلب النهار. أما أنا فسأعود الى الوادى، لألاقى مصيرى المحتوم."

بعد فترة. وقضاعه يوشك ان يغادره بلا وداع. صامتاً. يناديه زمن بعسر بالغ:

"قضاعه، بنى، سامحنى".

يتوقف قضاعة فى مكانه ناظراً الى الشيخ زمن.
تظلم منطقة الحدث اليمنى.
يقوم الراوى مباشرة متكلماً، كما لو أنه نفض عن ريشة شيئاً ما:
وعلمه زمن كل حكمة عمره وخبراتها فى خلال ساعات النهار الباقية. ظل زمن يحدثه ساعات بلا انقطاع وقلما استوقفه قضاعه مستفسراً أو متسائلاً أو مستوضحاً. لقد تدفأ قضاعه بدون ان يدرى بآخر شعاع للشمس قبل موتها.
بعد تلك المقابلة بأيام اختفى الشيخ زمن فى ظرف غامض ولم يظهر نهائياً بعدها فى الوادى. ولا حتى جثته إن كان قد قُتل.
سمع الفتى قضاعه مصعوقاً بمفاجأة الشيخ زمن التى فجرها فى وجهة دونما شفقة أو رحمة عن حقيقة مقتل والده. وتساءل هل يكون كاذباً، مدعياً؟ ولكن المُلك مُلكه، ولابد أن يكون صادقاً وأين هو الآن؟ تبخر. لقد تنبأ باغتياله. فهل اغتيل فعلاً أم هرب؟ أم ان كل ذلك تمثيلية مدبره. وربما إشترك فيها حورا بنفسه.
وجد قضاعه نفسه وقد أخذته الهواجس بمقتل الشيخ زمن حتى كادت تعصف به. لقد نشأ فى كنف حورا وسطوته وبالأسلوب الذى أشرنا إليه. ولكنه أصبح يرى حورا بوجه آخر كالح، مخيف فكلماته أصبح لها أكثر من معنى، وأكثر من مغزى، وحنانه أصبح فى يوم وليلة كالشوك يتقلب عليه فى فراشه ولا يستطيع مغادرته. ثم وهو فى هذه الحالة من الكفاح كى يجد أرضاً صلبه يثبت أقدامه عليها يسمع عن اختفاء الشيخ زمن. وبدافع غريزى من حب الحياة خالف قضاعه أولى وصايا الشيخ: أن ينتظر حتى يشتد عوده ويتمكن. وتنتهى السنوات القليلة الباقية لفك الوصايه. ولكنه شك أن حورا بدأ يستريب فيه. فرحل عن بيت أبيه وهجر وصاية حورا عليه فحرمه دون قصد من متعة مواصلة ما كان قد بدأ فى طبخه بانبساط عظيم للخلاص منه. كالعادة، قضاء وقدر. وبشكل يستحيل معه أى تدخل من جانبه أو ما يُمكن لأى أخرق البناء عليه باعتباره تقصيرا فى حمايته إياه. أما شرعية حكمة فسوف يكتسبها بحد السلاح وبالتحالفات السياسية مع زعماء الوادى. وباستحداث بعض الوظائف الشكلية ذات الرنين العالى.

وظل قضاعه يقطن وكر الشيخ زمن بعد إحتسابه مفقوداً. كما كان ينزل الوادى متخفياً من آونه: لأخرى يتعسس الأخبار ويتمون بالزاد سرقة واحتيالاً ان أعياه الصيد. فأتيح له أن يطلع عن قرب ولوقت طويل، خلسة، على حياة وطباع أهل القوافل فتعلم منهم الكثير والكثير جداً بينما أكسبته العزلة قوة وباساً الى حد معقول، عدلت ميزان روحه الذى عبثت برمانته أصابع حورا لوقت طويل.

كان يعمد الى التسلل بين القوافل وسرقة ما استطاع أن يسرقه دون مجازفة كبيرة لإنكشاف أمرة.

وبعد ان فتش عنه حورا ونقب دون فائدة استقر الأمر على ما هو عليه. وانخرس الجميع، حورا، وسكان الوادى، والزعماء. وراح الجميع يتطلع الى لحظة ظهور قضاعه الملك المخلص. خاصة أن حورا قد أعلن بحزم بعدما شعر بتحركات مريبة لزعماء الوادى ضده وليكسب الوقت أن قضاعه عائد.

وسرعان ما انتزع حورا من الناس بالإرهاب والحيلة معاً لقب الرئيس مع أن الناس لم تنس قط رئيسها الحقيقى قضاعه، الأمل الذى سيعقب غصن ويعيد سيرته فيهم كما لو ان الموت لم يخطفه الى الأبد. كما أنهم لم يعطوا حورا صك تأييدهم المطلق لنفس السبب. ولو قُدّر لهم أن يعلموا أن ابن تربتهم يعمل على الاحتفاظ بهذه السلطة لنفسه لكان لهم فيه قولاً آخر.

لم يكن قضاعه من القوة الكافية بحيث يستطيع عمل شئ ما بمفرده يستعيد به عرشه، وبعد عزلته التى دامت خمس سنوات. عاد قضاعه بقدميه ليواجه حورا، تضعضعه الوحدة والألم والحاجة. ولهذه وحدها كما أقسم بإله الظلام ثأر خاص.

ومازال حورا يمارس الحكم من البيت الكبير، بيت غصن.

لنشاهد سوياً هذه المقابلة الخطرة.

المشهد الثامن

تعتم منطقة الراوي باستثناء الخلفية المضاءة كاملة، والتي تلقى بظلالها الخافتة على منطقة الراوي حتى أننا لنراه يشاهد معنا مسرح الحدث ويمارس حياته – عمله - بشكل اعتيادي. يأكل. يخرج. يضطجع. يشرب. وأبدا لا يحول اهتمامه عما يجرى على بعد خطوات منه.

إنه متفرج آخر مثلنا حصل على أفضليه في الموقع والمكان. و مع تقدم الأحداث تظهر عليه بعض الانفعالات المتباينة. ربما لأمور كانت خافيه عليه أو أخرى فاجأته. ولكن كفة الصدق ترجح – باعترافه هو نفسه - لما يجرى أمامه وليس كما هو مسجل بين يديه. ولهذا السبب نستطيع أن نفهم سر غضبه المكتوم في بعض المواقف. وفي بعضها الآخر يعطينا انطباعاً أنه على وشك مقاطعة مجرى الأحداث وتعديله. لكنه لا يفعل ولا يستطيع بطبيعة الحال أن يفعل.

المكان. بيت غصن. مقر الحكم. يحتشد بصنوف شتى للبدائية المحضة. الأرض مفروشة بحصير جيد الصنع. كرسي في الصدر يشبه إلي حد كبير كرسي الراوي المصنوع من الخيزران. أمامه على الجانبين أريكتين كبيرتين. حورا جالس على الأرض مع أحد كبار الوادي صنيعة يده ويدعى "الطويل".

كانا مستغرقين في حديث ودي هامس. يلج "شرنقة" وهو أحد أبناء حورا العديدين وأكبرهم عمراً لكنه متميز عنهم بالشبه الكامل مع أبيه كأنهما توأمان، وله طريقة نطق خاصة بالكلمات كما لو كان يعتصرها عصراً فتخرج من فيه قوية جلية ذات نبرات نحاسية. وكذلك يظهر على كافة إخوته بيقظة عين لا مثيل لها. ضخم الجثة كأبيه. أسرع بعمره إلى الأمام وتقهقر حورا بعمره إلى الخلف فالتقيا في منتصف الطريق. ميت القلب. مخلص لوالده وللسلطة - القوة - على نحو خاص. لا يكاد يفرق بين أبيه كأب والسلطة كحكم. يتعامل معه والده كعبد وفي لا أكثر. خبير في فن الحراسة، ومن هذا الباب فتقدير الراوي إياه لا حدود له. يقوم بدور الحارس الخصوصي

لحورا وكاتم أسراره. يخشى أبيه كما لم يخشاه الحجر الأصم. يعتقد أن لسيده قوى خارقة تحفظ عليه بدنه وعرشه.

يدخل شرنقة والكلمات تتسابق على لسانه: "سيدنا".

حورا: "ماذا؟ تكلم مهما كان الأمر."

شرنقة: " قضاعة يا سيدي "..

وبذكاء شديد يكتفي بقوله.

قال حورا بانتباه ووجل مفاجئ: " ماله؟ "

شرنقة: يود المثول بين يدي سيدي الرئيس.

قال حورا متسائلاً بدهشة، حائراً: " الآن؟ "

قال شرنقة أكثر تحديداً: "إنه بباب سيدنا. يقول إن الأمر عاجل للغاية". ويرمق جليس سيده بنظرة غريبة وكأنه يدين وجوده في هذا المكان. في هذا الوقت".

قال حورا متأملاً: " هل قال ذلك فعلاً؟ "

شرنقة: " هذا ما قاله سيدي حرفياً ".

سأله حورا بنظرة موحية، مستريباً: " وحده؟ "

شرنقة: " نعم سيدي، وحده ".

قال حورا متأملاً ذكرى بعيدة عصفت فجأة. فبدا لنديمه غامضاً، هل يحدثه أم إنه يحدث نفسه؟:

" قضاعة المؤدب؟ ولدي؟ لم يعدنا منذ سنين. إذن فقد عاد".

وأخذ يفكر بصوت مسموع وهو يمسد لحيته البيضاء: الفارق الشكلي الوحيد بينه وبين ولده شرنقة ذي اللحية السوداء الكثيفة: "ترى ما حاق به؟ وأين كان؟"

ثم يرفع عينيه إلى شرنقة آمراً: "أدخله على حسب الأصول".

شرنقة: "ثق سيدي إنه سيدخل عليكم نظيفاً كيوم ولدته أمه".

حورا: "إنتظر. أمهله دقيقة ثم هاته".

ويلفظ الكلمة الأخيرة كجزار في مسلخ يطلب ذبيحة أول النهار. يُلوح حورا إلى ضيفه الطويل فيدنو منه مضطرباً صاخباً كزوبعة في فنجان. يتهامسان ببضع كلمات ثم يستأذن فيأذن له حورا. يفعل ذلك متعجلاً مرجوفاً بما يبرهن على معرفته الحقة بالمسألة أو ربما لدواع

أخرى لم يتبينها. بينما ينادى حورا على بعض حراسه ويأمرهم بيقظة الشر وينتهى مخاطباً إياهم: "هيا. وزعوا أنفسكم."

وحدثت حركة فياضة دومت بمن فى القاعة بعدوى من حورا نفسه. مع أنه لم يند عنه إرتباك واضح قبل أن يستقر الحراس فى مواضع محددة بإشارات متلاحقة من يده ثم جلس متأهباً فوق الكرسي. يبدأ إثنان من الحراس قدما الأن فقط بتحريك مراوح ما هي إلا أجنحة طيور ضخمة محنطه أقتلعت من آماكنها كاملة. وقف الإثنان على يسار حورا متوافقان مع الريح التي تهب عادة من الشمال إلى الجنوب.

دلف قضاعة كنسمة ومن أول ما وطأت قدمه عتبة الباب أخذت وجهه ريح عبقة هزت روحه هزا كأنه استعاد روحه الضائعة. ومع خطوته الأولى وتصادم عيناه بعيني حورا القاسية أدى التحية مثله مثل سائر الناس بانحناءة واهية من رأسه بان فيها كل الكلفة والتصنع وومض نصلها باستطالتها أكثر مما يلزم. و لعله لم يهدف إليها أو خانته نفسه على غير إرادته. وقد داهمه شعور قوى جارف بأن هذا الرجل الماثل أمامه على بعد خطوتين مغتصب عرشه وشرفه. ومن المناسب - في لا وعيه – أن يترك له علامة أو أثر يدله علي أنه يؤديها مرغما لا مختارا.

إنتبه قضاعة من فوره إلى الحرس الأشداء المتحفزين في صورة واضحة لا تخطئها عين وقد ثبتوا جميعهم أعينهم عليه خصوصا شرنقة المتحفز على الدوام والواقف بالباب يكاد يسده بهيكله الضخم. قال قضاعة بجلاء وحسن بداهة وهو يجيل النظر بين الحراس وحورا الذي لم تفارقه عينه من لحظة دخوله وتابعته بمحص وتمحيص حتى تكلم.

قال قضاعة في إشارة مباشرة إلى جمهرة الحرس: "لابد أن سيدنا يترقب شخص عظيم أو.. خطر عظيم."

بُوغت حورا بتلك الأطروحة. استفتاح جرئ لا يتناسب وسن محدثه، ولا يتطابق مع معرفته السابقة عنه فعدّل بسرعة رهيبة كدوران عينه حول محجرها من وضع أفكاره السالفة عن ربيبه قضاعة. كما أنه لن يدور بخلده أن هذا الشاب الضعيف الماثل أمامه

كفرخ فقد أبويه، وقد فقدهما فعلاً، وقف على سره بعدما تخلص من كل الطقم القديم و آخرهم الشيخ "زمن" والده صخرة.

رمقه حورا بدهشة و اعتدل ثم قال بهدوء: "الخطر موجود دائما".

ويستدرك بمكر: "نحن نعده كأن لم يكن. لأننا نحن نستحضره ونصرفه كما نشاء. نحن نصنعه كما نصنع الجلود، ولو أن كلمة خطر هي المرادف الصحيح لكلمة إنسان. وإنسان عظيم بالتحديد. إنا لم نتعرف على بعضنا جيداً بعد مضى تلك السنوات لكن ما تبدى مع قصر المدة يجعلنا نعتقد أنه من الذكاء بمكان فلا يتهور بالإقدام على عمل بعينه هو خسارته الأبدية."

يتغاضى قضاعة عن هذا التحذير قائلاً بأسف وهو يتلفت حواليه متفحصاً المكان في حنين وشموخ زاو مشيراً بكفه إشارة الشرقي إلى حضارته الغابرة: "البيت كما هو، الجديد فقط هؤلاء".

يلوح قضاعة بيده نحو الحراس فيما يُعقب حورا برخاوة وقد كان يتابعه مستنفراً: "لكنا أضفنا إليه الكثير. تستطيع أن تقول جملناه. وهؤلاء الحراس من وجهة نظرنا جزء متمم لجماله. فالمنظر الجميل إن لم تكن ألوانه سامه عمل ناقص."

قال الراوى:

الحقيقة أن حورا فعل الكثير للوادي و إن كان اضطراريا لم يقصده لذاته. ومن أهم ما فعله هو أنه بدأ يطور الدفاع عن الوادي فأنشأ حامية خاصة تتفرغ للتدريب العسكري والحرب. ولو أنها كانت صغيرة فإنها ظلت صالحه كلبنة أو خميرة من نوع ممتاز لما بعدها.

كان أول شيء يفعله حورا بعد أن تسلم حق الوصاية على قضاعة أن جمع أبطال الوادي المعروف عنهم مقاومة الغارات ببسالة وشجاعة - وهو خير من يزن هؤلاء – وعرض عليهم فكرته ومزاياها وحلا [illegible]يم بشكل منقطع النظير الغارة التي سفك فيها دم الرئيس الصالح [illegible]صن على النحو التالي:

أولا: كانت [illegible]ويه ومفاجئة في توقيتها وعددها وعدتها.

ثانيا: من المرجح أنها كانت تحالفاً بين أكثر من قبيلة وهو شيء لم يعهدوا مثله في زمنهم. وأن قبائل "الخروج" كانت تتزعمهم في عملهم العدواني السافر.

ثالثا: من الواضح أن المهاجمين كانوا يتحركون على معرفة مسبقة بجغرافية الوادي. وهذا شيء غير مسبوق بالنسبة إليهم. مما يعني أن هناك من يمدهم بالمعلومات من بين ظهرانيهم. أو أنهم دسوا بينهم عيونا لم يتبينوها.

والمدهش أن حورا لم يسمي هؤلاء بالخونة. وإنما سماهم "الضالين". ضلال الاختيار. "وإذن فالوادي لم يبد في عيونهم الاختيار الأمثل وعلينا أن نسأل. وأن نجد الإجابة: لماذا لم يبد الوادى فى عيونهم هو الإختيار الأمثل للإلتزام لفكرة الوطن؟"

رابعا: استخدامهم لأول مرة أسلوب الكر والفر. وكانوا فيما سبق يهجمون كرة واحدة فإما ظفروا وإما خسروا. ولا يعودوا إلى تكرارها إلا بعد مضى وقت طويل. ثم قال خاطباً فيهم: "لقد لاحظت أن سيد الخروج كان صاحب كلمة الهجوم والانسحاب على جميع القبائل. فما هو المقابل الذي أعطاهم ليحصل على هذا الامتياز؟ إن الغارات كانت تتسم عموماً بالخوف والحذر ولا تعمد إلى المواجهة، إلا إذا إنكشف أمرها وعلِقت أقدامها فى الخيبة، ولكنها هذه المرة كانت أكثر إصراراً على المواجهة والحرب فأعادت تجميع نفسها عدة مرات في يوم واحد. لم يكن هدفهم السلب والنهب لقد كان هدفهم شيئاً آخر. وعلينا أن نجد هذا الشيء".

يتوقف حورا قليلاً ثم يتابع متفحصاً وجوه الجماعة: "إنها أرضنا. لماذا أرضنا بالذات؟ لابد من البحث في ذلك وتقصيه إلى مداه. هل كانت المياه هدفهم الأساسي أم لأسباب أخرى مازلنا نجهلها؟ وحتى تتضح المسألة برمتها علينا أن نكتفي الآن بهذا السبب. أنهم يريدون الأرض وبديهي أن الأرض لن تكون لهم إلا بإبادة سكانها. إذن هم يستهدفون وجودنا أرضا وشعبا. لقد اتسم هجومهم بالتنظيم مع المبادأة. ويا للغرابة، كانوا يحاربون بخطة. بل وكانت عندهم عدة خطط بديلة جاهزة. كما أني لاحظت أنه كلما أقفلنا عليهم من ناحية فتحوا ثغرة في ناحية أخرى. إذن فقد طرأ عليهم

طارئ ما غير من أسلوبهم القديم الهش وينبغي معرفته بسرعة إما لتحييده أو بالقضاء عليه وفي النهاية، أرى أن نبادر بالقضاء عليهم".

وفعلاً قامت هذه النخبة بتكوين حامية ممتازة مدربة ومسلحة جيداً بادرت أولا بالهجوم على مواقع الخروج بمفردها ودكتها دكا ثم استدارت بسرعة، بدون لحظة التقاط أنفاس واحدة، نحو القبائل المتحالفة معها فأهلكوا بعضها بقيادة مباشرة من مؤسسها الرئيس حورا وشتتوا البعض الأخر. وعقد حورا صلحاً منفرداً مع الخروج المستسلمة. ولكنه ظل ينتهكه من وراء ستار أحيانا وعلى نحو صريح مباشر أحيانا أخري على سبيل جس النبض. نبض قوتهم وتفكيرهم. وكان يقول: "إذا ما ردوا علينا بغير الشكوى - الكلام - فهو إنذار مهم على عدم التزامهم بالصلح." ولطالما كانت بالونات اختبار موجعة للخواراج ومن دار في فلكهم.

وفي اجتماع آخر لحورا برئيس الحامية قال: "ما دمنا هزمناهم ينبغي ألا نسمح لهم بمغادرة دائرة الهزيمة إلى الأبد".

واستمر حورا سنوات يقوم بتلك الغارات حتى اذا استتب الأمر لأمن وسلامة الوادي وأهله عسكرياً، وهو ما لم يعطهم حورا الإحساس بالإستحواذ عليه مائة بالمائة، كان قد حصل على شعبية هائلة لنفسه وللحامية: بدعته الجديدة. وعلى صيت ذائع وشجاعة نادرة. وكان بالفعل كذلك. ومكث حورا زمنا يمزج بين الغارات الخارجية ودأبه الداخلي كفأرة نهمة تُعمل أسنانها في جسد الأسرة العظمية.

ولزم الوادي السكوت على مضض. ولم يسائلوه عن مصدر شرعية سلطته كحاكم أوحد بعد اختفاء قضاعة. وكان قد بث الرعب في الناس أكثر من ذي قبل برئاسته لهذه الحامية التي عمد إلى اختيار معظم أفرادها من أبناء الأثرياء جراً لأرجلهم بالمشاركة الفعلية في لعبته شديدة التعقيد كحامية لمصالحهم المباشرة. ثم بعد ذلك بزمن بسبب تغير الظروف والأحوال إقترح على من لا يشارك في الجيش من الأثرياء بنفسه أن يدفع مبالغاً طائلة لمن ينوبون عنهم بالسهر على راحتهم ومصالحهم معرضين أرواحهم للخطر.

جدير بالذكر أن حورا في تأسيسه لهذه الحامية كان يجتمع فيما يشبه الاختبار أو الامتحان بكل واحد ممن يرغب بالإشتراك فيها على حده ويسأله عن أهله، عن الوادي وتضاريسه. عن المجتمع ومستقبله. أغنيائه وفقرائه. عن الجريمة وعن الحب، وعن رأيه فى الرئيس الراحل غصن؟ وماذا يوحى له القمر عند اكتماله بدرا؟ وكان يقرر في نهاية اللقاء بشكل فج جارح: "أنت معنا، مبروك" و "انت لا تصلح، إذهب وازرع".

ولم يعمد حورا أبداً إلى جعلهم رئيس ومرءوس بل جعل هذه النواة العسكرية درجة واحدة هو رأسها باستثناء من يوكل له الإشراف فلا يكون له عليها بعد تعليماته المحددة أى سلطة للأمر والنهى عليها. ولكن حورا لم يرتق بفكره إلى درجة أن يجعل لها معسكرا دائما.

إستغل حورا هذه الغارات فى تشتيت انتباه مواطنى وادى الرعاة عن أشياء هامة كثيرة.

واتخذ من غياب قضاعة تكأة للحصول على لقب الرئيس ثم أصبح لا يتحرج إذا سئل عنه من أصحابه فى مجالسه الخاصة المتحررة بعض الشئ من سطوته، قال: " أين هو؟ هاتوه ".

وبالفعل كان حورا قد نقب وفتش عنه، حتي في بطون القواقع بلا جدوى. وأصبح يرى يوماً بعد يوم أن قضاعة قد بات مفقوداً كلياً. إلي أن فوجئ به يعود إليه بأقدامه ضعيفا وحيدا علي نحو ما رأينا.

ويقذف قضاعة مضيفه حورا بحدة بديهة، بلهجة فاترة: "على أى حال مقام سيدنا فيه يزيده جمالاً".

يضحك حورا بوحشية ويقول فى أنفاس متقطعة: "تصورت أن تكون عبارتك: وإقامتكم فيه تزيده جمالاً." يقطب. تمسك أسارير وجهه المنفرجة على عبوس سافر. ويزأر بعد أول كلمة: "هنا العرش. السلطة. و أي مخلوق يزيده الحكم جمالاً وإجلالاً".

ثم يضيف ساخراً: "إنك لا تخيب ظنى أبداً. قضاعة المؤدب أبداً، فاستمر على أخلاقك الطيبة تفلح".

قضاعة: "أرجو ذلك".

قال حورا محذراً حيث لم تكفه الإجابة: "كيف؟"

قضاعة: ما لم ترغمني الظروف.

يهز حورا راسه مقدراً له كلمته. وهى كلمة تعنى في وادي الرعاة ظرف التعرض لحيوان مفترس وما يترتب عليه من إرغام وإضطراب لم يكن في الحسبان، وفي ذلك يحق للمرء بالقانون والعرف أن يتحلل من أى قيمة إجتماعية أو دينية. لهذا لم يعلق عليها حورا واكتفي بأن قال وهو يتملى منه: "أتعرف؟ كان اختفاؤك يقض مضجعى، لا تتصور مدى سعادتى الآن وأنت بين يدى. لكم أرحت بالى وبعثت فى نفسى الرضا والحبور. تعال. دعنى. ألمسك".

لم يطاوعه قضاعة إنما سأله: كيف؟ كيف أصبح وجود خادمكم الصغير قضاعه أمامكم مبعث حبور وسعادة طاغية لسيدنا؟

ابتسم حورا وقال بعد فترة: هو كذلك. مالم ترغمني الظروف.

قضاعة: أنا أيضاً سعيد بوجودي هنا.

حورا: اتفقنا على شئ أخيراً. ولكنك لم تخبرنى أين كنت؟ لقد افتقدناك طويلاً.

قضاعة: قمت برحلة فى الصحراء. وتهت.

حورا: خمس أو ست سنوات فى رحلة؟ لا شك أنك عانيت كثيراً. هذا واضح عليك. إنها أخلاقك الطيبة، لولاها ما استطعت سبيلاً الى العودة.

قال قضاعة مداجناً: "إنها ذخيرتي، من رعاية سيدي التي أسبغها علىّ فى صباي. وإني لدارج عليها مالم تعاكس هواي الظروف".

حورا: وهل فى مقدورك أن تكون خلاف ذلك؟

قضاعة: خلاف ما أرادني سيدي؟ لا. وإذا كان الأدب أحد الأقنعة المستحبة إلى نفسى الضرورية فى أكثر الأحيان، فهل أرتديه بحضور سيدنا؟ فضلاً عن التعامل به مع عظمتكم".

يقهقه حورا زانطاً: "مرحى قضاعة، أنت شاب طموح ذكى لهذا ترانى أميل إليك وأرتاح إلى أناقة حديثك، إننى أجل الأذكياء خاصة إذا ماكانوا ترعرعوا حيناً على يدي هاتيك".

سكنه

حورا: أرى [illegible] تبدلت كثيراً فى مدة وجيزة؟

قال قضاعة [illegible]: حقاً؟

حورا: ألا تنظر إلى نفسك فى غدير؟ لقد عاثت فيك النحالة.
قضاعة: النحالة؟ هل يعنى مولاى النحافة؟
حورا: نعم. لابد لك أن تعلم يا ولدى، أن المرء يلزمه إثراء مفردات لغته كل حين. إنها ماعون الفكر والعقل.
قال قضاعه كارهاً له ولمقولته: أمل أن أسترد ما فقدت من كرم سيدنا.
كان حورا يتدبر كل كلمة يتفوه بها غريمه، إذ لم ينس لحظة واحدة أنه يخاطب الرئيس بما هو مفترض بينما خاطبه قضاعة باعتباره الرئيس بما هو قائم فعلاً. وهذه النظرة المعكوسة أو المبالغ فيها هى ما أتاحت لهما عدم الصدام من أول وهلة. وفكر حورا إن كان الوادي قد علم بعودته؟ لا بد أنه علم. وإلا لافترسه كالحلو بعد وجبة عشاء خفيفة. وأراد أن يتأكد فسأله: "هل رآك أحد وأنت عائد؟ أعنى وأنت قادم علي؟"
قضاعة: مازال الوقت مبكراً على صحيان الناس. ولكنى مررت ببعضهم في طريقي إلى البيت الكبير حتى لقد أراد نفر منهم أن يرافقوني لكني منعتهم.
حورا: آه. الناس. المشكلة دون عقده. نصيحة: لا تعتمد كثيراً على كلامهم فهو يعيش ويموت كلاماً.
شعر حورا بضيق مفاجئ فأراد أن يبتعد بالكلام الذي يعيش ويموت كلاماً بحسب توصيفه الكاذب له إلي ناحية أخرى:
"خبرني، أحقاً لا تستطيع أن تكون غير مؤدب؟"
قال قضاعة بعد هنيهه وحورا ينتظر إجابته بتشوق: "الطريق أجهله. لا أعرف كيف لا أكون طيباً مؤدباً كما أردتني منذ نعومة أظفارى".
قال حورا بنغمة سخرية مسهدة: "نعومة أظفاري؟ (يزم شفتيه) لعلك لم تسلم أذنك لحصار الدهماء؟".
قال الراوي مباشرةً: يعنى مفكروا ودعاة العدل والإخاء والمساواة، فهذه إحدى تعبيراتهم في وادي الرعاة.وهم جماعة ظهرت في الأعوام الأخيرة بعد صدمة مقتل الرئيس غصن مباشرة وشاع صيتها دون أن يكون لوجودها كله صدى حقيقياً بين الناس.

ومع ذلك تصدى لهم حورا فنفى بعضهم وأباد البعض الآخر، فأدى تدخله إلى نتيجة عكسية أكسبها ما لم يكن فيها ابتداء. واضطر أخر الأمر إلى نفى من يردد أقاويلهم الباطلة شرعا، بحسن نية أو بغيرها، سراً أو علانية، وطالما لام نفسه متسائلا أكان من الأفضل والأجدى ألا يتصدى لهم ويترك صوتهم الخابي يضيع في البراري. ولكنه فى الحقيقة لم يكن يطيق صبراً على وجودهم. مع أنه نجح تماماً - على السطح - في مسعاه لقضاء عليهم.

وأحياناً تطلق اللفظة نفسها: "الدهماء" مجردة، على الأفكار الأربعة العتيقة: العدل، المساواة، الإخاء، أما الرابع فغالباً ما يغفلون عنه. ومن غير المؤكد "يقلب أوراقه" أن يكون قضاعة فى منفاه الإختيارى قد اختلط بهؤلاء.

ويكمل حورا: إنهم كالجرب متى إلتصق بالجسم لبد وعله وإستحالت إزالته. هيه، ما بخلت عليك يوماً بشيء. لقد تبدلت. وهنت. تعلمت أشياء كثيرة تفوح من رائحتها النفاذه أصابع أجنبيه. ماذا ذكرك بنا اليوم؟

ولما تقاعس قضاعة في الرد عصف به قائلاً: "أجب يا ولد (ثم منذراً بلين) وكن مؤدبا".

ود شرنقة شديد التعصب لسيده، لو يأكل كبد قضاعة وهو قادر على أكله فعلا لا مجازاً إلا أنه لم يتلق من سيده ولو إشارة مائته فلزم مكانه على مضض.

قال قضاعة بأدب جم دون أن يفقد ثباته بفعل الشجاعة التى يتحلى بها الشباب عادة دون أن يدركوا العاقبة أو يهتموا لها وهم يعرفوها خصوصاً إذا ما صاحب ذلك ايماناً عقائديا أشبه بالمثل والمبادئ. وشجاعة قضاعة زادت على ذلك باليأس الذي يملأ جوانحه و باستنشاقه لعبق الذكرى والتاريخ وأنفاس أبيه الملك الصالح غصن، ولكنه على كل حال عاد وفى رأسه خطة معقولة.

قضاعة: منذ صباي كنت نعم الأب..

أكمل حورا بسخرية البلوى حين تقبض على القوة: "النعم الابن وبعد..؟"

فأتم قضاعة كمن يؤدى فريضة ثقيلة على نفسه. لا مناص أن يؤديها. وإذ يؤديها لا مناص حسب الأصول: "إن طفولتي الرشيدة تشهد لكم بالعرفان ولا أحسبني أنكر فضلكم وجميلكم عليّ ولكن. أليس من حق الابن أن يرث مُلك أبيه، لا سيما وهو نعم الابن؟".

قال حورا: "لا أفهم".

يتضايق لعدم إدراكه المعنى. ويتطاير لإحساسه المفاجئ بيشائر بلوى قادمة مباشرةً باتجاهه. يتوتر، وينهره قائلاً: "أفصح، أجئت تتفكه معي يا ولد؟"

يلقم قضاعة الأمر المتغطرس ويستأنف في هدوء هو من طبعه متجاهلا بلياقة حسنة فكرة أن البيت بيته والغريب – القاتل – يسائله: "لقد فكرت ووجدت أن سيدنا أمد الإله في عمره بحاجة إلى يد مخلصة تعينه على أعباء الحكم الكثيرة.."

قاطعة حورا مستنكراً: "وأنت هو؟"

ولكن قضاعة استرسل في عرض فكرته: " ثم يذيع سيدنا على الملأ وفي ربى الوادي وشعابه أن خليفته منذ الساعة أنا. ابنك المؤدب دوماً واليد الحانية..

وتوقف منتظراً رد فعل حورا الذي لم يتأخر طويلاً إذ أتاه غاضباً: " ماذا تقول؟ هل أصابتك لوثة؟ (ثم يخفف من لهجته) آه. بوصفك ابني؟ "

لا يرد قضاعة مهموماً ومشغولاً بترتيب أفكاره اللاحقة فيما يردف حورا: " لكنك لست كل أبنائي. ومنهم المؤدب المطيع مثلك تماماً. لن أتكلم عن الأخرين بل.."

ويصيح فجأة منادياً شرنقة الذي يهرول في وهدته قريباً جداً من مولاه وكان مستغرقاً تماماً في الإنصات إليهما. وكاد لا يعرف أين يتجه. قال غاضباً مكشراً عن أنيابه: "تحت أقدام سيدنا"..

قال حورا بإهمال: "أحضر ولدنا كاروا".

بعد دقيقة يدخل طفل يقدم ويؤخر في صمت يسنده شرنقة وفي نفس الوقت يدفعه إلى الأمام. يبدو أنه كان ولا يزال نائماً: "هذا؟ ما يكون أمره؟ وإلام يصير؟ أليس له حق في أن يتقاسم مع كل أشقائه الملك؟. وما أنت إلا واحدا بينهم؟ (يعتدل في جلسته ويكمل في ثقة

وغطرسة) إن مشورتك الجديرة بالإعدام أعدمت فعلاً، واضح؟ وافرض أنى أخذت بها، شملني هذا ببغضه ولعننى. مؤكد. سوف تظل روحه تلاحقني حتى فى مثواي الأخير. ولن تكون هناك حينئذ كى تسمع صراخي وعذابي. وإن سمعت فلـن تبالي. حتى وإن نضج هذا، افرض (يكح كما لو أن لسانه لا يطاوع فكرته أو كلمته التالية) جباناً هياباً. فهذه مشكلته. والمشكلة عندي أنا. فأنا لا أقدر على خداع ضميري الحي اليقظان. إنه نفس الضمير الذي خدمت به المرحوم والدك. ضميري هو الشيء الوحيد الباقي لى من زمن الرئيس الخالد غصن الذي لا قِبَل لـي بالتفريط فيه، ألا توافقني على ذلك؟ وهل ترضى بهكذا عذاب لأبيك الصالح حورا؟"

قال الراوي: كانت خطة قضاعة أن يزرع نفسه إلى جانب حورا وقريباً منه قدر ما يستطيع. على اليمين، اليمين دائماً (يرفع الراوي يمينه، وينظر إليها مستغرباً) يقيم معه. أمامه، ويتحالف ضده من ورائه أو فى غيابه مستفيداً مما توفره السلطة وظلالها التي تشبه كثيراً شبكة العناكب من مركز وقوة وسهولة اتصال الى أخره.

إنها – السلطة – تقدم لك الدنيا على طبق من أوراق الشجر اليانع فيما تقدم الدنيا نفسها للرئيس وحاشيته على طبق من ذهب هذا هو الاختلاف. ومتحيناً الفرصة مستعداً لها. يجتذب أنصاره ويرتد بهم عليه. لقد أتى قضاعة دون أن يعرف بنفس ما فعله حورا بالضبط مع أبيه. أو قريباً منه. مع إختلاف طريقة الدخول والداخل.

لقد هان وتشرد أعواماً عديدة وهو يفكر ويفكر ثم توصل فى النهاية إلى هذه الخطة المعادة البسيطة. هنا في وادي الرعاة يقولون لا جديد تحت الشمس إلى أن تزحف وترقد فوق الأرض فى عناق الزوج بالزوجة، فى عناق الورد لنفسه وهو يفتح ويغلق أكمامه. ولكن ما من أحد يتعلم الدرس فالسياسي العتيق يحبذ دهاء الصبية البسيط. ولع معجب بقوة حركتهم وقدرتهم فى الصعود وفى الفعل. بيد أنه فى الواقع يدرج كم لو كان مرغماً بقوة خفية على نهج أسلافه العتيق المهترئ.

كان قضاعه يهدف أولاً إلى تأمين عمره. أنفاسه. وهو لا يشك فى قدرة حورا على سرقتها وعلى غدها. إن هو أراد الحصول على

عددها. وطالما لم يأمر بوضع الأغلال في يده وحول عنقه حالما دخل عليه فقد حصل عليه فعلاً. ورغم العديد من أوراق اللعب الرابحة في يده إلا أنه بدا في واقع الأمر وكأنما هو بمجرد التفكير بالعودة إلى الوادي ومواجهة حورا مقبلاً على الانتحار أو كمن يسلم نفسه لجلاديه.

ولا بأس أن لاحت فرصة للضرب فليضرب معتقداً أن كل أوراق اللعب الرابحة تصبح خاسرة سلفاً في مواجهة حورا وتفقد فعاليتها إذا كان الخصم هو حورا... وغرق قضاعة في خضم من هواجسه وهو يرى خطته الذكية تنهار أمام عينه وتساقط بين يديه بوادر فشل زريع. وزاد من ألمه أنه لم يضع خطة بديلة. فبات لا يدري ماذا يفعل. كالقشة في مهب الريح.

قال قضاعة المتشبث بقشة: "ولكني أكبر الأبناء وبإمكان كاروا أن يخلفني".

وفي هذه اللحظة انفتح لحورا باب جديد كل الجدة فحين نادي بإحضار كاروا لم يكن يقصد من حضوره ومن كل ما قاله تبعاً لذلك إلا تمثيل كلامه، فلم لا يعلن فعلاً أن هذا الطفل كاروا هو ولي العهد في حياته فيحيل ذلك الهم الذي يحاصره أثناء الليل والنهار بإمكانية أن ينقلب عليه أبناؤه – قبل غيرهم – وهم يتكاثرون من حوله كالأحراش وبهذا يتحول اهتمامهم ومؤامراتهم إن وجدت إلى كاروا. ولا مانع من دخول قضاعة هذا السباق في معركة الأطفال/ الكبار هذه وليستمتع هو بالفرجة. وقد يشارك بعضهم أو يدخل مشجعاً لبعضهم الآخر. وربما يدخل لاعباً أساسياً إن لم يعجبه مجرى الصراع ولكن من خفاء. أما أعداؤه من غير أهله فهم أقل خطورة وهو قادر على سحقهم دائماً.

إن لأم كاروا دون نسائه جميعا المكانة الأولى في نفسه وها هو يقدرها في ابنها. وشعر بارتياح عظيم لما نوى عليه. تُرى على أي حال سيشب كاروا؟ كما أن أسرتها من أكبر الأسر في وادي الرعـاة ومن أعرقـها وقد كان زعيمها "جدعان" إلى جانبه في صراعه مع الأسرة العظيمة بتأثير أم كاروا. وإن لم يطلع بأم عينه على حقيقة ما يجري من وراء الستار. لقد شعر حورا في أعماق نفسه بشئ من

الامتنان لقضاعة الذي فجر في رأسه هذا الجسر العملاق وصولا لأمنية طالما تمنى تحقيقها.

جدير بالذكر أن العرف جرى في وادي الرعاة على أن الأبناء ينسبون لآبائهم باعتراف الأب ليس إلا. فيجوز أن يكون للرجل ألف ولد ولكنه يختار واحد أو اثنين وينسبهما إليه. فإذا فعل لم يعد بإمكانه التراجع أو إنكار ما نسب بنفسه إلى نفسه. أما الباقون من الأبناء فيطلقون في الوادي كالعبيد أو كالسوائم. ومن هؤلاء كان حورا.

وبرغم ذلك رد حورا على قضاعة بسأم غريب: "دعك من الإعادة والتكرار في الحلقة المفرغة فهي مفرغة كما تعلم وهي مفزعة كما يجب أن تعلم".

ثم أضاف مشجعاً: "ألا تكشف لي سريرة نفسك؟ قد نتفق؟"

يلبد قضاعة بين ساقي السلامة: الصمت. الصمت. بينما يردف حورا بعد لحظة مضطراً: "هل جئت تطالب بحقك في الرئاسة؟".

أجاب قضاعة بقوة من يتنصل من اتهام اخلولق أن يكون كفنه من لحظته: "عفواً سيدي إنما.."

حورا: "إنما أنا أكبرك بحوالي عشرين عاماً أو أكثر.أي أنى أعلم منك بما لا تعلم عن أمره شيئاً بالمرة".

يهز قضاعة رأسه على شيء يدور فيها فيطرد حورا راضياً: "أحسنت إذ توافقني. وتسلمك السلطة الآن أمر خطير، ليس عليك وحدك بل بالنسبة للوادي وشعبه كافة، لقد اعتزلتنا فترة ولا تدرى حقيقة ما تجرى عليه الأمور. ولا أنت كنت في يوم عالماً بشيء منها. لقد تعبت كثيرا يا ولدى لأصنع مجد الوادي. صحيح أنك وافيت السن الواجب معها أن أسلمك السلطة لكن صدقني لن تستطيع أن تحافظ عليها ولن تقدر على رفدها بالحياة أو الاستمرار بها على ما أصبحت عليه من قوة وبأس ستذهب إليك طوعاً ومنك لسواك كرهاً وسوف تنزل على كلينا صعقاً. إن دفة الحكم والقيادة مسئولية لا أراك أهلاً لها. وأنا مصر ألا أحملك فوق طاقتك بإسم الوادي المقدس وباسم مصلحته العليا".

نسمع هرجاً ومرجاً، يتوقف حورا عن متابعة كلامه ويأمر شرنقة باجتلاء الأمر. يغيب شرنقة دقائق بينما يعود حورا إلى ما كان بصدد قوله: "ما قولك؟"

قضاعة: وأنا أيضاً لست أهلاً للرعي أو التجارة. ولا أراك ترضى لي بالزراعة. أحقر الأعمال في الوادي ".

قال حورا بحزم: تلك مشكلتك و..

يدخل شرنقة متلهفاً: "الكثير من القوم يطلبون رؤيته".

ويشير نحو قضاعة بحقد، مزدرياً. بينما يتضايق قضاعة ويسعد في آن. يقول كالمعتذر: "وأنا لا أريد رؤيتهم، هل يسمح لي سيدنا بأن أطردهم بنفسي؟"

وإن لم يقتنع حورا بما قاله إلا أنه ما كان لديه خيار آخر فأمر شرنقة بمصاحبته. ونراه وهو خارج خلف قضاعة يتحسس خنجره، نسمع هرجاً ومرجاً أعنف بعد خروجهما، يعودان بسرعة، ولم يكن بادياً على حورا القلق أكثر مما بدا عليه من التفكير العميق حتى انه ينتبه متأخراً إلى عودتهما فيقول مديناً ما جرى: " ماذا كانوا يريدون؟"

يهم قضاعة بالكلام فيمنعه حورا والشرر يتطاير من عينيه: "السؤال ليس لك".

شرنقة: سلموا عليه. دعاه بعضهم لزيارته. كلهم تقريباً من العامة.

قال حورا بعد صمت ثقيل أوقع الكآبة في نفسيهما معاً، شرنقه وقضاعه: " اسمع يا قضاعة سوف أفسح لك منزلة ومكانة لا تقل عن منزلة ومكانة الرئاسة قيد شعره. سمها: منصب. سأخلقه لأجل ولدي المؤدب قضاعة.

قال قضاعة في تردد يائساً: " ولكني لا أستطيع.. "

قاطعه حورا بلهجة قاسية: "لا تحاول أن تعبث معي، ولا تحملني على الغضب منك".

ويكمل برأفة بعدما بدا على قضاعة من حزن ووهن يكاد يطيح به: "لا تحزن كثيراً فما بنته سواعد الآلاف لا يهون على آخرهم، حتى لو لم يكن عنده كمثل ضميري، أن يتركه نهباً للتآكل والتفسخ

(وأضاف مهدداً بقوة) فلا تحاول مرة ثانية أن تسمعني ما لا أحب سماعه (ويضيف مختالاً) وإذا قبضت فانهض بما يتراءى لك".

قضاعة: ما أردت إلا أن أعبر عن ثنائي لعطفكم عليّ فما أبتغى أكثر من أن تسمحوا لى بالإقامة فى كنفكم "وبعد لحظة" وما تكون منحة سيدنا؟

قال حورا الذي كان يتدبر اقتراح قضاعة بالإقامة معه بعد أن التقطه كذبذبة عالية الخطر": ماذا؟ آه، المنصب. هكذا يزيد إعجابي برجاحة عقل ولدى المؤدب".

وأشار حورا إلى الحرس الرابضين فيدبرون من فورهم وكذلك شرنقة والحاجبان وينادى حورا على شرنقة بعد مغادرته ويأمر بإحضار شيئاً من الخمر الجيد بعد أن يسأل قضاعة فيعتذر عن الأكل مكتفياً بالشراب.

كان قضاعة عداء غير منساق لسجية عمره الفتيه لأسباب عديدة. ونتذكر كيف تلقى نبأ خيانة حورا لأبيه ببرود أعصاب متناه، برود من تفتح بأسنة الرماح رواقها القدسي لغاز كالح بعد أن أعجزها الضرب، والفزع من مزيد من الضرب، عن إقفال حاشيتها: لقمة كالحة دون ردود فعل هوجاء. كان قضاعة عاقلاً أكثر مما ينبغي وإنه الآن لينشد المعرفة – معرفة كل ما يستطيع معرفته – تدعيماً لخطته أكثر من كونه يريد فعلاً الوظيفة المعروضة عليه الآن أو إصابة الهدف في الحال.

ولا ننسى تأثير اختلاطه المختلس بالقوافل وأحوالها. كما لا ننسى الدرس المكثف الذي منحه إياه الشيخ زمن فى ساعاته الأخيرة قبل أن يدركه قضاء حورا بعد ذلك اللقاء الموعود بعدة أيام. باذلاً له جهداً خارقاً واهباً إياه كل ما بين يديه من تجربة وعلم بالإضافة إلى الأسلوب الذي نحى فيه حورا بإصرار ودأب على اتباعه مع قضاعة عبر سنوات طويلة ممتدة وبرأيي أن شتاته وتشرده لسنوات هو الذي وازن عمل حورا الشيطاني فى نفس نفسه.

قال قضاعة فى تعجل وضيق: "ما هى الوظيفة؟"

قال حورا بكبر زائف: رسول الإله.

قضاعة: ماذا تقصد؟ أى إله؟

حورا باعتداد وشموخ: " ما سمعت ".

قضاعة بكل وإعياء: " إشرح لى".

قال حورا متحيرا: " الواقع أنى لا أفهم تماماً، غير أنى فكرت.. "

قال قضاعة مستنكرا بدهشة لم يستطع حجبها: " لا تفهم؟ "

حورا: إنتظر. فى أرضنا هذه كثيرون هم الذين يتعبدون للظلام، وثمة من يعبد الجبل وآخرون يعبدون النار أو الشمس أو النجوم أو القمر. وقلة لا تعبأ بأى أحد. وكل نفس وما تشاء. لقد حان الوقت يا ولدى المؤدب قضاعه لتنظيم العباد من خلال معبود واحد.

كان حورا يعبد نفسه، و قضاعة الظلام.

قضاعة: تقصد أن نجبرهم على عقيدة واحدة، وماذا يفيدنا ذلك؟

حورا: "لا. انتظرني. "

يغادر حورا كرسيه لأول مرة منذ مقابلته لقضاعة. يجلس على الأرض فوق شيء شبيه بالوسادة. ينظر إلى قضاعة الجالس فوق الكنبة ويأمره: " تعال. اجلس هنا علي الأرض معي. تحت أقدامي بالتحديد. حسنا. قبل مدة قصيرة من مفارقة سيدنا غصن لوادينا العظيم كان قد اشترى من زوبعة أمة وهى من حدثتني عن ذلك الأمر الذي نخوض فيه الآن إذ فاجأتها ذات أصيل تقوم بأداء بعض الحركات وأقسم لم أرى أسلس أو أنظف أو أخشع من تلك الأمة وتلك الحركات.

كانت تقوم وتجلس وتنثنى سبع مرات وتعفر وجهها بالتراب دون أن تفعل حقيقة. ثم تجلس لآخر مرة على عقبيها وتفتح كفها إلى السماء ووجهها إلى الأرض. ثم تضع أناملها على صدرها. مرة على الشمال ومرة على اليمين ثم فوق الجبين وتنتهي من كل ذلك بكلمة "آمين". وتسميها صلاة، وهى فرض كلفها به الإله الواحد. لقد عرفت منها الكثير عنه، لا تنظر إليّ هكذا كالأبله تمعن قليلاً فى مغزى أن يكون هناك يكون إله واحد هو خالق ما نعبد. الليل والنهار والشمس والكواكب وكل شيء. إله واحد أكبر وأعظم منها قاطبة. أليس هو خالقهم؟ إنه رئيس الآلهةجميعا. إن لهذه الفكرة سحر قلما رأيت له مثيلا، ولا يمكن أن تشعر معها إلا بأنها حقيقة خالصة. هذه الفكرة ظلت تلح عليّ ما استطعت منها فكاكا عبر عقد من الزمن حتى

اختمرت ونضجت وحان قطافها. وسوف أهديها إليك. إلى ولدي المؤدب قضاعة.

قضاعة: أي فكرة؟ عما تتحدث يا سيدي؟

حورا: من العسير عليَّ الآن أن أعيش الحياة كما كنت أعيشها قبل أن تحدثني الأمة بسرها. كما أن الحياة عينها صارت بدون فكرة الإله الواحد والرسالة وما فيها خواء صرف.

قضاعة: ولكنا عشنا وما زلنا، وتمتعنا وما زلنا من دون إله واحد.

حورا: نعم ولكن ثمة فرق بعد أن تعلم وقبل أن تعلم، آه، لا اعرف كيف أدلك؟ (بعد حين) سأحاول على أي حال، إن هذا الأمر متى ما قبع في رداء أي شيء أشاع فيه النور وأعطاه قيمة مضاعفة. فإذا قارنته بالشيء أول مرة شعرت أنهما لا يكادان يتطابقان.

ويحدث حورا نفسه: "أجل إنها رائعة. مجرد أن تدخل الشرك يا أعز الأولاد فإنك تكون قد تنازلت لي ضمناً عن العرش. واعترفت لنفسك المكانة الوهمية. هيا يا فأرى المؤدب. هيا ادخل المصيدة".

قضاعة: سيدي.

حورا: نعم نعم، كنت فقط أستحضر أفكاري، وأنسقها. تعلم أن معظم ما نحتاجه من أفكار صالحة من الصعب العثور عليها إن خارج أو داخل الذهن. إنها زاوية في الداخل العميق والخارج البعيد وحين تستطيع أن تأخذ خطاً بينهما تنتج ثمرة ليست ككل الثمرات. والأمر يحتاج لمجرد إعادة صياغة.

لم يفهم قضاعه شيئاً. وظن أن سيده يهرف بما لا يعرف. ولكنه اصطبر. فيما أضاف حورا كأنما قرأ آخر سطر خُط في صدر ربيبه السابق قضاعه قائلاً بتبسيط ممتاز: اسمع يا قضاعة. أليس هنا في وادي الرعاة من يسأل عمن خلقه؟ لقد سئلت مرات عديدة عن ذلك وخصوصاً من ذلك الولد كاروا...

قال قضاعة دهشاً: كلٌ منا يعلم خالقه.

رد حورا مستخفاً: أوه. حقاً، من؟

قضاعة: لكل منا أم. فأمهاتنا هن خالقينا.

حورا ضاحكا:" لا. لا. خذ القنينة (شيئاً يشبه الدورق من الفخار) اشرب. اشرب كثيراً. كلها. الآن يمكنني أن أكمل مطمئناً على حسن إصغائك. أبى مثلاً كان يتساءل عمن خلق أمه؟"

كان قضاعة يصيخ بلوعة النار للهشيم إلى أن أسر لنفسه قائلاً:

" صعلوك الوادي آض حكيمة، زمنُ أمست فيه الحكمة للموتى. "

وكان محقاً فقد نبت حورا من قاع وادي الرعاة. أما أبوه فنشأ وانتهى فيه. وكانت له ميتة مشهورة بطول وعرض الوادى إذ وُجد غارقاً في بركة ماء بجوار البحيرة، في الوحل والدم و الخمر. وكان مدمناً عليها بعد أن هاجمه وحش ضال فأسال كل هذا وخلطه بأشلائه. وأغرب ما في الأمر تلك الابتسامة العريضة التي وجدوها محفورة على شفتيه بخط مسماري، رهيف. كما لو أنه مات وأصابع العهر تدغدغه. ولم تفلح روائح العفونة والخمر والدم في أن تمسحها عن عيون كل ناظريه. وكان غريباً بحق أن لم يمس وجهه – ابتسامته – خدش واحد. وكان غضاً نضراً لحظة أن وجدوه.

وأكمل حورا: " ستقول أمها. وهكذا فهى سلسلة لا تنتهى ولابد لهذه السلسلة مثلها مثل أى شيء من نهاية.

قضاعة: ولماذا لابد؟ (وبعد برهة) كيف؟.

قال حورا مراجعاً نفسه مفكراً بصوت مسموع: "صحيح. لماذا لابد من نهاية. إذا كان ليس ثمة شيء ينتهي إلى لا شيء فلا شيء يبتدئ من لا شيء".

ثم قال مستنكفاً مع نفسه: لكن الأمة أكدت لي أن لها نهاية وأنا في حينها لم أر اعوجاجا في المسألة واعتنقت رأيها. ترى هل خدعت بما استشعرت في وجهها من نور. في البدء كان لنا أب واحد ومنه ابتدأنا. أتدرى من خلق أبينا الأول؟

ينتظر حورا مترقباً حتى يتكلم قضاعة أو يعلق بيد أنه كان حائراً يحدس فأطال تفكيره، ليس في سؤاله بل في كل ما فاه به.جميعه. وترقبه حورا بحلم حتى نطق.

قال قضاعة مضطراً، يشعر أنه يريحه بينما يظل هو نفسه تعباً قلقاً:من؟

قال حورا متنفساً الصعداء ومشمراً عن مباهاة كاذبة: " واحد لم يكن له أم، ولهذا فهو إله. إنه الذي يرانا ولا نراه. وهو موجود فى كل شيء. إنه هنا وهناك فى نفس الوقت".

قال قضاعة قلقاً أكثر من ذي قبل، مستريباً: " كيف؟ "

حورا: إننا وحدنا نرى ذلك لأننا نحن الذين نختلق التناقض أو نراه. إننا نحن الذين نضع المقاييس ومن ثم لا يصح أن نقيس بها عليه. أو لسنا مخلوقين؟ فقواعدنا لا تنطبق عليه. هو الخالق. وعلينا إذن أن نؤمن به. وأن نصدق أنه هنا وهناك فى نفس الوقت".

قضاعة: وكيف انوجد أبونا الأول على فرض أن لنا أب وأم واحد، شخص واحد؟ ألم يلده الخالق؟ وإذن فمن ولده بدوره؟

حورا: أخ. هنا مربط الفرس وبيت القصيد والعقدة فى المنشار. هنا بالتحديد.. وجدتها يا مؤدب. فلأننا مخلوقين تحتم أن نبدأ بداية ما. بواحد أو اثنين. ولكنه خالق. فهو إله. ومن الضروري أو الطبيعي أن لم يلد ولم يولد. ولو أنه ولدنا لكنا شبهناه. آلهة صغار. ولكنه خلقنا على شبه منه. تقول الأمة بفمه أو بكلمة، لا أتذكر.

قضاعة: إذن فهو أبينا الأول.

حورا: كلا إنه إله، إله كل شيء. ليس كمثله شيء. أما أبونا الذي خلقه فهو مثلنا تماماً وقد مات. بينما هو لا يموت.

قضاعة: وأنا سأصبح رسول هذا الإله بين الناس.

حورا: نعم.

قضاعة: علام؟ لأي غرض؟

حورا: لقد اصطفاك على سواك لتوجه الباقين إلى عبادته وحده بلا شريك فهو لا يريد أكثر من ذلك. إنه بطبعه مقل فى طلباته. ستقوم أنت بدور حلقة الوصل بينه وبين الناس، إنه إله ولا يصح أن يكون مكشوفاً لكل من هب ودب.

قال قضاعة حذراً ومتوجساً من القصة كلها. فكل كلمة يقولها حورا تشعره بوجود ثغرة ما: "ولماذا لا ينهض هو بهذه المهمه؟ أليس كفؤاً لها؟"

رد حورا ســرجا وقد زم شفتيه كعادته حين لا يعجبه شئ ما: لا ادرى.

بدا قضاعة سعيداً دون سبب واضح كما لو كان حورا يعمل على إغراقه واستطاع هو الإفلات بروحه من تحت وطأة يديه الثقيلتين. إن إفلات أحدهم من موت قرره حورا ليعادل قتل حورا العظيم نفسه، بذات يده وسيفه ثم قال ساخراً: "لا تدرى؟"

قال حورا منفعلاً: " إنه الإله الواحد، ألا تفهم؟"

صاح قضاعة مستنكراً:" أفهم ماذا؟"

حورا: اصغ لى، حين كنت أسأل أسئلة كهذه كانت الأمة تجيبني أن هذه حكمته. وطبعاً نحن بصفتنا مخلوقين ليس لنا أن نفهم حكمة الخالق. وأيضاً لا يحق لنا أن نفهم كل شيء عن حكمته.

قضاعة: يا له من احتيال فج. فكيف نفهم حكمة ما يبشر به؟

حورا: أوه. كلا. كفى. أؤكد لك أن الناس أقل شكيمة منك. فلماذا أنا نفسي لم يدر بخلدي كل هذه الأسئلة حين كلمتني الأمة عنه. لقد بهرتني الفكرة، واكتمالها، إلى الحد الذي كفاني فلم يتبق فيه مكان لموطئ قدم إضافية غريبة. لجرعة زائدة.

قال قضاعة محتجاً: " ما دمت سوف ألبس ملابسه فمن الضروري أن أفهم وأن أسأل. ثم يضيف خافضاً درجة حرارة الجو المحيط بهما." المهم، أين يقيم هذا الإله؟"

حورا: فى السماء. لا أدرى على وجه التحديد. إنه فى كل مكان (ثم يقول يائساً مفضلاً عدم الاستمرار فى إدعائه الكاذب باعتناق مذهب الأمة الديني) لعله غير موجود بالمرة ولعل الأمة كذبت، وهذا لا يعنى أن الفكرة نفسها كاذبة أو لا يمكن الاستفادة منها.

دعني أوضح لك، تقول الأمة أنه من آونة لأخرى يبعث من لدنه رسولاً من جنس يطير ولا يرى. تخيل؟ وهذا يبعث بدوره رسولاً آخر من البشر كي ينشر، ويمكنك أن تقول أيضاً ينثر، بين الناس ثوابته ونواهيه. تلك الثوابت التي وضعها الإله شخصياً لمصلحة الناس، خلقه. وهو يحمي رسله حماية مطلقة ويمدهم بالقوة والسلطان، ومن ثم الغلبة فى نهاية المطاف، التي يؤيد بها كلامه ووجوده. ونحن هنا فى وادي الرعاة لن ننتظر. سأبعثك أنا واحداً من رسله، هذه هي اللعبة، هل فهمت؟

لم يكن عند قضاعة حتى هذه اللحظة أى استعداد لأن يفهم وأن يقتنع. لقد شعر منذ البداية برغبة جامحة فى تدمير كل ما يحاول حورا جاداً ومجتهداً بنائه وإعلاء رايته في نظره، ربما بسبب إحباط خطته الأصلية بخلافته إياه مباشرة. أما حورا فقد ركب موجة عكسية ووجد نفسه يدافع عن فكرته دفاع الأبطال. أراد قضاعة أن يكيل الوخز على مزاعمه أو لعبته التي عاقتها نفسه أو كانت أكبر حجماً من أن تدخل عقله. حتى يعريها فقال:

" إذا كان ذلك جملة صحيحاً فلماذا خلقنا بداية معوجين؟ ولماذا لا تجد رسالته إلينا آذاناً صاغية من أول وهلة دون حاجة إلى نفى وإثبات وقرع طبول التضحية؟ والأهم برأيي من كل هذا، لماذا تركنا نفلت من بين يديه؟ ألم يخلقنا حيث يعيش؟ ثم ها هو يعود فيجهد نفسه بمتابعة القافلة؟ وماذا تفعل الرسل؟ يدعوننا إليه؟ إلى كلمته. ما الرسل إلا تمهيد لحكمه هو. فلماذا تخلى بداية عن خلق يديه؟ عن سيطرته وحكمه المباشر علينا ولأي شيء؟ لماذا كل هذا اللف والدوران؟

حورا: لا تسألني، فما يعنينا صدق هذا من كذبه، ما يهمنا غير الفكرة. إنك لم تفهم حتى الآن.

قضاعة: سيدي، عذراً. إنني أسألك لأنى لو قبلت هذا الدور فسوف أسئل كثيراً فأنا أتصور نفسي واحداً من الناس وأجرب ما يمكن أن يدور بأذهانهم.

قال حورا معتقداً بوجاهة حجته: ان الأمة أكدت أن تلك الدعوة المبهمة تلاقى بين الأنام رواجاً واسعاً. بمقدورك أن تطمئن لصحة هذا التأكيد. فأنا نفسي أؤمن بصدق ادعائها، ولو أن ثمة شيء غامض أو مجهول يكتنف ألوانه الزاهية. فما أن تبذر الفكرة فى مكان حتى تعمر فى أرضها ما بقيت الأرض وأنا مررت بالتجربة. وفى حين أنه إعتاد بعث الرسل من الضعفاء والشحاذين ستكون أنت أول رسول له قوى، مطاع، غنى، إبن رئيس، وهذا ما يعنينا من المسألة.

مجرد استعاره، ونحن أفهم بطبيعة الأرض أكثر من هؤلاء الذين يسكنون السماء. إننا سنفرغ الرسالة من محتواها ونعيد ملأها من جديد على نفس القالب بما يتوافق مع رغباتنا.

قضاعة: حسن. تقول أنه يدفع عن رسله الأذى والضير فمن يدفع عنى؟ تعلم أن فى الوادي أسر قوية وعباداتها متباينة وقد يكون من غير المناسب لها أن تستبدل عبادة إله مرئي بآخر لا وجود له. لا عين له ويرانا ولنا عيون ولا نراه. وليس بالإمكان حتى رؤيته. وقد يعادوني وأنا.. أنت تفهم قصدي.

قال حورا مستنكراً بجفاء: " أنا؟ أنا أسندك بسلطتي. (ويضيف حورا الداهية كما أعرفه) التي هى من أصل سلطتك، إنني فى الحقيقة أبتدع لأجل ولدنا المؤدب قضاعة سلطاناً من نوع جديد أو كما تسميه الأمة: دين. ولو أني أشعر مقدماً أن الناس تحتاج فى كل مكان وزمان لشئ كهذا الشئ. شئ يتدثر دائماً بلا إنقطاع بزى الأخلاق والفضيلة.

قضاعة: ما هذه أيضاً؟.

قال حورا متسائلاً: تعنى الأخلاق والفضيلة؟ هما الخير، ولكى تكون خيراً لن تكون شريراً، وإذا أصبحت كذلك استحالت عليك المعيشة، لأن الحياة بنفسها شر تتغذى بالأعشاب السامة. وهذا عين ما نريده. أن يعيش الناس فى خنقة الخير وحده وعلى الأقل فى الصراع بين الخير والشر. إن الأخلاق والفضيلة هما برهان الإله الواحد على وجوده وهما دليل الإنسان على طاعته.

قضاعة: والصلاة؟

حورا: فى عقيدة الأمة هى الدليل، ونحن سنعمل على تفضيل مقياس الأخلاق والفضيلة الواسع المطاط. فهو يناسبنا أكثر من مجرد حركات يستطيع أياً من كان إتيانها بيسر وسهولة. ولسنا نستطيع الحكم على أصحابها بالصدق أو بالكذب. فالأشكال والأطر دائماً صادقة. وهذا غير مناسب لنا. السلوك العملي يهمنا أكثر.

قضاعة: وماذا بعد ذلك؟

مال حورا على قضاعة فى حنان وعطف ادعاه بإتقان وقد لعبت برأسيهما قناني الخمر التى يعبان منها بغير كئوس وقال: "من مواصفات هذا الإله، القوة الخارقة. وكل شئ عنده بميزان. وما نعرفه يعرفه بل ومضطلع على الغيب وعلى الأفئدة. على ما كان وما سيكون وكأنه يكون هذه اللحظة، تخيل؟

قضاعة: فلماذا كلف الناس بالصلاة؟ أليس هو المطلع على مكنون الصدور؟

حورا متذمراً: "لماذا تمسك الذيل دون الرأس دائماً؟ تمعن فيما قلت. إن فكرة إطلاعه على ما فات وما هو آت، على ما خفي وما ظهر، ليس هناك ما هو أكثر منها فائدة لك يا رسول الإله المنتظر.

قضاعة: كيف؟ هل ستكون لي هذه القدرة؟

حورا: طبعاً لا، فهذه من قدراته الخاصة وحده. إنها سترغم الناس على التفكير ألف مرة قبل أن يقدموا على ما يخالف أوامره.

قضاعة: وأوامره هي أوامرنا، وعينه هي عيننا.

حورا: بالضبط، من المهم جداً بحساب الأخلاق والفضيلة أن يشعر الناس أثناء الليل والنهار أن هناك من يرى ويراقب. الأفضل أن نضيف: يرى ويسجل.

قضاعة: وإذا أقدموا فعلا ولم يحدث لهم مكروه؟

حورا: سأبين لك ذلك في حينه، والآن دعني أكمل، كل شيء عنده لا حد له ولا نهاية إذا غضب دمر في لمح البصر، يمكنه أن يزيل الجبل كما نزيل الغبار بنفخة من فمنا، إنه هو الذي يرسل الصواعق، يشق الأرض، ويوقظ البراكين، إذا فحت الحمم وزمجرت العواصف فإنه يعلننا عن غضبه واستياءه من أعمالنا ويعده بمثابة تحذير لنا من التمادي في عصيانه، وإذا رضي وأحب أعطى مالا عين رأت ولا أذن سمعت، فما ظن المخلوق بعطايا خالقه؟

قضاعة: هذا هو الكرم عينه.

حورا: وإذا كنا كمخلوقين نستطيع أن نأتي بالمعجزات أحياناً فما بال هذا المخلوق نفسه بخالقه؟ كما يطيب له أن نعمل على اجتناب نيرانه المجنحة وطلب رضانه والدخول في تحالف دائم معه عند الهزيمة والنصر على السواء (ويصرخ فجأة في قضاعة الذي أراد أكثر من مرة أن يتكلم. ثم يهدأ) إنتظر.. وفي كل شدة أو رخاء يجب أن نذكره شاكرين.

ويتكلم الطفل كارو ابن حورا الذي لم يخرج منذ أن احضره شرنكه. وإنما قبع ساكنا لا يريم خلف كرسي العرش، قال كالحالم:

"أبي أريد أن أكون رسول الإله. إنني إبن الرئيس". قالها وعاد إلى نومه.

وبرغم أن كلمة الطفل الصغير غير الواعية أربكت قضاعة فإنه قصد إلى استدراج حورا لمتابعة الكلام الذي بدأ منذ لحظات يستعذبه وينجر وراءه كالمسحور قبل أن يفكر حورا في مدلول كلمة إبنه. بالرغم من أن المسألة برمتها لم تكن حتى هذه اللحظة تعني شيئاً ذا قيمة واضحة بالنسبة لكليهما. وأنها أشبه بناطحة سحاب قائمة على خدعة بصرية. إلا أن شعورهما الباطن كان يستشعر في كل هذا الهراء الذي يبحثانه شيئاً ما صحيح وحقيقي، جوهرة ما في قلبه، وهو ما دفع حورا إلى التردد. وقضاعة إلى إماتة هذا السهم المفاجئ قبل أن يتمكن من هدفه.

قضاعة: وماذا يفعلون؟

قال حورا شارداً لثوان معدودة: هه. من؟

قضاعة: الناس؟

عاد حورا إلى حيويته قائلاً: "ما نأمرهم به، أهناك شئ آخر؟ (ثم قال كمن يقرأ تقريراً مالياً) مؤقتاً. سنطلب منهم البرهان العملي على الإيمان: أن يقدموا له القرابين، طعام، هدايا، أي شئ مما يملكون. ويفضل الثمين الغالي مما يملكون. لأن الإله ينظر لطلبات الناس بمقدار ونوعية ما يقدمون".

قضاعة: وإذا لم يكونوا بمالكين لأي شئ؟

حورا: يكفينا منهم، مؤقتاً، الطاعة العمياء.

قضاعة: لنا؟

حورا: للإله وما يريده، للإله ومشيئته. ونحن مشيئته.

قضاعة: فلأي شئ يفعلون ذلك؟ أعني: ما هو السبب الذي يجبرهم على التزلف إليه والتضحية من أجله؟

حورا: على سبيل التودد إليه وإرضائه لكي يمنع عنهم البلاء وينصرهم على أعدائهم ومن هذه الناحية اطمئن (يضحك) فكلهم أعداء بعض ولن ينتهي سبب الرسالة.

قضاعة: هذا عن الأغنياء فماذا عن الفقراء المعدمين. ما الذي يجبرهم على الخضوع؟.

يضحك حورا قائلاً: كي يتجنبوا المزيد من الكوارث غير التي ابتلوا بها. (يضحك ثانية).

قضاعة: ومن يدفع أكثر يفوز برضي الإله عمن يدفع أقل أليس كذلك؟

يتمتم حورا: "ها قد فهم (ثم بقوة) لكنك.. "

قال قضاعة في لحظة تغابي أو لحظة عماء لم يحسها حورا: وهل يأخذ ما يهبه الناس له؟

حورا: بل هو لك (ثم يضيف ساخرا وقد انتبه متأخرا لسقطة ربيبه) أو كان ثمة إله أرسلك؟ نحن لسنا متأكدين من ذلك (يضحك).

أراد قضاعة أن يتدارك زلته السابقة فقال بتردد: "أفهم... ولكن." ويسكت. ربما قنوطاً بسبب رفضه النفسي العنيف لسقطته تلك.

حورا: ولكنك ستزعم أنه يذهب إليه. هؤلاء الذين يطيرون عند الإله ولا نراهم يحضرون ويمضون به، والأحسن أن تدعى أنه يقاسمك إياه لأي سبب.

قضاعة: لأي سبب؟

حورا: لإخلاصك مثلاً، ولأنك رسوله وصفيه قبل كل شئ فهو يقدر تعبك لأجله. ولا تنسى أنه سوف يتبدى عليك مظاهر الثراء إن عاجلا أو أجلا. وعليك أن تتعب فعلا، التعب هو ما يجب أن تحصده بلا هوادة. في البداية على الأقل. إنها وظيفة، ولو فهمت الأمر على هذا النحو سوف تنجح وبقدر ما تعطيها تعطيك بلا حد. سوف تسمع كثيراً من الأقاويل، وسوف تسئل كثيراً. وربما توقح بعضهم وكلموك عن الحكم والعرش فلا تبالي بهم. وامضي في عملك تكسب عطفي ورعايتي وهو أمر ليس هيناً كسبه.

وقفة

أراد حورا أن يشعره كما لو كان يهبه هدية مجانية مقدماً فقال: "لقد سمعت الأمة تذكر شيئاً عن مدة الرسالة وانتهائها ولكني سأبعثك إليهم رسولاً دائماً. وإذن يمكنك أن تطمئن من هذه الناحية".

قال قضاعة وكأنه يرد على حورا هماً بهم: ولكني الوحيد الذي يراه أو يسمعه و تتعامل معه سيكون عن طريقي أنا فقط.

وكما أقلق حورا قضاعة بتلميحه عن انتهاء الرسالة ردها قضاعة على حورا بانفراده بالإله. وهو ما يستحيل معه إنهاء الرسالة من طرف واحد، فأصبحا على هذا النحو متعادلين، وبدا في بعض أوقات جلستهما الأسطورية هذه كما لو كانا يريدان بإخلاص - مشترك – إنجاح هذا العمل.

حورا: تذكر أنك خادمه الأول و كاتم أسراره وراعي مصالحه هو العظيم بلا حدود.

قال قضاعة الذي غدا في صورة من عجز عن فهم منطق مضلل وهرطقة بيد أنها سليمة شكلاً: "ألم تقل أنه خالق كل شئ ومسيره فكيف يتقرب إليه الخلق بما خلق، ولو كانت ذواتهم نفسها. إنك تنسى دائماً أننا نتكلم عن إله واحد قادر. ما معنى ذلك بالنسبة للإله نفسه.

حورا: أووه، أف، كيف أفهم من لا يفهم؟ سأقول لك مرة أخيرة أنه برهاناً على ولائهم، ستقول وما حاجة الإله نفسه على دليل من عبيد إحسانه (بعد فترة. بدا كمن يستجمع قواه لمعاودة الهجوم) في عقيدة الأمة يسمون هذا بالجدل. وهو مكروه عندهم ولكننا سوف نحرمه عندنا. لا. بل سنعاقب من يفكر به. وبذلك نمنع سلفاً أي فساد يمكن أن يتسلل إلى العقيدة.

قضاعة: أرجو أن يتسع صدر سيدي إذا ما كنا نريد عملاً ناجحاً.

قال حورا متدبرا: " أظن أنك ناقشتني لأنك تعلم الحقيقة. على عكس الناس الذين سوف يؤمنون بها، هذه هي العقيدة كما حدثتني الأمة، إنها تسمو وتعلو عن الفهـم والإدراك الطبـيعي. يمكنك أن تستغل هذه النقطة بتوسع (بعد برهة) أليس هذا أفضل من التسكع على باب الإله ببعض ألعاب الهواء العقيم.

قضاعة: أرى أن هناك الكثير مما يحتاج إلى إعادة صياغة أو غربلة.

حورا: أنا أتفق معك في ذلك. ثمة أشياء ذكرتها الأمة غير أني لا أرى مبرراً لمجرد الإتيان على ذكرها.

قال قضاعة برجاء متخوفاً: سيدي، نورني.

قال حورا بعد لحظة متردداً: من هذه أنا نصحو بعد أن كنا متنا. ونحاسب. وهناك جنة ونار. ويمكن أن نتوب بعد أن نلحد. وقالت..

قضاعة: عفواً سيدى للمقاطعة، إن هذا أهم من كل ما قلته من قبل. تصور معى إن أنا روجت لفكرة الحساب هذه. ومتى؟ بعد الموت؟ بعد أن نصبح لا شئ. ولا تصبح هناك إمكانية للتحقق من صدق أقوالنا؟

حورا: هذا خطأ وخطأ كبير، فهذا ما قالته الأمة عن عقيدتها أما نحن فسوف نحاسب فوراً، لا إمهال ولا إهمال، إلا إذا أردنا ذلك طبعاً. سنبقى النار متقدة. أما الجنة؟ فلن تكون موجودة، لأنه يكفى أن ينجح الناس فى النجاة من النار. كحافز ورقيب وحيد على سلوكهم (ثم أضاف) لا مانع إن استغللت هذه النقطة – الجنة – فى حدود أنها لا تكلفنى شيئاً.

ينظر إلي قضاعة. يرى أنه صمت المقتنع. ويستأنف متراجعاً: " ومما قالت الأمة أن هناك قوة مناهضة للإله فى مثل قوته إسمها.. لقد نسيت.. نعم. إسمها الشيطان. وهو رجيم، هذا اسمها، ما أعجبه. وأنها تدعو لخلاف ما يدعو إليه الإله. هذا يقول يميناً فيقول ذلك يساراً، وتقول الأمة أن الإله خالق الشيطان.

قال قضاعة مندهشاً: " فكيف يعاديه الإله؟"

حورا: لا أفهم، وإن كنت أفهم أن يعاديه الشيطان. أفهم أيضاً أن يعادى المخلوق خالقه لدناءة نفسه مقارنة بنفس خالقة الأعظم. ولكن أن..

قضاعة: معك حق. أسقط هذه. تبدو بلا فائدة لنا بل ويمكن أن تضر فيستغلها البعض بدعوى أن أفعالهم تمت بتأثير أو بضغط من قوة أكبر منهم.

قال حورا مؤكداً على كلام قضاعه: إنها كما قلت لك باستثناء فكرة الإله الواحد مسائل كلامية تبلبل العقول لا أكثر، إننى أكلمك عن الخطوط العريضة فقط فهذه العقيدة تمتلئ بآلاف التفاصيل التى لا معنى لها ويمكنك أنت حشوها بقليل من التفاصيل المناسبة.

قضاعة: سيدي، ما اسم هذا الإله؟

يشرد حورا حانقاً. ثم يقول بأسف. بتعجب: وي. نسيته، له إسم ما سمعت به قط، لقد كنا نتكلم دائماً عن إله ولكن الأمة ذكرته مرة

واحدة بالاسم (يمعن البحث في ذاكرته فلا تسعفه) على أية حال لا ينبغي أن يكون له إسم كسائر الأسماء، فكر معي في إسم مبتدع.

يزقزق الصمت حيناً إلى أن يصيح قضاعة مسلماً بالعجز: " لم أهتد لإسم (وبعد فترة، قانطاً)، لا إسم.

حورا: إسمع. أنا أكنى بالسيد/ الرئيس فلنلقبه بالسيد/ الإله، هذا يناسبه حقاً. إنه إله. فما حاجته لإسم (يتفكر قليلاً ثم يقول) إلا أن يميز بين عدة آلهة. ويمكن أن نناديك أنت بخليل السيد/ الإله.

قضاعة: لا. أفضل أن أكنى برسول السيد/ الإله.

قال حورا مشجعاً: " كما تشاء يا رسول السيد/ الإله.

قضاعة: بقي سؤال.

قال حورا متفكهاً: ألم يتضح الشواء بعد؟

قضاعة: سؤال واحد.

حورا: هاته.

قضاعة: ماذا لو تمرد على إرادة السيد/ الإله شخص ما؟ ماذا لو ضرب بتهديداته عرض الحائط وبالطبع ليس ثمة إله يعاقب ويحاسب فكيف أبدو والحال هذه؟

حورا: في هذه الحالة وأشباهها وحدك تفصل فيها وتتصرف بمقتضى الحال (مشجعاً أكثر) أين ذكاؤك الطرب؟

قضاعة: كيف بحق سيدنا؟

قال حورا بانتباه قاس: أتعجز؟

قضاعة: بل أتعلم من حكمتكم.

وإن لم يرتح حورا لإطراء قضاعة إلا أنه اضطر للإجابة: "قول مثلا أن السيد/ الإله رحمه هذه المرة فهو رحيم. ورحمته أوسع من عدله أو.."

قضاعة مقاطعا: يا لها من فكرة سخية.

حورا: ماذا؟

قضاعة: أقصد قولك ورحمته أوسع من عدله.

حورا: أو أنك استغفرت له فغفر. فأنت رسوله المباشر، المعبر الوحيد عن مشيئته، الناطق بلسانه. تلك المشيئة التي سوف نقننها كما

يروق لنا. وإذا حدثت للمذنب أو لغير المذنب حادثة سوء فردها لمشيئة السيد/ الإله عالم الغيب، محتكر القدر.

قضاعة: ومشيئته لا تبرر.

حورا: أو تبرر، لكل مقام مقال. وإذا لم تحدث الحادثة – العقاب – بالمصادفة، ولا يخلو واحد منا من سوء يلحقه كل يوم، وتحتم حدوثها أفرخناها نحن، لم لا؟ هذا سهل ميسور. ولكننا لن نلجأ لقتل كل الناس. كما ترى كل شئ قابل للصهر وإعادة التشكيل مرات عديدة، والمسألة برمتها تتوقف على مهارتك فى إدارة اللعبة. كن خليلاً للسيد/ الإله تفلح (يضحك ثم يصيح بقوة) إنك ممثل هذه القوة الإلهية على الأرض. اختص أنت بالتشريع ودع لى التنفيذ، إن ذراع سلطتي واصلة إلى ما شاء السيد/ الإله.

قضاعة: وكما يشاء رسول السيد/ الإله.

حورا: وكما شاء رسول السيد/ الإله. خليله. علينا أن نعجل بافتراس ضحية أو أكثر ليعلم المتأخرون عاقبة المتقدمين.

برهه

قضاعة: أين سأقيم في كنف سيدنا؟

وكان يعنى بيت الرئيس غصن. بيته. ولكن حورا فهم أنه يعني أي مكان. فالوادي كله يعيش كما هو مسلم به في كنفه. ثم إنه أجاب بسرعة كما لو كان معدا للإجابة سلفا ومتوقعا لها: "سأقرضك دارى السابقة، هي لك منذ هذه اللحظة، لقد كنت أدخل عليها بعض التعديلات وكان بنيتي الانتقال إليها ولكن لابأس. خذها وسأعينك على استكمال ما قد بدأته.

قال الراوى: ياهلا. في وادي الرعاة. التاريخ يعيد بناء نفسه قبل أن يكون هناك أوراق تسجل عليها دموعه وابتساماته. التاريخ يعيد بناء نفسه متحديا قبل أن يبرز له من يقبل التحدي.

قضاعة لنفسه: "الحمل الوديع ينتزع من الفهد السريع أولي غنائمه. سلبتني عشي وعرشي وعشيرتي وها أنا أتملك دارك بإرادتك. مهلا أيها الفهد، سوف يجردك الحمل الوديع من كل شيء. وشيئا فشيء. ثم أضغط على عنقك حتى يهطل لسانك بكل ما سلبتني إياه وفوقه روحك."

ولكن قضاعة لم يتساءل: منذ متى قايض حورا على أملاكه؟ ومنذ متى تخلي عن أظفر له - استحق التقليم علي أية حال - ولم يكن يضع في مقابله رقاب، سمان وعجاف؟

حورا: وسوف أمدك بالرجال.

فاتت قضاعه الأولى ولم تفته الثانية فقال بروية جميلة أتقن تكلفتها: "كلا. شكرا سيدي. سأصطفي رجالي بنفسي."

وأضاف بخجل وسنان: "إذا أذنتم لي؟"

نظر حورا في عيني قضاعة بنفس نظرة إسنا في عينيه هو قبل سنوات بعيدة. فحدق فيه الأخير مليا غير أنه تدارك أمره وأطرق. وأضاف كالمعتذر: لا أريد أن أثقل علي سيدي.

تصنع حورا الإنشغال عنه وقال: لك هذا. وإن كان يتحتم أن تعرضهم عليَّ (صمت) أحب ألا أفوت عليك يا مؤدب فرصة الكسب السريع بأقل جهد من خبرتي الطويلة في المفاضلة بين معادن الناس."

ثم أضاف وكأنه طائر ينفض عن ريشه عناء السموم والكبد من لحظة أن أقر بحق قضاعة في العرش قبل عقدين من الزمن: "والآن ما رأيك في الصفقة؟ (ثم استدرك بسرعة) المنصب. أعني المنصب. نعم. المنصب".

قال قضاعة: حتى تكتمل الصورة يجب أن نلتزم بهذا العهد: أن تكون علاقتنا معا وما دار بيننا الساعة طي أنفسنا وحدنا.

حورا: هذا بإمكاني والأمر يتوقف بعد ذلك عليك.

قضاعة: أوافق.

ثم أضاف ساخرا: لنعاهد السيد/ الإله على ذلك.

يضحكان سوياً بصفاء ويتعاهدان.

لحظات نادرة وتاريخية في وادي الرعاة. لا يدرى أحد هل سيُقدر لها أن تتكرر بينهما فيما بعد أم سيكون للحياة والقدر كلمة وشأنا أخر؟

يضحكان سوياً من الأعماق. ما أبسط الضحك. كم يكلف؟ ما أروع تأليفه بين الناس وما أبسط تخليصه للقلوب من أدرانها. على هذا فمثله مثل التراب رخيص مدهوس لا تشاد به القصور. القصور

لا تشاد بالحب ولكن بالبكاء والدم والعرق تعمر المدائن وتزدهر الحضارات. أه، أي خير في حضارة استولدتها قابلة من شياطين الإنس؟

قاد الحماس المفتعل حورا دون شعور منه تدريجياً إلى حماس حقيقي. كانت فكرته قبل عرضها على قضاعة مجرد فكرة في الحوض لا قالب لها ولا هيكل، شخة مغشوشة. لكنها بسرعة وغرابة شديدتين رست واكتست لحماً وشحماً وعظاماً. صارت أقرب إلى الحقيقة الممكنة، وما جال بخاطره أن لعبته المكسورة - وهو ما لم يشك فيه لحظة واحدة - والفكرة الحشيشه بين ذراعات الحنطة الذهبية يمكن أن تقوم وتمشى وتتقدم – فيما بعد – بطلب يده هو شخصياً، كل ذلك جرى بمجرد الكلام...

وبالمفارقات الزمان. أول من يسخر من الإله، رسوله.

اندمج حورا في أداء دوره واستهواه فيه إشارة خفية بالذات أمام تحدى قضاعة السافر المستمر له بأسئلته غريبة الأطوار دائماً – كما رآها. غير الطبيعية - كما رآها دائماً. وعجب من نفسه كيف أن الفكرة لم تزل حاضرة في ذهنه بعد كل تلك السنوات بمثل هذا السطوع. وكأنه سمع بها أمس فقط.

وبالحقيقة لا يمكن الاعتماد على ذاكرة رجل بوزن حورا في حديث عابر مع أمة كانت تمارس برأيه ألعاباً هوائية أو سحرية قبل ما يزيد على اثنا عشر عاما واعتبار أن كل ما ذكره ينسب إلى الأمة بحذافيره.

أما قضاعة فتجاوب معها بدهاء وإشراق وبحماس أقل كأنه يتحسس مكمن الألم في آفاق نفس مجهولة. ومكمن النجاة في نفسه هو. وكأني به كمن سيعيد إعلان انتمائه لذات أرضه بعد طول جحود ونكران من أرضه نفسها. ويريد أن يطمئن إلى كونه يضع قدمه في المكان المناسب.

لهذا كان حذراً. وكان حذره يدفعه لكي يكون مهاجماً طول الوقت. لكنه خرج من ذاته المعمعة بهاجس شيطاني سوف يظل يؤرقه دون كفاف. ذلك أنه رأى ولمس عن قرب أي رجل هو حورا. وأي منافس صنديد يطلب ثأراً منه حتى على مستوى الخيال. وفكر

قضاعة فاغتم وانطفأت ضحكته التي كانت قد عاشت لحظاتها كلها ثم سأل حورا: "سيدي أيعلم أحد غيرنا بتلك العقيدة؟"

رد حورا بسرعة: " طبعا ".

وتدارك قبل أن يختنق قلب سائله: " أين؟ في وادي الرعاة؟ لا. ولكن هناك من حيث سيقت الأمة. ولا أدري من أي أرض قدمت علينا. فبعضهم على ملتها يعبدون ذلك الواحد الذي لا يرى. على كل، فإني متأكد أن أحداً سواي لم يعلم ذلك لأنها لم تقم لدى زوبعة سوى نصف نهار حتى اشتراها الرئيس غصن والدك. لقد كانت امرأة ذات خصال سمحة وظلت فترة تقوم على ذكرى والدك بإخلاص نادر حتى أني شككت ان..

قضاعه: ماذا؟

حورا: لاشيء. لاتشغل بالك. لقد أراد زوبعة المكار أن يبكر بإهدائها لسيدنا غصن الذي كان معروفاً عنه حبه وولهه بتلك النساء ذات الخصال الروحية أكثر مما كان معجبا ولعا بالجميلات في صورهن وحسب. وحتى لو رأى وسمع شيئا في نصف نهار. فكأنه لم ير ولم يسمع. ثق في ذلك إنه عجوز، خرف. وكان دائما هكذا ومنذ لحظة ميلاده: عجوز مخرف؟

قضاعة: أهذا رأيك؟

حورا: اطمئن

وأضاف كأنه يغسل يديه من دم الذبيحة الثمينة التي صادها بمجهود فردي من البريه: " الآن يمكنني أن أهنئك على منصبك الجديد يا مؤدب. وأتوقع لك قبل أن تمارس فيه أي نشاط نجاحا باهرا. هيا امنحني الفرصة للاحتفال بنجاح ولدي المؤدب قضاعه واعمل بكل همة وإخلاص. إن دعوتك تصادف هوى وانتشارا أينما قعت لكأن القلوب على مشارف الطرق تهفو إلى استقبالها مرحبة حارة بينما العيون جمرات تحبل بها الأفق الواسعة مبدية استعدادها الدائم لإعالتها. عليك فقط يا مؤدب أن تتعلم أساس إدارة هذا الدين بنجاح.

قضاعة: إنني مطمئن تماما بعونكم سيدي الرئيس. بهذا أؤكد أني سأنجح.

قال حورا كما لو كان يصفي قعر الكأس من عوالقه في تصفية ثانيـة وأخيـرة: إن الإلـه فـي الأصـل طيـب لا يحـب الـشر ويحـارب الأشرار، يمقتهم. هل تفهم؟ وإذا تنازع الخير مع الشر أعان الأول على الثاني.

قضاعة: ولكن الشر..

حورا: أعرف ما ستقول. باستطاعتنا أن نضع له تعريفاً لائقاً فيما بعد. يجب أن تعرف وتحفظ عن ظهر قلب أن الأغنياء أغنياء بإرادته. فإذا تطاول أحد عليهم كأن يسرقهم أو يتمرد عليهم أو حتى يتطاول عليهم بمجرد النظر "يعنى الحسد" إلى ما خصهم به السيد/ الإله من غنى وامتيازات كما يدعى الدهماء. أدبه السيد/ الإله. وأنت تعلم "يبتسم" أن من يعصى لمشيئته أمراً عصف به وجعله كالذر المنتوف بل إنه ليبقه حياً ولا تسألني كيف؟ لأنهم لن يسألونك، أطول أمد. وربما بلا انتهاء ليذيقهم العذاب دفعات وألواناً كأنها قطرات من بحر ملعون لا ينضب معينه.

قضاعة: بحر مسحور.

إبتسم حورا وقد فهم إيماءة قضاعة وقال: من أول أسباب وموجب إنتشار واستمرار أي ملة أو عقيدة هو شعبيتها. وهذه لا يمكن أخذها بحد السكين أو الرمي وحده بل بالعقل أولاً والنفاق ثانياً. فادعو كثيراً إلى ما يحب الناس أن يسمعوه. يقبلون عليك. وتجدهم في يدك كما تحب وترضى. وافعل أقل القليل مما يود أن يفعل السيد/ الإله لأجلهم فيظلوا كالفراخ تحت جناحي والديها. واعمل من ناحية ثانية على صنع ثغرات لأجل حيواتهم الدونية، ذكى شهواتهم.

قضاعة: سيدى. وحق السيد/ الإله لا تحيرني. كيف أدعو للقيم والمثل والفضيله والأخلاق وأدعو في الوقت نفسه إلى عكسه، كيف؟

قال حورا بفخر: " بأن تحجب اكثر الحرارة عنها. أعد وأزد عن الحرام والمحرمات تجدهم ورائها راكضين فى تنافس شريف".

قضاعة: بمعنى؟

حورا: بمعنى ما يحب الفرد أن يعمل به الأخرون. انظر، فى يوم ماطر بارد والثلوج تتساقط والريح الجائعة تلسع صدور الناس كالرصاص. تخيل أنك في هذا اليوم أشعلت كومة من النار المقدسة.

سوف يهرول عليها الناس والهاموش وكلما زدتها إشتعالاً كلما اقتربوا منها طمعاً فى نصيب أكبر من الدفء.

قضاعة: ولو أني لم أستوعب التشبيه تماماً إلا أنى أحسبنى فهمت فحين أعمل وأدعو إلى ما يحب أى إنسان طبيعى أن يعمل به الآخرون فإنه وإن اتبعنى مبدئياً فإنه عند اللزوم سوف يستثنى نفسه بطبيعة الحال من القطيع.

وكاد قضاعة يضرب بنفسه مثلاً: صحيح، فمن منا لا يبغى كل الخلق بلهاء طيبين يعملون وفق النوايا ومكنون الصدور.

وفجأة قام حورا يخطب كداعية من صنف ممتاز فى ربيبة قضاعة: "لولا ذلك لإندثرت العقائد كالهبأة فى فم المحيط، إن الناس لا تؤمن فى الحقيقة إلا ظاهرياً بقصد جر الآخرين للإيمان الفعلى فيسهل عليهم أن يكسبوهم ويكتسحوهم حينما يتواجهون فى الحلبة. يدفعهم فى كل إيماءة رأس ومع كل طرفة عين مصالحهم شديدة الخصوصية. ويفعل الآخرون الشئ نفسه، وهذا لا يهمنا كثيراً. إن ما يهمنا فعلاً هو خضوعهم لنا فى الظاهر وبالفعل لأن الأعمال لا تتم بمكنون الصدور بل بأياديهم وبأنيابهم.

هذه بالتحديد ما نريد خضوعها وإستسلامها لنا، أياديهم وأنيابهم. ليضمروا أحقاد العالم كلها فى قلب كل واحد منهم. لا يهمنى. فما يهمنى هو خضوع ذلك القلب بأثقاله مهما كانت. وأنا يا مؤدب سوف أعمل من جانبى أمام الآخرين – ظاهرياً بالطبع – على الإمتثال لك. وسأجر معى زعماء الوادى فاحترس أن يسئ إليهم السيد/ الإله أو يتبجح فى أى مطلب يفرضه عليهم. من الواجب على السيد/ الإله أن يبارك غنى الأغنياء وينميه وعلى الفقراء أن يساعدوه فى أداء واجبه ولو اضطر أن يأخذ منهم ليعطيهم فما عليهم غير السمع والطاعة.

تقول الأمة أن الإله الواحد يدعو للمساواة بين الناس، لا بأس. ولكن للضرورة حكمها الفذ. فكما أنه لم يعط الناس جميعاً النبوة ولا الناس جميعاً أمانة الرسالة والدعوة وكما اصطفى قوماً على قوم فالنتيجة واضحة بغير أن نصل لنهاية الطريق. تذكر ذلك دوماً ويوم تنساه أو تغفل عنه لحظة واحدة أقسم لأعرين سيدك/ الإله. فأنا، وأنا وحدى، من سيحملهم على اتباعك. وأنا وهم، أقصد زعماء الوادى،

أمضى أثراً على الناس من إله مزعوم. حذار أن يناوئ زعماء الوادى. إنهم قلة قليلة سأعدهم لك فيما بعد. فلست أهوى أن تتمخض أعمالى عن مشاكل.

إن أشياء كالعدل والرحمة والمساوة وغير ذلك كلمات جميلة، لا بأس إن رددتها، وغنها إن شئت، ولكن فى الحق فإن الإنصاف والعدل سيكون بين متساويين وليس بين العامة والخاصة.

قضاعة: إنى لمتنحى عنه قبل سيدنا إن فعل. ياللهول.من يناصر إذن؟ أيساوى بين الصغير والكبير؟ ربما أمكننا أن نسوى بينهما شكلاً فى أوامر ونواهى السيد الإله.

حورا: كما تشاء. أنا لا تعنينى الحيثيات المهم منطوق الحكم. وهذا ما سأراقبه منك عن كسب.

قضاعة: أعدك سيدى أن أعرف كيف أسوسه على جادة الصواب. إنه بهيمة وبسيدنا وبزعماء الوادى سيقف على قدميه.

حورا: وأنا على يقين أن سيدك/ الإله سيد دمث وولد شرعى.

قال قضاعة فجأة كمن لدغته عقربة: سيدى، إنك وحدك لدنك كل الإجابات فكيف أعتنق ما ليس له فى الناس – خلقه – حول ولا قوة وأدعو إليه أيضاً.

قال حورا محتداً فى ضيق وغضب: "أخبرتك قبلاً أنى سأمدك بها."

أجاب قضاعة متلطفاً ومعتذراً عن اللبس: إنما قصدى الذى لا وجود له. إذا كنت ستمدنى بالدليل والبرهان على نبوتى فالناس تريد دليلاً وبرهاناً على وجوده هو وليس بمجرد الإحتكام إلى العقل فهذا جد سيئ.

- "اللعنه."

قذفها حورا مبهمة من بين أسنانه الدموية المائل لونها إلى الحمرة وهى على ذلك ذات قواطع قوية بارزة متساوية. ثم يبتسم فتشكل مع شعره الكستنائى وطوله الفارع الممتلئ بغير ترهل صورة كبير آلهة الأغريق، لولا نبرة صوته الدافئة لظنناه شرنقة ذاته.

حورا: قد يكون ثمة طرقاً غير العقل ولكنى أتفق معك بأنها ليست أفضل حالاً منه فليس الإلهام بأفضل من العقل الذى يقول أن إضافة

الواحد إلى واحد آخر يحولهما إلى إثنين. لم لا تجعل له رمزاً. أى رمز يخطر ببالك. رمزاً خرافياً.

قال قضاعة متوخياً الحرص، محاذراً: "ليس أحب على نفسى من أن يشير علىَّ سيدنا بعلمه وحنكته الطويلة".

قال حورا وعيناه تضحكان لمكر قضاعة الذى استساغه لامتزاجه بالمدح: " إنك لاتطاق يا مؤدب، صحيح. لا تستغرب ولكنك تعجبنى".

وبعد حين قال: "ثمة شجرة عتيقة قرب منزلى القديم".

قال قضاعة مقاطعاً بسرعة: "يعنى سيدى منزلى الجديد".

ثم يستطرد إزاء جحوظ هادئ من عينى حورا: "سيدى وهبه لى منذ دقائق".

لاحظ حورا الفرق بين الكلمتين. لأنه كان قد "أقرضه" داره ولم يستعمل قط كلمة هبه حين أقدم على عرضه ذاك. ومع ذلك قال وقد بدأ يحل به التعب تدريجياً. ويتمنى لو يذهب فيحضر شمس الغد من عنقها. لتشرق بوضعه الجديد.رئيساً شرعياً واحداً لوادى الرعاة.

حورا: "وهبته؟ أقرضته؟ هو لك على أية حال. بل ويسعدنى أن أهبه لك".

ثم قال بعد أن عاد إلى راحته وطبيعته بعدما سر أن يرى أكثر من مرة خوف قضاعة الواضح منه. ذلك الخوف الذى سوف يظل يناوشه حتى اللحظة الأخيرة صانعاً حوله فى عينى حورا أفضل حزام واق ضد شكوكه فيه. مثلما صنع له ادعاؤه بنسبة أعمال الرئيس غصن المميزة إليه. نفس الحزام الواق أمام عيون اسرة قضاعة قبل اندثار شجرتها العجيبة. وكذلك جشعه. فأكثر ما يؤذيه ألا يكون قضاعة ذى مطامع شخصية لافته تغرقه فى تيارها المتعاظم باستمرار.

سكن حورا متأملا لحظات ثم قال: " ضم الشجرة إلى المنزل. لا أتصور مكاناً أو شيئاً فى وادى الرعاة ممكن ان يوازى فى أسطورته وسطوته وغرابته تلك الشجرة، لا فى حجمها ولا فيما يتداول بشأنها من أقاويل ليس أقلها ما يقال عن أنينها بالليل. وسقوط أوراقها فى الخريف خضراء يانعة. فإذا أصبح الصباح عادت إلى أغصانها على

ما كانت عليه من صفرة وجفاف شديدين. وإن الطيور لا تستطيع أن تهبط عليها بغير أن تنزف حتى الموت. وأن خيوط العناكب فيها تتحول إلى حبال غليظة من الجير المضئ يتطاير عندما تشرق الشمس.

وأنت تعلم، أن جزءاً كبيراً من جذورها العملاقة الغليظة يمتد إلى عشرات الأمتار على جانبيها يظهر ويختفي قريباً جداً من سطح الأرض كالثعابين. وهذا شئ غير مألوف فيما نعرف من الأشجار ورغم ذلك فإن العصبة من فتيان الوادى الأشداء يعجزون عن جذب جذر واحد منها.

ازعم أن روح السيد/ الإله تتمثل فيها أو أنه يباركها. قل إن الإله/ الوالد، أبو السيد/ الإله، حبس امه فيها ألفى سنة حين كانت حامل منه فى ولدهما السيد/ الإله، لأنه ضبطها تضاجح أحد ساكنى النجوم البعيدة. وكان جميل الصورة إلى ما فوق حدود التصور. كان أحمراً متوهجاً بلون النار. بينما كانت هى سمراء بلون الطمى الذى يجره الفيضان فى ذيله كل عام حتى تخوم الوادى. ولما لم يكن بمقدوره قتلها حبسها.

تقول الأمة أن النجوم مسكونة بالحياة، لأن أى كائن مهما كان، طالما حصل بنفسه أو بغيره على وجود ما مستقر لزمن مناسب فإنه لابد يتضمن حياة ما.

إنه حى، لأنه موجود. فالوجود حياة والموت هو العدم. والأشياء التى لا تستقر على وضع ثابت فهى حتى ذلك الحين أشياء وليست أحياء.

وقد وضعت الإلهة/ الأم زوجة الإله/ الوالد ولدها السيد/ الإله فى بطن تلك الشجرة فى قصر يقوم تحت جذورها على بعد ألف ذراع. لا. إجعلها ألفىَ ذراع فربما حدثت أحدهم نفسه أن يحفر ليرى. ألفى ذراع تميت الفكرة فى نطفتها".

يضحك حورا ويكمل باستعداد واضح للإبداع وكأنه سوف يمنح ضيفه هدية. هى واحدة نوعها: "ولما علم ساكن النجوم البعيدة،الجميل [illegible]، ما جرى لحبيبته الارضية جاء ليخلصها بمفرده، بكبرياء المحب العاشق، من براثن الحبس المقيت.

ولانه لم يكن يعلم اين يقع سجنها سعى للقاء الإله/الوالد وطالبه بنزال فردى استمر بضعة آلاف من السنين بلا نتيجة حاسمة. ولما تبين للإله ساكن النجوم البعيدة أن عزيمته على وشك أن تخور فى مواجهة الإله/ الوالد القوى، ولى مدبراً. فالسيد/ الإله ورث قوته عن أبيه الإله/ الوالد. أما الإلهة/ الأم، أم الإله/ الوالد وزوجته فى نفس الوقت فقد خلقت نفسها بنفسها بعد معاناة طويلة إستمرت عشرات ومئات الألوف من السنين. واختارت أن تجعل من نفسها أنثى بعدما خلقت لنفسها مثل ما بين سيقان الإناث. ولم يكن لدى سكان النجوم البعيدة شيئاً مثل ذلك.

كانوا جميعاً آلهة مخنثين وهذا بالذات ما أسر ساكن النجوم البعيدة وأوقعه صريع هواها. فبعد أن ضاجعها مرة لم يستطيع أن يسلى هذا الذى ذاقه وأذهله طعمه. ثم أنها خلقت الإله/ الوالد ذكراً ليؤنس وحشتها فهو إبنها وزوجها. ومع أنها هى التى خلقته إلا أنها أرادته أقوى منها فجعلته ذكراً بينما هى أنثى. وأوكلت إليه الخلق بالتناسل فالرجل هو الخالق وما المرأة إلا حاضنة ما خلق. وأصبح الذكر منذ تلك اللحظة ليس كالأنثى وكان هذا من أهم وأروع ما أبدعته الإلهة/ الأم بعد خلق نفسها.

إذن، اضطر ساكن النجوم البعيدة، الإله العاشق، إلى الفرار. ولكن هل هناك حتى بين الآلهةمن يتقبل الهزيمة صاغراً؟ فما لبث أن عاد بعد ألف سنة بجيش جرار من بنى جنسه يقوده عمه ملك "إتحاد النجوم البعيدة" طلباً للثأر والإنتقام وتخليص حبيبته. وكان الإله العاشق حدث عمه عن ذلك الشئ العجيب الآثر للروح بين ساقىّ الإلهة/ الأم. والمتعة العجيبة التى يتحصل عليها من يعاشرها حتى إنه وهو على بعد آلاف السماوات حين يتذكر ما كان بينه وبين الإلهة/ الأم يجد أن شيئه انتصب يطالبه بها.

لقد بثت الروح والدفء فى شيئه، وفى هذا بحد ذاته استمتاع خفى. وبتأثير كلماته عنها مع عمه سرى الدفء فى عضوه فانتصب. ولكى يثبت لعمه صدق روايته رفع الدثار عن عضوه ليراه. مسه عمه بإصبعه فانبهر وعجب لقوته وشكله الجديد الأجمل. وانتهزها الإله العاشق فرصة فأخبر عمه بسر تغطيته لشيئه بينما شعوب

النجوم البعيدة جميعها لا يغطونه بأى شئ. كانوا جميعاً مخنثين يخلقون أبناءهم خلقاً ولا يلدونهم، على غرار ما خلقت الإلهة/ الوالدة الإله/ الوالد. ودارت الحرب.

إستعان الإله/ الوالد بكل حلفائه في السماوات القريبة وسلح عبيده. وبعد أن حل به التعب من كثرة الطعن والضرب وكلت يده وبدا له أن النصر على المعتدين بعيد المنال. وكل الجنود التى يخلقها بكلمة من فمه يسرع إليها المعتدون ويفترسونهم فى لمح البصر. وأصبح فى أمس الحاجة إلى من يساعده ويحمى ظهره ضد جيش عرمرم من الآلهةالأقوياء ساكنى النجوم البعيدة وما حولها، وعلى الأخص ملكهم الجبار عم الإله العاشق، ملأوا السماء حمما حتى لا تكاد العين ترى مساحة فراغ فى أى إتجاه. فى هذا التوقيت الحرج، سمع الإله/ الوالد إستغاثة ولده السيد/ الإله كى يخلصه من الحبس الذى ولد فيه لمساعدته. ولم يكن الإله/ الوالد قد رآه من قبل قط. وكان السيد/ الإله باراً رحيماً بوالديه.

وبالفعل ما كاد السيد/الإله ينضم إلى جانب أبيه الإله/ الوالد ويتحرك كشبل الأسد بين أقدام والده مفترساً كل من يلاقيه فى طريقه بخفة ورشاقة لا نظير لها. وفاجأ الأعداء بتحوله المستمر من شكل إلى آخر دون أن تنفذ الأشكال التى يتخذ صورها، ولا أن يكرر شكلاً واحداً منها حتى أنه قبل أن يجهز على أحد الآلهةالمهاجمين تغير شكله مرتين. مما بث الرعب منه فى نفوسهم. فأمر ملك "إتحاد سكان النجوم البعيدة" الا يواجهوه فرادى. ورغم ذلك لم تتثبت أقدامهم فى مواجهته.

وحيلة تغيير الشكل علمته إياه الإله/ الأم فى اللحظة الأخيرة قبيل خروجه لنصرة والده. ولكن الإله/ الوالد أمره بحماية ظهره وأن يكف عن الهجوم منفرداً فصدع لأمره وما كان له أن يقول لوالديه أو أحدهما أف، وكان حامياً يعتد به لظهر والده. وهو الأمر الذى كان يعوق كثيراً من قبل من فاعلية هجومه المدمر على الأعداء. وعندما رأى الإلهة/ الو[illegible] ولده السيد/ الإله بمثل تلك الشجاعة الفريدة والبأس العظيم بكى. وانهمرت دموعه فأحرقت أعداداً غفيرة من الآلهة

المعتدين دون أن يرى لذلك سبباً معقولاً. العبرة الواحدة تنزل على الواحد منهم فتحيله إلى رمل أحمر في التو واللحظة.

ولما أظهر السيد/ الإله هذا البلاء الخارق على صغر سنه إنقشعت غشاوة الحب من عينيّ الإلهة/ الأم. وأدركت خطأها وثبت لها أن حبها لولدها وزوجها الإله/ الوالد عند الإختبار أصيل وثابت فطلبت منه برجاء وتوسل رقيق فك أسرها. وأبدت رغبتها في مساعدته زاعمة أنها تعلم نقطة ضعف الأعداء. وتوسط السيد/ الإله بينهما بفصاحة وحسن بيان أثارت إعجابهما معاً وكانت خير تقريب بينهما. وبالفعل أطلق الإله/ الوالد سراحها فانطلقت تحارب في صفه بقوة مجنحة هادرة كالصواعق يدفعها الندم على ما كان منها ورغبة هائلة تحدوها كي تبرهن له على وفائها وكاعتذار عما سلف منها. وكان السيد/ الإلة يحمي ظهريهما كسد منيع.

ولما رأى الإله العاشق ذو المجد الكبير بأم عينيه حبيبته تحارب يداً بيد غريمه. وهي سبب الدمار الهائل الذي حاق بقومه حتى الآن. وأنه لا سبيل إلى وقفها. وعلم أنه لم يعد ثمة مجال للتراجع من جانبها طار جنونه وتشاجر مع عمه ملك إتحاد سكان النجوم البعيدة الذى وبخه على ذلك الشرك الذى أوقعهم فيه.

فالإلهة/ الأم إستخدمت المياه في الهجوم عليهم وهي كانت محرمة لديهم تحريم السم في وادينا العظيم. وهو الأمر الذى لم يعرف به الإله/ الوالد عندما أحرقت دموعه دروع الأعداء التي لا سبيل إلى تحطيمها إلا بمشاق وعناء لا حدود له. فالمياه كانت أقوى سلاح لدى آلهتنا العظام في قهر الأعداء من خارج سماواتنا الزرقاء الصافية. واكتفت الإلهة/ الأم في ردها على سؤال الإله/ الوالد عن كيفية معرفتها بأمر المياه بأن قالت له إن علمها أعظم من علمه. وأخفت عنه انها علمت بذلك من الإله العاشق بنفسه عندما كان يضاجعها.

وأما الإله العاشق، فعندما رأى بطولتها العظيمة مثل جمالها العظيم نهشته الغيرة وبكى قاذفاً من قلبه حمما من نار لا تنطفئ لعدة سنوات فكسب عطف وتأييد ذويه. فهذه النيران حين يقذفونها من قلوبهم لا من أفواههم تخصم من أعمارهم. وإذا استمر يقذف بها

استمر يضعف حتى يموت. فأشفق عليه عمه وتراجع عن أمر كان قد أصدره لجنوده بالإنسحاب إلى بلادهم.

فهذه الآلهة من سكان النجوم البعيدة كانت من نار بينما الإلهة/ الأم صنعت نفسها من طين فهي تشتد بالماء. وهم تقتلهم المياه وتحولهم إلى شئ أشبه بحبات الرمال. فالأرض كانت في البدء خضراء دون شبر واحد من التصحر. ولكن الرمال التي تراها تمتد حولنا من كل اتجاه في الوادي ما هي إلا جثث هؤلاء الآلهة القتلى. فالإله الواحد منهم بعد قتله ينفرط بدنه إلى كمية رمال تكفي لملء صحن بيت من بيوت أشراف الوادي.

ولجأ ملك إتحاد ساكني النجوم البعيدة إلى الخديعة فأبدى رغبته في بدء مفاوضات الصلح بين الجانبين في حين أنه أرسل سراً يطلب مدداً بجيش قوامه خمسون ألف إله قوى مدرب من خيرة وصفوة آلهتهم. ولكن الإله العاشق أثناء المفاوضات التي سارت بطيئة مملة لمئات السنين حمله الغضب ونفاد الصبر وقرب وصول المدد إلى أن يشطط ويطلب بعجرفة من الإله/ الوالد أن يسلمه الإلهة/ الأم دون قيد أو شرط لينقذ سماواته من الدمار الشامل وينجو بعمره.

وعلى الفور اشتعلت الحرب مجدداً واستطاع الإله/ الوالد بفدائية نادرة وبطولة عظيمة وبصحبته جنباً إلى جنب، هذه المرة، السيد/ الإله من أسر ملكهم. وإرتأى أن يسجنه في الأرض التي كانت حتى ذلك الحين بمنأى كلية عن سعار الحرب. ولا تعرف جيوش ساكني النجوم البعيدة الطريق إليها ولكن الملك المأسور بعد أن إلتأمت جراحه أراد أن يحطم أغلاله التي كانت بحجم سلسلة الجبال على مشارف الوادي فلم يستطع.

ولكنه أحدث بمحاولاته المتكررة وزئيره الجبار دماراً كبيراً في الأرض صدع من تماسكها فنشأت الزلازل والبراكين منذ ذلك الحين. فيما بعد إستطاع السيد/ الإله أن يلجمها. فيحبسها أو يطلقها بإرادته وحسب.

وعرض الإله/ الوالد المحب للسلام بطبعه في محاولة أخيرة على الملك الأسير العودة إلى مفاوضات السلام بحكمة القائد العظيم وألا ينصت إلى وشاية إبن أخيه. كما اشترط عليه تعويضه عما ألحقته

جيوشه بالسماوات من دمار والإعتذار إلا أنه أبى واستكبر آملاً أن ينقذه الجيش القادم. ومتيقناً من أن الإله الوالد لن يجرؤ على مسه بسوء لإختلال ميزان القوى بين جيوشه وجيش الإله/الوالد.

ولكن الإله/ الوالد اضطر مع عودة محاولته إلى تحطيم أغلاله إلى قتله ليجنب الأرض الدمار الشامل. هذه الأرض كان الإله/ الوالد أغرم بها على وجه الخصوص من دون كل سماواته وأراضيه بعد أن جعلها حظيرة يلهو مع أسودها وأرانبها ويتفرج على دنياها الغريبة دائماً. وكان كلما عرضت له فكرة خلق جديد خلقه فيها. ثم إنه جعل فيها الماء والخضره لشربها وطعامها ولكن بعضها أعجبه طعم اللحم فافترس غيره وهكذا وجدت الوحوش والسباع التى كانت فى البدء أليفة. ومن لم تمكنه إمكانيات جسده على الإفتراس صار فريسة أو اكتفى بالطعام من الثمار وأوراق الشجر.

وهكذ امتلأت الأرض بالحيوانات المختلفة وسائر أصناف المخلوقات من طير ونبات وحيوان. ولأن الإله/ الوالد ورث حب الجنس من الإلهة/ الأم فقد خلق مخلوقاً يمارسه طول الوقت. ولكن هذا المخلوق انقرض بعد فترة قصيرة من خلقه لأن الإله/ الوالد ملّ ما يصنعه بتكرار سقيم. فجعل لكل مخلوق طريقته فى ممارسة الجنس. وهكذا أشبع فى نفسه هواية الفرجة عليها.

تظاهر الإله العاشق بعد قتل عمه ووصول التعزيزات الضخمة بموافقته على السلام وتمكن بواسطة الغدر والخديعة فى حرب استمرت عشرة آلاف سنه من قتل الإله/ الوالد فلم يروى ذلك غليله بل زاده عطشاً لمزيد من الدماء. واستمر بعدوانه الغاشم حتى أهلك كل آلهة سماواتنا الآخرين من العبيد ومن المتحالفين مع الإله/ الوالد. ولم يكونوا فى مثل قوته وشخصيته الإلهية المجيدة الفذه. ودمر العدو جميع ممتلكاتها السماوية كافة.

وهنا لجأت الإلهة/ الام الى آخر ما عندها من سلاح وقد تحول حبها العظيم الى كره عظيم، يدفعها الخوف على السيد/ الإله وعلى مستقبله وبرغبة جامحة للانتقام من العدو، الى التضحية بنفسها ضاربة أروع مثال للتضحية بالنفس الى تجزيئ نفسها، وهى تعلم أنها لن تسطيع بعد ذلك أن تعود الى حالتها الاولى وانها سوف تموت

بموتهم جميعا، الى مائة ألف إله محارب متساووا القوة ملأوا السماء قرعا وجلجة وتسلحوا بالبرق والرعود وجبال النار المتأججة وساقوا أمامهم، كدروع، السحب الحبلى بالمطر والصواعق والأعاصير التي اختذلوا الملايين منها في كرات بحجم حبة عدس. وحملوا الحجارة التي في حجم الجبال. ولما علم الإله العاشق بما كان من حبيبته، لا بالجيش الذي اعدته فلم يكن يبالى بذلك بسبب شجاعته الفريدة بل بتقسيمها نفسها، وأنها لن تعود إلى ما كانت عليه بغنجها الذي كانت تذوب له الحجارة اشتياقا وعذوبة فاعتبرها ماتت فعليا وأمر جنوده بقلب مكسور بالانسحاب الفـــوري، غير آبه لعواقب الانسحاب المفاجئ، غير المنظم.

واشتعلت الحرب مرة أخرى. وفقدت الإلهة/ الأم نصف الآلهةالتي قسمت أوصال نفسها اليها. فيما واصل الإله العاشق فراره الى بلاده بفلول جيشه. ولكن الالهة/ الام بقسم الانتقام المجيد لزوجها الاله/ الوالد لحقت به وبمن تبقى معه عند تخوم اراضيهم البعيدة بعد ان عادت وحبست السيد/ الاله، رغبة منها في المحافظة عليه من اى أذى قد يلحقه وهو قد صار الوارث الوحيد للسموات والارض من بعدها، في نفس القصر المنيع الذي يقع تحت الشجرة المباركة والتي سجنها فيه من قبل الإله/ الوالد وفيه ولدته. وخاطبتها قائلة: "أيتها الشجرة الخالدة. إني باركتك وأمرك بأن تقومي حارسا علي السيد/ الإله. فاسهري عليه واحميه ولا تفرجي عنه إلا بعد ألف عام. وإني أمنحك من القوة ما يمكنك من ذلك. لأني أقسمت أن أفني حبيبي وقومه وكل سلالته وجميع سكان النجوم البعيدة عن بكرة أبيهم في خلال ألف عام. ليعيش ولدي السيد/ الإله في سلام أبدي من بعدي مالكا أوحد للكون الذي سيصبح مركزه السموات والأرض".

استدعي الإله العاشق من قومه كل من يستطيع حمل السلاح وهاجم حبيبته بقلب مكسور وكان يعرف في بلاده بالذي لا يهزم أبدا. ولكن قلبه النابض بحبها كان نقطة ضعف يده وعقله. فكل إله يقتله كان يري فيه عيناً أو شعرة أو ضلعاً من ضلوع حبيبته الإلهة/ الأم. ورغم أن بلاده كانت محصنة تحصينا لا سبيل إلي اختراقه. إلا أن الآلهة/ الأم متمثلة فيما تبقي من الآلهة استطاعت أن تستدرجه

منفرداً إلي خارج حصون بلاده بادعاء قدرتها على العوده إلى ما كانت عليه، وأنها تريده أن يكون أول من يقع عليها عينيه بعد رجوعها المبارك إلى أصلها وقتلته.

وعلى إثر ذلك انهارت كل دفاعاتهم ومعنوياتهم. واستطاعت الإلهة/ الأم قبل انقضاء المدة الموعودة من القضاء عليهم تباعا ولكنها كانت استنزفت نفسها ولم يتبق منها إلا عشرة آلهه، من مجموع مائة ألف إله محارب قسمت نفسها إليهم، عادوا إلي سماواتنا وقدموا فروض الطاعة والولاء التام للسيد/ الإله. وعاشوا خدما ومستشارين له.

وقد أفرجت عنه الشجرة المباركة في التوقيت المحدد فعاد إلى السماء وأعاد تعميرها من جديد في ستة أيام وعاش وحده إله السموات والأرض دون منازع أو شريك وقد حزنت الشجرة المباركة علي فراقه وبسبب حزنها الشديد تقلصت أغصانها وقل حجمها الذي كان يمتد من هنا إلي البحر العظيم على مبعدة عام من المسير المتواصل بالإبل.

ومن حين إلي أخر يعود السيد/ الإله إلي سكناه تحت الشجرة محييا ذكري الشهداء الأبطال من الآلهة.

ثم أنه رأي بعد أن خلق خلقا لطيفا يسبحون بحمده ويؤنسون وحدته في السماوات العليا أن يخلق خلقا أخر من معدن آلهة النجوم البعيدة وكان قد أعجبه. ولكن مستشاريه الآلهة العشرة أشاروا عليه أن يخلق بالتوازي مع هؤلاء خلقا آخر يعبدونه في الأرض ويكونوا علي صورته، أي من طين، ويكونوا رءوفين بأفكاره، خلق يده، من الحيوانات والطيور.

وأن يعمروها مع إعطائهم حرية الفعل ولكنه منع عنهم الوصول السهل للحياة والأشياء فعليهم بالعمل إن هم أرادوا العيش وعليهم بطاعة سيدهم حورا ومولاهم قضاعة. وهكذا يا ولدي المؤدب أبداً، قضاعة. إن سئلت عن والد السيد/ الإله قل قتل. وقص عليهم ما سمعت

قال قضاعة متهكما: " إنهم سوف يبكون ".

رد حورا مبتسما: " ما رأيك إذن؟ ".

أجاب قضاعة مبتسما أيضا: "اسطورة لطيفة ".
صاح حورا قائلاً بجلال: " من وحي اللحظة ".
قال قضاعة في احترام وتقدير:"هذا جيد جدا، لكن الشجرة قد تقع أو تموت"؟

قال حورا مستنكرا، مجهدا: " هل تعتقد ذلك حقا؟ إنها شجرة عتيقة قوية. وإليها تنسب الكثير من الأشياء الغامضة والمخيفة وكل سكان الوادي جاءوا ورحلوا عليها والجميع يخشونها. ولا أظن أنه يمكن النيل منها، وعلى كل فلن يصيبها شيء، في حياتك علي الأقل، ولا أحسبك تريد الذهاب أكثر من ذلك ويمكنك أن تدعي لمزيد من الاحتراس أن السيد/ الإله أخذ منها روحها لتقيم إلي جانبه في السماء وبقي جسدها كما نراه.

قضاعة: لي طلب أخير، حبذا لو نؤجل ذلك حتى أجس نبض سكان الوادي وأستشرف ردود أفعالهم فربما حصل ما لا نتوقعه.

قال حورا حادا: لا، ولا يوم. (ثم يهدأ بعض الشيء) لا حاجة بنا إلي ذلك يا ولدي. سيكون لهم رد فعل واحد. (كأنما يتحدي) السمع والطاعة. إن حظك أفضل من كل من سبقوك من الرسل فبدلا من هؤلاء الوسطاء الذين لا حول لهم ولا قوة في عقيدة الأمة سأقوم أنا رئيس الوادي وحاميه الأول وبنفسي بإعلانهم بالنبأ العظيم: أن السيد/ الإله بعثك رسولا عنه ووكلك بجميع شئونه مندوبا عنه في الأرض هاديا ومبشراً بالنار.

قضاعه: والجنه؟

حورا: كما تريد.والأعمال هي التي تحدد الطريق إلي هذا أو ذاك.
يبتسم قضاعة فهذا أكثر مما أراده وحين هم بسؤال آخر قاطعه حورا: "كلا. يكفي ذلك. إني متعب".

ثم ينادي شرنقة الذي يدخل بعد لحظة بمشيته السامقة. يلتفت إلي قضاعة قائلا بنبرة صوته الطبيعية حتى لتحسبه يضمر حقدا لا حد لقراره تجاه قضاعة.

قال له فكأنما يهينه: "تفضل".

يخرج قضاعة مع شرنقة ويعود الأخير بلهفة. يتوجه مباشرة إلي سيده الذي استلقى فوق الكنبة.

شرنقة: سيدنا أو لن نسأله أين كان كل هذه الأعوام ومن أواه؟

حورا: ليس الآن، اذهب (يعتدل ويستوقفه قبيل خروجه) أبلغ عفريت أن يتحرى عنه.

قال شرنقة بفرح طاغ: "سمعا وطاعه".

إظـــــــلام

المشهد التاسع

الراوي في الدائرة الحمراء. بعد بضعة دقائق تمر ثقيلة متباطئة. يتحرك في كرسيه ببطء. يبدو كمن يستفيق من غفوة.

الراوي: "لعلي غفوت قليلا. لا ضير في ذلك. فأنا أعرف ماجري وقد شاهدته بنفسي عدة مرات. ولو أتيتم غداً، ستجدوني أشاهده مرة أخري، ودائماً أجد.. نعم في كل مرة أشاهده أجد.."

يمسك الراوي عن المتابعة بطريقة تشعرنا أنه كان على وشك الافصاح بشيء ما، كاشف. وتراجع.

يغسل وجهه في حوض البار و يجففه بمنشفة بديعة ألوانها. يمسك بالمنشفة ويرميها بخفة فيتلقاها الحامل أحسن استقبال. ويظهر في الحال على وجه الراوي الرضى ويشرع في الحديث الجميل:

بعد تلك المقابلة.. خرج قضاعة من هذه الجلسة التآمرية محتفظا لنفسه بالكثير من التعديلات على اللعبة سيحاول أن يقرع بما رأس حورا مرة إثر مرة حتي يفقده الوعي أو يرديه. أيهما أيسر؟

على كل حال لقد حصل على ما أراد الحصول عليه وقتئذ وكذلك حورا. كلاهما خرج من تلك الموقعة ظافراً باعتقاد نفسه، وبحسب معطيات ذلك الحين من جانب كل منهما، راضيا تمام الرضا، مرتاحاً الي مكاسبه، سعيداً بالظروف التي عملت الى جانبه.

كسب حورا شرعية العرش وتوابع ذلك لا حصر لها. وحقق قضاعة عدة أمور أخرى في حزمة واحدة ثقيلة للغايه. كان هدفه الاساسي والاولى ان يسمح له حورا بأن يأخد حقه الطبيعي في الحياة، أن يعيش، وأن يكون قريبا منه، وهو في الحقيقة كان هدفا مشتركا لكليهما، حورا بدافع مراقبته والسيطره على كل شاردة وواردة تنم عنه خصوصا في الفترة التاليه مباشرة على اتفاقهما، وقضاعة بدافع الاحتكاك به ومعرفة نقاط ضعفه وقوته

ومرت الأحوال على هذا المنوال ثمانية عشر عاما لم يشعر قضاعة خلالها لحظة واحدة أنه بات أقوى من حورا، ذلك أن حورا بدأ في السلطة قبله بسنين وخالط جيل الحكماء وقبل أن يرقي للذراع اليمني للرئيس غصن أخذ عنه قوله "جدير باللصوص أن يتعلموا

الحكمة" و "الفرق بين اللص الضعيف والقوي مقدار ما يحصله من حكمه" و "اللص الحكيم أفضل عشر مرات من الشريف الجاهل". هذا رأيه على كلٍ وله دلالته الكبيرة بطبيعة الحال فيما يبدو انه كان من شواغله المهمة لوجود أكثر من إشارة وصلتنا عنه."يكف الراوى عن التقليب في أوراقه" ثم دخل قضاعة معه على سلم السلطة ودرجا عليها فاحتفظ حورا لنفسه بالفارق بينهما كما هو لا يزيد ولا ينقص.

ولم يفكر حورا أن يغدر بقضاعة وكان هذا بمكنته في البداية الأقل، بعد الإعلان المشترك من قِبلهما عن اختيار قضاعة مبعوثا للعناية الإلهية، بشرط أن يجيد التخطيط والتنفيذ فقضاعة كأبيه يحتاج إلى مرقه خاصة. ولكن ما حدث أنه آمن له إلى حد كبير لإنقضاء اليوم بعد اليوم والعام بعد العام في سلام. كما انه لم يخمن مرة واحدة ولو بالخطأ أن قضاعة يعرف الكيفية التي مات بها والده: سره. وأنه القاتل. وقبل كل شيء، لأن اللعبة التي كانا يبحثانها كثوار المستعمرات ولم يصدق كلاهما في جدواها وإنما عرضت لكليهما كطوق نجاة من مأزق يجمعهما معا. واحد يريد حياته والثاني يريد عرشه.

هذه اللعبة نجحت نجاحا باهرا وازداد نجاحها ورسوخها بمر الأيام يوما بعد يوم وعاما اثر عام، لولا أن قضاعه كانت تخامر نفسه أحيانا لعنة قسمة حياته غير العادلة. فمع بروز منصبه القوى اللامع وتضاعف قيمته على الدوام ود من صميم قلبه لو يستطيع الخلاص من ميراثه الدامي ومن شوكة صدره المغروزة في العمق منه، تلك التي تنزف دما وألما. أن يصفح وأن ينسي. ولكن هيهات

أما حورا فقد كان يستفيد منها أحيانا. هذا الوغد عرف إمكانية الاستفادة من مشروعه وقت أن كان يطرحه على قضاعة. بل ووجد نفسه كدليل على مدى ما بلغه قضاعة من نجاح وتفوق وما بلغه هو من بعد نظر وعمق يطلب من قضاعة بصفته خليل السيد/ الإله المقرب إليه مباركة سلطته وتأييدها بالشكل والكلمات التي أرادها. ورغم انه لاحظ أن قضاعة أضاف في نهاية البيان قوله: "اشكروا السيد/ الإله الذي منح سيدنا حورا جزءاً من سلطته". إلا انه لم يراجعه بشأنها شاعرا بإيجابيتها على وجه العموم.

وانتهز قضاعة الفرصة وطلب بالمقابل أن يأخذ حق توريث سلطته الدينية لمن يختاره من بعده، لقد أصبح يفكر لا بالتخلي عن سلطته الدينية وانتزاع عرشه المغتصب بل بالجمع فيما بينهما. وهو مالم يفكر به حورا قط.

وحدث ان استعان حورا به في إضعاف أصحاب النفوذ الذي توهج بدرجة خطيرة أو ما أحس أنها تجاوزت الخط الأحمر، ولم يكن بمقدور قضاعة عمل أي شيء سوي الطاعة الكاملة والتنفيذ إلى حين، ولكنه عرف دائما كيف يستغل مطالب حورا المتكررة لصالحه، فحين كان حورا يأمره بلعن هذا الشخص أو مطالبة ذاك بمدفوعات باهظة غير مبرره علي الأرض.

كان يقوم بذلك دون أدني إشارة إلي اللاعب الأساسي بالغاً في كيفية التنفيذ، علي غير العادة، منتهي السيطرة والتسلط. فهو بشكل من الأشكال ترفيع له هو نفسه وتعزيز مجاني لمركزه في وادي الرعاة. وإذا ذهب الرجل يشكو للرئيس حورا نهره هذا، معيبا عليه مراجعة أوامر السيد/ الإله. ومطالبا إياه بسرعة الاستجابة. وهكذا كان ترمومتر الكراهية لقضاعة الشخص وليس قضاعة الرسول أو الدين يرتفع مؤشره على الدوام.

وفي كل الأحوال كانت جعبته جاهزة بعشرات المكاسب الصغيرة. مرة في مساحة أملاكه من الأرض أو العبيد أو في ذوبان وتآكل الجرف الفاصل الدائم بينه وبين حورا كإنسان. وليس كإله أو حيوان أسطوري.

وفي النهاية اعتبره حورا بمثابة تابع أمين له وقرر أن يحافظ بقناعة كبيرة وبمدد أكبر علي قضاعة ودينه، صنعة يده، ثم هو لا يسلبه حقه في ذكائه ووقدات ذهنه اللماح: ذات المدخل الذي عبر منه هو نفسه إلي مخدع الرئيس غصن. ومما ساعد قضاعة في التمويه علي عين حورا الكاشفة طول الفترة الزمنية التي استغرقها للوصول إلي ذات المدخـــل وتباطؤ الساعة في عد ثوانيها.

وكما توقع حورا - وليس قضاعة - فما أن أعلن للوادي نبوة قضاعة ومبادئ الدعوة السامية حتى تسارع الناس إلي اعتناقه زرافات وتأخر الزعماء وترددت أذنابهم أكثر ولكنهم ما لبثوا أن

فهموا أنها شعارات لا تطولهم. كما حصلوا علي تطمينات من حورا بذات المعنى غير أنهم لم ينطقوا أبدا بتلك الكلمة أي باكتشافهم حقيقتها المزدوجة وجوهرها الفارغ لأنها هي نفس الشعارات التي يساق بها الفقراء والعامة من قديم الزمن، من قِبَلهم، ومن قِبَل حورا، والآن قضاعة، دون أن يدروا اعوجاج الميزان من منبته.

وتم إلغاء كل الملل والعبادات بين عشية وضحاها وماتت حركة الدهماء دون قعقعة السلاح. وبدا لقضاعة أن الأمر أسهل مما يتصور وأعظم من كل أحلامه فالناس آمنت إيمانا محضا به وبدعوته ونسى أنهم كانوا يحبونه منذ البدء وينتظرونه منذ سنوات وأيا كان اللباس الذي سيخرج به عليهم فإنهم يقبلون به. إنه علي أية حال ابن الملك الصالح غصن. ومادام اختار هذا الثوب لظهوره عليهم فإنهم معه ولو كان من ملابس النساء. فما بالك وقد خرج بالثوب الذي أملوا به زمنا طويلا. الخير، العدل، المساواة.. الخ.

وهكذا اجتمع على سكان وادي الرعاة المعني والمادة، قضاعة بما اختزنوه في شخصه من أمل الخلاص وحلم السعادة كامتداد لسيرة والده الرئيس و حورا السلطان المتجبر القوي. لقد وقعوا بين فكي كماشة فولاذية: عقاب السماء الجبار عن طريق قضاعة وعقاب الأرض البطاش عن طريق حورا.

العجيب أنه في ظل التنافس المستتر بين القطبين حورا و قضاعة ازدهر وادي الرعاة واستحدث فصار له جيشا نظاميا كانت نواته الصف الثاني من محاربيه القدامى محاربي الفطرة والقوة الطبيعيين. واحتفظ حورا بالحامية علي وضعها السابق وحوّر مهمتها إلي حمايته هو شخصيا.

وجند من الناس فرقا جعل لكل فرقة منها رئيس لا علاقة له برؤساء الفرق الأخرى وعملها تحت أي ظرف ومهما كانت الدوافع والأسباب ليقع الجميع في النهاية تحت رئاسته مباشرة وأبدا لم يقبل بفكرة طرأت علي رأسه لحظة واحدة لم تدركها لحظة أخرى: عمل مجلس عسكري أو حربي يجمع كل القواد علي مائدة واحدة تحت إشرافه ورئاسته ويكون انعقادها دائميا، وليس في ظروف الحرب وحدها.

وأغدق عليهم بالمزايا والرتب ولكنه كان أقل محصا وتمحيصا عما كان عليه وقت إنشاء الحامية الخاصة فهاجموا القبائل التي أخذت تتزاحم بالسكني حول الحوض المائي. طردوهم وشردوهم وخطوا لأنفسهم حدودا ثابتة لأول مرة في تاريخهم. ولسبب ما بني حورا لنفسه شيئا كالمنتجع أو الاستراحة حول الحوض ولحقه قضاعة وآخرون ثم إنه أصدر بدون تأخير فرمانا رئاسيا بوقف المزيد من البناء هناك.

وخلال هذه الفترة توسع قضاعة في بسط نفوذه وتعميقه بعد الابتكارات العديدة والأفكار الشجاعة التي سنها وطبقها فانتزع لنفسه عبر هذه الأعوام قداسة ولدينه نفاذا وطور منزله تطويرا شاملا فجعله أشبه بقلعة حصينة عرفته الناس فيما بعد بالمعبد.

وكان يتعلل لحورا دائما فى سبيل انجاز ذلك بالخوف من اكتشاف أمره إن اعتدي بعض المجرمين الكفرة علي الشجرة المباركة أو عليه شخصيا إضافة إلي الحجه الخالدة: لكي تصل سريعا وآمنا خذ الطريق المعبد، ولو لم يكن لك قدمين. لكي تحصل علي النتيجة ادفع بالمقدمات. والنتيجة هي ما تصب في صالح حورا. والمقدمات تكون من نصيب قضاعة ومستقبله. فبسقت بيارقه وانضوي تحت لوائه سرا الكثير من أتباع حورا أولئك الذين ما انفكوا يخافونه ويرهبونه في قرارة أنفسهم، فالحقيقة الواضحة لكل المراقبين من "الدهماء" حاملي شعلة التقدم من اجل غد أفضل – سابقا – في وادي الرعاة. تقول: حورا ماكر تغلب عليه الشجاعة. قضاعة شجاع يغلب عليه المكر.

وعمد قضاعة إلي إبراز تقشفه في المظهر الخارجي لقلعته ولنفسه. فشعاراته الزائفة كان يرفعها نهارا ويدهسها ببهيم الليل بعكس منزل حوار، مقر الحكم، الذي أصبح قصرا جميلا تحيط به حديقة غناء وطالما وقف حورا متأملا من بعيد معبد قضاعة. ولكن أحداً لم يره يدخله علي الإطلاق.

استطاع قضاعة كذلك ان يستميل إليه ولاء أكثر الحراس المكلفين من قِبَل حورا أو بمعرفته بحماية الشجرة المباركة. والعكس، جند حورا لنفسه قلة قليلة من رجال قضاعة ويرجع ذلك لصلفة المباشر

في المقام الأول و لإطمئنانه التام إلي أن باستطاعته أن يري قضاعة عاريا في قلب الليل الحالك الظلام وأن يدمره إن أراد بكلمة من فمه، كلمة الحقيقة.

ولم يحدث ما يعكر صفو هذه العلاقة أو يغير من وتيرتها حتى كان مشهد السوق: المنظر الذي تمناه قضاعة بنفاد صبر أو تمني معناه.

ظهر لحورا في تقدير خاطئ للحساب أن قضاعة رضي وقنع بمنصبه المتلألئ وبدينه المزدهر. وأنه تنازل عن الحكم بإرادته وباقتناعه بعدم قدرته علي إدارة دفته كما بين له في حينه ثم إنه يعلم حقيقة العروس – الدين – التي بها يتبختر ويسمو علي الناس بينما لا يعلم سره هو مخلوق. إن قضاعة ودينه من صنع يديه وتلك حقيقة يكفيه أن السيد/ الإله يعلمها تمام العلم كان في الحقيقة يغمره إحساس بالعظمة والسعادة حينما يري قضاعة علي هذه الحالة: كبطريق يمشي إلي جوار أوزات تسد الأفق بنقنقتها وبأعدادها التي لا حصر لها. إلا أن العلاقة بينهما تجسمت وتميزت واستقلت واتخذ كلٌ منهما لنفسه وشماً وتقاليد. ولأن هذا جميعه تم ببطء السلحفاة لم يستشعر حورا من ثم أن في الأمر باطن وظاهر أو بعبارة أخرى شيئا غير عادي.

ورغم التحذب الخفي كان كل منهما لا يتردد في مساندة الآخر علانية وبدا لسكان وادي الرعاة كما لو كان بينهما حلفا أبديا وقليلون هم الذين رأوا ما بينهما عداوة أبدية. صحيح أنهم في وقت من الأوقات حنقوا علي قضاعة لعدم تعرضه لحورا وزمرته الفاسدة بربع كلمة حق بل وفي إعلان رضاه ومساندته لغريمه علانية وهذا المشهد بالذات - مشهد تأييد حورا ومباركته سلطته وحكمه - كان قضاعه يحرص دائما علي إخراجه لطيفا ناعما إلى أبعد حد وبأقل عدد من الكلمات تتسلل تحت جلودهم كالنعاس أو كالدم في شرايينهم من مضخة القلب العملاقة.

وفي نفس الوقت كان كل منهما يبذل منفردا منتهي جهده وكل طاقته سرا لتوسيع وترسيخ مكانته ونفوذه أكثر من الآخر.

حورا، مجرد تأمين روتيني لمركزه الثابت ضد كبار الوادي عامة وبضمهم بدون أي تمييز قضاعة لهذا كان جهده أقل، أما قضاعة فلم ينسي أن ينتقم ويستعيد ملكه ومع كونه رسول السيد/ الإله وهو منصب حديث شديد الضى كشمس بكر لهذا كان جهده سخيا ونشاطه وافر. كما لم يكن راكناً تماماً لهذا المنصب الذي قد يبدده حورا بكلمة من فمه.

ومن أظهر إضافات قضاعة ابتكاره التراتيل الدينية التي تنشد أمام الشجرة المباركة بعد تهيئة الساحة أمامها لاستقبال الزوار ولكنها ظلت تنشد بطريقة سوقية لا نظام فيها مع انه كان دائم البحث والاجتهاد في تعديلها وتهذيبها ولم يألو جهداً فى سبيل ذلك. ولكن يبدو أن طاقة التكثيف فى الزمن لها حدود طبيعية لا يمكن اختراقها.

وأيضا جعله أول أيام البدر عيداً دينياً حداداً على الألهة القتلى أسرة السيد/ الإله. وتعلمه بعض فنون السحر وحصوله بجهد جهيد ومثابرة يلين لها جلد الصخر الأصم على إذن حورا بتوريثه الرسالة لأبنائه من بعده. ليصبحوا فيما بعد أفضل الناس للناس وهو ما تحور رغم أنفه ليكونوا أفضل الناس للسيد/ الإله.

صحيح أنه لم يتزوج لحد الآن ولكن محظياته تعد بالمئات وأولاده لا حصر لهم. وهو على أية حال ما كان يهتم بهم أو بأحدهم على الإطلاق. ولم يفكر أحد أن يسأل قضاعة لماذا لا يوزع السيد/ الإله ماله وقد أصبح وفيراً على الفقراء؟

وإذا كان الدعاء بطلب المغفرة والدعاء بالعطايا والمنح الإلهية جزءاً رئيسياً فى الصلاة. فإنه كاد يعلن عدم صلاحها على وجهيها المذكورين بدون قرابين مهما ضؤل شأنها. ولكنه لم يفعل.

قال قضاعه لمساعده الأول ندشب شاكياً ظلم الناس: "إنهم يدعون السيد/ الإلة بعظيم المنح. بالغنى. وبوفرة الصحة. وبالمغفرة عن خطاياهم وأثامهم العظيمة. ولكنهم يتبرمون إذا دفعوا رسماً بسيطاً يفتح لهم الباب الى كنوز السماء. باللإنسان من ظالم جهول".

فى البداية احـ ج قضاعة لذراع وسلطة حورا ثم انقلبت الآية فصار حورا فى عوز دائم لتأييد دميته الحسناء التي صارت لكلماته

قوة القانون. حورا يحتاج للعصا كي يمرر قوانينه أما قضاعة فكانت تكفيه الكلمة.

جدير بالذكر أن القوافل التي كانت تمر بهم ومترافقا مع عبور إحداها حدثت الغارة الوحشية التي صرع فيها الرئيس غصن أصبحت بمشورة قضاعة تنزل في مكان قصي على الحدود على أن يرحل إليها من يريد من سكان الوادي ويتعامل معهم بعيداً عن أرض الوادي ولابد في كل الأحوال من استئذان حورا مع إعطائه بياناً مفصلاً عن هدفه ونوعية الصفقة.

لقد خطوا لأنفسهم حدوداً لا يسمح لأحد بدخولها أو الخروج منها دون إذن. كان قضاعة يخشى من تأثر سكان الوادي "الرعاة" بأحوال القوافل وتأثيرها بشكل ما على دينه فيما كان هو أول المتأثرين بها الثائرين عليها.

وحصل قضاعة لنفسه على لقب خليل السيد/ الإله بعد أن لم يعد يرضيه أن يكون واحداً من المرسلين وحسب ولكن الناس لم تعترف به إلا رسولاً فقط.

والشيء الأخير المهم الذي حدث في تلك الفترة من التنافس الخفي بين حورا وقضاعة أن دخلت أنظمة عديدة دقيقة وصارمة مجتمع وادي الرعاة وتكون إلى جانب العرف تقاليد محكمة صنعت بالتعاون المتساوي بين حورا وقضاعة ومرغمان على هذا التعاون.

وأهم من ذلك كله أنه بالإتفاق مع بعضهما فرض على سكان الوادي عداهما طبعاً كل صنوف الخير والتقوى من بر وإحسان وصدق و... أي بإختصار: النظام الأخلاقي الصالح بقضه وقضيضه وكانا في هذا غاية في الصرامة والحزم والقسوة مع كل منحرف أيا كان.

وطبعاً من يستطيع أن يجبرهما على عدم غض النظر وقتما شاءا لمن شاءا وخصوصاً حورا. والمدهش أن جماعة "الدهماء" تلاشت وذابت مع سطوع نجم الدين الجديد وكانت هذه من مأثرة الدين الجديد التي أسعدت قلب حورا وحملته على عدم العبث به واحترامه.

فهذه الجماعة التي أمضته كل حيل وسبل القضاء عليها قضى عليها قضاعة، أي الدين الجديد، بعدة كلمات لم يكن ثمة حاجة

لتكرارها. لأنه ببساطة أصبح ينادى بها. فأخذوا نفس العناوين من فمه لا من فمهم. من السماء على رفعتها لا من الأرض على دناءتها ويا ليتهم فكروا على نحو أفضل من ذلك. فالسماء تعلمك المشي بينما أنت من سوف يمشي.

أما حادثة السوق التي رأيناها قبل قليل فقد كانت مشاجرة نادرة، مدوية لأنها وقعت علانية بين "كاروا" و "صخرة". وكليهما صار شاباً يافعاً كما رأيتموهما. كاروا المتعجرف ابن حورا الرئيس وصخرة اليتيم ابن الشيخ زمن ويقع فعلياً فى حمى ورعاية قضاعة الذي هو مدين لأباه بانقشاع الغيم الأسود عن عينيه بل ومدين بحياته نفسها إليه وفوق هذا مدين بالوعد على حماية ولده صخرة.

إنه يكاد يكون ابنه بالتبني وهذا ما كان يكفي لكي يتدخل قضاعة بقوة لإنقاذ صخرة من براثن هلاك محقق وبينما المشاجرة على أشدها والناس بين مصدق ومنكر لما يرى بأم عينيه: ابن الرئيس، ابن حورا العظيم، يتقاتل مع واحد من الرعية السفلة هكذا على الملأ.يضرب ويسال دمه.

أما دم صخرة الذي سال أيضاً فذاك من شئون الدنيا المعهودة. فقط أبناء الملوك يسال دمهم فى حومة الوغى والبطولة وليس على قارعة طريق عام أو فى سوق رخيص. ولو سألتني من كان أكثر الناس تفكيراً على هذا النحو؟ سأقول لك: إنهم الرعية السفلة، أنفسهم.

لقد توصل مساعدي إلى النتيجة التالية: "عندما فوجئ الناس بقضاعة وكان قد أفقدهم رشدهم ما يجرى، عندما رأوه يكتنف وجهه الغضب على نحو غير مسبوق سجد أحدهم بتلقائية وتبعه الجميع.فكل يلقاه ساجداً. وبين عشية وضحاها أصبح أمراً حقيقياً وواقعياً.وهذا الحادث كان العلامة الفارقة فى علاقتيهما حورا وقضاعه ببعضهما".

هذه نتيجة بحث مساعدي حتى الآن." يضع الورقة التي كان يقرأ منها ويقول: "لكن لي رأى آخر، لم لا نتابع معاً البحث عن حقيقة ما حدث في وادي الرعاة دعونا نرى على الطبيعة ما جرى.

فأنا على أية حال لا أثق كثيراً فى هؤلاء الأولاد المؤرخين والمساعدين على حد سواء.

المشهد العاشر

حدثني الراوي. قال

بعد بضعة أشهر من النجاح الساحق الذي حققه الدين الجديد بقيادة الموهوب: قضاعه. تقريباً، بدون أي معوقات كبرى. اذ جرى الأمر بتعبير صاحب الدين نفسه "كالسهل الممتنع".

تلقى قضاعه في ذروة انشغاله بأمر وشئون الدين الجديد، الوليد، دعوة من حورا:

- للاحتفال بنجاح اتفاقنا.

هكذا نصت الدعوة. وأبلغ حاملها بالرد:

- يسعدني تلبيه الدعوه عند مغيب الشمس.

كان ذلك الاتفاق الخطير بتقسيم التركة في أرض وادي الرعاة باختصاص قضاعه بالنبوة. وانفراد حورا بالسلطة المطلقة على الأرض تقسيماً بدا من وجهة نظر حورا عادلاً ونهائياً. وعليه قرر دعوه ربيبة السابق، رسول السيد/ الإله المظفر للاحتفال في البيت الكبير، الذي عرف فيما بعد بالقصر.

عند مغيب الشمس. البيت الكبير. حورا جالساً. يبدو عليه الشرود وامعان الفكر. بعد حين، ينادي على شرنقة ويسأله.

- هل غربت الشمس؟

- انها تغرب، الآن، سيدى.

- حسناً، انتظر في الخارج

بعد قليل، يدخل شرنقة ومن ورائه قضاعه الذي نراه عند الباب يتناول من أمه مليحه الوجه، بدينه، دن من الخمر المسروق من القوافل، يأخذه في حضنه ويحكم قبضة ذراعيه عليه ويؤشر لها بالذهاب.

يتقدم شرنقة الى سيده قائلا بذات لهجته العدائية تجاه قضاعه:

- مولاى قضاعه، رسول السيد/ الاله.

يقدمه لسيده وينصرف. مع ذلك، ورغم أننا لا نرى شرنقه قط فإننا نشعر به واقفاً بالباب. بل نشعر كأنه قائم معهما لم يغادر قط.

بدا قضاعه لحظات قلقاً من انفلات كنزه إذ كان يمسك فضلاً عن برميل الخمر النصفي بكوبين من العظم بأياد مدببة كالخنجر منحوته نحتاً بديعاً على شكل أصابع يد مضمومه. وسرعان ما أشار إليه حورا بالجلوس

جلس قضاعه أرضاً وفي أحضانه لبعض الوقت برميل الخمر النصفي وقبالته على نفس المستوى حورا في يده أحد الأكواب يعب قضاعه به غرفاً من البرميل مباشرة ويناوله إياه باستمرار. وبدا حورا أبطأ من رفيقه وأقل طلباً لخمره.

كان حورا يجرعه غير مستساغ جودته العاليه. ما يشتهيه حورا ويطلبه جسده هو الخمر المحلي. الردئ دون شك.

قال حورا وهو يتأمل الكوب عالياً:

- أرى انك دقيق الوفاء بالمواعيد يا قضاعه؟

- هل يتصور سيدنا انى أجرؤ على ان أخلف موعداً ضربه لي الرئيس العظيم حورا؟

- لا. ولكنى أردت ان أعرف كيف يتعامل السيد/ الاله مع موعد ضربه له الرئيس العظيم.. حورا.

قال قضاعه وقد فهم:

- آه. نعم. سيدى لا مجال للمقارنة بين موعد يضربه الرئيس حورا للناس / عبيده. وكل مواعيد السيد/ الاله للناس / خلقه. سيدى، ان فكرة الخلق تتناقض مع العبودية. اعنى، ان فكرة الخلق – مادمنا سلمنا بأننا مخلوقين لخالق – تسقط بالضرورة العبودية عنا لذات الخالق. ان السيد/ الاله لا يخلق عبيداً، ولطالما خلق منهم كثيراً فيما مضى كالطير والحيوان. ولكنه خلقنا بارادة حرة، وطالبنا بأن نتصرف على هذا الأساس. وعلى هذا الأساس فموعد سيدنا حورا لا يُخلف وموعد السيد/ الاله يتدبر فيه.

كان حورا طوال الوقت يشرب وهو ما فتئ يتحسس الكوب فقال متأملاً إياه عالياً مرة أخرى:

- لا أدرى من أ[illegible]ن تحصل على هذه الأشياء؟

- أليست جميلة؟

- بلى. ان خادمنا شرنقة ولوع، مثلك، بتلك الأشياء حتى لم يترك ممراً ولا ركناً فى البيت الكبير إلا ونصب فيه قطعة منها.
- لا بد وأنه أنبأ سيدنا من أين يتحصل عليها؟
- نعم. ادعى انه يحصل عليها من السوق. كما أتوقع أن تجيبنى أنت أيضاً.
ابتسم قضاعه بلؤم ولم يعلق. ولكن شرنقة بعبوسة النافر تجاهه وبقوته الجسمانية المفرطة ملأ صفحه خيالة للحظة.
نحى قضاعه البرميل جانباً وكان قد شعر بالإرتواء والرضى التامين. ثم قال متحسساً كلماته:
- سيدنا. كنت أفكر فى تحريم اتصال العامه بنسائنا.
نظر حورا إليه مطولاً ولم يتكلم داعياً إياه بنظرة عين الى توضيح الرأى أكثر. فاستجاب قضاعه بسرعه:
- كيف يمكن للأوباش ان ينظروا الى نسائنا وفى النظره ما فيها؟
قال حورا مجادلاً – بالتى هى أحسن – ليس إلا:
- ولكننا ننظر الى نسائهم يا قضاعه وفى النظره ما فيها.
- ليكن...
قاطعة حورا ملوحاً بيده:
- اسمع يا قضاعه. ان اردت ان تطالبهم بذلك فعليك أنت أولاً ألا تنظر الى نسائهم. ولا سيما العين منهن ولو لم يحجبوهن عنك. لا تعاملهن ولا تكلمهن حتى. إلزم نفسك أولاً بذلك. وإذا أنت فعلت أو استطعت فقد أمتهن. أى أمت الحياة نفسها. ماذا يضرك ان تقع العين على يد مكشوفه أو ردف مغطى أو ثدى عار.. ولكن الضرر حقاً يقع حين تسقط النظر فى بحور العين العميقة بلا نهاية.
لم يستوعب قضاعه الفكرة تماماً ولا ضروره الجدل فيها. ولكنه عاد الى ما أراد قوله ابتداءً ومنعه حورا عن تكملت:
- ليكن. هذا طبيعى. لا يمنع العبد عن سيده ماله.
قال حورا مجادلاً بالتى هى أحسن وأحسن، ليس إلا:
- ولكنهم ليسوا عبيد يا قضاعه. وهذا (يعنى النساء) مالهم.
- هم عبيد السيد/ الاله. وهو فوضنى فى ماله.
فيهم؟

وفى نسائهم.
إعتدل حورا وترك كأسه ثم قال بحيويه:
- يبدو ان قضاعه رسول السيد/ الاله مشغول كثيراً بالنساء وأمرهن. وما تطلبه عكس فكرتى عنك أقصد، ضد فكرتك عنهن. لماذا كل هذا الاهتمام، حقا؟
- لأنهن شر.
شر فيم؟ إنهن يا قضاعه مخلوقات خانعة خاضعة يؤدين عنا أعمالاً شتى. ونفقات تشغيلهن لا تُذكر.
سيدى، أن المرأة كائن وضيع. ديدنها الجشع والطمع. وان اعتصرتها قطرت خيانة وغدراً. ومن المهم أن نضرب عليها، ما دام قربها منا محتم، ستاراً من فولاذ.
- اذن، دعها وشأنها. لماذا تقترب منها أو تقربها منك ثم تعود فتدعى أنها حارقة.
- إنى أطمع فى أن يستسيغ عقل سيدنا الراجح فكرتى فى صد الصعاليك الملاعين عن مشاركة سادتهم أمور حياتهم. ولو فى كائن حقير كالمرأة. ثم إنا بذلك نمنع عنهن اعوجاجهن أو قل اننا بذلك التحريم نقومه.
- بعزلهن؟ هذا لا يجوز.
- نساؤنا وحسب يا سيدى.
ان النساء يا قضاعه شئ حسن الصورة لو أحسن رعايته وتزيينه. بل ان بعضهن يظهرن تفوقاً فى الفهم وأحياناً فى القوه والشدة يدفعنى الى الحيرة والتساؤل ان كن حقاً إنسان مثلنا؟
هذا يا سيدى نادر الوقوع. ونحن لن نحكم الوادى على ما ندر فيه. بل نحكمه على ما كثر وشاع. ولو ان فى الندرة قيمة دائمة. ولكن القوة تبقى فى الكثرة.
ابتسم حورا وقال:
- افعل ما شئت.

المشهد الحادى عشر

نهاية المشهد الخامس بحذافيره. السوق. معرض زوبعه للإماء.

كانت السابقة الأولى التي يسجد فيها الناس لقضاعه، سواء كان لشخصه أو تعبيراً عن الولاء والخضوع لسلطته الدينية. ولما فرغ قضاعة من استرجاع شريط ذاكرته، نحاه جانباً وعاد نشطاً إلى ما كان عليه، فلوح لهم بيد الغرور فقاموا وجلين. ها هو، منفرداً، يحس بأعنة القوه التي طالما رقص قلبه حول نيران الثأر المتأججة، بين قبضة يده. وصاح بالمتقاتلين:

" قف، توقف، قف ".

ولما استشعرا صاحب الصوت واستوعبا الأمر القاسي صدعا له وهما يلهثان من الاضطراب النفسي والكل. انفصل الاشتباك في لحظته ولم ينبث أحد ببنت شفه. بسط صخره قامته فبدت عليه آثار المعركة التي لا تخطئها عين. غبار استحال سريعاً إلى أوساخ وطين. دماً متخثراً. لكمات وخدوش وكدمات تملأ صفحة وجهه بأكثر مما يتناثر على امتداد جسمه كأنه عامل فى سلخانه.

أما كاروا فحالما انتصب واستقام بقده. وكان يبدو أكثر تعباً وإنهاكاً من صخره بسبب الجهد الخارق الذي بذله للإفلات من حضن غريمه الذي انصب جل تفكيره ألا يفلته مهما كان الأمر وكان له ما أراد، سال من أنفه خيط غليظ من الدماء ما أن وقع تحت نظره حتى فقد زمام نفسه وشاط فانطلق ثائراً كالثور الجريح صوب خصمه عنيفاً فدائياً فى جو ملبد بالغيوم ينذر بكارثة أو عاصفة. وقع أثره بين الناس فى التو واللحظة خوفاً وهلعاً غامضاً.

فهم ما جربوا غير الريح وستائر المطر الشفاف. أما الأعاصير والعواصف فلا عهد لهم بها. اندفع كاروا وهو يصيح هائجاً:

يا ابن اللئيمة، أيها النكرة المعرفة بالزيف.

ووثب على صخرة الذي اتخذ أهبته وتحفز للهجوم الخاطف بسرعة موفقة تماماً.

والحقيقة أن صخره نفسه فزع لمرأى الدم. ثم كاروا أضعاف ما تأثر أو فزع لسيلان دمه هو. فانعكس خوفه على غير إرادته إلى

جسارة أكبر وأشمل. هكذا دُفع صخره إلى ذروة لم يشأ الوصول إليها.

بينما لم يكن نزيف الكبرياء الذى لم يعرف كاروا كيف يوقفه ويتصفى برغمه مخضوضباً فى دمائه الأصلية هو ما دفعه بدوره إلى ذروة ثورته بل دفعه إليها دفعاً ما أسر به واحد من العوام إلى قرينه بصوت واطئ سمعه كاروا وأحس به يخرط قلبه.

الصوت: "دم كاروا إبن سيدنا الرئيس تروى الثرى كدماء الدمى".

وتصادما كسحابتين، وهب غضب قضاعة من مرقده، متحالفاً مع عنصر قوته الجديد جارفاً فى طريقه حقد الماضي وآلامه جميعاً. فزمجر كالرعد: " كاروا.. توقف ".

لئن جفل كاروا وارتعد هنيهه من هول النبرة الآمره، ذات الطعم المرير، المدين المستهجن. إلا أنه لم يرعوى ولم يسلم. وإن شعر كما شعر كل الناس من ان ثمة شيئاً خفياً أغلظ صوت مولاهم خليل السيد/ الإله أو ملأ مسامه وأثقله عن ذى قبل ولم تكن غلظه، ولم يكن فارغاً فامتلئ.

كان الصوت هو نفس الصوت، ولكن سرت فيه دماء جديدة وروح جديدة، كأنه كان معوقاً واستعاد براءته وما بتر منه. غار منه الخوف والتحسب السابق لردود فعل لا حصر لها.

عاد كاروا يسب ويغلظ لصخره، وكما استغلها صخره فى المرة الأولى واستعد لمواجهته انتهزها هذه المرة وكال له أكثر. مدفوعاً من أفواه قلة قليلة نحو دوامة البطولة، وهى لا تعنى له من قبل ومن بعد أى شيء. فأمر قضاعة الجمهور على الفور وبنفس القوة الهادرة بمهاجمته وتكبيله.

وبعد أن فعل ذلك نفر، جلهم من العامة المستضعفين بسرعة ومهارة، بينما تراجع للخلف الأثرياء، أضاف قضاعة بازدراء: "احملوه إلى سيده إلى أن تنظر السماء فى معاقبته".

لأن السماء – فى عرف قضاعه الرسول – لا تحاكم. بل تعاقب أما فكرة المحاكمة التى يعتمدها حورا فهى تثير ضحكه ورثاءه.

وشيعه بنظرة نافذة لا يكفى كتاب لترجمة مدلولها القبيح الدفين، وكان كاروا يثب ويتخبط كالذبيحة تحت شبكة ضيقة مرنة تتقطع بعض خيوطها وتعود فتلتحم.

هذه الخيوط كانت عشرات الأذرع والأبدان البشرية. طالما أن القوة التي تدفعهم الآن أقوى من قوة الصيد ولو مؤقتاً فلا أهمية إن افترسهم بعد ذلك صيدهم لأن هذه القوة – قضاعة – ستمثل بهم أحياء فى التو واللحظة.

لذلك لم يأبهوا لصرخات و وعيد وسباب كاروا المكلوم لهم ولصخره.. وللدنيا الظالمة بأسرها.

وظل كاروا يحاول بهمجية التملص والخلاص من أغلاله وقيده البشرى المتماسك فأخفق. وحتى توارى عن الأنظار تماماً لم تك ثائرته قد هدأت..

بينما أنشأ قضاعة يردد فى خشوع: "لك العظمة وحدك يا إلهنا المجيد، إذ أمرتني بالحضور فوراً هاهنا. لأن حادثاً جللاً سوف تسفك لأجله الدماء الكثيرة. ويشتعل فى الوادي كشر عظيم".

يشير لهم قضاعة بالسجود فيقعوا خاشعين. ويبقى هو واقفاً على رأسهم آخذاً فى الترتيل: "شكراً يا غازي قلوبنا برحمتك ياذا السمت الذي لا يتحول عنا آناء الليل والنهار. يا راعى مصالحنا بالحق والعدل لك العظمة والمجد أبداً. إغفر لنا يا سيدنا الإله. لأننا صلينا لك هنا (يلتفت حواليه) فى هذا المكان القذر، الخسيس ".

عند ذكر الإله استيقظت حواس اناث السبع. وكذلك جمالها. أشرقت وتوهجت وظلت ترقب قضاعة باهتمام يكاد يكون صارخاً فى صمته. حتى أحس قضاعة بها وتلاقت أعينهما فى ومضة خاطفة، فلبسا بعضهما، وانخرطا فى صحاف واحد لكنهما بقيا شيئين. وزفاف واحد لكنهما عريس وعروس.

إن قضاعة فى تفانيه الدائب والمنتظم فى لعبة السيد/ الإله لا نقول أنه اقتنع وآمن بها كالرعاة بيد أنها دفعته دفعاً إلى التفكير الجاد المنزه المنتظم فبدا له الأمر فى جوهره سليماً. منطقياً. واستهواه أن تكون تسليته المفضلة هى التفكير فيه وفى ابتداع أحكام جديدة.

وأنـه (أي الـدين) أبعد دون أن يـدرى إلـى أي حد، عن أن يكـون حكاية ملفقة سواء من حورا أو من الأمة المزعومة التـي استند عليهـا فى روايته، لولا بعض المسالب التـي تترسب بين يديـه من آن لآخر فتحمله على المزيد من الإصلاح والإجادة والإنماء لدينه.

ولم يكفكف النقص دموعه حتى الآن. وعمومـاً، فـإن الذهب والـدر كـان بين كفيـه منـه أكثر ممـا فيه مـن حصـى وأصداف. وربمـا كـان متوهماً فيما يظنه نقص وعيوب أو مسالب وثغرات فلم يظهر علـى أحد من الوادي، سواه، أدنى شك أو ريبه.

أجل ولعل ذلك يرجع بالضرورة لمعرفته الحقه بأصول المسألة. بل إن سكان الوادي يطيعونه، ويطيعون سيده/ الإله طاعة عمياء. ولا أجزم إن كانوا فرحين أو ليسوا.

تميزت اناث فى تلك اللحظة برقة فريدة. رقة ضباب يتطارد كحلم صغير وردى فى ثنايا أشعة شمس، شبعانة بنورها، يحف بهـا موكب قـوس قـزح. رقـة فـى الطبـع والقسمات وملاحـة تتغـزل فـى وجههـا وتغزل لغيرهـا. مـا الـذي اعتراهـا فجأة فجعلهـا هكذا أرق مـن الـورد وأحلـى مـن عطـره؟ مـاذا فعلت بنفسها؟ ومـاذا فعـل السحر بهـا؟ مـاذا شربت؟ أينام الجمال ويصحو؟ أيفور كالثلج ويعود فيتجمد.

ماذا إذاً أراها "قمر الزمان" فـي هذه اللحظـة؟ أيفقد وعيـه؟ أم يقـع صـريع هواهـا أم يخجلـه حسنها؟ أم.. أم.. بتـصوري، إن أى محاولـة لمقابلتهما لابد وأن تتم كالآتي:

سـوف يـسبقه قبـل كـل شـيء لـسان واع. وحـس رهيـف وقـصور. وخجل. وإنه لا نعت إلا لزمتـه صـفه. نقطـة حبر أو حرف فـى كلمـة "حسنها" الفائر بلا انتهاء. لن يوجد "قمر" بعد الآن والأيـام فـى فتنتـه مجرد عربون لإلقاء التحية عليها.

ولا تشبيه يفد أو يصدر عن ذلك اللسان سوى أنها، بتواضع شديد، تشبه انسياب جدول رقراق من الفضة السائلة يهمس بـالعطر والـشوق ويتلوى بأنفـه راقـصا كطيـف مـن الثريـا الخالـصة تـسيل بـين صـخور تكتنـف ضـفتيه شـجيرات مـن سـندس لا خفيفـة ولا كثيفـة تغـوص فـى الاخـضرار وعلـى رؤوسـها زهـرات كأنهـا القمـر مـن المرمـر بينمـا نزلت السماء الزرقاء علـى كعوبهـا العاليـة ونـامت حواليـه بـين أزواج

من الحمام وعصافير الجنة. وعلى يمينها طفلين يشبه الذكر منهما الأنثى، طاهرين فاتنين.

إمتلأت عينا اناث بدعوة صريحة زاعقة تنادى رسول/ الإله.فتسلم قضاعة النداء بيسر وسهوله.

والحقيقة أن قضاعة كان كاذباً بشأن ما أذاعه عن سبب الزيارة فهو – وإن صح – لا يرتاد هذه الأماكن ولا يكاد يلتقيه الناس كما يلتقون بعضهم لأنه محجوب عنهم بمشاغل دينه و ازدهاره التي لم يعرف أبداً متى يحس أنه قد بلغ بها مدارج السماء حقاً، ولم تعد فى حاجة إلى ربها، أو إلى ريها بدموعه ودمه.

وحين جاءته اللحظة المنتظرة، أطبق عليها فعلاً. وأسرع يطالبها بالثمرة.

فالحقيقة الخالصة أنه سمع من زوبعة بأمر ما عن الفتى الأجنبي الذي يدعى "ساشاى" ولقد شغلته هذه الحادثة كثيرا، فانساق وراء فضول أوّلى برؤيته قبل أن يقرر أي قرار بشأنه. ولو صدق زوبعة فيما نقل إليه عن الفتى إذاً لتوجب الحصول عليه بأي ثمن.

بعد أن فرغ قضاعة من دعاؤه واستغفاره ورجع كلٌ إلى شئونه وانفض الناس وإن لم ينهضوا إلا بإشارة منه، مال على صخره وأسر إليه بكلمة غار على إثرها من السوق نهائياً.

نخس زوبعة بهوادة برنل فيما تحت ذيله مباشرة فتراجع الغلام وأوشك على السقوط من فوق الحجر كالمتكهرب فرقاً كالذي فرغ من فراش المتعة فوجد نفسه أسيرا حياً فى أحضان القبر الزجاجي المصمت.

إذ أفاق على الفاجعة السامة، انه كان ينكح في سعى دائب محموم وجهاد متصل موصول، جثة.لحظة أن عرف بموتها كانت لحظة الإنتشاء الخالدة. وما برح برنل لم يفق من سكرته ومما هو فيه من تيه حتى صاح على غير ترتيب: " الجمال. فرصه. اقتناء النوادر. فرصة أكيدة. أنا لا اكذب ولا أتجمل ولا أقول غير ما علمني قوله سيدي زوبعة ".

خرجت كلماته كالملح المضاف إلى الطعام المالــح اصلا، فقــال زوبعة ممتعضاً: " قبحك السيد/ الإله من البداية إلى النهاية ".

وأراد أن يصيبه بحجر صغير فأخطأ الهدف إلى ساشاى الذي توجع للمفاجأة أكثر من أي شيء آخر. وتسبب ذلك فى لفت نظر جربال وغيره إليه.

وكان جربال كالعادة اسبق إلى الكلام والتعليق عمن عداه فيما تشتت انتباه قضاعة الذي علقه بإناث منذ زمن.

قال جربال فى تعجب ومكر ": لماذا يقف هذا الشاب الجميل رغم سمرته الحادة كالشجرة الميتة بجانب هاتى الغزلان؟".

ويجرى قطعه كبيرة من لسانه حول فمه.

شاب: وماذا تظن يا جربال؟ ها ها.

جربال: "لا أظن أكثر مما يظن جربوع مثلك يا زبى".

قال الشاب، نفسه، وهو يرحل بعد ان ضحك وحده بشراهة: "تقر بأنك جربوع وأما أنا فأنكر".

يتململ جربال تعبيرا عن ابتهاجه بانسحاب هذا المتسائل اللجوج الذى لم يمكنه من الاستمتاع بمزحته فى فسحة وبحبوحة، فعاد يتساءل في حرص واضح: "ولكن يا زوبعة، هذه هي المرة الأولى، فيما أعلم، يباع فيها رجل؟".

وعلى الفور، انبرى واحد واثنين يؤيدانه بقطع صارخ. وحماس.

الأول: صحيح تماماً. اجل.

الثاني: بالتأكيد. أنا أؤيد كلامك جزماً.

رد جربال على الثاني وهو يمصمص شفتيه: "تؤيداني فنعم وألف شكر.أما الجزم فأوقعها على أم رأس زوبعة".

ويبتسم له فيغتاظ الأخير.

زوبعة: " إلام ترمى يا أحلك من نفس خنزير؟"

ينتقل جربال بصفحة وجهه إلى محدثه السابق، الشاب، فلا يجده فيطلقها مدوية في الفضاء فى الاتجاه الذي سار منه مقلداً ضحكته، ساخراً.

جربال: " وماذا تظن؟ ها ها ".

لم يجد زوبعة بداً من محاولة فرض الهيبة والوقار والجدية على زبائنه فقال في تجهم تجشمه بمشقة. والغريب أن ضآلة جسمه وطوله المتوسط ووجهه النحيف، الممصوص، الشبيه بوجه اللصوص من

الفئة الدنيا وشعره الرمادي، قاوما علامات الشيخوخة عليه مع أنه في الثمانين من عمره ويبدو أن هناك من أراد – أو قرر بالفعل – أن يسلبنا الحكمة في اللحظة نفسها التي نكون على وشك الإمساك بها.

قال زوبعة: " إن المتاجرة فيه لا غبار عليها وشرعية مائة بالمائة. وما من مراء في صحتها. لقد وجدته في سفرتي الماضية إلى القوافل يوم أحضرت تلك الحلوة "يعني اناث" وقد كان يلفظ رمقه الأخير ويتضور جوعاً ومرضاً فاعتنيت به وأطعمته. وكان مثل ورقة خريف مهملة، ميتة، لا تلفت نظر أي واحد أو أحد حين تتكسر تحت قدميه الثقيلة. لقد اعتنيت به خير عناية وأوكلت هذه الجميلة – القبيحة يومئذ – برعايته والاعتناء به.وكنت لا أطيق النظر إلى وجهها. كسوته، وأسكنته منزلي حتى صار كما ترونه في زمن قياسي وما ذاك إلا برهاناً على مقدار ما بذلت فيه من جهد ومال لتمريضه وصيانة حياته.

إن لغته ولغتنا واحدة ولكنها تنطق بغير ما ننطق به لغتنا وقد تعلمتها وتعلم لغتنا. إن لغتهم – يقصد لغة ساشاى – تشبه لغتنا القديمة وإن العجائز منا مازالوا يتكلمون بشيء منها.

جربال: "وفعلت كل ذلك لوجه السيد/ الإله يا دوده؟"

زوبعة: وهل كان يفعل؟ هو أو أنت أو أي محترم من هؤلاء؟ طبعاً لا. ولكن زوبعة الجليل. أنا. فعل.

جربال: "الحقيقة يا من أكن له كل احترام زبى وتقديره ما كنت أفعل. صدقت".

زوبعة: ولذلك الصنيع باعني نفسه. وليس كما يفعل الكثير منكم.

يعني جربال دون غيره. ومن حسن حظه أنه كان مشغولاً في هذه اللحظة عينها بكلمة خاطفة مع الأمة السادسة.

زوبعة: ووقعنا ميثاقاً يثبت حقي فيه، كمالك له.

صوت ١: ماذا؟

صوت ٢: كيف؟

زوبعة: " ألم أقل لكم قط؟ إن لغته تُكتب ".

وتلفظ آخر ما قال بفخر واستغراب.

صوت ١: تكتب؟

زوبعة: أجل. ينقشوها تارة علي الجلود وتارة علي الصخر الطري الذي يجف بعد ذلك بما خط عليه ويصعب كثيرا مسحه.

قال جربال وكأنما يحدث نفسه: "لا شيء يصعب مسخه يا زبي".

زوبعة: بل قال أن بعض قومه يضعون الكلام علي رقائق ورقية يصنعونها من النبات بريش طائر تغمس في اللون. تصورا، الكلام الذي ننطق به في الهواء وما أكثره. يقيده قومه علي ورق. ويمكن أن نلمسه وأن نراه.

كان قضاعة منصرفا كليا كما ظهر في حديث جانبي بعيد إلي حد كبير عن الحلبة مع واحد من سكان الوادي منذ أن حمل كاروا حملا إلي سيده الرئيس. وبين آونة وأخرى يرفع مقلتاه النافذتين إلي اناث التي كانت بدورها لا تكف بصرها عنه وقد تعلقت به بهدبيها وقامت مستجيرة به في صمت. مستغرقة في النظر إليه كالحالمة دون أن يشعر بذلك محدثه.

وتدخل قضاعة في الحوار قائلا، مفاجئا الجميع: "أرني إياه".

يناوله زوبعة الصك.يتفحصه قضاعة رويدا ثم يقول: "هذا يظل باطلا، ولا يصلح العمل به حتي يصدق عليه السيد/ الإله".

قال زوبعة بتوسل حبيبي ممزج بحسرة بالغة: "لكن السيد/ الإله لا يرضي لي الخسارة. وأنا من أكثر الخلق قربا وتقربا إلي ذاته العليا. ولا يوجد في الوادي من يفوقني إجلالا وذكرا له. كما أنني في كل الأعياد وبدون مناسبة، أتقدم لسعادته بالفدى والقربان".

والحقيقة أن الرجل لم يكذب في ذلك أبدا. ولكن قضاعة كان له رأي آخر.

قال قضاعة بتسامح جميل: "ليس إلي هذه الدرجة. لا تبالغ".

زوبعة: ولكن لا يمكن يا رسول السيد/ الإله أنه لم يوصيك علي؟

قال قضاعة بحسم: " علي كل حال، سنري ".

صوت: لابد أن هذا الشاب الأجنبي عظيم الثمن.

صوت آخر: نعم. لابد أنه يتساوي في ثمنه وأكثر من واحدة من هؤلاء الإماء أو كلهم كافة أليس كذلك يا زوبعة؟

وعلق جربال .. خابثا: "إنه لا يســاوي في نظري شيئا. ما فــائدة ذكر لرجل؟".

حين بدأ الكلام يتناول ساشاي تغيرت حالة اللامبالاة المزدرية التي كانت تسكنه حتى الحين إلي انتباه ووعي كامل بكل ما يجري الآن تحت بصره. وبدا كأنه يعاني ألاما مبرحة غير منظورة لدرجة أنه يهمل للمرة الأولي وجود اناث مذ كشفت عن حقيقة مظهرها الجميل. ولولا ما استبد به من ألم لكان أسعد الناس بما سمع عن رعاية اناث له دون غيرها إبان مرضه الخطير.

ولو أنه لا يتذكر أي شيء عن ذلك لأنه كان فاقدا لوعيه ومحموما وقد أخبرني الراوي أنه لم تصلنا أي معلومات تفصيلية عن حقيقة مؤكدة وهي أن اناث وحدها وبإنفراد كامل عنيت بساشاي لمدة أسبوع كامل أو أكثر في مرضه الشديد.

ولزوبعة داء عجيب حان الوقت للإشارة إليه قبل أن تداهمنا الأحداث. ذلك أنه دائم النسيان. وإذا لم ينفذ ما بصدده فورا نسي أمره حتى يتذكره صدفة علي طريقة الشيء بالشيء يذكر. ولا معني لأن يحاول أحدهم تذكيره أو يرغمه علي التذكر. وهي ليست حالة دائمة وإنما حالة طارئة تغشاه أحيانا بسبب مرض أخف من دبيب النمل أصابه حيث لم يكن يشكو من علة ظاهرة لذلك نراه نسى أمر تأجير اناث والربح المدرار وعوائد استغلالها الباهظة و.. و.. وما أرفع الآمال التي أتم بنائها و وقف ببابها منتظرا. نسى ذلك الربح الذي همس به لنفسه قائلا: "سأستجم في فيضه، وألقي بفوائضه، بمياه غسيلي، علي قارعة الطريق روثا مذهبا".

الآن شغل محل ذلك الحلم تلك الآراء والكلمات المعسولة بشأن ساشاي ومن ثم تهور لما سأله قضاعة: "بكم تبيع هذه الفتاه يا زوبعة؟".

دنا زوبعة من سيده متملقا وقال: "مولاي.. من؟"

قضاعة: "يا أعمى تلك البيضاء التي لا تحول عينيها عنى".

قال زوبعة في استعلاء كاذب: "عفوا مولاي، هذه وأيا منهن أقدمها تقربا للسيد/ الإله منظم التجارة وحافظ بالى من النسيان وراعى مالي بالزيادة لا بالنقصان راجيا منه أن ينظر في صك الفتى بعين المحبة والرحمة لعله يرضى ويقر عينا".

قال قضاعة وقد انتوى الذهاب عنهم: "هاتها في المساء، سأكون علمت نبأ السماء".

زوبعة: " السماء؟ "

قضاعة: " أعني السيد/ الإله. أليس هو وحده ساكنها؟"

إن قضاعة في تطويره لدينه لم يعد يفيء إلى تدابيره المتحجرة كثيرا، فلقد اعتمد على فكرة رئيسية هي حكمة السيد/ الإله ومشيئته. فإذا أضير مظلوم أو حلت ببريء نائبة أو افلح متجبر أو.. أو..

(كتب الراوي في ورقة بيضاء لم يعنونها، كأنما هي جملة إعتراضية وسط حديثي: " من أمثال تلك الأمور العبثية، غير العقلانية، المنفرة، الآخذة بخناقنا جميعا بعيدا جدا عن فكرة وجود عدالة سماوية تتحقق بطريقة أو بأخري. وان كنت أكرر دائما أن ما يصح في مكان لا يصح في مكان آخر وما ينفع في السماء لا يجدي في الأرض فتيلا.)

ادعي حكمة السيد/ الإله التي لا يحيط بقرارها بشر. وقد ساس سكان الوادي على ألا يتساءلوا في حكمته. لأنه لا يجوز أن يطلع عليها خلق يديه ولأنه جحود وتجديف. ولأنه السيد/ الإله الخالق بدا الأمر متسقا ومعقولا ولا غبار عليه إطلاقا، ورده الأخير على زوبعة هو من إبداعاته الصغيرة الكثيرة التي مازال يأتيها حتى أوشك يسد كل ثغرات البناء العظيم الذي وضع أساسه شراكة مع حورا. إن كان حورا جاء باللبنة الأولى والبذرة فهو من حرث الأرض وروى.. وان كان حورا كشف عن المستور الجميل – السيد/ الإله – فهو لم يبدعه وإنما كان موجودا من قبل. موجود ميت فسقاه والبسه وزينه و أخذ بيده إلى كرسي العرش. على هذا النحو كان يفكر قضاعة طول الوقت تكاد نفسه تأبى مشاركة حورا لما بات عليه من نجاح منقطع النظير.

مضى قضاعة مصطحبا معه الرجل – محدثه السابق على زوبعة – ورجع القوم يصعدون أبخرة اللغط كأن الغطاء المحكم على قدر الحرية انفثئ بعد طول غليان وكبت في لحظة توقع لم تصدق دائما من قبل.

ورجع كاروا برفقة نفر عتيد من الأجلاف كأنهم صروح مقارنة بأعشاش غيرهم من البشر. وسأل عن ابن الكلب – صخره. فأسرع زوبعة يجيبه دون تروي حانقا على كل شيء بسبب الصك وما أثير حوله من قبل رسول السيد/ الإله: " مشي فاذهب عنا، هيا.. يا لليوم الكئيب". وقبل أن ينشب صراع فرعي ويعلن استقلاله عن الجذر معتمدا على نفسه متنكرا لأصله.

وقبل أن يصرع زوبعة فرقا بعد انتباهه لغلطته العظيمة لما أطبق السكون إثر كلمته وتصاعدت أبخرة الهمس. حارة، حارقة. وارتفعت ضربات قلبه، المجهد والمسن، معها.

وبدا بكامل هيئته مسناً بضعف عمره عما كان عليه قبل كلمته الطارئة، تراءي للجميع قضاعة قادما من بعيد بعدما أحس عطشا لرؤية إناث، الفتاة الأثيرة.وخشي أن يحنث زوبعة ويغري بشكل أو بأخر بسعر ممتاز فيها ويبيعها لواحد من سادة الوادي. وها هو يضطر للتضحية، مؤقتا، بساشاي لأجلها.

والحقيقة أنه ما قدم بداية ألا ليعاين ساشاي بعد أن كلمه زوبعة ذاك اليوم. بيد أنه اليوم، الآن، أصبح يريد الاثنين الأولى لجمالها المسكر. والثاني لما رواه زوبعة عنه وتأكد له خطورة ذلك الشاب بعد ما قاله عن لغة له تكتب وعقد. وفكرة العقد بالذات خلبت عقله وأثارت في نفسه كوامن لا يعلم مداها غير سيده/ الإلـه.

وعندما تقدم أكثر ولمح كاروا وتعرف عليه وكان يعطيه ظهره تقدم نحوه وهتف به من وراء أكتافه مباشرة بتركيز هادئ مشحون بالقسوة مائل للانفجار: "ألم آمرك ألا تغادر دار سيدك حورا اليوم. أتتحدى يا ولد أوامر السيد/ الإله؟"

بهت كاروا وأخذه العجب. وارتعب. لقد شب على رؤية قضاعة برفقة الرئيس والرئيس برفقة قضاعة.

وربما شب على معاشرة قضاعة وتعاليم قضاعة أكثر مما شب على رؤية وتوجيهات والده، وهو ما كان قضاعة حريصا عليه، فيما كان كاروا على الدوام نافرا منه، خائفاً من مجرد تحديه بالنظر إليه. قال كاروا متلعثما: "إنما جئت.. جئت اشترى هذا الشاب".

وأشار إلى ساشاي. وأضاف بدون تفكير ملتمسا الحماية في سيده دون وعي: "بأمر سيدنا الرئيس."

فوجئ قضاعة برغبة الرئيس في شراء ساشاي. وفكر: " إذن فقد سبقني إليه".

" وقال بصوت مفخم خشن: " لولا أن السيد/ الإله نائما الآن، لسحقك في التو واللحظة كشعره في جوف تنور لم تري عين نارا مثل ناره واتساعا كاتساعه. هيا، خذ حاجتك واغرب عنا. اعلم انه لو لم تك لسيدك حورا عند السيد/ الإله حظوة كبيرة ومكانة رفيعة ويؤثره على كل الناس. ولأجل شفاعتي قرر السيد/ الإله.."

ضاق صدر كاروا فقاطعه بيأس: "كفي".

رُوع قضاعة. ولو أن هذه المعارضة الصريحة كانت قبل يوم واحد ما شعر معها بنفس الضيق والرفض، بيد أنه لم يظهر أي تأثر ملحوظ وقال بهدوء: "وأيضا، أمحو هذه السقطة من سجل حسابك عند السيد/ الإله".

بدا أن قضاعة بسبب اضطرابه الداخلي لرد كاروا المباغت عليه اغفل بغيته. غير ان زوبعة دنا منه متسائلا متزلفاً بقلق: " لعل السيد/ الإله قبل الهدية و.. اقر الصك؟".

قال قضاعة، يكيل له من نفس الكيل مضاعفا وهو يناوله الصك: "خذ. لقد قبل فداء الفتاة بالفتي." ثم أضاف على الملأ قاصدا: "وأنبأني أنك لم تدفع فيها شيئاً بل أخذتها إضافة على جملة ما اشتريت من القافلة."

لم يكن زوبعة يستطيع الكذب بإتقان أو لا يستطيعه على الإطلاق. فقط عندما يحدث قضاعة خليل السيد/ الإله. لأنه يعرف أن السيد/ الإله سيكشف له كذبه. ونسي أنه هو عادة من يبادر إلى إبلاغه بنصوص إسراره فصا فصاً. أما سر شراء إناث المجاني فإنه أخبره به من جملة ما قاله بخصوص ساشاي. لقد كان يومها مذهولا مما رأي من الفتي.وأراد الاستجارة بالسيد/ الإله فقال ما قال.

قال زوبعة حزينا مغتما: " أوه. نعم. لا أحد يستطيع الكذب على السيد/ الإله (ينادى) تعالي يا اناث (تقبل فرحة نشطه) فلتهنئي بقربك من السيد/ الإله العظيم ".

وبعد أن يدرجا – قضاعة و اناث – ويبتعدان بمقدار يزعق زوبعة على اناث: " ها... لا تنسيني. لا تنسي حسن وفادتي. اثني علي واذكريني بالخير لدن السيد/ الإله".

لا ترد اناث. وأشك أنها سمعت له مع أنها توقفت والتفتت إليه كما لم تري عشرات العيون المعلقة بها. بطيفها الآفل، ومنهم ساشاي، وكاروا، لكنها تعلقت بوجه قضاعة الذي بدا في نظرها سمحا إلى أبعد مدي. ووجهت حديثها إليه قائله بحب: "أشكرك يا رسول/ الإله."

قال قضاعة لا مباليا: "علام؟"

قال اناث في سرور طاغ كان يأخذ بمجامع فؤادها: "لقد استجاب الإله لدعائي وخلصني. لقد أنجيتني يا رسول الإله من هلاك محقق، وغرق في بحر الخطيئة مؤكد. كان بودي لو أصرخ فيك مستنجدة ولكن الإله حمل دعائي إلي قلبك. لقد خامرني إحساس قوي بالنجاة لما رأيتك تصلي للإله الواحد. الآن علمت لم انعقد لساني؟ إذ تدبر الإله غوثي وأكرمني. الآن فقط علمت أني بلا خطيئة."

نظر إليها قضاعة متفحصا ولم يرد. وينزلقان معا عن مرمي البصر.

شعر كاروا بغل وبغضاء تتأجج في صدره نحو قضاعة وهو الذي لم يحبه قط قبلا لما رآه يختلس منه وتحت عينيه اناث. اناث التي اشتهاها بجنون فكأنه نهش قطعة من قلبه. وبذلك احتدم عداؤه له بعدما ارتكن إلي صف صخرة من قبل، وتخلي عنه، هو كاروا ابن حورا رئيس وادي الرعاة.

سأل كاروا زوبعة كتحصيل حاصل: "بكم الشاب"؟ "يعني ساشاي".

قال زوبعة في اطمئنان مسترخيا: "بخمسة أكباش وعنزتين."

فغر كاروا فمه وارتج زوبعة لما صرخ فيه على الاثر: "ماذا؟ ماذا تقول أيها الخرف الأجرب. أنت نفسك. رأسك هذه لا تساوي أكثر من شاة حبلي."

تماسك زوبعة وهو يجيبه. وقد كان محقا في افتراضه: "وافرض. فلهذا الشاب رأس أجنبية خاصة. وسعر خاص. استثنائي."

قال كارو ا ساخرا. يقلد كلمته. يغلبه الضحك. ضحك كالبكاء: "استثنائي؟"

يدنو خطوة منه. ويشخط فيه فيتطوح زوبعة: "هه؟"

قال زوبعة متماسكا بصعوبة أكبر: " نعم. إن رأسه تمتلئ بالعلم والحكمة. وأحب أن أذكرك بأنك أخبرت رسول السيد/ الإله أن وجودك ها هنا، سبب أوبتك بعدما نهاك عن مغادرة بيت سيدنا اليوم رهن ابتياعك إياه. وأنت تعلم مولانا قضاعة والسيد/ الإله لا يطيقان الكذب. وإن اعتديت عليّ أخبرته "..

جربال: "إذن فهذا سبب ارتفاع سعره الجنوني وقلة أدبك أيضا. باللكهل المتسخ لم تنظفه السنون الطوال".

قال كارو ا كأي مسالم طيب: "حسن، أنزله. سأبعث إليك بثمنه على دارك".

ويبتعد ذاهبا. بينما يجلس زوبعة تحت الحجر يتمتم مع نفسه: "ثمن طائل ما حلمت به أبدا. آه، لو أني رفعت سعره عن ذلك مقدار عنزة. لا بأس هذه بركات السيد/ الإله بدأت تحل بي وبتجارتي ولا محيص أن هديتي إليه أعجبته، أجل أجل. بالتأكيد".

بعدما ابتعد كارو ا وعصبته استدار إلي زوبعة قائلا: " أليس لك في مقدم تحصل عليه الآن "؟

هرول إليه زوبعة متهللا كفيف البصرة:"نعم. نعم." ووقف أمامه مبتسما فحاذاه كارو ا قائلا: "خذ ".

وبذل له ركلة قائلا: "لا تستطيع أي والسيد/ الإله الادعاء بأنها انطوت على شح أو تعقيد أو خطأ في الإصدار أو التأويل. وبالمناسبة، هذه سوف تخصم من باقي الثمن. لقد أخذتها من كارو ا ابن الرئيس حورا العظيم".

ومضى كارو ا بساشاي ومن معه وعاد زوبعة إلى مكانه بجوار الحجر [illegible]: "إني أستحق. حتما أستحق. فلا بد أن السيد/ الإله علم أسفي على هديتي إليه".

وتقدم منه جربال في أسي وكأنه هو الذي تلقي الركله: "غلطتك. هل شاهدته يحمل في جيبه خروفا أو علي رأسه قرنين؟ يا لك من زب منتهي الصلاحية؟".

بينما ظل الباقون وقوفا كأجرام سماوية فقدت فلكها وفي انتظار تقرير المصير من رب الأرضين ذاهلين من السعر الجزافي الذي دفع في ساشاي. ذلك السعر الذي سوف يجعل من اسمه علما يتردد صداه في الوادي لزمن طويل. ليس لذات الثمن بل لأن ابخس ما يتسوق هنا في وادي الرعاة هو الرقيق. الإنسان. فهي علي أية حال بضاعة أو تجارة غير منتشرة، وبتعبير أدق، ليس لها سوق حقيقي. كما أنها ليست مربحة كتجارة البغال مثلاً.

أما نجاح سوق زوبعة الملحوظ فيُعزي إلي أسباب كثيرة غير نجاحه التجاري. فلكل رجل من مواطني الوادي عيال يخطئ في إحصائهم. ويتوه بعضهم أحيانا في التعرف عليهم بين غيرهم. وبالطبع فأولاد أولاده أولاده بالدرجة الأولى.

وليس للأب المباشر سلطة علي ولده مثل جده الذي يجمع بين يديه السلطة والنفوذ الاجتماعي والمالي وكل شيء. وهذا العرف من نظم حورا و قضاعة في المقام الأول. فالأب، الوالد، دوره معدوم علي أبنائه. ويجمع الجد الأكبر كل السلطات علي بنيه في يده وحده. وكلمة "الأب" تطلق عادة في الوادي على الجد.

قال الراوي: " وهم في الوادي لا يستنكفون الاعتراف بذلك النظام. ولهم نظام اجتماعي آخر، أكثر دقة، فإذا مات الأب الكبير، مهما تعددت أبناءه وأحفاده حل محله الذي اصطفاه من أبناؤه كنائب له أبان حياته وليس للعمر أو أي اعتبار آخر مهما كان، قيمة هاهنا حين يقرر الرجل الكبير ذلك.

وعموما فاختياره لنائبه أي وارثه في الطير والبشر والزرع والحجارة، لا تحكمه عادة إلا اعتبارات موضوعية تامة تعارفوا علي تسميتها بأحد شرطين إما القوة أو الحكمة أو كليهما معا، اللهم إذا

تدخل حورا و قضاعة في بناء القرار أو نقضه وقد حصل ذلك فعلا أكثر من مرة.

والرجل الحاكم على أبنائه و أحفاده هو الذي يوزع على أفراد أسرته الواسعة في حياته المنزلة والمكانة، وهي منزلة ومكانة معنوية بحته خالية من أي صلاحية لاتخاذ القرار الذي يظل الرجل الحاكم محتكرا إياه حتى الرمق الأخير، وهؤلاء المقربين إليه هم الذين يعاملهم بأبوة إلي حد ما أو بأسلوب تربوي يماثل في مجمله وظيفة الأب الطبيعية - هكذا نسميها اليوم في عصرنا المتحضر تجاه الأبناء.

أما الآخرون فيصبحون، له ولنخبته، عبيداً أو كالسوائم. إنهم النار لزوم الدفء، و الونس أحيانا.

ويمكن للأب الحاكم في أي وقت تغيير قواعد اللعب فيرفع من يريد ويحط من يريد بدون أمر مباشر يكفي أن يطلع الجميع بأم أعينهم علي نوع المعاملة فيعرفوا بأنفسهم وعلي الفور في أي منزلة بات ليلته.

والإماء التي يشتريها زوبعة تعامل معاملة هؤلاء علي حد سواء، وإن تكبر عليهن الأولون باعتبار أنهن وافدات عليهم، بحكم الأسبقية أكثر من كونهم أبناء الرجل الذي اشتراهن.

ولا تتقدم الأمة في منزلتها تلك كعبد ممتهن إلا أن تصطفي من قبل سيدها، ومهما أكبرها وقدمها لن تصبح في مكانة الأبناء الذكور الذي سبق وانتخبهم. ونادرا ما يبدل الأب الحاكم مساعديه وخلفائه.

ومن المهم أن نشير إلي أن الأبناء التي ترجع أصولهم إلي وادي الرعاة يضطهدون إماء زوبعة وأبنائهن بإملاء من قلوبهن فقط. وهذا السلوك العنصري الوليد، حادث جديد في وادي الرعاة.

وينتخب الأب عادة من أملاكه/ البشر أصحهم بدنا وأقواهم عضلا ليضمن عدم تمرده عليه وليتزود من عضلاته، ويزداد غنى وبأسا.

وفي الشهور الأخيرة، علي عهد حورا و قضاعة، لم يعد هذا الأسلوب مهما وضروريا فقد أعلن القطبان أن من يتمرد أو يعصي الأب الأكبر/ الزعيم/ الحاكم بعبارة أخرى، فلن يتوقف الأمر علي مجرد معاقبته من السيد/ الإله أو السيد الرئيس حورا بل سوف يطرد

من الوادي مغلول اليدين وحيدا أعزلا في مواجهة إله الصحراء ذي الوجه البشع بعد أن يكون قد ذاق من العـذاب الأمرين.

وإذا قورنت الحكمة مع القوة، اختار الزعيم القوة. أما حورا دون قضاعه وكافة الزعماء فاختار الحكمة لأن: "الحكمة تأتي بالقوة على نحو مائة وجه" قال حورا ووافقه قضاعة في الحال.

وأما الوليد الأنثى فلا قيمة له في وادي الرعاة، إنه حادث وكأنه لم يكن قبل أن يكون. ولعل الثغرة الوحيدة في هذا النظام، كما في كل نظام، أن يستطيع أحد الأبناء بذكائه وبالظروف السعيدة أن يتسرب رغم قلة حظه الجسماني إلى كنف أبيه – وهو أمر مخجل ومزري إلى أبعد حد في الوادي – وينتزع لنفسه المرتبة الأولى بجدارة. كما في حالة كاروا مقارنة بشقيقه شرنقة. فبالإضافة إلى كون حورا قد عينه منذ وقت مبكر نائبا له قبل أن يكتمل بناؤه الجسماني والعقلي جاعلا منه كبش فداء عنه ضد كل محاولات الانقلاب عليه. وجاءته هذه الفكرة/ الفخ بنتائج ممتازة في حينه ومازالت تؤتي بثمرها.

ومع هذا لم يلفظه حورا بل أسبغ عليه حمايته ورعايته من جميع النواحي. واستقر الأمر إلى حد ما بكاروا كنائب أول، وحيد ودائم، للسيد/ رئيس وادي الرعاة. بينمااستقر حورا إلى رأي قاطع: إن أي ماكر طامع في السلطة لن يجرؤ على الاقتراب منه، من رأس الحية، مباشرة. لابد أولا أن يقطع رأسها الشاب كاروا، واذن فطالما هذا الفتى حيا فلا خوف عليه وإنه لآمن. ثم أنه طور فكرته المفخخة إلى اعتبار أن أي مكروه يصيب نائبه هو نذير سوء على كون الامور لاتسير في خط مستقيم وان ثمة اعوجاجا أو شروخ ويتحتم عليه وقتئذ أن يتحرك بسرعة وفق خطه ينبغي البدء في إعدادها في الحال. ومع ذلك كان لكاروا دورا مهما في استكمال الدائرة على نحو مايرٌضى، فقد كان لأم كاروا التي لم تنجب سواه دورا فاصلا في تقديم ابنها وتربيته وتعليمه على نحو غير مسبوق في الوادي.

يكفي انها فكرت على هذا النحو وهي لم تفكر وحسب بل فكرت ونفذت ومنذ أن أعلن حورا خلافة كاروا له ضاعفت من رعايتها لابنها كملك قادم. يالها من امرأة. استطاعت هذه المرأة الواعية قبل أن تموت أن تخلف لكاروا أنصارا في كل موطئ قدم ممتاز في

الوادي. لقد كان حورا محقا في الولع بها وإيثارها في نفسه عمن سواها. وما كان ليتجاهل كل مافعلته ام كاروا كتوطئة لتثبيت أقدام ولدها باعتباره رئيس الوادي المقبل، ان هو فكر وأراد أن يخلف وعده ويمنح الخلافة لغير كاروا. ولكن حورا لم يفكر ابداً في التسليم الكامل لكاروا، فكان حريصا محترسا منه في الخفاء متابعا حركاته من آن لآخر.

إن الامهات – في الوادي – عادة لايتركن أولادهن البتة حتى يكبروا ولكنهم هم من يتركوهن بدافع من انفسهم أحيانا، و بسبب سحب الازدراء والافكار المتوارثة عن المرأة وماهيتها غالباً. لا الأم تشكو ولا الابن يتذمر، وكل ام تحفظ عن ظهر قلب عدد ابنائها وان لها من فلان ابن أو أكثر ومن فلان كذا، وهلم جرا. ويحظر عليها التصريح بذلك علنا. فالمرأة هي المصدر المعتمد لمن أراد في حفظ الانساب، ولن يفيدها الكذب وشهادة الزور طالما أن للأب امكانية انكار نطفته دون أدنى عواقب.

وعن سر نجاح تجارة زوبعة رغم وفرة ورخص البشر فقد بحثت في ذلك طويلا ولم أتمكن من نتيجة محدودة يرتاح لها قلبي، فاما انهم عدوه مظهراً تفاخريا في القدرة الشرائية، وإما لطبيعة سوق زوبعة الاجتماعية الخاصه أو لأسباب نجهلها.

لقد أراد أحدم في وادي الرعاة أن ينشئ مزرعة للرقيق ولكن القوم وأدوا فكرته وقاوموها بعنف اوشك أن يودي بحياته لأن الرجل – وكان من الأغنياء – لم يستأذن قضاعة أو حورا الثنائي القوي، أو أحدهما عندما فكر. "كيف جرؤ على التفكير منفرداً؟" هكذا اتفق القطبان متسائليين. كما أن الفكرة – الجيدة – لم تصدر عن أي منها ولهذا أسرعوا بوأدها دون محاولة قتلها بحثا أولا. وهم من أبادوا الفكرة من وراء الستار. وان احتفظ كل منهما بقوامها سالمة تحت أضلاع قفصه الصدري المملوء بالكنوز الأخرى".

قال برنل يائسا، وقد انجذب السوق للهدوء إلى حد ما: أما من أحد يريد الشراء؟ هذه الأولى...

يقاطعه زوبعة بلهجة المستغني: "والثانية عن يمينها لا أبيعها بأقل من كبش كبير والأخرى.. هذه، فقدرها في نفسي عظيم ولهذه أبيعها

بكبشين صغيرين. وتلك بكبش واحد. أما الأخيرة، هناك، بنت سيد الخروج، فلا أبيعها بأقل من ثلاثة كباش.

صوت: كفر بين، هذه أسعار ماقال غيرك بمثلها.

صوت آخر: جور. استغلال. هيا ياقوم ماذا تنتظرون بعد ماسمعتم؟

ومشى فتبعه الأخرون يتدافعون بالمناكب وبإعادة اللغط حول ساشاي وثمنه الخرافي. وخلى السوق إلا عن جربال وبرنل وزوبعة والإماء.

إن جربال برغم كل مشاكساته احب زوبعة بشكل غريب، حبا وتعلقا شاذا غير مبررا. وقال العلماء ببواطن الأمور في الوادي، أن سر ذلك يعود إلى أن زوبعة هو الوالد الحقيقي لجربال المنتسب رسمياً إلى أسرة أخرى.

ولكن هذا اللمز لم يصل لسمع أيا منهما ولا هو انتشر بدرجة كافية بين العوام الذي لايرون بينهما إلا عداء سافراً يصرحان به على مدار الساعة. ويدرك الوادي كله مبلغ حب جربال وحرصه على حضور سوق زوبعة الا زوبعة نفسه.

وزعق زوبعة في برنل:

قال جربال بحنان وهو ينفض وجهه ليفيق من ذهوله: "لكنهن يازوبعة لسن بأجمل الجميلات. أم إنه لندرة النساء المحليات؟"

رد زوبعه بغضب وشراسة: "من منكما تكلم؟ (يشير إلى جربال) أنت؟ (ثم يشير إلى جوراه مباشرة، في الفراغ) إنه أنت. أيها الدنئ الوغد، لقد تجرعت خبثك حتى الثمالة، لحسته. كيف تجرؤ على قول ذلك؟ (ثم يحول اصبعه لمهدد إلى جربال نفسه) اشهد أنت، أنت طيب (ويلتفت إلى الإماء برضى قائلا) ثم إن السيد/ الإله باركهن لأجل الفتاة الأخرى. ماكان اسمها؟ (يدهش) نسيت. (يأسف) تلك الفتاة، صاحبتهن؟

وازاء عيني جربال المهرج ونفسه الجذعة ومقلتيه الجاحظتين التي تبحلق فيه باستغراب شديد كأنه استهجان وادانه وماهي كذلك، استطرد زوبعة ضجراً، نافدا صبره، مخاطبا جربال نفسه: "تلك التي ساقها مولانا قضاعة أمامكما. لقد مر بها من بينكما. ألم تشاهداه؟

عجيب (ثم إلى جوار جربال) اصمت أنت. (والى جربال) انه يكذبني، لقد سئمت مكره. ياإلهي، لعله كان حلما (يستأنف متندما) بالطبع كان حلما، وأية حلم. هكذا كل جميل مآله ومثواه واحد. كان حلم.

تشرع برقات الذهول بالتسلل إلى وجه جربال وتفرخ على شعابه ناطقة بخيلاء وبأفصح لغة، معرفة بنفسها كزهر لا حياء فيه ولاتواضع، بلغة كونية وحشية، فتخوف زوبعة على نفسه وعنف مستأجره برنل: سر بهن لعنه السيد/الإله عليك. (ثم مشيرا إلى جوار جربال) هيا، إنه يتحرش بنا. (ولجربال نفسه) أرجوك، أنت، نعم أنت امسكه عنا حتى نذهب.

يتلفت جربال حوله عاجزا عن فعل أي شئ. ينتبه زوبعة إلى اختفاء ساشاي يطلم وجهه ويولول: "ويلتاه ويلتاه، واخراباه، فر اللعين، ياليوم الأسود المشحون بالخراب، أي خساره."

أخذ التأثر بجربال مداه و يهم متكلما بشكل هادئ: " زوبعة.. "

ولم يضف حرفا إلى الاسم المنادى به. فقد اندفع إليه زوبعة ممسكا بخناقه بصعوبة شديدة لفارق البنية العظيم بينهما: "انه أنت، الآخر (يشير إلى جواره في الفراغ) برئ، انت الذي سرقت عبدي. كلا، لن أتركك".

يضحك جربال لمحاولات صاحبه المتكرره الفاشلة للقبض على خناقه، ويرتج شحمه ولحمه ويلطمه بحركه خفيفه من أثدائه المترهلة، وهو يقول ضاحكا: " اطمئن. اولم يخبرك أحد؟ لقد قال العبد أنه باع نفسه بنفسه، وأنه ذاهب ليتسلم الثمن من مشتريه وسوف يعود، لاتقلق. ان سوء الظن سوف يوردك موارد الهلاك فانتبه إلى روحك أيها الصديق العزيز."

يظهر على وجه زوبعة التصديق والارتياح فيقرر بانتشاء ورضى:

" نعم أيها الشخص النبيل. اشكرك. لكم أرتاح إليك كثيرا. أما الآخر، فلا. وألف لا. "

جربال: تشكرني على ماليس لي فيه يد يا زبى.

قال زوبعة محاولاً التذكر. مشيراً إلى الفراغ: "هل رأيت الاثنين الآخرين هنا؟ كانا هنا منذ لحظات، لكم امقتهما. انهما يشبهانك كثيراً ولكنك لست مثلهما، أنت شخص فاضل وكريم، (يضيف وهو يهم بالرحيل) انتظر، أنا لم أتعرف عليك من قبل، ما اسمك؟".

يركض جربال بسمنته المفرطة متحاشيا ان يصيبه مس من الجنون. ويمشي زوبعه وراء برنل والعبيد. بينما تتعلق الأمة الخامسة، آخر من يختفي من على المسرح، بعيونها طول الوقت بجربال. يبدو أنهما اتفقا على شئ وأن جربال إما نسي أو تناسى.

المشهد الثاني عشر

نفس مكان المشهد الثامن بعينه. مقر الحكم، ولكن في شئ من الحداثة.

نشاهد في منطقة الحدث نسخة للتمثال المزدوج، حتى أن الراوى حين يلمحه يسرع إلى تمثاله ليتأكد من وجوده أولاً ومن تماثلهما ثانياً.

يدخل كاروا وخلفه ساشاي إلا أن الأخير يتوقف بالباب وكأن نفسه حدثته بشئ مفاجئ لا ندرى إن كان ساراً أو تعيساً.

يجلس كاروا أولاً ثم يلتفت إلى ساشاى بعد برهة ويأمره: " تعال. (سكتة) هلا ذكرتني باسمك؟ "

ساشاى: ساشاى، إسمي ساشاى.

كاروا: سا..شا..ى. (ويضيف بغير تعالى) الحق يا سا.. شاى، أنى لا أدرى كيف أخاطبك. لا أعرف كيف أعامل أمة ذكر؟ هذه أول مرة نشهد فيها بيع إنسان مثلنا. لا بد وأنها نهاية العالم. فالرقيق هنا، في وادي الرعاة، كما هم في أي مكان على وجه الأرض، هم النساء. صحيح أنهن يشبهننا، يدان وشفتان و.. ولكنهن لسنا مثلنا، إنهن عبيد. "

قال ساشاى في وقاحة فجة، بجفاء، كمن دعى إلى منتدى صلح جمع الوجهاء والكبراء على مأدبة عامرة، أكل وأكل وصمت ولما نطق سب المصلحين. فمنذ لحظة خروجهما من السوق وكاروا يتكلم و ساشاي يسمع، فيما لم يكن كاروا أثناء الطريق مهتماً بأى إجابة أو أية كلمات يمكن أن يحملها لسان غنيمته وثمة من يسمع لهما. وكان هذا أول ما نطق به ساشاى: " علمت فما الجديد؟ "

يكمل كاروا متجاهلاً غصته، أو مبتلعاً لها بغير ضغينة. فهما في سن واحدة تقريباً، وإن كان ساشاي يكبره بأعوام قليلة. وكما قال صادقاً أنه لا يدرى كيف يعامله.

قال كاروا: " أن يباع رجل ويشترى.. " (يهز رأسه إستنكاراً وعجزاً عن الفهم والتبرير) إنك تستطيع أن تستبدل واحدة من نسائك بأخرى عند أيا من كان من الناس أو واحدة باثنتين أو بثلاثة حسب الإتفاق و حسب ما لها من جمال ونسب وبحسب ما يخرج به اتفاق

الطرفين عموماً. ولكن لا يمكنك أن تستبدل ألف أنثى بذكر واحد. إلا أن المرأة العجفاء هي أسوأ العبيد قاطبة ويتم التخلص منها أولاً بأول. لا تندهش، فكما أن في الثمار تالف. أو بالأصح ما يتلف بعد حين. فهكذا النساء. وأحياناً، يدلس كبار الوادى وزعمائه فيدفعون ببعض نسائهم إلى زويعة ليبيعهن على أنهن أجنبيات. الآن أصبح من العسير أن تتعرف على عمر إحداهن وعلى صحة نسبها. ويلجأ بعض الناس إلى قتل النساء العجائز، عديمات الفائدة في يومهن الأول بعد الخميس. وأنا أتفق معهم في مذهبهم ذاك.

قال ساشاى بحرارة كأنما يبتدر المحادثة الآن فقط: هل يغير عليكم جيرانكم؟

كاورا: فيما ندر. إننا في هذا الوطن نعد أنفسنا ملوك الأرض قاطبة. وأقرب المناطق المأهولة، بخلاف البدو الرحل، تدعى " الخروج ". وقد ينفق الإنسان قبل أن يصل إليها بمفرده لا لطول المسافة، فهم على حدود أرضنا تماماً، بل لأن ما يحجز بيننا وبينهم صحراء مهلكة نسميها "سينا". لقد رأيت في السوق اليوم إبنة سيدهم. وليست هذه أول مرة نأسر منهم، ولكن الصيد كان ثميناً هذه المرة، وكما لاحظت فقد ابتعد عنها الجميع ولم يُقبل أحد على شرائها. وهم يعبدون إلهاً يسمونه "ياه". ويا للغرابة فإنهم يتحدثون عنه كما لو كان إنساناً مثلنا. إنما إنسان وحشى، بربرى. لكن من الواضح أن السيد/ الإله إلهنا سحقه. ومع ذلك ما فتئوا يعبدوه. إنهم قوم متوحشون برابرة.فيما مضى كنا نتبادل معهم الأسرى والغارات ولكنهم الآن يخضعون لنا عملياً.وإن كنا تمكنا من عقالهم فإننا لم نتمكن من ترويضهم كما ينبغي. لطالما أغاروا علينا وأذونا. وعلى كلّ فقد ولى عصر الغارات بعد أن يأست القبائل من النيل منا، والحين كلها تخطب ودنا.

أتذكر، آخر غاره شنت علينا كانت بعد مولدى بفترة وجيزة، وفيها هلك الرئيس غصن. وفى الحقيقة لم تكن غارة بل كانت حرباً.

ساشاى: كيف؟

كاروا جاءت قافلة حسبناها مسالمة كالعادة، وفاجأتنا برفع السلاح، متحالفة مع الخروج وبعض القبائل الرحل. أخذونا على

غرة. عربدوا فى الوادى. دمروا. وحين إنسحبوا مال قومنا إلى إنزال السلاح ولكن المغيرين عادوا مرة إثر مره مهاجمين بقسوة أكبر. فى الحقيقة، دمروا نصف الوادي وقتلوا خلقاً كثيراً ولكن سيدى حورا استطاع تجميع الناس وقتل زعيمهم. و بقتله مالت كفة الحرب لصالحنا وفى النهايه إنتصرنا عليهم نصراً مؤزراً. ومن يومها أدركنا حتمية التسلح والإستعداد فأقمنا على مشارف الوادى، فى خباء حصينة، رجالاً أشداء يراقبون القوافل ولصوص الوادى الفارين أو المطرودين و يحذرونا إن تسللت إحداها إلى أرضنا خلسة بغير تصريح من سيدنا الرئيس نفسه فنسرع إلى ملاقاتها قبل أن يتوغلوا فى أرضنا. كان رئيسنا آنذاك والد مولانا قضاعة، لقد رأيته فى السوق اليوم، هذا الذى حال بيني وبين أن أشرب من دم " الصخرة " الملعون. وقد هلك فيها مدافعاً عنا ببسالة غير معهودة. لم أرى بنفسى ولكنى سمعت الكثير عن ذلك، يكفى أنه ضحى بنفسه فداء للوادي وأهله.

سكنه

ما أظن السماء إصطفت ولده رسولا لها بيننا في الأرض إلا تكريماً لبلاء وبطولة أبيه وفدائه الأسطورى لنا بنفسه (ثم يضيف بإعتزار) غير أن سيدنا حورا يعتبر هو بطل الحرب والسلام وهو صاحب الفضل الأول والأخير فيما يشهده الوادي من نهضة منقطعة النظير فى كافة مجالات الحياة".

ساشاى: من أين تأتيكم القوافل؟

كاروا: لا أعرف بالتحديد. يقولون، من ورائنا، فيما وراء البحر الكبير.

ساشاى: أهى كثيرة؟

كاروا: كلا، ربما ثلاثة قوافل بالصيف، وواحدة بالشتاء. وهذه تأتى مرة وتتخلف مرات.

ساشاي: والسبب؟

كاروا: لا أعرف. إننا نتبادل معهم الكثير من تجارتهم. إنها قوافل ضخمة كأنها بلد بأكمله يهجر وطنه.

ساشاى: هل تقصدهم خصيصاً أم أنكم نهاية رحلتها؟

كاروا: كلا، إنها تمر بنا فقط، ولسنا بأى حال مقصدها.
قال ساشاى كأنما يحدث نفسه: "أى انكم تقعون فى طريقها ليس إلا.؟".
رمقة كاروا قائلاً باستغراب: هذا ما قلته.
ساشاى: هل تمر بأرضكم جيئة وذهاباً؟
كاروا: نعم أما أين تذهب فلا أعرف، إنهم لا يقولون.
قال ساشاى بفضول ودهشة: " من هم؟ القوافل؟"
كاروا: الكبار، مولاى قضاعة، سيدى حورا.
ساشاى: وماذا تأخذ منكم القوافل؟
كاروا: لا شئ. إنها تتزود بالطعام والشراب وأحياناً.. (يتوقف فجأة، ينتبه إلى الصك فى يده) هذا العقد، هل هو صحيح؟
ساشاى: نعم.
يحك كاروا أذنه بالعقد: " كيف قبلت أن توقع عليه؟ (ويضيف متعجباً) تبيع نفسك؟".
قال ساشاى بقلة اكتراث، أو لكأنه رضى: أبيع نفسى أو أفقدها؟
قال كاروا، ضاحكاً: هى على أية حال لم تذهب إلى أى مكان.
يرمقه ساشاى بإعجاب لأول مرة فيما تغير وجه كاروا وبدا عليه عدم الإقتناع والاستنكار الشديد. وقال ": ولكن أن تبيع نفسك، حريتك، هو أيضاً موت وربما كان موتاً أشنع".
ساشاى: لا، فأنا مازال صدرى ينبض بالحياة. وهذا مكسب لا يستهان به، و الظروف تتغير. (ثم يقول متملقاً) وسوف أكون سعيدا هنا فى خدمة سيدى الرئيس حورا، وولده النجيب كاروا.
كان ساشاي يود لو ينطقها صريحة مدوية عوضاً عن التمحك بالظروف: " وأنا سوف أستعيد حريتى – ما دمت حياً – وأصبح سيداً عليكم جميعاً يا أوباش. "
قال كاروا مؤكداً: " نعم. هذا من حسن حظك فعلا".
يتأمل المكتوب بنظرة طويلة ثم يرفع رأسه ويسأله فى استغراب:"كيف تكون لكم لغة مدونة؟ كيف تمكنتم من إمساك الكلام على رقيقة من الجلد؟ هذا لعمرى من أطرف وأعجب ما رأيت. إن

الإماء اللاتى يبيعها زوبعة وهى من أوطان أخرى، تتكلم لغتنا فلماذا إنفردتم بلغة خاصة؟ "

قال ساشاى بابتسامة ساخرة أحسها كاروا: " وماذا رأيت؟ "

رد كاروا متذمراً: " ماذا؟ "

قال ساشاى بجدية كاملة: " أعنى هل رأيت كثيراً؟ فهذا مطمح الجميع. "

كاروا: سمعت أكثر. تلكم القوافل التى لا تبرح تمر بنا، غاية فى العجب. فلأصحابها أردية شبه كاملة، وذوى سلوك غريب جداً. رأيت أحدهم يقبل يد أنثى. فما المغزى فى ذلك؟ لا أفهم. والذى أفهمه جيداً أن يُقبّل بعضنا يد سيدنا حورا لما يتمثل فيه من عظمة. فأى عظمة يمكن أن تتمثل فى أنثى؟ إننا نسخر منهم فى قرارة أنفسنا. ولكنك لم تجبنى على سؤالى حتى الآن؟

ساشاى: قال لى زوبعة إن لغتنا تشبه لغتكم القديمة، وأن العجائز لديكم يتكلمون بها. إن لغتي ولغتكم ذات أصل واحد على ما أعتقد، ولكن لغتنا تطورت بحكم تطور الحياة عندنا واللهجة تباينت. حتى ليخيل للمرء أنهما لغتان لا رابط بينهما".

ثم يضيف بعد فترة صمت قصيرة: " لقد حلل مولاي قضاعة هذا العقد وأقر بصحته، هل يعلم لغـــة بلادي؟

كاروا بعد تردد: لا أعتقد، ربما أخبره السيد/ الإله.

قال ساشاى مأخوذاً برعدة خفية: " أى إله؟"

كاروا: " سيدنا/ الإله الذى يرزقنا. إنه يرفرف علينا بجناحيه ويحمينا من أعدائنا. انظر، هذه خميلة السلام التي نستظل تحت سماها ما كان لها أن تكون إلا بمشيئة السيد/ الإله، منذ أن اهتم بنا واختصنا دون شعوب الأرض كافة برسول من عندنا وافتدانا برحمته فلم يصبنا أى أذى بأى شكل منذ أكثر من خمسة عشر عاماً. وها أنت ترى بعينيك طفرة التحديث التى حققناها. "

يرنو كاروا إلى وجه ساشاى ثم يسقط نظرة على كامل جسده ويأخذ فى ملاحقته بالأسئلة وساشاى يجيب بتحفظ واضح. بعد أن كان ساشاى هو الممسك بالدفة حتى الآن.

كاروا: من أين أتيت؟

ساشاى: أتيت من هناك، من الشرق.

كاروا: الشرق؟

ساشاى: بلى، حيث تشرق الشمس، دائماً. هناك بداية كل شئ.

كاروا: فأين ستكون النهاية؟

قال ساشاى بإهمال كمن يردد مسلمة طبيعية أو رياضية لا شأن له بها، حدثت وسوف تحدث، شاء أم أبى. أمام عينيه أو من وراء ظهره: لا شأن لى بذلك".

ثم قال بعد برهة، بشجن: ". أظنها ستكون هناك أيضاً. إن نقطة البداية فى الدائرة يتحتم أن تنتهى عندها نقطة النهاية. فنهاية أى شئ تكون على بدايته.

كاروا: فما إسم بلادك؟ وأين تقع؟

قال ساشاي بافتخار، بحنين، حالماً: " إنها في حضن النهر العظيم، مسجاة فى أمان تشبه الليث عندما يفئ شبعاناً إلى ظل شجرة وقت الظهيرة بينما الخلائق حوله تمور فى بحر من الدم و الدموع. إنها تضرب بقوة كل من تسول له نفسه أن يأتى ضدها منكراً. فأنى لسواها أن يلتحف بنصف ما تدثرت به من أمان وطمأنينة، من رخاء وغنى. هناك، حيث كل شئ بوفرة، متيسر، بسيط ورائع، يعشش الجمال فى ربوعها ويتخلق السحر فيها بسرعة فائقة، ورجالها أشداء صبورون.

والخير يعمر ديارنا ويغمرها دون إنقطاع، ودائماً هناك فائض، فالنهر عوده طويل. (بتأكيد كمن يذيع سراً) أصله يبدأ من السماء. ولهذا فنحن فى بلادى نقدسه.ومهما تأخر انقطاعه فإننا نملؤه بدموعنا وأرواح عرائسنا العذارى. إن بلادى تقوم على السفح وتمكننا من رؤية الشمس قبل أن تشرق. أما الجبال فتبدو كمخلوق غريب على أعيننا نحن لم نألف غير الخضرة ولون الصفاء. أه كم أحن إليها. وأشعر بشوق عظيم لرؤياها والاستحمام بالمياه السائلة بين ثدييها كما شغف الصبية بالتحليق حول المدفئات فى ليالى الزمهرير.

إن لبلادي ثديان يمكن أن تفطم بهما الأرض أحسن فطام فلا يعود بين أهلها تناحر أو عداوة. وإننى لأحس الآن بصورة جيدة، مشاعراً

مـا تـصورتها قط تكون نحـو بـلادى. آه يـا بـلادى الحبيبـة. إن بـلادى رائعة فى كل شئ كاملة فى كل شئ.

وهى أم المعمورة.

قـال كـاروا بعـد أن ذيـل تـأثيره بحنين ساشـاى، شـاعراً بـالغيرة: " أهى فى حجم وادينا العظيم؟"

ساشاى: بل أضعافها، عروس فتية متحضرة.

كاروا: أتود العودة إليها؟

قال ساشاى فى ألم: " أعود؟ بأى أشواق؟ "

قال كاروا مندهشاً: " ألا تفكر فـى العودة؟ ولكن. (متعجباً) مهلاً مهلاً. كيف جئت هنا؟ ومن أى طريق؟ ولماذا؟ وكيف لـم يـرك حرس الحدود؟".

وأضـاف كمـن صـحى فجـأة علـى وقـع أقدام غريبـة تجـوس حـول فراشه:

تكلم.. ما هدفك؟

بـرغم النغمــة الهادئــة البريئــة التــى تــدثر بهــا حــديثهما الــودى كصاحبين عتيدين، فـإن لكـل منهمـا هـدف واحـد فـى الحقيقـة: القـوة. والخطـوة الأولـى، المبتدأ الحتمـى والصحيح لطلب [illegible]
فأجاب كل منهما على أسئلة صاحبه كتوطئة صدق خادعه لمعرفـه مـا تهفو إليه نفسه ويلح عقله في طلبه في سلام وسهولة.

عند هذا الحد، وبعد أن فتح كاروا النار على ساشاى وبعد أن فتح ساشـاى فمــه وعـاد فأطبقــه دون أن ينطـق. يـدخل حـورا وبتلابيبـه قضاعة يتناجيان وما أن أحست الفرقتان ببعضهما حتى خيم الصمت من جانبيهما برهة، متبادلين نظرات حائرة.

وبينما هب كـاروا وصـاحبه واقفين توقـف حـورا وأوقـف مرافقه فـى مكانـه. ونظـر قضاعة إلـى ساشـاى بتمعن وتمحيص بينمـا جهر حورا غاضباً قبل أن يدنو منهما: "كاروا. تعال هنا. "

يسير كاروا إليه فيتبعـه ساشـاى الذى يتوقـف خلـف رفيقـه متواريـاً كلية عن حورا ويسأله حورا بضيق واضح محاولاً النظر إلى ساشـاى عن يمين ويسار إبنه باحتقـار صـريح: " من هذا؟ ولمـاذا يلتصق بـك هكذا؟ "

أجاب قضاعة بسرعة: " حصاد ابنك، خليفة سيدنا. هذا ما حدثتك عنه قبل قليل".

ويردف ساخراً:" انظر كم هو لطيف. وكم هو أليف ووديع رغم سمرته. إنه، لعمري، أجمل من بعض نسائنا. ولم نختلف؟ فما يشترى سوى الإماء. ولعل كاروا يرى فى هذا سبباً كافياً لإبتياعه إياه. نعم، نعم. إنى أخمن لك ذلك و أضمنه. على أية حال، لم يفلت الأمر من يدنا ونستطيع معالجته. "

توجه حورا بحديثه إلى كاروا نافراً إلى أقصى درجة، وغافلاً عن هذا التعريض الجارح بخليفته. وكان قضاعة قد عبأه ضد ولده فى إقدامه على شراء ساشاى قبل دخولهما عليهما. قال: "سأبعث فى طلب الملعون زوبعة. وسوف ترد إليه هذا الشئ. "

ندى وجه كاروا إمتعاضاً وتقلصت عضلات صدغيه بينما أردف حورا بتوبيخ غير صريح وقد لاحظ ما إعتور خليفته من تغير: "ماذا نفعل به؟ أيلد أم.. لا أدرى ماذا أقول؟

قال قضاعة هازئاً: " للمتعة. "

يكشف الكره أحياناً ألوية الحقيقة، ويعرى أغطيتها. بينما الحب أعمى كما يتداولون.

فعندما أخذ كاروا ينقم على قضاعة مرة بعد مرة بدأت تتكشف لعينيه حقيقة الرجل الفعلية، وحقيقة سلوكه فأصبح يرى ما لم يكن يتبصره بنفس تلكم العينان نفسها. وأصبح يترصد لكلماته فلم تعد الأقنعة الباسمة حيناً والساخرة أحياناً تستطيع أن تحجب لؤمه. أو تدارى نفاقه، وهو أحد أفضل قبائه على الإطلاق. وتوالى تداعى ذلك جميعه بسرعة هائلة.

علق حورا على تعليق قضاعة الهازئ كما لو كان يحدث نفسه بينما هو يخاطب كاروا: " لقد أوقعتني في موقف لم أقف مثله قط من قبل. "

وعندما صاح يستدعى شرنقة ليرسله فى إحضار زوبعة فوراً. ورغم أن كاروا وشرنقة شقيقان كما نعلم فإن شرنقة يعامل كاروا كما يعامل سيده حورا ويعلم حورا وحده أيهما أقل أو أكثر وطأة على قلبه.

قال قضاعة وهو يجلس دون إذن. ويتبحبح فى جلسته على غير العاده: " الواقع أنه غير ممكن. "

إلتفت إليه حورا بكليته، دائراً حول نفسه بزاوية ٣٦٠ درجه قائلاً كأنما ألف وحش يعدون في صدره: "ماذا قلت؟ أعد. لم أسمع جيداً".

قال قضاعة فى هدوء سمج: " فسخ البيعة".

فغر حورا فمه وقال ساخراً يغالب الضحك المر: " ولماذا يا ترى؟ "

قال قضاعة كمن يقرر حقيقة بسيطة، أولية: " السماء لا ترضى بظلم. ومن؟ زوبعة؟ أحد أشد الموالين لها؟ "

صرخ حورا منفعلاً بقوة وقد داهمته الكلمات كالجمرات: " ظلم؟"

ثم يدخل على قضاعة، نافرة عروق رقبته وهو يبحلق فى وجهه: " تقول السماء لا ترضى بظلم؟"

كان حورا يردد كلمة قضاعه ببطء مهدداً فأومأ قضاعة برأسه، ببرود وعناد صلب أن نعم.

صادر حورا غضبته ورفع رأسه مبتعداً عنه وقال بلهجة ساخرة محقرة مازحة: أى سماء؟ وأى إله؟ عما تتحدث؟

قضاعة: عمن لا حول ولا قوة إلا به.

حورا: أنا الحول والقوة.

قضاعة: سيدى ما أنا إلا رسول لجلالته، ولا أتكلم عن الهوى.

حورا: أه لم لا يتجسم لنا ويعلن عدم رضائه ورفضه. هيا.. ادعوه. ادعوه أيها الولد العاق.

أخذ قضاعة يرتل فى دهاء فصيح وعينه تتلمظ على وجوه الذين تسمروا في أماكنهم ينظرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. الرئيس حورا وقضاعة رسول السيد/ الإله على وشك الشجار على أنهم وإن رُوعوا لكلمات رئيسهم عن السيد/ الإله إلا أنهم لم يعتبروها تجديفاً أو كفراً صريحاً. كما عبر عنها رئيس الوادى بلسانه نفسه أنه هو القوة والحول: "اغفر يا إلهنا المجيد اغفر له.سامحه. اغفر له. سامحه. اغفر وسامح "..

واسترسل قضاعة في إستغفاره بصوت متباطئ حتى لم يعد يُسمع فحملق فيه حورا بمقت مقسع. واستسلم لهواجسه لحظات. وأهم ما

جال بخاطره أنه ليس من الهين عليه أن يضحى بصنيعة يده، فكرته الذهبية، إن هو عرّى قضاعة حالاً وفعصه كثمرة طماطم بين يديه القويتين. ولماذا؟ لأجل أى شئ؟ إنه لا يفهم.

ثم إنه صدح كطبول الحرب على قبر الجندى المجهول: "شرنقة".

قال شرنقة الواقف بالباب: " نعم سيدنا ".

لا يرد حورا. وبعد دقيقة دنا شرنقه من سيده حذراً وقال: "هل يأمرنى سيدنا بعمل ما؟"

قالها وهو يصوب نظرة خشنة إلى قضاعة وما فتئ حورا يرمق قضاعة السادر فى غيه أو فى أدعيته بعبارة أخرى غير مبالياً بما يجرى حوله غير أن الحقد فيها قد زال. وهو على هذا الحال قال كلمة واحدة رداً على شرنقة: " نعم ".

سـ ـ ـ ـكته

قال شرنقة بعد حين: " إنى فى خدمة سيدنا الرئيس. فليأمرنى. "

أدار الرئيس ناظريه نحو شرنقة، وعاد بهما نحو قضاعة فاصطدم بنظرة تحتية صفيقة من قضاعة الذى كف عن شعوذته وأطبق فمه.

قال مخاطباً شرنقة: "إذهب و.. (يتراجع مؤكدا) إذهب".

ولما غادر شرنقة إلتفت إلى قضاعة المنسجم مع روحه ونهض نحوه قائلاً بهمس: " لا تسر كثيراً. أعتقد أنه سيجئ بعد قليل. علام العجلة. إنه يفهم ".

وكان محقاً.

أراد قضاعة أن يعلق فى إلحاح إلا أن حورا الذى لم يزل واقفاً قبالته قال فى قطع جارح وشرارة الغضب تفرقع فى كيانه. فيما كان الموقف شديد التوتر على حافة الإنفجار: "إنتظر. إنتظر. ولا كلمة."

ثم يهدأ لما يستجيب له قضاعة الذي فتح فمه وأغلقه عدة مرات ويجر نفسا كأنه آخر الأنفاس: " كاروا... أستأذن أنت الآن".

ويرد حورا على شئ تبادله بصوت خفيض مع كاروا ": لا. إنتظر الآن. لا تذهب بعيداً. "

ربما كان كاروا يرجو سيده حورا أن يمكث معهما أو ان يرسل له شرنقة. أو ما لست أدريه.

قال كاروا خارجاً: " بإذن سيدنا (يتوقف في حيرة) هل أصحب ساشاي؟ "

حورا: ساشاي؟ ياللإسم المخنث. خذه في داهية.

ولما خرجا إسترخى في مجلسه على كرسي العرش. ثم قال وهو يضغط على مخارج ألفاظه كأنه يخنقها أو يستطعمها ملحاً وسكراً، كما يستطعم الكشاف لغماً: "والآن؟ بعد أن غاب المتفرجون..".

قاطعه قضاعه بسرعة: السيد/ الإله لا يغيب أبداً.

حورا: إنه اعظم المتفرجين على الإطلاق.

قضاعة: على أية حال غاب المتفرجون أم حضروا سوف اكسب.

قال وحورا محتملاً في صبر: " حقاً؟ أخبرني أولاً أين هي المعركة أخبرك إن كنت ستكسبها أم لا؟

قضاعة: هل يريد سيدي أن يقول أنه أيضاً يجهل طرفي المعركة؟

حورا: ماذا.. تريد.. يا.. قضاعه؟ أوجز؟

قضاعة: سلامة سيدنا، هل تعطينيها؟ (يضحك).

كان حورا، حائراً، في كل هذا، ولأنه لم يتبين موقع موطئ قدمه، أحجم عن رد أي فعل، حقيقي أو جاد، حتى يفهم وحتى يرى.

وإن شعر أنه يخاتل نفسه قبل أن يخاتل قضاعة بشأن الحديث عن المعركة وطرفيها، لقد علمته تجارب السنوات الطويلة في الحكم ألا يتسرع خصوصاً وأنه ينفرد بفعل باتر كالسيف ولا تجدي معه كل محاولات الإصلاح، وكم من أشخاص نثرهم في العدم وعاد يتمنى لو يستطيع أن يحييهم، بسبب تسرعه وسوء ظنه.

إن للحاكم عادة سلطة وقدرة نافذة يتوجب عليه الإحتراس في إستخدامها فما بالك برجل حاكم له قلب حورا. لذا قال جاداً جداً: "لماذا تعارض إعادة العبد إلى زوبعة؟"

قال قضاعة كأنه يتنصل حقيقة: " ليس أنا من يمانع. (يتردد قبل أن يتم جملته) يا حورا.

رد حورا عليه عنيفاً كعاصفة متشنجة متجاوزاً داهماً كل خططه التي كانت تترى في إستيلاد نفسها بعقله في مواجهة هذا الأمر

الغريب الشاذ الذى تنفر منه نفسه وترفضه ولو كان على سبيل الدعابة السمجة: "خسئت. سيدك حورا يا ولد. قم ".

ينتفض قضاعة واقفاً. وبينما يأخذ فى لم شتات نفسه بلا نهاية. يدخل شرنقة مهرولاً. قال وهو يقف إلى جانب قضاعة متأهباً للفتك به: " هل نادانى سيدى؟"

أشار حورا إليه بحدة كأنه يهش ذبابة فعاد من حيث طلع بنفس الهرولة والغضب وإن كان أكثر حيرة واضطراباً، فليس فى الوادى كله من يجسر على نرفزة سيده الرئيس. كما أنه لم يره قط من قبل ثائراً إلى هذا الحد.

على كلٍّ دعونا نبصم له بكفاءة القلب الميت حين يغدو حارساً. إن أى مواطن فى وادى الرعاة كان سيتردد حتماً فى القبض على قضاعة رسول السيد/ الإله بأمر حورا نفسه،على فرض حصوله.

وقد رأيناه كيف عرض أداء هذه الخدمة مراراً وتكراراً بلا أمر أو استدعاء.

واحتمال أن يكون على علم بالحقيقة. حقيقة قضاعة ورسالته الزائفة إحتمال وارد. وإن كنت أستبعد – على نحو غير مؤكد أبداً وبصفة شخصية - فى شرنقة بالذات الفارس النبيل، وفق حدوده هو، أن يلجأ إلى التجسس أو التصنت على سيده يوم كانا هو وقضاعة يتآمران على الحياة باختلاق السيد/ الإله. فأن يكون راضياً قانعاً بمنزلته الحالية المعقدة، محباً لها، فهذا أيضا إحتمال وارد.

قال قضاعة بعدما استعاد توازنه: " سيدى.. معذرة كبوة فرس على أرض مستوية وما على الفارس وزر".

يلاحظ تحفز حورا لهصره فيضيف: "هدئ من روعك يا سيدى. كنت أقول، لست أنا الذى يعترض. "

لا يبدو على حورا الفهم أو الإكتفاء بما سمع وهذا ما أكده بقوة: "ومن ذا الذى يعترض؟ من يستطيع؟ أنا حورا سيد الأرض جميعاً".

قال قضاعة بنبرة مفخمة: " أواه سيدى، إنه السيد/ الإله".

فأنذره حورا بلهجة لسان حالها يعلن بثقة أنه يفهم نطق جوارحه وكل ما عساها تنطق به وهى رميم ولكنه فى الحقيقة كان مندهشاً ومروعاً وفضل أخذ الأمر حتى نهايته بهدوء ما استطاع إلى ذلك

سبيلاً وسوف يتعين حتماً على قضاعة، وعليه، أن يبين جلية الموضوع.

إنه على أية حال، آمن. وليس ثمة مجال للمخاطرة. إن الأمر لا يعدو أكثر من مجرد مزحة سوداء. فليتريث قليلاً.

قال حورا: "جد قضاعة. أما هذرك السقيم فيمكنك أن تحتفظ به لنفسك و... لسيدك/ الإله فإن سيدكما حورا مستغن عنه ".

يجلس حورا. يسكن متأملاً هادئاً. وكذلك قضاعة.

سكته

حورا: إذن فالسيد/ الإله هو من يرفض. ماذا يريد؟ أقصد كم يريد من سيده حورا، خالقه؟

قضاعة: " أوووه. لقد كبر يا سيدى وأمسى من الموسرين. وعلى كلٍ فأنا أريده، مثلك، لنفسى ".

يخطف حورا الكلمة سريعاً: " لماذا؟ "

قال قضاعة متسائلاً في دهشة: " لماذا؟ ألست تطلب ذلك؟ "

كان قضاعة يعنى الجدية التى طالبه حورا الإلتزام بها. بينما فهم حورا أنه يريد الفتى، ساشاى، وهو ما كان يريده قضاعة فعلاً، وإن لم يصرح به حتى اللحظة.

حورا: أنا إن كنت أريده فلأن كاروا دفع فيه ثمناً يشق علينا طرحه أرضاً دونما إكتراث. مثل هذا الثمن ليس تفه بنى " أرمال ".(وهى عشيرة كثيرة العدد، عديمة الشأن).

قال قضاعة وقد فهم اللبس واستراح لوجود الباب مفتوحاً دون عناء طرقه ومن فتح الباب للص؟ صاحب الدار نفسه. "وطرق الأبواب مع حورا ترعد له قلوب السماوات والجبال " وكان في هذا يشير إلى الزلزال الكبير الذى ضرب الوادى مؤخراً ": نعم، ليس الأمر كما تتصور بالضبط ".

حورا: كيف؟

قضاعة: "لقد وصلت الرسالة إلى سكان الوادي وانتهى الأمر وأصبح العبد عديم القيمة لسيدى. فلنعتبره فوق هذا قرباناً للسيد/ الإله".

ثـم يـضيف فـي إشـارة إلـى ثمنـه الغـالي: " قربانـاً يليـق بالـسيد/ الرئيس.

حورا: ماذا؟ هل جننت؟ منذ متى تقرّب حورا سيد الوادي لسيدك/ الإله؟ هل نما له لسان صار يطالبني، أنا سيده، بسداد ديونه.؟

قضاعة: " ليست كثيرة على سيدنا الرئيس ".

قـال حـورا بغـضب ": أنـا مـن يحـدد قيمـة مـا عنـدي لا أنـت ولا سيدك/ الإله. وبأي مناسبة أهب جلالته تلك المنحة الضخمة".

قضاعة: لـيس أكثـر مـن درء لـبعض المتاعب تتكـاثف مربـدة فـي سماء سيدي، السيد/ الإله وحده يراها.

حـورا: أو تكررهـا ثانيـة؟ حـسناً، اسـتغنينا عـن خدماتـه، ولـيصب علينا لعنته. عن أي إله تخاطبني يـا هذا؟ إستفق. هذا الإلـه لا شـيء. أنا نفخت فيه من روحي. أنا ربه.

قال قضاعة صادقاً، وكأنه يذود فعلاً عن الحق أو الحقيقة المطلقة. وربما صار السيد/ الإله حقيقة من وجهة نظره. فلسنا نلمس أو نرى إلا رسولاً حقيقياً يدافع عن دين حقيقي وتتألم روحه وهو يرى ويسمع تجـديف العبـاد بـربهم وإجحـافهم لحقوقـه علـيهم. ولا يـسمم جـو هـذا المشهد إلا مسحة الخبث التي تتراقص بعيني قضاعة.

قـضاعة: " يـا الهـي.. رحمـاك. تقـول لا شـيء. الـسيد/ الإلـه، لا شـيء؟ خدعـه؟ دميـة؟ وعبـد... لا، لا، لا أرجـوك يـا سـيدي لا تقـــل ذلـك مـرة أخـرى، رجـاء. هـل نـسيت؟ كنـت أول مـن بـشر بقدومـه. أمامـك وادي الرعـاة، سـله عـن حقيقـة النبـأ. يبـدو أن سـيدي لا يتـابع المنـاخ وإنمـا الطقس، ولـيس القمـر كالـشمس وإن كـان بـدراً. أنـت يـا سيدي الذي تتفكه الآن بغير مناسبة. وتقدم على حماقة لا داعي لها. "

حورا: أي غرور وأي صلف؟. لقد خبلت ولا شك.

بينما يوشك حورا أن يفقد صـوابه وحلمـه قـال بلوعـة: " بنـي. تنبـه إلى كونك تستعمل ورقة وهمية رسمناها سويا. هذا الإله يا هذا خلقتـه لـك بيـدي هـاتين منـذ ثمانيـة عشر عامـا، وبكلمـة مـن فمـي جعلـت لـه قدمين سار بهما بين الناس. هل نسيت؟ أم هل يتحتم علـيَّ أن أذكرك بذلك على نحو آخر؟"

قال قضاعة: بل أنا الذي ينبغي أن أذكرك إن السيد الإلاه حق وحقيقة لا يأتيها الباطل من أمام ومن خلف. وحين..

قاطعه حورا: "و حين ينشأ نزاع بينه وبين أسفل الخلق في وادي الرعاة فلن تدب في نفسه حلاوة الروح دفاعا عن نفسه وعن شرفه ".

ثم أضاف وهو يجذب قضاعة بيده للالتفات إلى كلمته: " أو عن سدنته وعبيده. (ثم استرسل بتفخيم). لولاي أنا سيد الوادي ما كان ليصل إلى أرض وادي الرعاة. لولاي أنا ما كان ليصل إليها سالما غانماً. وعلى الأقل، بدون هاتين اليدين (ينشرهما على أطراف رموش عين قضاعة الطويلة) كان خُلق مشوها ليبقي في حياته كلها ناقص الأهلية. يكابد الوحدة و النكور.

قضاعة: لا ينكر السيد/ الإله فضلك عليه. (ويخفض صوته هامسا). وهذا الاعتراف بيني وبينك فقط. أن لك فضل ميلاده الميمون. ولكن عبيده هم روحه وهم حصونه. أري أنك أخطأت التقدير أو خانك التعبير. ولو أنك أخطأت في الحساب الختامي وليس في المقدمات مع أنك الذي وضعت المقدمات والبذرة..

حورا: وتقولها باستصغار؟ البذرة هي الأساس. هي التي أنتجت النبتة وسبب الثمرة. ومن يستطيع أن يزرع شيئاً يعرف أكثر من سواه كيف يقتلعه. وأيضاً من جذوره.

قضاعة: لا. بذرتك كانت وهمية ولكن الأغصان والجذع والثمرات حقيقية. هل أقول لسيدي سراً. إن أوراقها خضراء طول العام ولا يمر ببابها الخريف أبداً.إنني الراعي، مولاها. وما كانت لتثمر إلا بعناية قضاعة وعمل واجتهاد قضاعة الدائب ليل نهار ولمدة ثماني عشر عاماً.

حورا: أنا ذرتك تروى وتحصد. ذرتك تقطمه وتنسبه إلى صلبك.ركبناه سوياً فركبته وحدك. وقسماً برأس سيدك/ الإله إن لم تشد اللجام وتضبطه لأقطعه. كما أحييته بكلمة من فمي. بكلمة من فمي أيضاً أميته.

سكنة

حورا: " علام نختلف"؟

ثم قال ناظراً في نن عين قضاعة: "هل تود أن تضع فيما بيننا بذور الشقاق؟ أهذا هدفك؟"

قضاعة: سيدي. إن بعض الناس تسيطر الوساوس على أدمغتها كأنها الحقيقة. ومن الأفضل أن يعودوا طبيعيين. لأن الوهم لا يؤذى إلا صاحبه. إنني أطمع دائماً في حسن تدبير سيدنا وتفهمه الصحيح.

سأل حورا منهياً الأمر كله بكلمة: " كفى ".

قضاعة: إذن سوف تعطيني الفتى؟

قال حورا في ممالأة: " لهجتك تريبني فيك ".

قضاعة: يريبني أكثر إحجامك.

قال حورا ساخراً: تفضل أنت الآن يا خليل السيد/ الإله سأفكر في الأمر (ثم بقوة) اذا تنتظر؟ انهض.

ونهض قضاعة على عجل. برغم كل شيء ما زال يخشى بأس حورا. ولكنه عاد فجلس في محاولة لإسكات صوت خوفه أو تحديه

قضاعة: ولماذا ليس الآن؟ هل يخاف سيدي على خليل السيد/ الإله منه.

رد حورا عليه بفتور زاهداً إذ كان يوماً شاقاً عليه من مطلعه. في الظهيرة ورطه نائبه. وحكاية الأنثى البيضاء وذيولها. والآن العبد الأجنبي وما يثار حوله.وأتمها قضاعة بهرائه الغريب وكأنه جن. وكأنهم جميعاً جنوا. وفى الصباح شجار بين " جربال " " وبرطس " حول أمة.. ولو كانت بنت سيد الخروج؟ تلك الأمة التي أسرها حورا ليثبت للخروج شيئاً محدداً. ولكنهم، أهل الوادي أنفسهم، حين يتشاجروا عليها ردوا السهم إلى نحره. أنّى لهم ان يعرفوا وأن يفهموا؟

قال حورا رداً على سؤال قضاعة: " شيء كهذا. سأنظفه وأبعث به إليك ".

قال قضاعة وهو يقف استعدادا للذهاب: " سيدي حورا. لا تجعل الفكر السوداء تدير رأسك الغالية عندنا جميعاً وعند السيد/ الإله خصوصاً. لا تجعل واحدة منها بعينها تغوى سائر أفكارك البيضاء. سأمضى. وأرجو ألا ينكس الليل أجفانه وليس بداري ساشاى".

قال حورا ساخراً: لن تغرب أشعة شمس هذا اليوم التي يمتطي متنها السيد/ الإله. ولن يفتح الدجى أبواب جنده العتيدة. ولن تقول العصافير لأفراخها: تصبحين على خير. إلا وذاك الساشاي بين يديك. هل ارتحت الآن؟

قال قضاعة محتاطاً لهاجس ألم صدره. وهو أن يرسل له حورا رأس ساشاى. فمعروف عن حورا أنه إذا أقدم على إنقاذ غريق فإنه قد يضطر إلى إتمام غرقه بذات بيده إن أزعجه بالإلحاح في طلب إنقاذه: "يعلم سيدي أن معبد السيد/ الإله حمى وحياة وليس جدثاً بأي حال لا يجوز احتوائه على ميت أبداً".

يتجاوز حورا عن خب صاحبه وعلة الفهم الخاطئ لما يسمع. فساشاى لا يمثل له فعلاً أي قيمة إنه وإن دهش لإصرار قضاعه على طلب العبد إلا أنه لم يجد مبرراً واحداً يعينه على الفهم والإدراك لحقيقة الأمر.

ويستأنف حورا مقلداً نبرة صوت قضاعه التي اتخذت مع الوقت طابع الوقار والخشوع. لقد انبعث الصوت محيياً نفسه بعد رقاد طويل: " بما أنى عادة أغلق أبوابي قبلك فلن أقدم على ذلك وحياة إلهنا العظيم الذي أمسى إلهك وحدك والفتى عندي. (ثم يتهكم ولعله يهدد) وليت السيد/ الإله يرضى عنا بعدئذ ويسبغ علينا من نعمائه. "

ابتسم قضاعة ابتسامة زاهية وقال خلالها: "ليحمك السيد/ الإله ويثبت سلطانك يا.. سيدي. وداعاً":

وأضاف الكلمة الأخيرة كأنما يودعه قبل السفر النهائي. متلفتاً حوله. ملقياً نظرة وداع على كل ما وقعت عليه عينه. أين نظرته الآن من تلك النظرة التي استقبل بها نفس المكان قبل ثمانية عشر عاماً.

حورا: وداعاً.

وبسرعة شرع حورا رغم تعبه وإنهاكه، يغمغم. تطوف الهواجس بعقله في غير احتشام. شلال. وظل لبعض الوقت يحدث نفسه، لا نفهم شيئاً مما يقول. وأخيراً أخذت خيالاته وخاطرات نفسه المبهمة تتضح وتسطع قوالبها.

قال حورا محدثاً نفسه بانفعالات شتى: " تلميحاتك كثيرة يا قضاعة. ما الأمر؟ حقاً إنها متباينة ومتنافرة غير أنه ساقها بعصا واحدة. كأنها روافد متضادة تتجمع وتتلاقى جذورها في نبع واحد بعينه فتتجانس كلحاء الليمون على ثمرته. تجرأ. تكبر. استعظم. كان كل حديثه ينضح ومنذ اللحظة الأولى بآيات الكفر وتضع بأصرتنا. أتراه يجحد بسلطتي؟ الملعون، لقد هددني بأن كنت الذي بشر برسالته. معه حق. ولكني سأجد حلاً. إني واثق من ذلك. ولكن ما الداعي؟ هل ألبه على أحد؟ ومن يكون؟ من يقف وراءه؟ مؤكد أنه ليس وحده. هل يتوهم أنه صار قوياً ونداً لحورا العظيم أم أنه صار فعلاً كذلك؟ فمن غربل قوته وأفرزها بعد كل هذه السنين؟ ماذا يقصد بقوله أن السيد/ الإله حقيقة. ها ها ولكنه لم يتورع عن أن يجاذبني أطراف الحديث كأنما يجابه عدواً ويلتمس من أين يقرعه أو يقمعه؟ هل هذا صحيح؟ صار يبادلني اللحظ باللحظ كعدو له؟ فلماذا؟ وصوته؟ روحه؟ لقد تغير فيه شيء ما. كان يجلجل باللامبالاة والغطرسة. هذا انتحار. ألم يتنازل عن الحكم بإرادته؟ ألم نصنع سوياً إلهه المزعوم؟ ألم يكن هو المستفيد الأول منه؟ ولكن هذه الرائحة، رائحة التعالي والعصيان. بمن؟ لكني تركته يفرض ما أراد. لم يلح كعادته حين كان يريد شيئاً. لم يكن ناعماً كعهدي به. بل أمر. وأنا رضخت له. صحيح أني أردت ذلك ولكنه تجاهل أن يمدح وأن يشكر كعادته. ولماذا ساشاى هذا بالذات؟ هل اتخذه حجة ليفجر بيننا الانقسام؟ الغبي. لا يعلم أن قوتي سر قوته. و أن بقاءه هو شخصياً بل وبقاء السيد/ الإله رهن بقائي.

ولكني أفلت عليه الفرصة ولم أنله مراده. حسناً فعلت. ولكن، كان يجب ألا أعجل بانتهاء حديثنا ولو أغمي عليَّ من الإجهاد. الكلب. إن إفنائي لأسرته العظيمة في خلال سنوات لم يجهدني كما أجهدني حديثه المراوغ في ساعات.

هل أضحى قادراً؟ هل تضخم نفوذه واتسعت أرضه؟ ومتى؟ أفي يوم وليله؟ أمس كان يلعق ما بين أصابع قدمي. فماذا حدث؟ أم أن سلطتي هي التي تفسخت وشاخت؟ إن ما حدث ليس أمراً طبيعياً أبداً. ولا هو انفلات. ما هو السر؟ أيطمع في السلطة؟ الحكم؟ ولكن بمثل

هذه الوسيلة المكشوفة وبمثل هذا التبجح؟ وفى البيت الكبير. قصر الحكم؟ كان يعلم منذ البداية أن بمقدورى ألا أتركه يخرج على قدميه. فعلى أي شيء أعتمد على إمكانية عدم حدوث ذلك؟ كيف توقع – وصدق توقعه – ألا أفرمه؟ هل فهم أنى أحتاج إليه في منصبه الذهبي – صنيعة يدي؟ هل كان مخمورا؟ لا. كانت أنفاسه باردة ورائحة المسك التي يتعطر بها أزيد عن المعتاد. أين اللغز فى كل ذلك؟ ماذا تريد يا قضاعة؟ وما هو هدفك؟ لعله كان مرهقاً أو غاضباً على كاروا وما وقع بينهما من سجال قبل ساعة واحدة من لقائي به ".

وختم حورا فوران عقله وقلبه قائلاً: " على أية حال، ما حصل كان مجرد إطلالة وجس نبض على شيء خطير قادم ونذير شؤم ".

أخذ حورا فترة مضى خلالها يرطم مع نفسه مجدداً. يستحضر الأحداث والوقائع ويستنتج ويحلل ويعود يلم جزئيات وحوادث من الماضي والحاضر، من الواقع ومن المنتظر وقوعه ومن كل حدب وصوب وبعد أن تم له ذلك تأملها جميعاً من عل وتأكد له أن ما حصل كان جس نبض على مولود كريه لم تشرق عليه الشمس.

قال حورا، محدثاً نفسه من جديد: " أيمكن أن أعتبر هذا جميعه سوء تفاهم ومسلك لم يعنى إلا للوصول من خلالها وليس لذاتها؟ ألم توجد زمر في الوادي فعلت مثل هذا؟ ومثله مثلهم لم يزد عليهم إلا في مخاطبته الغريبة معي. ولكن يبقى السؤال: الوصول إلى ماذا؟ أتراه يود لنفسه الكلمة الأولى؟ القمة؟ رأس الحكمة؟ وليذهب حورا الباسل إلى أسفل درك. لقد ذكر صراحة أن ثمة خطر يتهددني. نعم. هو ذاك. "

وتمادياً مع هواجسه والفوران الذي أخذ بمجامع روحه قال: " ما العمل الآن؟ ثمة نية شريرة مبيتة. (وأضاف بعد لحظات). هل أكتفي بأن أضعه تحت الملاحظة الدقيقة. أم ألجأ إلى الحل الأيسر منالاً وأزرو روحه فى العدم؟ لعلى مخطئ أتحامل عليه فأخسر حليفاً بارزاً دون مبرر. فأندم ساعة لا يفيد الندم ".

وكخلاص أخير لإسكات عقله المضطرب الهائج ينادى على شرنقة ويبادر بسؤاله قبل أن يتم مثوله التقليدي بين يديه: " هل كاروا فى الخارج؟"

شرنقة: نعم سيدي
حورا: ابعث به.
وقف كاروا بين يديه ومن خلفه ساشاى الذي توقف صدفة وراء كاروا الذي جمد فجأة في مكانه فأرغم ساشاى على مثل ذلك ولم يتزحزح أيهما للحظات.
اغتاظ حورا لطلعة ساشاى لما جره عليه من متاعب حتى الآن واعتبره وجه نحس فصاح كأنها توسلات مخنوق لعنف انطلاقها المخفق، فخرجت برغمه كالفحيح. معبرة تعبيراً نموذجيا عن شخصيته: "أو صار ظلك ". (يكح. يقوم صوته) " فمتى تفطمه؟"
يضيف بكآبة بصوت خافت: "إن ظله كئيب عكر. لا أدرى لم لا أشعر بالارتياح إليه. وعلى كل، فات أوان العذل والعتاب. لقد اختاره قضاعة إلى جواره في خدمة السيد/ الإله".
قال كاروا باندفاع وعصبية: " ماذا؟ غير معقول. محال."
حورا: ماذا تقول يا ولد؟ هل جننت؟ هل جننتم جميعاً اليوم؟
قال كاروا متراجعاً بعين كسيرة مرغمة: " سامحني يا سيدي أتوسل إليك سامحني. إن ساشاى متميز وصاحب فكر. ليس كأي فكر. "
ثم وجه وجهه نحو ساشاى وهو يضيف: " وإنه لعليم يبز أعلمنا كافة (ويعود إلى حورا) وهو بذكائه، وعلمه بأشياء كثيرة عظيمة، نافع ومهم إلى درجة لا يمكن تصورها. إننا نحتاجه هنا، معنا، أكثر مما يحتاجه قضاعة. وعنده السيد/ الإله وهذا يكفيه. ولو أننا – كما أتصور – تمكنا من تعلمها، ومن حرفية صناعتها ومن ثم احتكارها لحصلنا على قوة أنّى لغيرنا بمثلها. إن وجود ساشاى إلى جانب أي عصبة يميل بميزان القوة لصالحها ميلاً حسناً. وعلى الأقل. فوجوده إلى صفنا يعزز مركزنا، فضلاً عما له من منافع لا حصر لها مستقبلا.
قال حورا متسائلا بدهشة: " مركزنا؟ "
يستأنف كاروا ذو الوشب العالي والذي لم يسمع إلى تعليق والده بسبب ثورته المفاجئة في الخطاب والاستغراق الكامل في مضمون كلماته: "إن ساشاى قوة فاصلة بيننا وبين أي مركز للقوى في الوادي

تفكر في الانقلاب علينا أو إحراجنا. بل وأستطيع أن أقول حتى ولو كانت كلها مجتمعه فإنه يظل قوة فاصلة بيننا وبينهم".

حورا: ما هذا الهراء؟

كاروا: إنه قضاعة. سوف نقضى عليه بساشاى. وسوف ندعك أنفه في دم قلبه. (بعد لحظة) لا بد أن هذا نفس ظن قضاعة في ساشاى. ولا أدرى من أين أو كيف توقع ذلك فيه؟ ربما أحسه لما علم أن لبلاده لغة تُكتب، أو ربما أنبأه السيد/ الإله. لهذا يريد أن يستولى على غنيمتنا وفى نفس اليوم، حتى لا نجد وقتاً لإكتشاف ما سبقنا إلى اكتشافه وبالتالي يرجح به ميزان قوته ثم يتجبر علينا. آه. تذكرت ألم يحدثك يا سيدي يوماً ما عن أهل بلاد بعيدة متقدمة جداً لها لغة مكتوبة. هذا.. ساشاى جاء من ربوعها. ألم يفشى لك برغبته في إرسال بعثة تتعرف عليهم. ترى أحوالهم وتنقل إلينا ما يشاهدون عن سر تقدمهم؟ ألم يكن هو صاحب الفكرة وهو وحده الذي إنتقى أفراد البعثة. الداهية. لم ينس ولم يفته ذلك؟ "

ما ذكره كاروا صحيح إلى حد ما فمنذ عدة سنوات سمع قضاعة قبل حورا بتلك البلاد الجميلة الغنية المرفهة القوية من خلال اختلاطه المبكر بالقوافل أيام هروبه وعزلته بعد مقتل الشيخ زمن فأراد أن يبعث سراً بجماعة من اخلص أتباعه اختارهم بعناية فائقة لتستكشف لحسابه الخاص سر تقدمهم ويأخذ عنهم علومهم.

كانوا تقريباً على وشك الرحيل بعدما أتم تجهيزهم بأفضل ما استطاع. ولكن حورا عرف بالأمر في اللحظة الأخيرة وقبل أن يحدث مالا يحمد عقباه تسرب إلى قضاعة بدوره أن حورا قد علم بالأمر فأسرع إليه يشركه في المسألة كفكرة ممكنة التحقق وليس كأمر أتم التجهيز له وإعداده. وبالفعل اشتركا معاً في إرسالها. وكانت لحورا الكلمة العليا في اختيار أفرادها وليس كا ذكر كاروا.

ذهبت البعثة ولكنها لم تعد أبداً ولم توجد أي شواهد على ما حدث لها بعد مغادرتها الوادي.

والأرجح أنها ضلت الطريق أو هلكت فى مفازاته فرغم تجهيزها الممتاز إلا أنه ظل تجهيزاً متواضعاً لرحلة تطوى مئات الأميال بواسطة الحمير والجمال وبعض الثيران.

كما أن روادها كانوا أصحاب مؤهلات الحكمة وليس القوة وعبثاً حاول حورا أن يجد من يجمع بين الحكمة والقوة العضلية المدربة عسكرياً. كأن كلا القوتين تلفظان بعضهما. فلا يجتمعان لأحد أو شيء.

ومالا يعرفه كاروا أو قضاعة أن حورا أرسل سراً بعثة تقصى خاصة به ولكنها مثل سابقتها ذهبت ولم تعد ومات الأمر عند الرئيس حورا عند هذا الحد

ولكن قضاعة أراد أن يتحايل على حورا بعد أن انفتح له باب آخر فطلب تصريحاً – جوبه بالرفض والبتر الكامل من حورا – بأن يبعث برسل من عنده تدعو إلى سيده/ الإله في البلاد المجاورة وفى تلك البلاد الغنية على وجه الخصوص فيؤمن للوادى عليهم سلطة معنوية تنعكس على قوة ورفاهية الوادى. كما أن السيد/ الإله ليس كأى إله مما يعبدون.ويكون هدفها الحقيقي الخفي – الذى لم يعلنه لحورا - نقل سر تقدمهم وكل صغيرة وكبيرة عن حياتهم.

وظل قضاعة دائماً بعد رفض حورا يأمل فى تحقيق ذلك ولكن خوفه من افتضاح المحاولة جعله يراوح مكانه بين الأمل والفعل وهكذا كان ثاني اثنين دائماً.

قال حورا بدافع شكلي لا أكثر وبلين واضح. وقد أدهشه أن يكون هذا الشاب الواقف في حضرته وكأنه واقف يتلقى العزاء فى نفسه، من تلك البلاد عينها. وأن يكون رأسه قابضاً على كنز ما.

قال حورامخاطباً كاروا بألمعية: "تنبه فإنك تتكلم عن رسول السيد/ الإله".

أكمل كاروا وهو يكاد يبكى مرارة: " سيدي فلنجرب أن نرسل له أي إنسان آخر وإن كانوا عشرة وإن كانوا مائة بدلاً من ساشاى وســـــوف تتأكد من ظنوني. قضاعة يا سيدي يعلو ويسمو ويعذبني شعور طاغ أنه يعمل للإطاحة بحكمنا سراً. هذا المارق العاصي".

حورا: حسبك. كيف تقول ذلك على قضاعة خليل السيد/ الإله.

كاروا: وهل أمره السيد/ الإله بسحقنا؟ كلا. السيد/ الإله لا يفعل بنا ذلك. ولكنى أقول أن قضاعة يسعى لمثل ذلك. سيدي، أنا لا أدعى

عليه إنما أنقل حقيقة تسعى في خفاء بين أقدامنا ولن يطول بنا الأمر حتى نتعثر بها.

حورا: إن العدو لا يُعرف كعدو إلا أن يشن حرباً أو يغتصب حقاً. فأي حق أغتصبه منك قضاعة؟ وأي برهان لديك؟ أم انك تطلق التهم جزافاً. وأنت تعلم عقوبة الإدعاء بلا بينه؟.

ارتبك كاروا أول الأمر وكأنه يدعى حقاً ولكنه يكذب في طريقة إثباته والحقيقة أنه ليس كذلك ولكن الحديث كان يسوقه باستمرار لأرض جديدة وكشوفات جديدة. قال: "هذا إحساسي. ألم يجعل للناس ميقاتاً يحجون فيه إلى الشجرة المباركة بعد أن كانوا يطنونها وقتما شاءوا فتزاحموا عليها أكثر من ذي قبل. ألم يمنع الصبية من ارتيادها؟ ألم يجعل الصلاة حكراً على المعبد. وليس في كل مكان كما كانت؟ وفى مواقيت ثابتة؟ قال أولا: " مرة في اليوم " ثم عاد فقال " مرتين مع الشروق والغروب". فأول ما يطفو على ذاكرة الناس بعد صحيانهم: المعبد. وآخر ما يودعه المرء من الحياة لاستقبال الموت المؤقت:المعبد. وما المعبد وما قضاعه إلا شئ واحد. ألم يختص لنفسه ما ترى من طقوس ومراسم؟ ألا يسعى دوماً إلى تعقديها وتكديسها فتغلوا وتندر؟ وما أخاله إلا مبتدعاً لها من عنده ولكنه ينسبها زوراً وبهتاناً إلى السيد/ الإله. ألم ترى إقبال الناس الجامح المتزايد دوماً على ارتياد مصلاه ومعبده. وهذا الأخير، ألم يوشيه بزيف المظهر المؤثر؟ ألم يقتطع لنفسه من السيد/ الإله سلطات متفاقمة الأثر يوماً بعد يوم وأصل بعضها كان لنا كالقضاء؟ ألا يستحدث كل يوم بدعة جديدة؟ فإذا صار على هذا الدرب من التطوير بهذا المنوال سوف نجد أنفسنا فجأة طافين على السطح ولن نعود كما كنا رواسي في الأرض".

قال حورا متأرجحاً في فتور. هو من كانت تسعده على الدوام هذه الأعمال التي عددها كاروا وما كان يتردد عن عمل أي شيء يعطى السيد/ الإله زخماً وتمكن له في أرضه الجديدة. لماذا إذن نفس هذه الأعمال تقبض صدره الآن؟

حورا: يا كاروا هذا كله يلقيه تحت أقدام السيد/ الإله وفى سبيله.

كـاروا: ومـا الفـرق؟ إنهمـا واحـد. ومـا الـسيد/ الإلـه إلا سـلاحه وعتـاده.مـا معنـى إصـراره علـى الزعامـة إلا شـيئاً يخـامر نفـسه الوضيعة. ينمو ويتكاثر. شيئاً أدمنه فصار جزءاً من تلافيف روحه لا يحيد عن طلبه قيد شعرة. هل أبلغ سيدنا الرئيس بكل هذه الإصلاحات أو التشريعات. أؤكد لكم أنه لم يفعل.

قال حورا صادقاً، بغضب: " نعم، فعل ".

إن حورا يسمع مدعياً اهتمامه القليل بأمر يراه عادياً والحقيقة أنه كان يزن كل كلمة وكل معلومة. تارة بقشرها، وتارة بعصيرها.

ولكن كاروا الذي يتم الكثير من وراء ظهره خصوصاً علاقة سيده حورا بربيبه السابق قضاعة ما زال يلح بأفكاره التي هي على حق من زاوية بعينها، فاستطرد يقول بأسلوب تقريري أو بقنوط: "واضح أنه يعمل بهمة قوامها المكر والخديعة ليمد رقعة أشعيائه هنا وهناك ويكون له في كل شعبة ذراع وفي كل فج عيون. بكلمة منه نجد أنفسنا مشلولين ومقيدين عن فعل أي شيء. هذا إن لم نكن مدرجين فوق أرض لزجة بدمنا كلما وقفنا وقعنا وحتى إذا أردنا الهروب إنكفأنا على وجوهنا في موطئ قدمنا".

قال حورا بهدوء قلق، متبرماً: " على رسلك كاروا. الحقيقة أن كل ما سردته جال ببالي مثله وأكثر ولكن ما الدافع؟ هل كان يحلم بمثل ما هو عليه من رفعة وجلال؟ إن الجريمة التي لا هدف لها مخلوق شانه ومن العسير أن نصنفه."

كاروا: إن من يعمل ضدي دون أن يتخلل عمله ما للتجارة من شئون فهو عدوى.هذا هو المنطق الصحيح الذي لا أعترف بغيره يا سيدي.

قال حورا مهدئاً: عموماً سآخذ في الاعتبار كل ما ذكرت. ولكني اعتزمت منحه فرصة أخيرة ومنح أنفسنا فرصة لمراجعة حساباتنا معه ومع غيره. هذا وعدي أنا حورا لنائبي ووريثي الوحيد كاروا. وإن ظفرت منه هنة واحدة صغيرة كانت أو كبيرة حاربته بكل ما هو ممكن ومستحيل، جهاد من يزود عن قوته الوحيد. مادة روحه. هل اطمئن قلبك الآن؟

قال كاروا حائراً يائساً: " سيدي، إنك لا تعطيه فرصة إثبات ونفى حسن النوايا بل تهبه مجاناً فرصة قضمنا في الصميم وهو حتماً فاعل ما في ذلك شك".

قال حورا نافراً بضيق واضح: " حيرتني. من أين لك كل هذه الثقة؟ "

يصمت كاروا برهة ثم يضيف في حسرة بالغة: " آخر فرصة؟ إنها لكذلك فعلاً. فما عاد له إلا أن يضرب ".

ويضيف كالذي بعد كثرة تدخلاته الطيبة لترميم البيت الآيل للسقوط يترك البيت ينهدم على رأس أصحابه: ". تلك فرصة خطيرة غير مشروعة ولا معقولة ومضيعة للوقت".

ولأول مرة يقتحم ساشاى الحوار فيسأل كاروا بهدوء، متنبهاً يقظاً إلى كلماته التي تؤشر إلى حضارته: "لم يا عزيزي؟ تصور أن كل احتمالاتك صائبة وأنه انقلب على سيدنا الرئيس وعلى ذلك إبدأ في التصرف والاستعداد. تصرف كما لو كانت بينكم هدنة. فهو على أية حال لا يقف بجنده على بابك. وبادر إلى معرفة أهم شئ فوراً لمن يدين الجيش بالولاء؟".

صرخ حورا في قوة: " إنكتم أنت ".

يمتص ساشاى الأمر المتعجرف بما يعنى – احتمالا – أنه وَطَّن نفسه على مثل هذا التعريض الجارح. غير ان كاروا يُحوِّل وجهه إليه بامتنان وقد إعتراه هدوء نسبي كأنه أحس أن ثمة آذاناً غير الرمل والريح تصغي إليه بعد نباحه الطويل قائلا: "كل شيء يعوض وكل الوسائل متاحة. الدنيا بأسرها باقية تمنحك الفرصة لتعويض الفاقد، أي فاقد، إلا خسارة الحياة. ومن يتحتم عليه الحرب وهو في قلب سدنة الحكم فليس يوازى ذلك ولا يساويه أن تحارب وأنت خارجها مهما كان الخطأ أو المخاطرة التي يتطلبها الفعل الذي نريده فوراً ".

ويعود إلى والده بإنذار دعائي واضح: " لآخر مرة يا سيدي أذكرك أن هذه الفرصة لن تؤيد شكاً أو تبطله بل ستقتله. (ويضيف بيأس) طبيعي. لأننا ساعتئذ لن نكون هنا كي نشك أو نشكو."

تأكد كاروا أن لا فائدة. لا فائدة من تغيير موقف سيده أو تليينه فسأله بغرض التنفيس عن جرح صدره ليس إلا: " هل بلغ سيدنا ما جرى في السوق اليوم؟ "

حورا: ماذا؟

يبدأ كاروا هادئاً ثم لا يلبث أن يستشيط: " تشاجر معي أحد السفلة فما كان منتظرا من مولاي قضاعة حليف سيدي؟ ركن لصف عدوي. أدانني ووعد بمحاكمة عادلة. والحقيقة أنه كان يتوعدني".

حورا: " لا. لا تبتئس. كاروا. "

وأضاف مبتسماً لأول مرة بعد وقت طويل من المناقشة العصبية. " السيد/ الإله لا يقضي ضد أبناء الرؤساء. إنك متحامل عليه جداً يا كاروا ولا أفهم لماذا؟ المسألة ليست بمثل هذه السهولة".

كاروا: لكنه أهانني. وهذه واقعة حدثت فعلاً. وإهانته عار علينا جميعاً وعلى كل من طرق بابنا يوماً. كيف لا يتصور سيدي أن ما فعله قضاعة شر مستطير؟ لقد سمح.. (يتوقف لشيء ما ويغير مجرى حديثه). من يدري؟ لعله يتحرش بنا عمداً ويستفزنا فنتهور عليه بعمل سريع طائش أو غير مدروس ما دام قد أكمل من ناحيته عدته وخطط فيضرب عصفورين بحجر. يدمرنا، وفي نفس الوقت يظهر للوادي على أنه البراءة المعتدى عليها. ونحن؟ وأسفاه، نحن نيام نرفل في نعيم الغفلة.

قال حورا في قلق. يحاول أن يطرد صداعاً ألمّ به: " هل رآكما أحد؟ اعني، هل شهد أحد ما قاله؟

قال كاروا بدهشة المسيح من صالبيه: " بالطبع تم ذلك على مرأى ومسمع من نزلاء السوق جميعاً. ولن يطلع الصبح إلا ووادي الرعاة من أقصاه لأدناه قد علم".

ويضيف بحرقة: "لقد حرض الأوغاد النكرات على أن يقتادوني بأمره رغماً عني، رغم وعدي ووعيدي لهم، حتى ساحة القصر. ولم يكن سيدي موجوداً لسوء الحظ".

الحقيقة أن ما قاله كاروا عن الوعد والوعيد ليس دقيقاً تماماً فقد كان لصوت تهديداته جلبة عظيمة طغت على سواها. أما حورا الذي

كان حاضراً لبعض تدريبات الجنود فلو كان موجوداً بالفعل لعادت رؤوسهم تزين السوق في نفس الساعة.

ونهض حورا ثائراً كالبركان: "اللعين. حكي لي هذا كله بصورة مناقضة تماماً. قال أنك أحرجته أمام الغوغاء. وأنه لامك على انفراد ودفعك بإرادتك إلى مغادرة السوق تجنباً لتصعيد الموقف ومراعاة لشخصيتك الإعتبارية كممثل عني. وكان مصراً ألا أفاتحك في الموضوع كي.. "

يتوقف لوضوح الباقي أمام عينه، ويردف مهدداً: " إن كلامك كاروا لو صدق. (ويتراجع بغيظ) لكنه محال. الكلب. عمد إلى إطالة الطريق كي يشاهدنا أكبر عدد من الناس فيقولوا من ثم: حورا لا يبالي بإهانة كاروا. ومن استطاع إهانة كاروا؟ قضاعة؟ الكلب. ربيب نعمتي".

ويعود إلى تردده وإلى إستكباره بالاعتراف أنه خُدع وغُرر به. وممن؟ من قضاعة. صنيعة يده. فقال: " ولكن عيوني لدنه لم تلاحظ شيئاً غير معتاد ".

كاروا: ومن أدراهم المعاد المعتاد عما سواه؟ كيف يميزون بين لونين وهم جاهلون إسم كل لون لا سيما واسم اللون طبيعته؟ ثم إنه لا يرد على ذهنهم مطلقاً ما نفكر فيه وخصوصا بالنسبة لقضاعة دون سائر الناس بصفته رسول السيد/ الإله. إنهم يجمعون عشوائيا المعلومات والأخبار.

حورا: هذا هو المطلوب. نحن الذين نقوم بغربلتها وفرزها وتقويمها.

كاروا: هذا ليس من الصواب في شيء، سيدي. إن لي ساعة أقنع سيدنا بمخطط قضاعة القذر، الشرير، بإسلوبه المتحكم الملتوي، فهل ينتظر بعدئذ أن تدرك جواسيسك أو يخطر بأحلامهم هذا الأمر الذي نخوض فيه. ينبغي سيدي أن تنبئ إحدى عيونك البصيرة الموثوق بها عند قضاعة لتكون على بينة من أمرها وتتبصر ما ترمي إليه. إنهم في صورتهم تلك كالبهائم تطيع وتعطي لبنها بلا وعي. ولكنها لا تعطي أجباناً وزبدة فكيف يتسنى لها أن تلحظ وتربط بين الوقائع.

حورا: ليس مطلوباً منها غير ذلك. فنحن من نقوم بصناعتها.

كاروا: سيدي. عفواً، ليس كما تفعلها هي. هي التي رأت وسمعت. والخبر لا يستقل عن بيئته وظروفه التي ولد فيها. " ويضيف بإستغراب بالغ: "إنها لا تسأل مطلقاً. وأنا يا سيدي أنصح، ونحن حريصون على الكتمان، أن تتصل هذه العين بك مباشرة دون المرور على " عفريت " كما أني لست من أنصار جمع المعلومات لمجرد جمعها، كم وحسب، وفيما بعد سأشرح لسيدي فكرتي تلك.

كان ساشاى يتأمل كاروا وينصت له معجباً. وأراد أن يتكلم لكن حورا سحب طرف الكلام من لسانه: " معك حق. كل ما قلته صحيح. "

يلتفت كاروا إلى ساشاى وقد أحس به وباهتمامه بمتابعته قائلاً: "ودليلنا على حسن تأويلي ما سرى اليوم بالسوق وفاح ريحه. آه ما كنت أخال هذا يحدث هل أتاك عفريت بخبر عنه؟."

يتنحنح حورا محرجاً وهو يقول همساً: " قد يأتي به مع الغسق. إنه موعد لقائي به عادة".

قال كاروا في زهو: لا. لا. لا يغني التسخين والحفظ شيئاً عن الطازج الحار. وكثير مما يبيت يتسمم وليس أسرع من أخبار السلطة قابلية للعطن والتعفن. وهذه نص فكرتي عن عدم جدوى جمع المعلومات سلفاً، وكما.

قال حورا بفضول: ما الخبر؟

كاروا: الناس سجدوا له.

يحملق حورا منبهراً بطريقة لم يفعلها من قبل قط غير مصدق ومستنكراً وخائفاً للحظة لم تمر به مثلها في أقسى الظروف طيلة حياته.

حورا: لقضاعة؟ سجدوا لقضاعه؟

كاروا: وبعدها ذاع الخبر فكل يلقاه ساجداً أو يأمره هو بالسجود للسيد/ الإله أمامه.أي له.

صرخ حورا في كاروا بعنف: " لقد سألتك يا جحش: لقضاعة؟ "

كاروا: نعم.

وأحس حورا بإضطراب عنيف في ضربات قلبه، غضب وخوف مع دهشة ولم يسعه، ربما رغبة في التغلب على صدمة قوية غير

متوقعة، إلا أن ضحك بوحشية حتى شخب فشرب جرعة ماء وقال: " وماذا بعد؟ يالها من حكاية. "

قال كارو ا فى جدية وقد هدأ باله قليلاً لما يشغله: " بل وماذا قبل؟ أما زال الشك عائماً فى قلب سيدنا؟ "

قال حورا بعد لحظة متجهماً مقطباً: " هذا مما لا يستخف أو يستهان به. ولكن كلا. الآن فقط فهمت السر وراء تخبط وغرور قضاعة اليوم. هذه هى إذن الأرض التى ارتكز عليها والعمد التى تسندها فى خطابه الوقح (يضيف فى غم مبهما الكلمة عن قصد) معى.. معه حق".

ثم يطرد همه مستعيداً حيويته: "حسناً أخبرتنى بسرعة".

ويضيف كما لو كان يناجى نفسه: " ما أستغربه وأرثى له أولئك الناس ملكوا رجاحة العقل ورجاحة الخبل. إنى أتساءل هل لو كنت واحداً منهم أو لم أشارك قضاعة صنع ال.. (يمسك ويقف فوق الكلمة) هل كنت أسجد له؟ ها ها. لا أدرى. ليس عندى الجواب المقنع أو الذى أطمئن إليه".

كانت كلماته تقطر سخرية موجعة وكان فى أمس الحاجة إلى كلمة كالتى قالها ساشاى فى كلمات مهزوزة بعد صدمته الأولى: " هل يفسح سيدنا صدره لى؟ "

قال حورا باطمئنان أو كما الشارد: " قل. "

ساشاى: سيدى إن الناس مستويات وأفكار. مستويات وأفكار متدرجة وأعظمهم فكراً أعظمهم مكانة خصوصاً إذا ما إلتحف بها دهراً. هذا ما علمتنى إياه التجربة فى بلادى. وغير ممكن أن يكون سيدى واحداً منهم. يجب أن نعترف أن للناس بداية ونهاية، سمو وغى واحد. نفس البداية ونفس النهاية. وكلهم يخشى الخروج على المجموع خشيته من مواجهة الجحيم وحده. وكأن لسان حاله يقول إذا كان يتحتم على أن أذهب إلى الجحيم فلأذهب إليه مع الآخرين. وأيضاً سوف لن يدرس الجحيم مع الآخرين فى سبيل نعيم مجهول يكون له وحده. لهذا كان سيدنا الرئيس واحد. ورسول السيد/ الإله واحد. والسيد/ الإله نفسه واحد.

قال كاروا بحماس وعصبية بعد أن لمس رضا سيده على خله ولو أنـه تعذر عليـه فهم كلمـة سيده الأخيرة ومن ثم كلمـة خليلـه وتعليقـه عليها: " لاجدال سيدى. من المحال أن تسايرهم ضلالهم وهداهم. "

قال ساشاى متشجعاً أكثر محاولاً فرض صوته بشكل هادئ: " إن قضاعة غير فطن بما فيه الكفاية إذا ما كانت فوقه عشرات الأعين وحولـه عشرات الأذرع فمن المستحيل أن يحصل على هذه الكفاية ولكنـه بمجرد أن استشعر القوة الغائبة، إذ لا بد كانت الفكرة واردة من قبل فى ذهنه أو كان يترصدها.

ينتبـه حورا بكليتـه إليـه ويبادلـه ساشاى الإهتمـام نفسه: " ألغـى إنكفائـه وإنطوائـه علـى نفسه ولـم يتوان عن ان يمد قدمـه بغلظـة فـى وجه سيدنا فى أول فرصة بل وبعد ساعات من حادثة السوق. وهنـاك شـئ أخـر لا يجـب أن يهـون سـيدنا الـرئيس مـن شـأنه. فربمـا كـان إحساسه المفاجئ بـالقوة المنشودة أفقده حرصـه ولن يلبث أن يحاول التغطيـة علـى موقفـه. وقد ينـدفع إلـى الناحيـة الآخـرى ويقـوم بعمـل متهور وأحمق نتيجة إحساسه بنشوى القوة المفاجئة.

علق كاروا متحمساً: " هذا صحيح."

ساشاى: وإن كنت أرجح ألا يقدم على أى عمل الآن. فوراً. هذا إذا صح ما قيل عن مستوى ذكائه وفطنته.

كاروا: إذن فهو سيبدأ منذ الآن فى إعادة ترتيب بيته بحساب القوة الجديدة التـى ظهرت لـه علـى غفلـة وتحالفت معـه. وإذن فنحن نكـاد نكون قريبين من بعضنا ومعنا نفس فرصته. ومع هذا فذلك كلـه ليس أكثر من كلام نظرى. يتحتم علينـا أن نسرع إلـى تقليم أظـافره فـى مهدها.

ساشاى: هذا صحيح، سيحالفنا الحظ كثيراً لو أن قوتـه لم تفارق نفسه وبيته. لو أنها لم تصبح الآن من نزلاء الزحمة.

تنحنح حورا وهو يتطلع إلى وجهىّ الشابين بسعادة وقال: " حسناً يا ولدى المؤدب قضاعة، علىّ أن أؤدبك من جديد بإسلوب جديد ".

كان حورا ينحو فـى تنشأة قضاعة ومـا زال عجينـة طريـة طيعة التشكيل منحـى مـا هو صـالح فعمد إلـى محاولـة وقف نمـوه الذهنى بعزيمـة لا تخـور، وبجهد بركـان. ولقد إستفاد من روايـة الأمـة التـى

نقلها لقضاعة فيما بعد، كما سبقت الإشارة إليه، باعتباره رسولاً لنفس الإله فوجهه نحو السماحة والفضيلة وغرس فى نفسه الخوف من إتيان الشر. وكيف أن الشرير يذهب ضحية شره مهما طال به الأمد وقبل أن يحين حينه، لا مفر.

كان حورا يمزج ذلك بأساطير خرافيه وهميه عن قوى تسكن البسيطة، تحت الأرض، طعامها التراب، وغائطها النار، ترقب موت الشرير دون غيره من الناس لتنهش روحه وتعذبه إلى مالانهاية له من الزمن ولا من وسائل التعذيب.

وإذا قُبض أحيته من جديد لتمارس عليه دورة التعذيب مرة أخرى وأخرى بلا نهاية.فيجهش الطفل بالبكاء ولا يجد من يمسح عن خده دموع خوفه. وأورث قضاعة فى النهاية خوفاً فطرياً لم يتغلب عليه قط رغم كل المعارك الشرسه التى خاضها ضده بحقد مقدس.

وأحياناً كان حورا يزعم له أن الإنسان الخير يقابل الإنسان الشرير مقيداً بغير قيد منظور بعد موته ومازال يضربه بإستمرار وبلا توقف حيث تمنحه قوى السلام الأرضيه القوة والجبروت لعمل ما يريد حتى يطلب المذنب منه ذليلاً والدماء تنشع من جسده محل العرق، العفو والرحمة. وللإنسان الخير أن يقبله أو يرفضه فإذا لم يغفر له ظل يضربه إلى مالا نهاية، لا هو يتعب ولا الشرير يقبض. وعلى الخير أن يسامح الآخرين إذا أخطأوا فى حقه فإنه يأخذ هذا الحق مضاعفاً بعد موته.

ويسأل حورا قضاعة الطفل: " ماذا تريد أن تكون يا فتى؟ "

يقول قضاعة بينما ترتعد فرائصه: " أريد أن أكون خير. ولكنى لن أضرب أحداً قد مات إلى مالا نهاية".

لقد أراده حورا رخواً عفيفاً وتمكن من تحقيق مأربه إلا قليلا فأسره قضاعة التى إستغرقت منه السنين الطوال حتى قوض دعائمها كانت دون قصد أو إنتباه، بحكم إختلاطهم به، تضعف من أثر حورا وتلاعبه فى نفس الناشئ الصغير الغض. وفوق هذا كان حورا يعلمه بقسوة فخافه أكثر مما خاف كل قوى الظلام مجتمعة فى شخص واحد. ولم يزل قضاعة حتى قابل الشيخ زمن والد صخره يعتقد أن

العالم نور وزهور. وأن الشر شوكة شاذة لا ينبغى قصفها بل يلزم تجنبها وحسب. لأنها – ببساطة – شر.
والتعرض للشر شر آخر مثله وقد يفوقه بل ولا يمكن التعرض له أصلاً إلا بشر أكبر. ونتذكر فى هذا الحين أن كاروا كان طفلاً بالكاد يتكلم حضر إتفاق قضاعة وحورا الإستراتيجى بيد أنه الآن نسى ذلك تماماً أو بالأصح ما كان يدرى عما يصنعان أو يبحثان. والغريب أنه وقتئذ لم ينشغل باى ألعاب وظل يراقبهما ويستمع لهما دون أن يتحول إنتباهه عنهما قط. وإستطاع قضاعة بفضل إختلاطه المبكر بالقوافل أن يستعيد نظرته الواقعية للحياة والناس. يستعيد لقلبه معظم ما فقده على يد حورا من شجاعة وقوة عُرفت بها أسرته على مر الزمن ولكنه ظل دائماً يخشى حورا بشكل او بأخر.
ظل حورا دائماً محافظاً إلى درجة الكمال على شرط قضاعة فى اتفاقهما الإستراتيجى ذاك وإلى هذه اللحظة بالرغم مما تطورت إليه الأحداث فإذا كان كاروا بالنسبة لحورا خليفته ونائبه وإبنه فإنه ليس حورا نفسه وهذا مبرر أكثر من كاف من وجهة نظر حورا كى لا يطلعه على كل اسراره إلا حين تستدعى الضرورة ذلك فيلبى.
ويسمع صوت مناد بالخارج.
المنادى: بشرى. أبشروا يا أهل الوادى. قرر السيد/ الإله ان من يعمل منكم صالحاً ويطيع رسوله الأمين قضاعة فإنه سيبعث حياً بعد أن يموت. اما من عصى واستكبر فلن يعود للحياة مرة ثانية. بشرى. أبشروا..
جُن كاروا حالما سمع ذلك وثار كثور جريح فى وجه سيده صارخاً: " أسمعت؟ أسمعت؟ "
يهب حورا عفياً. ويصفعه: " صه".

سكنه

ولم تكن كأى سكنه. كانت سكنة للزمن والحياة. كل شئ سكن. سكن نبض القلوب. والريح. وخفق أجنحة الطيور فى السماء. ولكن فى المقابل، سمع دبيب النمل. وغزل وردتين فى إصيص زهر.
يتحمل كاروا الصفعة بصلادة يحسد عليها. وتتحنى شفتاه بالدم الذى يُسرع إلى امتصاصه وبلعه فى حين تنتاب ساشاى رجفة خفية

من داخله لجبروت حورا. وللموقف شديد التوتر. أى خطأ، اى حكة – ولو غير مقصودة فى ظرف كهذا كفيله بارساله إلى العالم الآخر فى طرفة عين. وليس ثمة من سوف يأسف عليه. ويا للسخرية فقد ياتى هذا الخطأ عينه من الآخر - ذاك الذى إشترط عليه ألا يرتكب أية أخطاء كى لا يدفع حياته ثمنها.

قال كاروا بهدوء: " عفوك يا سيدى".

رد حورا ولم يزل غاضبا: " هل علمتك كيف تفقد أعصابك بالمره مهما كان الطبل مؤثرا؟ "

يتدخل ساشاى بلطف: " ماذا سيفعل سيدى الأن؟ إننى على أية حال فى خدمة سيدى".

يجيب حورا وهو يولى وجهه نحو كاروا كأنه يعتزر. حورا الجبار بدا كأنه يعتذر: " لن أفعل أى شئ دون مشورة خليفتى، هذا الولد. (يحوط إبنه بذراعه. يتأملهما ساشاى فى ضغينة). أول ما علينا إلتزامه أن نرسل له ساشاى.

قال كاروا بحدة وتهور: " غلط. "

حورا: إحذر ان تقاطعنى ثانية، وهذا إنذارك الأخير. إفهم، سنرسله لا محالة. و أنت من سوف يسلمه إليه. أنت بالذات. من حسن الحظ أن قضاعة هو من طلب ساشاى.

كاروا: ولماذا أنا؟ ولماذا نسلم ساشاى بداية؟

حورا: حسن. يحملنا إلى ذلك عدة أسباب.. أولا بناء على طلبه الصلف لساشاى سوف نظهر أمامه بالوهن والضعف والتخاذل. فيعتقد أن الوهن قد عاث فى قوتنا وفى صفوفنا كما السوس. ويؤسس على ذلك نواياه الاثمة. ويبقى دائماً ما بُنى على باطل وفق قانون الجماعه باطلاً. ليس باطلاً بذاته، بل بحكم قانون حورا. وذهابك أنت دون غيرك، تأكيد لذلك. فضلاً عما تنطوى عليه من شبهة خضوع وإعتذار منك شخصيا عن حادثة السوق. وقد يفهم أنى أجبرتك على ذلك العمل فنقتل أى شك عنده بان كذبه علىَّ – على حورا العظيم – قد انكشف. وإذا كلمك فى ذلك فإعتذر له فعلا دون ان تزيد. وحاول أن تترك لديه الشك بأنى دفعتك دفعاً إلى الذهاب بساشاى إليه.

كاروا: إذن اعتذر له من البداية، صراحة.

ساشاى: لا تفعل ذلك. قد تثير لديه الشكوك.

حورا: وثانياً. يعلم ويتأكد له أننا كما كنا ليلة أمس فيطمئن إلينا ولا يسعى إلى تغيير خططه أو يحاذر منا بينما نعمل نحن على كشفها.

ثالثاً. نكسب الوقت ريثما نقف معه على قدم المساواة فى الإستعداد للمواجهة القادمة وتعبئة صفوفنا. نحن لا ندرى إلى أى حد إستعد ومنذ متى؟ نرتب الأولويات ونستكمل أوجه النقص. وعليه، يمسى إستعداده خائباً وهجومه متوقع وتوقيته غير مجد ومفاجأته باطلة. اى يخسر جميع أوراقه الرابحة. ويكتشف من بداية اللعب أنها إنتقلت من يده إلى أيدينا. وحالئذ.. ماذا تريد أن تقول؟ تكلم.

كاروا: لو سلمنا ساشاى إليه فإنه سيعرف منه ما لا نود أن يعرفه. سواء فيما عرفنا حتى الأن. أو فيما نطمح إلى معرفته. أرى أن تسليم ساشاى خطأ لا يمكن لنا السيطرة على نتائجه الوخيمة.

سدد حورا نظره إلى ساشاى كأنما يكتشف وجوده للمرة الأولى. وقال: ساشاى؟ أوه. كلا. تعنى قضاعة. إن لساشاى دوراً سوف نرسمه له".

وأضاف مخاطباً ساشاى: إسمع. من الأفضل أن ندعوك "سا".. أو "ساشا".

قال ساشاى فى مخاتلة مناسبة: " يشرفنى أن أحمل من الرئيس حورا العظيم إسمى الجديد."

حورا: يمكنك أن تعتبره بداية ميلادك الحقيقى. إعمل على اعتباره كذلك.

كاروا، إلى حورا: " ولكن قضاعة الباغيه سينتزع من عميلنا إنتزاعاً ما يريد. إما بقوة دهائه أو بقوة الإرهاب. وقد يجند الإثنين معاً ليسرع وينجز. إن ساشاى، أقصد ساشا، سيغدو فى قبضته وحيداً و..

نظر حورا إلى ساشا نظرة متفحصة ثم قال لكاروا: " هل تثق فيه؟ "

ينظر كاروا إلى ساشا وكاد يتأخر فى الرد: " تماماً. ثقتى فى نفسى. "

حورا: بهذه السرعة؟ ليكن. سأجعله أهلاً للثقة وإن لم يكن. ساشا، لابد أنك تتوق إلى نسف نير الإستعباد من فوق عارضيك. أليس كذلك؟

أجاب ساشا فى خفوت: " بلى. "

حورا: حسناً، امامك الفرصة. إعمل لتشتريها، لتشترى حرية العبد الأوحد فى واد زرعه وماءه وماشيته أسياد ولا قن إلا إمراة. ولكى نصدق على وعدنا أثبت أنك عملت حقاً وقدمت ثمن حريتك. فلا مفر أن تفلح فيما أزودك به من تعليمات. أعطنى ثمرة عملك واجتهادك أعتقك. هذا وعد حورا لك. وسوف أهيؤك بعد ذلك كأحد سادات وادى الرعاة. ما عليك إلا أن تلتزم بأوامرى.

ساشا: حرفيا؟

حورا: طبعاً لا. ليس على وجه الدقه.كيف ظروفك. لا. لا. سايسها وكفى.لا تحاول أن تناهض إملاءات الظروف أو تغير من معطياتها. ولا تأخذ من الأمر الواقع إلا ما يعطيه لك بنفسه، وفى ذلك تحرى غاية الدقه. فكل مهمتك هى الخبر الصحيح. إن ما تبحث عنه ليس موجوداً فى إحدى خزائن قضاعة. بل فى مفتاح هذه الخزائن. فى عقله. هذا هو الأسلوب الأمثل فى التعامل مع هكذا حالة. مفهوم " لا يرد " ما قولك؟

طال تفكير ساشا رغماً عنه. كان يريد صلاحية وحرية أكثر من ذلك. فاجاب كاروا بدلاً منه: " موافق بكل تأكيد. إن له قصة تدفعه دفعاً كى يوافق جذلاً شكورا ".

تضايق حورا لتدخل كاروا الفاسد مسجلاً عليه هذه الواقعة سوف يحاسبه عليها فيما بعد. قال بضيق واضح: " لا يعنينى معرفتها."

ويستدرك برأفة: "لنقل إنى ساهتم بها فيما بعد. المهم أن يعلن ساشا رأيه الحر الآن."

فكر ساشا فى سريرته: " حر؟ لا بأس. حر لمدة دقيقة؟ ليكن. إنها البداية وحسب. لم أتصور أن تجرى الأمور بهذه السرعة ".

ثم قال رافعاً صوته: " أوافق يا سيدى. غير أن لى مأرب ضئيل علاوة على حريتى ".

تبرم حورا. وإعترى وجه كاروا القلق.

حورا: وما ذاك؟

ساشا: أن تهبني فتاة إبتاعها قضاعة اليوم من زوبعة.

يكفهر وجه كاروا. يهم بالمعارضة. ولكنه يمسك. لم يعتد السادة في وادي الرعاة على النظر إلى ما بيد عبيدهم. ولو كان شيئاً وجدوه على الأرض بلا صاحب. وكان هذا الشئ جوهرة فريدة. بينما يضحك حورا بفجاجة ثم يتجهم سائلاً ساشا: " أحببتها؟ "

قال ساشا باقتضاب وإصرار واضح: " أريدها ".

يضحك حورا ثانية: " مرحى مرحى. هي لك. أعدك. لكن بشرط أن تنجح في مهمتك. وما دامت الفتاة مهمة إليك إلى هذه الدرجة حتى أنك لم تجد بدأ من إقحامها في أهم إتفاق على مدى عمرك فسوف أعمل على ألا ترى إظفر قدمها إن فشلت. ثق في ذلك. لا أحد يقدر على صرعي كمحارب. وهذا ينطبق أيضاً في حالة إذا ما خنتني".

حين أمسك كاروا عن معارضة ساشا في مطالبته بإناث كان مجرد تباطؤ في التفكير بحثاً عن مخرج آمن لتقليد راسخ من أهم تقاليدهم. أما وقد بذل له سيده وعده. فقد شعر بالمرارة وأمسك عن الكلام رغم أنفه. وبدلاً من البحث عن المخرج الآمن لإستعادة أناث. وجد مخرجاً آمناً أخر لإستعادة السكينة إلى نفسه. فقد إعتبر أنه لم يخسر الفتاة نهائياً. فهي موجودة وساشا ما زال في قبضته. والشمس والكواكب تدور في أفلاكها وبذلك هدأ باله واطمئن. هكذا فكر.

حورا: أهي حسناء؟ إن الجميع يتكلمون عنها.

كاورا: ليس كمثلها شئ سيدي. ويبد أن كل من رآها عشقها.

قال ساشا متيقظاً لكاروا: " كنت واحداً ممن رأوها؟"

قال كاروا مخادعاً: " لا تعجبني، فمثلها يضرس لمرآها الفؤاد".

قال ساشا متحدياً صاحبه: " إنه الحب".

قال حورا بحسم: إنتهينا. ساشا، هاك أول إملاءاتي إذا مشيت على هداها فزت. عليك بداية أن تلازم قضاعة وتعلم أفكاره. وفي هذا لن تبذل مجهوداً كبيراً لأنه هو الذي سيسعى إلى ملازمتك لنفس السبب.

قال كاروا محذراً: " لا تقرأ ما بين سطورها. لا تحلل. تكلم كما لو كانت أخبارك مجاملة تؤديها لصديق. وأنت تعرف عما نبحث لدى الرجل."

ساشا: هذا فقط؟

حورا: الآن.

ساشا: أراقبه؟

حورا: الطريق الوحيد المفتوح أمامك أن تتقرب إليه، تصادقه، تستميله لصحبتك. ولا أمانع في إلقاء بعض الطعم الثمين إليه، في البدايه على الأقل. ومن خلال ذلك، من لسانه، تتلقى أنباءه كما يتلقى الأب أبناءه وهو يداعبهم من بعيد بقطعة حلوى، دون أن تتسلق النخيل محملاً بمخاطر إهتزاز الثمر أو سقوطه بعيداً عن متناول يديك، وانتباه صاحب النخلة أو وكلائه إليك، فضلاً عن مخاطر سقوطك شخصياً في يد لا ترحم.ومهما كانت الثمرة كبيرة فأنا أمنعك أن تجازف في سبيل الحصول عليها. هل تفهم؟ بهذه الطريقة سوف يسقط ثمرها بين راحتيك ناضجاً سهلاً تحصده أمام ذويه وهم راضون.

هذا الأمر منوط بك وحدك، بذكائك، ولديك حتى الآن فيما أرى من المؤهلات ما هو كاف. هيا، إنه ينتظرك. وحذار أن تشغلك الفتاة. إحذر أن تتصل بها فتضل. إن الحب تيه والدخول إلى دهاليز الهوى لا منجاة منه، خصوصاً وأن دهاليز قضاعة يكفيك السباحة فيها. وأنت الآن أشد ما تكون إحتياجاً إلى التعقل. والحب ضد الحكمة على صراط مستقيم".

وحين يلاحظ عدم إقتناع ساشا بنصيحته يعتدل ويعدل: "إن جمعتكما الصدفة معاً فاسلك معها ما يمكن أن تسلكه مع غيرها دون حرج أو تظاهر بالحرج. وهن كثيرات في المعبد. لا تتصرف دائماً بوصفك مكلفاً في مهمة وإن كان ثمن تكلفتها يشفي من داء عضال، قاتل. تذكر مهمتك فقط عندما تنفرد بنفسك وعليكما باب وحارس. ولا تنسى فإن لقضاعة اذان سيئة كما الفخاخ. تذكر دائماً أن ثمة عين عليك فكن كما أنت. انظر، إنني كل صباح أنزل إلى الوادى أتجول فيه. حراً، كطير أرضه السموات المفتوحه. وفي بحر ناسه وماشيته. لكني لا أتحرك وفق خطة أو خريطة تهديني سواء السبيل. ومع هذا فقلما أصطدم بالآخرين. ولا يعني ذلك أنه لا توجد خريطة. إنها منشورة في الفضاء وعلى الملأ. إنني أراها وحدى مع كل خطوة

دون أن أرفع عيني أبداً عن الطريق وفي النهايه. أريد أن تأخذ من هذه الحكاية وجهها الصحيح لأنه لا يسعنى أن أقودها حتى فراشك سافرة. هذه أساسيات العمل في الأيام القادمة. وأنا أدرى بوادينا كما أنت أعلم ببلادك. هيا، إذهبا.

يتسمر ساشا وكاروا، لكل منهما كلمة وحاجة.

كاروا: الخطر الوحيد هو السيد/ الإله فقد يتدخل لصالح رسوله.

حورا: كلا، إنى أعرف كيف أتصل به وأضمن حياده. لا يشغلن السيد/ الإله بالك بالمرة.

يهمس ساشا لنفسه: " حتى حورا وهو فى أرقى صحواته العقليه تخالجه سنة من نوم وتسرقه غفلة ".

كتب الراوى فى دفتر ملاحظاته معلقاً: كلا يا ساشا، أنت مخطئ. فليست هذه أرقى صحوات حورا العظيم. حورا السياسى البارع. كما هو مقاتل محنك ".

قال لى الراوى: " أعجبنى حورا على الدوام. ليس بسبب ما قيل ويقال عنه في البرديات. بل لأنه كان صادقاً مع نفسه – أياً كانت – حتى اللحظة الأخيرة ".

وجد حورا أنهما لم يذهبا ولاحظ تمتمة ساشا مع نفسه. فصاح عليه: " ماذا أيضاً؟ "

قال ساشا رافعاً عقيرته: " لم يخبرنى سيدى عن كيفية الإتصال به؟ "

حورا: "أوه طبعاً".

يسكت متدبرا لحظات ثم يقول: "كل سبعة أيام.. بعد أسبوع من وجودك عند قضاعة إبحث عن وسيلة تتصل بنا بواسطتها.لن تعدم وسيلة، وإن أخفقت فثق أنى فى الطريق إليك. على أية حال. ليس قبل أسبوع".

ساشا: سيدى، أفضل أن تتكفل بهذا من جانبكم.

حورا: وهو كذلك، ولكن فى اتصالنا الأول قد نتأخر. ومهما تأخرنا لا تقلق.

كان باستطاعة حورا أن يتم اتصاله الأول بساشا بعد دقائق من وصوله إلى المعبد ومع هذا لم يخبر ساشا بالحقيقة التى يقبض عليها

باطمئنـان. بـل لقـد أراد أن يبعـث فـى نفـس الـشاب شيئاً مـن الحيـرة والترقـب. لا أدرى فـى الحقيقـة لمـاذا أراد حـورا أن يظهـر لـساشا صـعوبة اختراقـه المعبـد إلـى درجـة أنـه حملـه، وإن برفـق، مـسؤلية البحث عن وسيلة الإتصال. ومـا يترتب علـى ذلك من خطورة جمـة على المشروع بأكمله.

يتوسطهما حورا بعد أن يأخذ بأيديهما معاً ويتحرك بهما.

حورا: إسمع يا ساشا، أود أن أرفع نظرك إلى شئ لا يفوت ومع هذا هرب من ذاكرتى إلى حين. إن قضاعة ليس بالأريب العادى ولا هو لص ينشل مالك أو روحك وأنت فى غفلة. إنـه حربـاء، وكل لـون فيهـا حربـاء. أنت وافد علينـا وحديث العهد بـالوادى وناسـه. أنـا هنـا الرئيس، القوة، والعقل، والنفوذ. ومهمـا كانت نتيجـة المعركـة المقبلـة فلن أتلاشى.. تفهمنى طبعاً".

ثـم يوقفـه قـائلا: " لا تنـسى، مـن أجـل سـلامتك وحرصـاً علـى نجاحنا، أن تسمع ولا تتسمع، أن تنصت ولا تتصنت. وانظر دون أن تلحظ. وسجل دون أن تدون.

وانتبه، فمعركتك شديدة التعقيد. فأنت هدف قضاعة وأنت تعلم. وهو هدفك، ولا يعلم. ومعركتكما وسيلتها هـى نفسها نتيجتهـا. سوف يكون الكلام هو سلاح كل منكما. وهو هدفكما. ولأن الهدف هو نفسه السلاح فـإن التعقيـد سـوف يبلـغ اشـده. ومتطلبـات الحـذر أكثـر مـن واجبـة. ولأنـك تعلـم كـل هـذا وهـو لا يعلمـه. فربمـا غـرك هـذا العلـم واستدرجك إلى المحظور. وإذا نجحت فى ستر حقيقة هدفك فستعرف هدفه. لقد أمنتك تماماً. ولست فى حل من ذكر ذلك. فلا تطلب الخوف إنـك تعمـل مـع رئـيس الـوادى شخـصياً. وإذا طرقـت موضـوعاً أمـام قضاعة فإطرقه برفق وخفه ولا تخض فيـه أكثر من الـلازم واجعل كلماتك شديدة الحساسية، دائما فى المطلق. دعه يتكلم ويتكلم واعتصم بالـصبر. فـسوف يخطـئ وسـوف يـزل. كمـا قلـت لـك. إجعـل كلماتـك تتحدث عن نفسها وإلا إنفتح فجأة بابه عن عاصفة هائلة تقتلعنك من جذورك وهى ماسكة بشعرة واحدة من رأسك. والأفضل مـن أجـل لمّ كل هذا فى صرة واحدة أن تجعله جميعاً أجزاء من طبعك الذى أعتقد

أنـه يليـق بـك. لـيس لـدى مـا أضـيف. مـاذا تنتظـران؟ حـى علـى العمل.كاروا، إبعث لى بشرنقة فى خروجك.

يذهبان. يدأ بيد. فيما إنتقل حورا إلى الأريكة وتمدد عليها، على بطنه وبعد قليل يدخل ثعبان كبير أرقط ومن خلفه شرنقة الذى يظل يداعبه قاصداً الإمساك به. ويميل عليه فنظن أنه كجزع شجرة وسوف تنكسر. ولكنه يقبض على رأس الثعبان ويشقه من رأسه إلى نصفين. يأكل نتفة منه ويلقى بالباقى إلى الخارج. وفى عودته يستقبله حورا جالساً. ويأمره: " أدخل كاروا علىّ حالما يعود بدون لحظة تأخير واحدة ". ثم يعود للنوم مستلقياً على بطنه.

شرنقه: سمعاً وطاعة يا سيدى.

ويخرج شرنقة. أه شرنقه. من يعلم ما أنت؟

تمر دقائق نشاهد خلالها الراوى وهو يسجل بعض ملاحظاته ويستمع لمقطع من إحدى أغنياته الجميلة. وبعد أن تنتهى نشعر بتقلب حورا فى رقدته. ويلج كاروا محموماً كأنه يقتحم إحدى الموانع الحصينه بعد أن هلك كل رجاله فى المحاولات السابقة ولم يتبق إلاه و محاولته. ألقى كاروا نظرة على سيده فرأه قد استسلم إلى بلسم الراحه ونعس فراح ينفث زفرات متتابعة من السخط والحنق مصوباً لفتاته إلى وجه سيده من حين لآخر وهو يذرع المكان جيئة وذهاباً وعلى غير انتظام نافداً صبره متردداً فى إيقاظ سيده.. "أوقظه؟ لا أوقظه؟" بيد أن حركاته المتوتره الصاخبة وأنفاسه النهجة المتصاعدة كأشلاء كائن عملاق، أعطته ما يود ويرغب إذ صحى حورا الذى قال فوراً ولم ينفض عنه بعد شبح الكرى:" كاروا؟ أبت سريعاً؟ "

قال كاروا مذعوراً: " أبَتِ ".

لأول مرة يقولها دون ألقاب. فدوى رنينها كنغمة نشاذ فى أذنى حورا ولكنه تجاوزها قائلاً: " ما بك؟ هل تقلد قضاعة الطرد الملغوم؟ "

كاروا: نعم. لا أدرى؟

حورا: ما المشكله كاروا؟"

يرمقه بنظرة ثاقبة ويستأنف: "ما الذى يكرب نفسك وظنى أنها طابت؟ "

رد كاروا بغلظة: " قضاعة.. "
حورا: ماله؟
كاروا: قضاعة يغشم. لقد صدح بالعداء وصرح.
لم يجزع حورا لمعرفته الحقه طبيعة روح كاروا الإنفعالية وقال بهدوء: "إخمد نبض قلبك الزائد. وقص عليَّ النبأ. أهي الحرب؟ اقعد".

لم يطق كاروا صبراً فهب واقفاً بعد أقل من دقيقة بعدما جلس على ناره. وقال: " رافقت ساشا كما أمرني سيدى. وهناك فوجئت بالباب موصداً. إذ أن قضاعة أقام ببابه أحد خرافه العملاقة كالوثن عبادته باطلة لكنها حقيقية. أردت أن أدخل فاستوقفني كسد منيع، منعني من الدخول، أنا كاروا نائب حورا العظيم رئيس الوادى. هددته لم يخش، توعدته بإسمك لم يخشع ولم ينثني وابتسم في وجهي ساخراً ودفعته فدفعني.
حورا: ألم تُجد أى محاولة للمرور من ثغرات هذا الجاموس، لابد من ثغرة؟

قال كاروا مقطباً متردداً: " فشلت. إن قضاعة رباه تربية صارمة لكأنه صبه على يديه وعينيه. ولم يكن من الممكن إجتيازه إلا وقد كف بصرى أو أسخنت بالجراح المميته. يعرف قضاعة كيف يختار رجاله وأدوارهم، ولو انهم جميعاً كهذا الحائط فإننا يجب أن نتأنى ".
قبل أن ينطق حورا دلف شرنقة – الذراع الثانية لحورا.
شرنقة: رجل يقول أنه مبعوث لسيدنا الرئيس من لدن مولاى قضاعة.
يتبادل حورا نظرات الدهشة والإستغراب مع كاروا.
حورا: أدخله.
كاروا: سيدى. إنتظر يا شرنقة. أوتستقبله بعدما.. ثم منذ متى يستخدم قضاعة همزة وصل بينه وبين سيدنا؟ "
وأضاف بانفعال أكبر: " إنها إهانه ورأيي أن نبعث إليه برأسه.."
يقاطعه حورا بنقرة غضب: " اسكت ".
ثم يلتفت إلى شرنقة: " إمضي ونفذ ما أمرتك به ".

يعلقان أبصارهما بالباب ويتقدم الرسول الذى يكنى " ندشب " وكله. حركاته، نظراته، سكناته النادرة، آية فاجرة على تبحره فى عالم الرياء والمكر. وتشهد أنه معلم محنك فى هذا المجال. وبمجرد وقوفه بين يدى سيدنا رنا إليه لحظة كأنما يقول له تعلم أنى متملق وسوف أتملقك ومع ذلك فإن على كل منا دور يؤديه بإتقان مقتدياً بالجد دارساً الهذر والكسل.

قال ندشب بعد أن أدى التحيه الواجبة وعرف بنفسه وبمهمته: " علم مولاى قضاعة الإعتداء الجسيم من قبل حارس الباب الأول. ويعلم سيدى مدى حرصنا على صيانة المعبد والشجرة المباركة من أى تخريب قد يؤذى مشاعر الجماهير الصالحه ومشاعر سيدنا الرئيس بصفة خاصه. وكمسؤل وحيد عن المعبد وشئونه يعتذر مولاى قضاعه نيابة عن همجية الحارس الذى يجرى الآن تأديبه بمعونة السماء تكفيراً عن جرمه الشائن، القبيح، ولو أنه خطأ غير مقصود فإن مولاى..

قال حورا مقاطعاً: إقتصد.

ندشب: "إذا لم يقبل مولاى – سيد القصر – من مولاى سيد المعبد إعتذاره أرسلنا.."

وصحح صيغة الجمع بمهارة وسرعة ملحوظة قائلا: " إننى يا سيدى أتكلم بلسان صاحب المعبد. ويجوز لى بفضلكم أن أقول بلسانه: أرسلنا عن كل طيب خاطر رأس مسير الذاريات العفنه، شفاعة ورجاء فى نيل سماحتكم عن مجرد خطأ بسيط غير مقصود. ويعلم مولاى قضاعه أنكم أهل للصفح والمغفرة.

حورا: أهذا كل شئ؟

ندشب: إن الخطأ، وإن كان غير مقصوداً، وإن كان صغيراً عندما يقع بطريق من كان بوزن سيدنا المبجل حورا يصبح.."

قاطعه حورا: "إذهب وأبلغ قضاعه أنى.. "

قال ندشب مقاطعاً بدوره: عفواً يا سيدى إننى ما جئت إلا رسولاً وإنى على أتم الإستعداد لنقل أى رسالة إلى مولاى قضاعة مهما كانت طويله، بحذافيرها وإبلاغه بكل ما تريد.. كل ما تريد.

ينتفض حورا ثم يهدأ وقد أدرك خدعة الإستدراج ولؤم الرسول، قائلا: " أبلغ قضاعة أنه يحز فى نفوسنا جميعا أن تقصم رأس تقوم على خدمة السيد/ الإله بسبب هفوة غير مقصودة.

ندشب: إذن فسيدنا لا يعتبر الحارس مخطئا؟

حورا: وقبلنا اعتذار قضاعة.

ندشب: وقبل اعتذار مولاى قضاعه.

ينهض حورا كإعصار: "اغرب عنى ".

وكما هبط ندشب عليهم لئيماً لا مباليا ينصرف بمثل هذا جميعه. وبعد أن يخلو المكان على حورا وكاروا ينفجر حورا ضاحكاً ثم يزعق بحرارة وكلماته كنظراته تتوقد صلابة وحمية: " فى دقيقة تبخرت ثمالة شكى وامتلأ كأسه باليقين، يقين بغيض. أهلاً قضاعة".

ثم يعود إلى كاروا متسائلا: " مذ متى وهذا العتل يعمل فى خدمة قضاعه؟

رد كاروا متميزا للغاية: " لا علم لى. أعتقد أنه من أبناء الإماء الأجنبيات".

حورا: كسرت يا قضاعه عصا الوفاق بيننا. يا ترى مذ متى كسرتها؟ وإلى كم قطعه صيرتها؟ (ثم إلى كاروا) نادى شرنقه.

كاروا: شرنقة.

شرنقة: تحت أمر سيدى كاروا.

حورا: "إستدعى حالاً رئيس عيونى. بنفسك. مفهوم؟".

يخرج شرنقه مبدياً الخضوع لسيده حورا، ولكاروا بنفس الدرجة.

كاروا: سيدى، لا تؤاخذنى، فثمة سؤال يحك جلدتى ويدمينى.

قال حورا بحنان غير مسبوق: تكلم، لا تخف.

كاروا: وقد إنبلجت شمس الحقيقة أفنحن مستطيعون والسيد/ الإله العدل بجانبنا أن ندحر قضاعه وندير عصيانه بلاء عليه وتجهض طمعه الذميم؟

حورا: لا تدع الوساوس ترتاد قلبك أبداً وأمن أننا لا نحامى عن أنفسنا، وجودنا وحياتنا فقط، بل ونحامى عن أمن وسلام الوادى المحرم فى المقام الأول. وثق أنا منتصرون.

يدخل شرنقه شامخاً كالعاده ومعه " عفريت " رئيس إستخبارات حورا. والحقيقه أنه – بإرادة حورا – ليس أكثر من مدير للرئيس الفعلى حورا، وهو مدير بالأقدميه والثقة فهذا منصب من وجهة نظر حورا يشغله أولى الثقة والكفاءة أكثر من أصحاب الكفاءة وحدها، وإن رجحت كفتها.

كان عفريت أول من إستعان به حورا لتزويده بالمعلومات ولما توسعت دائرة نشاطه ومع تتابع مسئوليات الحكم العديده جعله رئيس شبكة عيونه ومديرها. وكان عفريت رغماً عنه، لطبيعة عمله و شخصيته، يمنح مهنته الكثير من روحه هو.

قال حورا مبادراً إياه بعد أن أنهى التحيه وبعد أن أشار على شرنقه بالذهاب: " هل رآكما أحد؟ "

عفريت: سيدنا، جئتك من أقصر الطرق.

حورا: أقصر الطرق أبينها للناس؟

عفريت: أقصر الطرق أسرعها.

يمعن حورا فيه ثم يقول بموده: "ما أقبحك يا عفريت. "

عفريت: هل يعنى سيدى شيئاً محدداً؟

حورا: كلا، أبداً. لكنك أقبح من اللازم.

عفريت: إننى فخور بقالبى كما هو، بأنفى الكبير الأفطس وشفتىّ الغليظتين، ببشرتى الكالحه السوداء، وبكرشى وشعرى الذى يستقطب من الغبار أكثر مما تفعل أصابع قدمى، وللأسف فهذه كلها سمات ظاهرة وهذا الظاهر العفن يحمل قلباً وعقلاً نظيفين.

حورا: ما عندى شك يا عفريت في هذا، ولكنهما محبوسان وراء حجاب أزلى. إنى أرشى لك كثيراً.

وضحك حورا للدغة لسانه في كلمة أرثى: " فيما ابتسم عفريت إبتسامة فى حدودها الدنيا. "

عفريت: إن القبح يا سيدى يدفع الإنسان للتفوق المهنى، إنه يجعلك تطير بلا أجنحة عدا جناحىّ الكفاءة وأنا لا أسعى لتغيير هذه الملامح القاتمة بل إنها تغوينى على إغواء دفع الناس على قبولها واحترامها. ولا أقول إجلالها – تواضعاً فى حضرة سيدنا الرئيس.

حورا: هل ترى يا عفريت أنى كنت حكيماً إذ أختار رئيس إستخباراتى عيناً مميزة؟
(يقصد شكله اللافت للنظر. المميز).
عفريت: بكل تأكيد يا سيدى، فشكلى هذا يحمل الآخرين، وأعنى من أقوم بإدارتهم. لأنى لا أتجسس بنفسى كما يعلم سيدى، على أن يتركوا لى الملعب، بكرتها، ولو كانت أمام الشباك. والحقيقة يا سيدى أننى أحب التفوق من خلال المنافسه ولو كانت فى ثانويات، المهم أن يتعدى موضوعها - موضوع المنافسة - الشكل. ولكن ماذا أفعل؟ فإن شكلى يحرمنى منها. ويقصر بى المسافة نحو تسديد الهدف.
حورا: التفوق مطمح الجميع. ها أنت قلتها. فاين كنت؟ الأن؟
عفريت: كنت أسمع لواحد من رجالى.
حورا: تتسامرون؟
عفريت: ليس تماماً. فهذا أنسب وقت لتفريغ رجالى
حورا: فى سهره؟
عفريت: سيدى إننى أستقبل منهم تقاريراً كادوا يحفظونها. عن ظهر قلب ولكنى أعمل على إعادة تفريغهم مرة أخرى بشكل ودى أو غير رسمى فيما أسماه سيدى " سهرة " وفيما أسميته: " إحتفالاً " فأنا لا أشك فى إخلاصهم قدر ما أشك فى ذاكرتهم وغالباً ما أتبين أنهم أفلتوا شيئاً أو أكثر. ولا أدرى ماذا سأجد إن راجعتهم مرة ثالثة. ولكنى عموماً أكتفى بمرتين.
حورا: هل ضم قضاعة إلى ركبه رجالا آخرين بعد أخر قائمة قدمتها لى؟
عفريت: نعم.
حورا: متى؟
عفريت: منذ أسبوع. إنه دائم التبديل فى رجاله ومواقعهم، آخرها اليوم، وهذا شئ عجيب حقاً، لقد ضم غلاماً صغيراً قيل أن إسمه برنل وذلك ليرتل الأناشيد الدينيه امام الشجرة المباركه. إن الغلام ينشد بطريقة تسلب الناس روعهم.
حورا: من أسماه؟
عفريت: "جدارية". مديرة شئون الطعام فى المعبد. إنها تعشقه.

حورا: منذ أسبوع؟ لماذا لم تخبرني يا غراب البين؟

عفريت: أوامر سيدى كانت تقضى..

قال كاروا بعد أن لوح لعفريت فسكت: " بإذن سيدى، إنتظر يا عفريت بالخارج. ينظر كلاهما إلى حورا فيؤكد على الطلب بالإيجاب ويخرج عفريت.

كاروا: "سيدى ليس هناك وقت، نريد أن نعتبر فى الآتى لا فى الماضى."

بدا حورا وهو يخاطب كاروا كأنه يفكر مع نفسه بصوت مسموع وهو يذرع القاعة جيئة وذهاباً: " أخطأ قضاعة مرتين بينما كان يريد ترميم خطأ واحد. إنفرط عقد خداعه وهو يريد مخلصاً أن يتمه بآخر حبه. عندما أرسل هذا الرسول بالذات حاملاً وحامياً إعتذاره. ولا مناص أن قضاعه لم يكن موجوداً عندما ذهبت إليه مع ساشا وأنه كان معطى أوامره سلفاً لحراسه أن يصدوك بالاسم وربما كل رجالنا، فى غيبته على الأقل. إذن هو يدبر أو يخفى شيئاً فى المعبد بالذات، هذا الشئ بالتحديد هو الطامة الكبرى ثم ما معنى إعتذاره بهذا الإسفاف وبمثل ذلك الإنحدار إلى حد الضعه؟ أين منه مسلكه معى أنا.. أنا سيد الوادى قبل ذلك بساعات؟ وما كاد كاروا يعود حتى كان رسوله فى عقبيه. إن لهذه السرعه معناها ودلالتها. إنه ينشد تحويل أنظارنا عن نوايا خبيثة يبيتها. ولابد أنه غير متأهب حتى الأن لمهاجمتنا وهذا لمما يسعد قلبى. صدقت ساشا. وإذن فهو خرج من هنا بعد لقائه بى مباشره إلى مكان آخر غير المعبد وبعد ما جرى بيننا فلابد أن ذلك "المشوار" أو الزياره أو المكان أو الشخص الذى قصده مهم وله وشيجة هامة للغاية فى كل ذلك. كاروا، نادى عفريت. أريد أن أعرف كل ما فعله قضاعة منذ أمس حتى هذه اللحظة.

يدخل عفريت متطلعاً.

حورا: عفريت، اريد أن أعرف كل ما فعله، وكل ما قاله قضاعة منذ فجر أمس حتى هذه اللحظة ثانية بثانية. هل تستطيع ذلك؟

عفريت: سمعاً وطاعة يا سيدى.

حورا: هذه مهمتك الوحيدة فى هذه الأثناء، فى كم من الوقت تستطيع إنجازها؟

عفريت: ليساعدنا السيد/ الإله. سوف أبذل قصارى جهدى. هل يأمر سيدى بشئ آخر؟

حورا: كلا، إذهب. (ثم يلتفت إلى كاروا ويسأله) متى دخلت المعبد آخر مره؟

كاروا: إننى دائماً أدخله ولكن الكثير من غرفه لم أطأها ومحظور على الجمهور دخولها. هناك جناح كامل لا أدرى عنه شيئاً ولم اكن أهتم بدخوله فقد كان قضاعه حريصاً على إستقبالى بنفسه فى كل مرة وتوديعى حتى الباب ولم أرى مبرراً أن أسأله شيئاً.

حورا: يجب أن نبقر المعبد ولو تطلب منا ذلك أن نزيح جدران السماء من فوقه.

كاروا: سيدى، لزم علينا أن نسارع إلى العمل حتى إذا فاجأنا فاجأناه بعدتنا و استعدادنا. هذا إذا فات الوقت دون أن نبادر إلى مباغتته أولاً. إنه مطمئن إلى كونه يمسك بعنق المفاجأة. بيد أننا إذا تمكنا من مبادأته تب وأسقط فى يده كعقرب مات بسمه. أما صحبه وأشعياؤه. أه. أصحابه، الناس، شعب وادى الرعاة، ما موقفنا حيالهم؟ أنسيناهم أم لا وجود لهم فى معركتنا؟

حورا: كيف ذلك وهم المحاربون؟ وهم وقودها.

كاروا: والجيش؟

حورا: للجيش حساب خاص وأنا لا أستطيع إدراجهم فى حساباتى الآن لأنهم قوة خطرة وإذا لم تكن حساباتنا صحيحة مائة بالمائة بوقوفهم معنا فالأحسن أن نحيدهم خاصة وأن معظمهم يدين للسيد/ الإله. عموماً سوف أجد القالب المناسب لإحتوائهم فلا تقلق. يكفى أن تعلم أن المقدمه الكبرى فى مسألة الجيش هى أسبقية الولاء الشخصى عما عداه من مكان أو إنسان أو حتى إله. هل فهمت؟ أما أصحاب قضاعة فيدهم بيده ويجب أن نعاملهم كفئة واحدة، ليس أمامنا، لضيق الوقت، إلا ربطهم فى حزمة واحدة.

ولكن دعنى أقول لك إذا كان الماء لا يصعد عالياً بطبيعته فإن الناس، الشعب، كالنسور تعشش فى أعلى نتوءات الجبل. تقيم وتحلق وتتناسل فى العالى الشاهق وتؤمن بأنها ترى وتعرف، وأنها أكبر وأعظم. وتقول لنفسها ما حاجتنا إلى الدخول بين لعب " الأطفال

الأشرار " وهى تعترف بالبون بينهما وبين هؤلاء الأطفال الأشرار غير أنها لا تسعى إلى الزج بنفسها فيما " لا طائل منه " كما تقول. ولا تنزل هادرة إلا لتفترس وتصطاد. وبعد كل رحلة صيد صاعقة تعود كالبرق أو أسرع إلى أعلى. أى هى تنزل لتتمكن فقط من إستمرار مثواها الوهمى فوق. وإذا وُجد بينها من يشذ ويتظاهر لأجلها ولحقوقها – الحقيقية – كما كان الدهماء يفعلون. فإن هذا الشاذ إذاً ضمن طعامه وشرابه، بامتياز خاص فإن الشعب – قضيته - لا يعنيه فى شئ ولكنه يعبر طول الوقت، بموهبة خاصة، عن طموح شخصى بحت ومكاسب خاصه يريد إحرازها لنفسه هو بإدعائه الدفاع عنهم وعن مصالحهم.

كاروا: لا نحسب لهم شأناً إذن؟

قال حورا بقوة: " لا. ولكن الناس هم من سوف يحسبون أى شأن لنا وأى شأن لقضاعه. هم من سوف يحرثون موقفهم وموقفنا منهم ".

كاروا: لقد قلت أنهم على الهامش إلى أبعد حد. والإرتزاق على قلته يقنعون به.

حورا: صحيح. بل ويقنعون بالسلبية. إن مشكلتهم هى كثرتهم والتى هى لب قوتهم فى نفس الوقت. مع هذا لا يجب أن نصمت إزاءهم. نحن فقط سوف نساعدهم على اكتشاف الإتجاه الصحيح وتحديداً معنا. وأنه غير مسموح لهم من قبلنا بالحياد. سندس لهم ما يتصورونه رأيهم الحر، النابع من ذواتهم. سنطلق عليهم مظاهر الحريه، دون الحريه نف سها، التى تسهل لنا السيطرة عليهم وسوف ندفعهم إلينا وهم لا يشعرون. إن نفوسهم جبلت على طبع ومنهاج السبب النهائى.

كاروا: وتخومها ليست مصونة أو محصنه ضد التغيير والتبديل.

حورا: نعم. حتى تعقيمها لا يسعنا إنكار حاجته إلى مصل آخر واق ضد الإستحالة والصيرورة. بيد أنها صيرورة داخل دائرة. دائرة ونحن وحدنا عرفنا مركزها، ويمكن بناء على ذلك أن نغرس أقدام حياتها فى مكانها. إن الناس ألسنة لهب تجرى بفطرتها إلى أعلى ونحن يجب أن نكنه. وعلى مرمى أبصارهم يتحتم ألا يروا قبلنا سوى الإنحطاط وبعدنا الفراغ هل فهمتنى؟ "

يتردد كاروا فى الموافقة فيطنب حورا: " الناس يا كاروا هوى. وهواها مضطراً يميل إلى الصف الأقوى والأعلى. ولكل أقوى وأعلى. وهنا دورنا، إنه شئ أشبه بالتنويم المغناطيسى. هم لا يعرفون أن هذا الصف أو ذاك إن يقوى فبهم. وإن يعلو فعليهم. إن القوة والشده والتسلط تحدث بهم وعليهم وتلك هى اللعبة. بينما هم بجبنهم وتهيبهم وعدم إنتظامهم فى هدف واحد، مقصود بالعقل والواجدان، يرجحون كفة على كفة. إنهم كالموجه تغمر الهش بالرطوبة ثم تبعثره. إجعلهم دائماً فى حالة رد الفعل وأغرقهم بسيول من الوهم والكذب الأبيض والمصالح. خذ قدر ما تستطيع وأعطى أقل ما تستطيع. كن معهم عليهم.

قال كاروا وقد استعصى عليه الفهم بعد أن كاد يستحوذ عليه: " إنى لا أفهم هذا الكلام ما أفهمه هو أن تأمرنى بعمل ما، فورا

حورا: مثل ماذا؟ هل آمرك أن تذهب فتحصد رأس قضاعه هل تتصور أن هذا هو العمل الأصلح؟

كاروا: سيدى؟

حورا: أتعبتنى. وها أنت لم تفهم. لا بأس. لعلها كانت جرعة من القاع فيها الرمل والطمى وفيها الذهب والدر ومع ذلك فإننا سنبدأ فوراً الإتصال بأصدقائنا "زادم" و "جدعان" و "أوسيم". "سامى" و "سافل" التوأمان و"غراب" و "برطس" وآخرين نجدد ما قدم ونصقل ما صدئ ونجود الجديد. مثل " أوسيم " و " غراب " ومن كان فى مكانهم. وبخصوص جربال فلن نحاول معه شيئاً سوى مراقبته عن كثب. لقد سمعت أنه تزوج بإحدى إماء زوبعه وأنه سرح كل إمائه الأخريات بلا مقابل مكتفياً بها. إن لهذا الرجل أفعال شاذة ولكنه ليس خطراً طالما كنا بعيدين عنه فهو يعرف ما له وما ليس له.

كاروا: والباقى؟

حورا: "الجرذان؟ "

يتفكر قليلاً ثم يقول: " هؤلاء تبع. انظر إلى هذا الوادى فى كل منطقة سيد وهو أقوى تأثيراً عليهم منا صحيح أنهم يرتعبون من مجرد ذكر أسمائنا أمامهم ولكن السيد المقيم بينهم أمضى أثراً فأثره مباشر نافذ وإذا إستملنا هؤلاء إلينا صارت إلينا الجرذان بالتبعيه

ونحن سنهتم برءوسها فقط ويجب أن نتدخل ونقطع خيوط العداوه بينهما وبين الجرذان الأصغر وبينها وبين بعضها البعض يجب أن نتدخل وننسفها إلى حين دونما تدخل صريح من جانبنا. ينبغى أن يغدو كل طرف كأنه يدخل فيكسب أو يخرج فيكسب وأن جمجمة صاحبه، عدوه أو منافسه سوف تبلى قبل أنفاسه وأن جمجمته هو ستمتلئ ذهباً.

من الجميل أن تمتلئ جماجمهم بالذهب وليس بالأفكار. وأننا ننحاز إليه دون الآخرين جميعاً، حاسديه ومبغضيه ومنافسيه ومن كان بلا مشكله ويحدث هذا أحياناً وياللغرابه خلقناها له وأوهمناه بحلها أنها عملية صعبة مركبة معقدة ودقيقة ولكنها ممكنة ما دمنا صدقنا أن العسل هو براز النحل. ويجب أن نتحلى أمام الوادى كافة بمظاهر الصلاح والقوة فى آن وعلى أية حال سوف نعمل على تدليل الناس وتنعيمها خلال الفتره القادمة بالوعود وبالمستقبل الزاهر ولا مانع من إظهار رأس الذكر الطويل للأنثى الشهوانيه. وإياك أن تهدد فإن قضاءه سيكون قريباً جداً منا ومنهم. ترى هل تصمد خزائن السماء أمام قوة سلطتى؟ هلم يا عزيزى كاروا لقد بدأت العمل منذ أن تكلمت.

كاروا: ولكنى أتحفظ على مبدأ العمل هذا.

حورا: الكلام؟ الكلام معانى وأفكار. الكلام نصف الفعل ومسطرته الحقيقيه. وأى قول غير ذلك وهم. لا تقفز إلى الفعل دون كلام، دون أن تتكلم بما فيه الكفايه فكلما أكثرث من الكلام إنجلت لك مواطن الدعه والهوان. أتفهم؟

وعلى ذلك إنتبه إلى أن تطيل الكلام إذا ما أردت ألا تنكشف نقاط ضعفك أمام الآخرين. يمكنك أن تتكلم مع نفسك، مع أصحابك، مع صفحة الماء فى الغدير، على سبيل الفحص والتجربه. إن الفكره العظيمه التى تمسكها بدماغك كما الجوهره قد تصير هراء بمجرد النطق بها وحين تنتقل للفعل أمسك لسانك ووقت أن تروم أفعال الغير، حقيقتها، إستدرجهم للثرثرة والإطناب فى جوهرها.

كاروا: فماذا يجب أن أفعل لأستميل مراكز القوة فى الوادى بعد ان يعلم كل منها أننا نميل لصفه أكثر من سواه وأن نصيبه فى الكعكه

أكبر من سواه وأن خوفه أكبر من سواه وبعد أن يطمئنوا إلى أننا النجم العالى.

حورا: كل يجب أن يحس هذا ويعتقده. أننا المستقبل وكل واحد منهم بذاته مقدمة مهمه لحدوثه وبالتالى فى نتائجه. صدقنى هؤلاء الناس قلما يتحققوا من شئ أو يتابعوه إلى نهايته برغم زحمة الوقت الشاغر لدنهم ثم عليك أن تبحث فى دفاترك، فى ذاكرتك، عند عفريت، وأنا من ناحيتى سوف أعطيه تعليمات بمدك بكل ما تحتاج إليه من معلومات. وسوف تعثر على حاجة مصلحه، تدخل وانهها فوراً لصاحب الشأن. أوهمهم بخلاصها وعلق منها شيئاً بجيبك للغد القريب.لا تصفيها تماماً. تكلم معهم بلسان القوة المحافظة على مستقبلهم

كاروا: هل آت بذكر قضاعه؟ أنتقده أو اعمده وبالا على مصالحهم؟

حورا: كلا، ليست مهمتك. من سيحمل دعوتها إليهم سوف يكون منهم ومن وسطهم.

كاروا: أليس الأنجع أن يقوم سيدى بهذا كله؟ فكلمتكم لها وزنها وقد سمعت أحدهم يقول: " إن كلمة سيدى حورا فى الإثبات نور يفتح أبواب النهار وفى النفى ظلام يغشى الأبصار ".

حورا: كلا، من الأفضل أن يحدثهم نائبى – انت – ليكون فى تصورهم دائماً صورتى خلفك وسأكون حاضراً عندما تحتاجنى وكأننا قوتان ضاغطتان، واحدة أعظم من الآخرى، هذا أفضل من قوة واحدة عظيمة تلقى بثقلها كله مرة واحدة، دفعة واحدة. ثم أن خيال كل واحد منهم حسب مصلحته وحاجته وقدره فى الوادى كان معى أو ضدى سيرسم صورتى خلف كلماتك بشكل أفضل وأكثر ملاءمة من حضورى شخصياً فى مواجهته.

كاروا: كل شئ إذن على ما يرام ولكن السيد/ الإله الذى يتحدث قضاعه باسمه ويلبد تحت أسماله والخلق تعلقت بإدباره وإقباله بل إلتفت بنسيجه ليس هذا وحسب ألا يمكن أن يستميل قضاعه السيد/ الإله العدل لصفة تحت أى ذريعة؟

حورا: عقيدة فارغة بيد أنهم ملئوها بذواتهم وما ملكت أيمانهم. وليس من السهل أن نبددها أو نذهب بها أدراج الرياح. إستمع إلى، بث فى نفوس الناس ورجالنا قبل سواهم أن السيد/ الإله هجر الدنيا واضحى أثراً بعد عين. رحل. كأن تسبه أمامهم وتتحداه أن ينزل بك العقاب.

قال كاروا فزعاً مأخوذاً: ولكنه سيصعقنى؟

حورا: أوه، كيف أشرح لك؟ هذه العقيدة صعوبتها فى خوائها بيد أنها للحقيقة ثبتت وقد خلت إلى زمان طويل فاستوت على عرشها وإستقرت وكلما خلت أن أحطمها وثب إلى خيالى المستحيل وأشفقت عليها وعلى نفسى من المحاوله لكنى سأكاشفهم بزيفه فى حينه. ما الحل يا نائبى؟

ينظر إليه كاروا مشفقاً عليه من تجديفه فى السيد/ الإله أكثر من إستنكاره له. و يصمت. فيعلق حورا بأسى محدثاً نفسه: "هذا نائبى لا يفهم. فكيف بالعامه وسائر الناس؟"

بعد فتره. يهب حورا بسعادة طاغية بينما كاروا غارق فى لجة من الدهشة والحيرة لا يدرى عما يتحدث سيده: " صدت الحل، ها ها. إن السيد/ الإله ملك مشاع فلم لا أضع يدى أنا الأخر عليه دون أن أضطر إلى تحطيمه؟ على جزء منه ولو كانت لحيته. انه ليس بحكر على قضاعه. سوف أنافسه فيه. سأستغله لنفسى مثلما يستغله فإن لم أستطع – فرضاً – أن أزيح إنفراد قضاعه به أمام الناس صدعت سيطرته عليه و زاحمته فيه. بل إنهم – أكثر الناس – ستنشق عنه. إننى السلطه. وإذا كان لا يتسنى شطب أو إلغاء السيد/ الإله من الخارطه وهو ما كانت تأباه جوارحى فيمكن لجمة وقيادته ورسم حدوده كما نهوى. هذا هو الصحيح بعينه (يضحك بشراهه) نعم نعم فمن العبث أن نقتل السيد/ الإله بعد كل ما بذل فيه من جهد من أجل بناء شخصيته لسنوات طويله، من العبث أن نصرف جهدنا فى مقاتلة فقاعه وإنى لا أود مخلصاً أن أفقأها. أريد فقط أن أخدرها، أسكنها، ثم أعود فأحركها وأحييها ومن الممكن أن أحول الرساله وصداقه السيد/ الإله لأى إنسان آخر فقضاعه بان أنه كذب على السيد/ الإله وخانه".

ويلتفت إلى كاروا محدثاً إياه بحميه لم يعهدها فيه خليفته منذ سنوات. وكأنه إنتصر على نفسه فيما لم يكن يظن أن بإمكانه إعدام موقع من أشد قلاع نفسه وأكثرها كمالاً وتحصيناً وإعزازاً والتى كانت نموذجاً حياً يشير إلى العبقريه. لقد أعاد حورا فى نهاية المطاف مثله مثل قضاعه فكرة خلق السيد/ الإله إليه هو نفسه وليس مجرد إستغلال لفكرة موجودة فى الأصل: "أريد فى خلال ساعه واحده لا أكثر. بعد أن أعطيك الإشارة أن يعلم سكان وادى الرعاه أن السيد/ الإله لم يعد يرضى عن قضاعه وأنه أبلغنى أنا حورا كلماته القدسيه مثلما أبلغنى بها أول مرة عند إختياره إياه. وأما رجالنا فأكد لهم أن السيد/ الإله يقف معنا يده بيدنا ضد رسوله السفيه السارق قضاعه الذى تبين غشه له بل لن تكون حربنا عليه إلا بهذه الذريعة (يستأنف ساخراً) هيا إعمل قبل أن يغير السيد/ الإله مشيئته."

يضحكان معاً. حورا لإنتصاره على نفسه. كاروا مجاملة لسيده وقد فهم ما يلزمه من القصه كلها.

فقال كأنه نفس الصوت الطفولى الناعس الذى سمعناه قبل ثمانية عشر عاماً: "أبى، أريد أن أكون رسول السيد/ الإله إننى إبن الرئيس."

المشهد الثالث عشر

الراوى، يشرح على شاشة تلفزيونيه، خلفه، تعرض صوراً تناسب كلامه:

نفس الزمن ال ما، الكلى. والموضع هذه المره منزل قضاعه أو بالأحرى قلعته وبالتعبير الشائع فى وادى الرعاة: المعبد. وهو مشيد من الحجار المرصوص بعنايه. تظهر بعض حجراته على شكل هرمي ولكى تعطى مساحة واسعة كان لازماً أن تكون متسعه كثيراً فى القاعدة. والحق أن قضاعه بالغ عندما عدل ووسع وأضاف إلى هذا البناء الذى كان هبة من حورا فى بادئ الأمر. ولئن بقيت أساساته كما هى إلا أنه ضاعف مرات عديدة فى أبنيته وأحجامها فى نظرة مستقبلية سديدة.

ويمكن أن نقسم المعبد إلى قسمين القسم القديم ومازالت سقوفه تصنع من أغصان الأشجار وجذوعها العملاقه ولابد أن قضاعه بذل من الجهد والوقت الشئ الكثير حتى يحيلها إلى هذا الشكل القوى المتماسك. رغم أدواتها البدائية.

وهـــم هنا فى وادى الرعاة عادة يهيلون السقوف صيفاً ويعيدون بناءها فى الشتاء، لكل موسم سقفه المناسب. والمعبد قاطبة فى صورته الخارجيه يتبدى كأنه قلاع ينظمهم سور عملاق ولا يناظره فى وادى الرعاه إلا منزل حورا الذى كان فى الأساس بيت والد قضاعه الرئيس المغدور غصن. وقد أقيم على نمط مغاير فأطلق عليه القصر وهو أكثر غناء ووضوحاً وحتى فى شكله الخارجى لا يخلو من لمسة بساطه وجمال وهما على أية حال منارتا الوادى المعجزتين.

وياللبون الساشع بينهما وبين سائر البيوت التى كانت قبل عقدين من الزمان أبنية من الغاب والخوص والحجار العشوائى ثم تدرجت حتى أصبحت تبنى على غير مذهب واحد بأى شئ وكل شئ. ولم يعد عجباً أن نرى الجدار الواحد منها مشيد بأكثر من مادة.

لقد تقطعت أنفاس الأغنياء للحاق بهما ثم أقروا أنه لا طاقة لهم على متابعة السباق فانسحبوا قانعين ومسلمين بأن التنافس تصفى على القصر والمعبد إلى الأبد إلا إذا..

"سكت الراوى وصنع لنفسه مشروباً رغوياً فى كوب كبير وتابع دون أن يتم كلمته".

أما القسم الثانى من المعبد فهو بناء حديث هرمى ومن ثم فهو غير مسقوف. وكان قضاعه يضيف أكثر مما يزيل. ويبنى أكثر مما يهدم وهكذا اكتظ معبده بالأسرار والغموض والدهاليز والرهبة.

نرى إحدى القاعات من المعبد ذات أربعة أبواب فى جانب واحد منها تظهر بعض المفروشات الخشبيه المتطوره عما لدى حورا وبعض التماثيل. قضاعه جالس و إلى يمينه ندشب. يدخل ساشا مقوداً بأحد رجال قضاعه الذى يتركه أمام مولاه وينصرف دون كلمة واحدة. إن المرء ليحس فى رجال قضاعه الأهبة الحربية وحسن التربية. اليقظة والقوة والإنضباط.

إقترب ساشا من قضاعه وعلى حين غرة سجد تقريباً تحت قدميه وكاد يلامسها فغشيه قضاعه بداءة بنظرة طائر مدرب جيداً على الصيد. غير أنه وجد الفريسة ملهاة فى صيد فأقام بصره عليه وقتاً كأنه ينقى بعضه عن بعض. ولما إنتهى ساشاى أشار له قضاعة بالجلوس إلى جواره ثم إلتفت إلى ندشب وأشار له فغار على الفور.

قضاعة: هذا اللقاء فخر جليل سوف تذكره لك الأجيال. سوف تسألك الخلائق يوماً ما هل قابلته حقاً؟ هل جلست إليه وكلمته؟ كيف كان؟ ماذا قال؟

قال ساشاى مدفوعاً بالإمتعاض: " لكنى رأيت مولاى فى السوق اليوم وكذلك الناس اجمعين على تباين أمزجتهم ومكانتهم.

يتنحنح قضاعة ثم يقول باقتدار: " إن ذاكرتك لقوية. وأنت على هذا ملحاظ".

ساشاى: إن من لا تلفت الشمس جبينه وإن كان أعمى فهو ميت.

رد قضاعة بسلبية: " وماذا لفت نظرك إلى الشمس؟

ساشاى: مولاى، إن الناس كانت تتزاحم دوماً على السوق. تغدو وتروح كخيط من قطرات المطر ولكنهم لم يسجدوا إلا لواحد.

سعدت نفس قضاعة بتلك اللفته الممتازة من ضيفه الشاب وكأنه كان بحاجة إلى من يذكره بتلك اللحظة الخالدة.

قضاعة: على أية حال هذا مما كان. ومن الآن بغير إنتهاء سيندر لقائي بالغوغاء، سينعدم. وسوف يمسي شريفاً من يحظى بمصافحة قضاعة أو بكلمة من فمه.

ساشاي: أظن سيدى حورا يفكر فى شئ كهذا.

قضاعة: يفكر؟ مازال يفكر؟ هذا فأل طيب فطالما سبقني. لكن أخبرني من علمك الصلاة؟

ساشاي: أوحى إلى.

قال قضاعة بهول: ماذا؟

ساشاي: أقصد أني ألممت بشئ عن مولاى.

قضاعة: " أوه. نعم. "

يصمت برهة ويسأله: " ماذا عرفت خلاف ذلك؟

ساشاي: إنما إستفهمت وسؤالى لا يربو عما رأت عيني.

قال قضاعة معجباً به: إجلس.

قال ساشاي بحيرة: " أنا جالس ".

قال قضاعة: " أعني جلسة إسترخاء. إني احب الرخاء لنفسي مثلما أحبه لجليسي حتى وإن جلس معي مرة واحدة. مرة واحدة تكفي. ما اسمك؟

ساشاي: ساشا.

قال قضاعة بالتماعة من عينيه: " ظننت أني سمعت لك اسماً أخر؟

يصطخب ساشاي فى الحيرة بعض الشئ وحين ينتبه وبالأصح يتذكر يصيح: إسمي ساشاي ولكن..

قال قضاعة كأنما يراود طفل على قبول لعبته محركاً يده كجاروف: ". ولكن.. قل.. قل.. "

ساشاي: ولكني أحببت ألا أثقل على مولاى باسم صعب المراس. وقد أشار عليّ سيدى حورا بأن أخففه فأسماني: ساشا.

قضاعة: سيدك حورا؟ طالما كان مبدعاً. وهذه إحدى تجلياته. هل تحدثتما كثيراً؟

ساشاى: قليلا. فقد لازمنى كاروا معظم الوقت.

قضاعة: "واضح، مفهوم. على كل أمامنا متسع من الوقت كى نتعرف على بعضنا أفضل بلا رتوش. هل تفهمنى؟"

يهز ساشاى رأسه أن نعم.

قضاعة: لا. لا. إستخدم لسانك فلهذا العمل أوجده السيد/ الإله.

قال ساشاى بدون تردد: نعم.

قضاعة: " اتدرى لماذا أنت هنا وبأى صفة؟"

قال ساشاى بخفوت: " لا."

قضاعة: ألم يخبرك حورا بشئ؟

ساشاى: مثل..؟

قال قضاعة ناظرا إليه بتمعن ولعله يخمن: " أى شئ؟ أى كلام؟"

ساشاى: لا.

قضاعة: على فكرة، أنا لا أرغب فى إمتهانك وأنت لا تدرى، ولن تدرى إلا أن تجرب، كيف هو إمتهان قضاعه. فلا تعطنى أية ذريعة لعمل ذلك بإجاباتك من أنصاف الجمل لأنى سأستغلها أبشع إستغلال. أترضى؟

كان بود ساشاى لو قال نعم وكفى. ولكن خوفا شديد الوطأة دفعه إلى إطالتها قائلا: " ذلك يرضينى تماماً يا مولاى ".

قضاعة: حسناً. كيف علمت أنك ات هنا؟

ساشاى: مولاى، إنى لم أخبرك بعلمى الحضور ها هنا. إلى هذا المكان الراقى فى ظل السيد/ الإله. " (يستدرك) مع ذلك إعذرنى مولاى فأنا لا قبل لى على إضطهاد ذكائى أو منعه من التحليق لذلك دعنى أصحح ما قلته، لأنى علمت منذ البداية، منذ أول لحظة وطأت قدماى واديكم العظيم، أنى لابد منتهى هنا.

قضاعة: وأنا علمت..

إحترق ساشاى شوقا لمعرفة ما الذى يرمى إليه غير أنه لزم الصمت على رغمه بصعوبة تعادل ما تكلفه أنفاسه الحين من ثمن باهظ كى تمسك عليه حياته فاكتشاف تواطئه مع حورا يعنى بالحروف الثلاث البشعة ال: م و ت تعذيباً. وما هو إلا قشة هاوية بين سماء ذكورية وأرض كل ساكنيها رياح ورمال.

كان ساشاى يحاول منذ اللحظة الأولى أن يطعم كلامه بومضات صدق ما إستطاع إلى ذلك سبيلاً شرط ألا يقع هو فى الفخ ولكن قضاعة فوت عليه الفرصة مرتين. أول مرة حين إهتم بتفكير حورا دون أن يسأله عن مضمونه وهذه المرة حين اكتفى برده الغامض دون أن يسأله كيف؟ فبدا يستبق الشعور بتيار الهزيمة يسرى فى نفسه.

قضاعة: بصراحة، وهذه الصراحة التى سأتهادى بها إليك إستثناء محمود لك وحدك حملتنى عليه إرادة السيد/ الإله فليست كل الناس، بإرادة السيد/ الإله ذاته، جديرة بالصدق والوفاء والصراحه. أنت هنا لعدة أسباب. أولاً: لأنك طيب محظوظ. ثانياً: لأن السيد/ الإله هو من طلبك بالإسم مرتين، فهو انتخبك واصطفاك لتقيم إلى جانبه وفى حماه. ثم إنك لست من اهل الوادى ولهذا معنى يفوق التصور فى تقدير السيد/ الإله. إنها ميزة لا حد لحدودها وسوف أجلوها لك فى وقت لاحق ".

يسكت برهة ثم يستأنف بلهجة خطابية مصطنعاً البشر: " أنت - منذ الآن – خليل السيد/ الإله. لقد فضلك لهذه المكانة على كل العالمين. تمهل وسوف تتأكد قريباً كم ستجنى من وراء ذلك الإختيار. ثم إنه فضلك بعد ذلك لأمر هام..

قال ساشا بحماس: " إنى ريشة فى جناح السيد/ الإله فلينزعها إن شاء أو يتركها مع جزيل الشكر فلا قيمة لها إلا فى طيرانها وطيرانها رهن تواجدها فى مكانها المكين من جناح السيد/ الإله. ولكنى يا مولاى أجهل واجبى نحوه.

قضاعة: لكل حادث حديث. وعندما يأمر السيد/ الإله آمرك. ثق أنى أيضاً أجهل ما يهدف إليه منك. لم يخبرنى. أنا أنفذ فقط ما يأمرنى به دون تردد كما ينبغى أن تفعل أنت أيضاً. هذا هو الإيمان الصحيح. فى الحقيقة أن منصب خليل السيد/ الإله فى الأصل كان لى ولكنى أتخلى لك عنه بأمره وسأحتفظ أنا بوظيفتى الأساسية كرسول له. أترى كم هو كريم سيدنا/ الإله.

قال ساشاى بمكر: ألن أقابله وأستنير؟

قضاعة: كلا هو مشغول الأن، معتكف.

ويتدارك بعد حين قائلاً: " الحق أنك لن تقابله أبداً، وسوف تتلقى أوامره عنى. إنه لا يتحدث لغتنا ولغته لا يفهمها إلاى لأنى الوحيد الذى علمنيها كما أنه لا يثق – من البشر - إلا فىّ. وغاية ما أعلم أنك إذا وفيت وإجتهدت لمرضاته، أنه وعدك بنعيم وفراش وثير وبوكالة منصب ذلك الذى أشتراك فأغضبن بعمله الشائن السيد/ الإله.

ساشاى: كاروا؟

مالبث الحديث أن غطى على إمتعاض ساشاى وتذمره لفشله فى الحصول على هدف ومأرب قضاعة فيه.

و إذا كان أدرك أن الأمر فى الوادى جملة، ليس بالسهولة التى كان ينتظرها بعد مقابلته لحورا فانه الآن صار متأكداً من ذلك بعدما وجد الكفة الآخرى من ميزان القوة فى وادى الرعاة لا تقل بأساً ودهاء عن مثيلتها. وأجابه قضاعة:

" بل حورا. سآخذ أنا منصبه وأعينك وكيلاً عنى بإدارته. إن السيد/ الإله يوصيك بالتكتم فى هذه المسألة الحساسة. كل ما تعمله بصفتك خليلاً له سر ومفتاح هذا السر، النسخة الوحيدة، لا وجود لها. ويستدرك بسرعة: إلا مع السيد/ الإله طبعاً. هل تفهم؟

قال ساشاى سعيداً بهذه المعلومات المجانية الخطيرة كما ظن وبالثقة التى يستتبعها ذلك: " أجل مولاى ".

قضاعة: إن السيد/ الإله سخى، عطاؤه جذل على ضفتى الجزاء إن اهملت لم يهمل. وإذا راودتك نغمة شاذ واحدة أحرقك حيا من خلال معزوفة ناشذة عن كل ما تتخيل من عذاب وألم. وإن أجدت فمكافآته لا حد لها، إعلم أن هذه الصواعق تخرج من فمه وما الأشجار العالية التى تغطى حدود الوادى الشرقية ألا شعيرات فى أكفه وهذه الهواء الذى يحفظ علينا حياتنا ما كان إلا عندما تثاءب ذات يوم. أترى إلى أى مدى يصل جبروته؟ فيا خليل السيد/ الإله إياك وعدم الإكتراث بنعيم وجحيم من لا يبزه فى أيهما إنسان ولا كل البشر مجتمعين.

إننا ننصت إلى كل هذا ونصدق فعلاً تجاوب ساشاى وإنبهاره مع ما يقرره قضاعة عن السيد/ الإله إلى أن يكمل: "وهذه تتمة كلامى: أنت حر منذ الساعة".

ساشاى: حر؟
قضاعة: هذه إرادة السيد/ الإله ولا يرد مشيئته إلا مشيئة/ الضد.
يضغط ساشاى دهشته وفرحته إلى أدنى حد. ويحاول أن يشد زمام نفسه المتقلبة إليه لكنه يقول منفعلاً غير محاذر.
ساشاى: أين الصك؟
قضاعة: الصك. اه، سأحفظه لك عندى إلى أن تثبت للسيد/ الإله إخلاصك وتفانيك فى خدمته. وأطمئن أنا بدورى على ولائك. أنت الأن الرجل الثانى للسيد/ الإله وأنا لا أفضلك إلا فى الأسبقية فما أكون إذا خنت أو غدرت به لا سيما وأنه قد سألنى عنك فأجبته بأنى أضمنك.
كان بإمكان قضاعة أن يمتلك كل ذرة روح من ساشاى لو أنه لم يتقاعس عن إظهار الصك.
ونذكر مقولته التى زادت الشك أكثر فى قلب ساشاى بتغيير مشيئة السيد/ الإله لعكسها لمجرد تغيير مزاجه فقال بمشاعر لم تزل تفور وتنبجس بصدره بكل لون و مذهب: "ليس ثمة حاجة بالسيد/ الإله إلى وسيلة ليعلم أو لبرهان حتى يتثبت ولئن إختارنى خليلاً له فما ذلك إلا لتوثقه من حبى وإخلاصى فى خدمته.
قضاعة: لا تحزن، يا خليل السيد/ الإله فهذه إرادة السماء التى لا يجب – كما تعلم – أن نطيل نقاشها. هناك مفاجأة ساره لك. "
وانتظر يراقب رد فعل ساشاى وانفعلاته فلم يجد غير عينين ذابلتين وشبح آدمى يفترسه الهم مما جعله يستأنف بحماسة خالية من الروح:
" هذا المنزل الكبير، المعبد، أنشأته أنا والسيد/ الإله، مناصفة. وقد تنازل لك عما يخصه، أى النصف ".
صدم ساشاى. وأدرك أنه لم يقبض سوى الريح. لا شئ، لا حريته ولا أملاكه المزعومة. ولكنه – بمشقة كبيرة – إستظهر السعادة والإنبهار فى كلماته، طالما أعجزه أن يظهرها على تقاسيم وجهه. فصاح: " لا أصدق ذلك. أنا فرحان يا مولاى، كل هذا لى؟ إنى سأنفق من جهدى بلا حساب لأكون جديرا بمنحة السيد/ الإله".
ثم قال وهو ما برح يحاول بإستماتة: " فما هو المطلوب منى عمله آتيه حالا؟ "

قضاعة: إصبر.
ساشاى: لا، إنى أصر.
قال قضاعة ساخراً: " هل تبالغون كثيراً فى بلادكم؟"
قرع آخر على هامة ساشاى الذى وإن تماسك إلا أنه بدا فى حالة مزرية حتى أن قضاعة أخذ يشفق عليه. بتبرير يقبله عقله. إن ساشاى محبط لعدم حصوله على الصك. ليس إلا. بينما قال ساشاى محاولاً إستعادة طريقه الصحيح: لا ذنب للكلمات. إنها تنضح بما فى الإناء، فشوقى عظيم لخدمة سيدنا الإله، وهذا ما جاش بصدرى.
قضاعة: دعنى أصحح. كنت أقول، إن المبالغة ضارة إذا تكررت أكثر من مرة فى يوم واحد. لابد أنه طبع الناس فى بلادك، والمرء يتشرب من ملة أهله لا مفر، هذا هو التفسير الوحيد المتاح لى. "
لا ينطق ساشاى وقد لزمه كره هائل نحو قضاعة.
بينما يضحك الأخير قائلاً: " إسترخى يا خليل السيد/ الإله، لا يكن عندك شك. فحينما يبلغنى أمر السيد/ الإله سيكون بين يديك فى أقل من دقيقة، وأرنى ساعتها قدرتك. إهدأ، وإدعوه ألا يكلفك بما لا تطيق.
ساشاى: اتمنى فقط ألا يمتد إعتكاف السيد/ الإله فإن نعيم قربه يغرينى، كما أنى اتوق لتأدية أية مهمه يرتضيها لى، وسوف ترى يا مولاى صدق كلامى.
قال قضاعة كالحالم: لا أعتقد أنه سيطول. وقبل أن يفتر عزمك وحماستك، لن يبخل السيد/ الإله على ساعدك الفتى بإنجاز شئ تدلل به على صلاحيتك.
ساشاى: أسألك مولاى شيئاً واحداً، كن عوناً لى أمام عين السيد/ الإله لأثبت له جدوى إختيارى وكفايتى.
يهز قضاعة رأسه راضياً ويعرج بمجرى الحديث فى اتجاه آخر: "حدثنى عن بلادك، وقاطنيها، وكيف يعيشون؟ مهلاً، أهى إلى السماء؟"
ساشاى: عفوا يا مولاى، لم أفهم؟
قضاعة: أعنى، أهى بهذا الإتجاه؟
يوشك ساشاى أن يضحك قائلاً: أه، تعنى شمالاً.
قضاعة: أتسمون هذا الإتجاه. شمالاً؟

ساشـاى: نعـم، وهـى أربعـة إتجاهـات: شـمال وشـرق وغـرب وجنوب.

ود قضاعة أن يسأله شيئاً ولكنه صمت. ثم قال: كلمنى عن إلهكم.

ساشـاى: لـيس لنـا إلـه واحـد، وأنـا آمنـت بـإلهكم. بالـسيد/ الإلـه الواحد.. إلهكم..

كانت إضـافة لا معنـى لهـا، وخطيرة. ولكن ريـاح البخت الـشذية تفـرز أنـاث وتفرضـها عليهمـا فـيفض مطلعهـا البهـى هـذه الحـرب الباردة، هدنة، يأخذ كل منهما أنفاسه ويشحذ سلاحه، خاصـة ساشـاى فالموقعة ليست بأرضه وليس له من نصير غير نفسه وأمالها، كما أن الغموض لم يزل يحيط بقوى أعدائه.

إن المتابع، العادى، لوادى الرعاة سوف يلمح بسهولة إن لسكانه خاصـة غريبـة فـى سلوكهم، أنهم يتكلمـون بنـصف الحقيقـة. يطلقـون بعض ما عندهم والبعض الأخر، المهم، الحقيقـى والـصحيح، يقبروه فى صدورهم. إلى متى؟ وما هو؟ ولماذا؟ عجيبة ثالثة تضاف إلـى عجيبتيها الشهريتين.

تدخل إناث مسرعة ساخطة فترى ساشاى ويتعلق بصرها بـه لحظة. ينهض ساشاى بينما يظل قضاعة جالساً ويقوم بالتعارف من جانب واحد.

قضاعة: أى خليل السيد/ الإله، أقدم لك إحدى..

قاطعته أناث فى تجهم: " زوجته".

قال ساشاى وهو يصافحها: "ما أجملك سيدتى، إن جمالك لهيلمان. مـن النـادر أن يتعرض المرء لمثل هذه الفرصـه الثمينـه ولـشد مـا يسعدنى يا مولاتى أن أقابل الجمال الرائد الذى نحن أحد خدمته ".

ينحنى ساشاى تقديراً لها وتضطر إناث إلـى سحب يدها من يده الناطقة بينما يقهقه قضاعة جذلاً صاخباً: " حقاً، إن بلادك لنظيفـة. أرأيت؟ إنك لن تكف تخبرنى عن نفسك وعن بلادك دون أن تريد أو تدرى. "

ويقهقه من جديد بينما لم تسمعه أذنا ساشـاى التـى كانـت تـصغى لفتافيت قلبه السكرى. يعود إلى الجلوس وتبقى إناث واقفة لحظة ثم تنسحب حتى تلاصق قضاعة وتهمس له: "أريدك".

قال قضاعة بلا مبالاة: " لماذا؟

تنظر إناث فى قلق إلى ساشاى الذى لم يزايل فؤاده الوجيب كعصفور يتدرب على الطيران فوق حلقة يسمر عليها الصيادون.

قضاعة: لا بأس. إذهبى الساعة، وأعدى لنا طعاماً.

تتريث إناث برهة ناظرة، غاضبة، إلى زوجها. ثم إلى كليهما. وتتقهقر خارجة كما دخلت، عنيفة الحركة والنفس. آه، قليلة هى تلكم الأرواح التى تتعذب دون مساس بألم وقوع إصبع من الجمر على صرة طفل رضيع مقيد إلى مهده.

ساشاى: إنى أحسدكما.

ترتسم على وجه قضاعة علامة إستفهام ضخمة جعلت من حاجبيه المقرونين الغليظين علامة إستفهام حقيقية. ويطرد ساشاى مفسراً: "هى على جمالها الفائق الفاتن، ومولاى على كرمه وحرصه على هذا الجمال من العبث به".

قال قضاعة ضاحكاً: " لكنى أعبث به ".

قال ساشاى فى تردد، بعد أن أخذه الحزن لحظة: " لا. معذرة يا مولاى. إنه يترفع بملامستكم، تماماً كما أتشرف بمجلسكم. " يهمهم قضاعة بإنبساط. ويضيف ساشاى " الجمال والسيادة توثقا ونعم الوشيجة. لقد قام مولاى بأجل الأعمال عندما إلتقط هذه الدرة الثمينة من أيدى غوغاء قذرة رخيصة، ولا أحسبها تنسى صنيعك هذا، حتى إذا إختليت بها تلالأت من أجلك بأحلى ما تستطيع واشهاه ".

تنهد قضاعة وقال: "أصبت يا خليل السيد/ الإله. إن موت إله ليس كموت حيوان. وفناء أرنب على يد غضنفر ليس كسحقه بمخالب كلب. وأنا حتى إذا كنت اعزقها فهى أجيرى. وهذه ليست ضريبة حماية إنما أسبغ عليها علاء".

ويمضى فى خطابه كالحالم أو المستلذ: "نعم. أصبت كبد الحقيقة. إن السيادة، كما علمنا حورا، قبح. ولابد للجمال من هذا القبيح يصونه ويذود عنه بقسوته ووحشيته. لا عوض عن النار حتى لا تنطفئ شعلة الحياه: الماء. ونحن عانينا الأمرين فى الحفاظ على مياهنا. أنت محق تماماً، فذاك أمر نادر توافقه ولكن السيد/ الإله يسّره لأنه يسُره. وليتها تفهم ذلك. عبثاً حاولت أن أفهمها.

يمسك قضاعة حين تدخل اناث فى أسى شديد، تحمل قصعة من الفخار تتسع لجلوس طفل رضيع وهو خالد إلى راحة الإتساع والبحبحة. وفيها ألوان من الطعام والفواكه لا فاصل بينها.

يقف ساشاى ويتناولها من بين يديها بوجد. وتوشك أن تنسل منباطأة إلى حالها فيستفهم ساشاى من قضاعة فى تردد واضح وهو يرغب فى إسماعها كلماته: " ألا تأكل معنا؟ أم هى لا تأكل ما نأكل؟ فهكذا الحسان يا مولاى يفعلن كل شئ وحدهن، إلا النوم".

يلقى قضاعة بالطعام من يده وهو يجهر: اناث. (تتوقف مرغمة) لقد أذن لك خليل السيد/ الإله أن تشاطرينا عشاءنا.

اناث: وأنت؟ ألا تأذن؟

قضاعة: " أنا الذى دعوتك. هيا تقدمى، وإياك أن تبدئى فى حضور خليل السيد/ الإله. "

يبدو على اناث التمنع فيلفظ قضاعة من بين أسنانه لساشاى: " إن هدهده القطة والإكثار من مطلافتها يحرضها على الخمش ".

قالت اناث مرتابة: "ماذا تقول؟"

يتجاهلها قضاعة مخاطبا ساشاى: " إن التدليل فيما يظهر مفسدة للنساء، وللجميلات منهن خصوصا".

ثم يلتفت إلى اناث ويزجرها بغلظة وجفاء: " هلمى".

تتقدم وتجلس ذليلة مقهورة فيرق لها قضاعة: "هلا بينت لى سبب تذمرك هذه المرة؟"

لم يكد قضاعة يتم إستفهامه الودى بلهجته المشجعة حتى إنهمرت اناث بسيل عرم شاردة إلا عن كلماتها: " هل أنا سجينة هنا؟ أردت الخروج فألف باب تضيق علىَّ. ألف باب فى هذا المعبد التعس ليس بينها باب واحد يتسع لى. وهذه الخراف التى تحرس الأبواب، كلما سألت حارسا أجاب بوقاحة: " لقد خرجت ". لماذا وكيف؟ لأنى خرجت من باب غرفتى. أفهذا تسمونه خروجا؟ إنى أحذرك، لم يمضى علىَّ شهر واحد فى المعبد وبدأت أسأم الحياة فيه. أريد التغيير، التغيير.

الراوى: يطلب الإنسان التغيير بطبيعة فطرته ولا يمل فى طلبه مهما كانت عواقبه. ويطلب الإله له الثبات بناموسه الإلهى. فكيف يتلاقيا على طريق واحد؟ والسؤال للثانى.

يضحك قضاعة من ثورتها على الحراس ووصفها إياهم بالخراف، بينما يعبس ساشاى لما أحسه من إحكام الأبواب. وفكر: إن قضاعة ما كان ليمنحه أى إمتياز وما كان ليكشف له بعد خمس دقائق من لقائهما، بكل هذا الوضوح وبمثل تلك السرعة، عداوته لحورا إلا لتمكنه منه وكأنه – فى كل ما فعله أو قاله - كان يحدث نفسه فى المرآة. وإذن فهو حر، حبيس. وهو خليل السيد/ الإله بغير شهود. بل إنه موجود بغير وجود.

رد قضاعة على اناث قائلاً: رغم أننا جميعاً سجناء رحمة السيد/ الإله، والفارق الوحيد بيننا هو مساحة السجن، إلا أنى يا حبيبتى ودرة معبدى، أرجو ألا تؤاخذينى بذنب حيوانات..

أراد ساشاى إزاء حفرة وضحت أمام عينيه أن يغامر بعبورها ليستميل إليه اناث. ولئن كبا فيها فإنه نجح فى إستمالتها فعلاً. قال مقاطعاً قضاعة: حيوانات تخدم السيد/ الإله؟ كيف يا رسول السيد/ الإله؟

قضاعة: "إخرس أنت".

سكنه

قال قضاعة مفتعلاً الحرج: " التمس عذركما. ان هذه البهائم تثير حفيظتى. ما عساى افعل يا خليل السيد/ الإله؟ دلنى. إنتقيت أجود الموجود فى حظيرة السيد/ الإله وها هى تخذلنى مجدداً. هل ألام وأوخذ بتبعة جنس ردئ؟"

وفجأة يلمح قضاعة ضيفه الشاب وهو يسترق النظر إلى اناث، زوجته، بإمعان وشره. ولاحظ بانتباه شديد مدى جمالها ولا مبالاتها. وفوجئ ساشاى بعينى قضاعة المسلطتين عليه فى هدوء تام فكأنما الحيض فأجأة بكل ما يعنيه ذلك بالنسبة لرجل. ولكن مغرقة أنقذه، فيما وضح أنه ي بد ذلك.

قضاعة: وى. لم تحدثنى يا ساشا عن نشاطكم فى بلادكم.

ساشاى: هه؟

قال قضاعة حليماً لطيفاً: " كنت أقول.."

يقاطعه ساشاى باندفاع: " نعم، إننا نزرع، وزرعنا وفير. وكذلك صيدنا. أما رعينا فقليل".

قضاعة: تصيدون؟ رائع، هل تصيدون الخنازير؟

ساشاى: وما الخنازير؟

قضاعة: ألا تعرفها؟ أنها جنس حيوانى، وحشى وردئ، أرعى الكثير منها فى المعبد، وكثير منها يتعبد".

ويختم ذلك بضحكات مجلجلة قائلاً: " قطتى الفاتنه تعرفت عليها مؤخراً، والأفضل لك ألا تتودد إليها. الأفضل بإطلاق ألا تعرفها".

لا تستملح اناث فكاهته وتصب عليه نظره شذراً. ما لم يقدره قضاعة حق قدره ان أسلوبه الفظ فى السخرية كان يؤلم روحها بأكثر كثيراً مما يبدو على وجهها وتعبيرات عينيها وهو الحريص على إرضائها دائماً لترضيه أحياناً. فيما قال ساشاى الذى أثر وجود اناث على مقربة ذراع منه على إتزانه وثباته: " بل نصيد من البحر ".

قضاعة: الماء؟

ساشاى: السمك. كما نصيد من الغابات والبرارى الحيوانات المختلفة.

قال قضاعة مبهوراً، يحاول ألا يفرط فى انبهاره: " وكيف تمسكون سمك اليم؟ ألا تـ جزكم المياه؟"

ساشاى: كلا، فنحن نصيدها بالحراب لا بأيدينا.

قضاعة: وما تكون هذه؟

كان كل تفكير ساشاى لحظتئذ محصوراً بدائرة اناث التى حسبها إنخرطت فى بديع كلامه. والحقيقة أنه أراد أن يبلغها أنه أجنبى متفوق.

ساشاى: "هى اشبه بال.. هكذا".

يمد يده ناحية الطعام ويستأذن قضاعة: "هل يسمح مولاى؟"

قال قضاعة بدون تردد مشجعاً: " بكل تأكيد. تفضل ".

ويرسم ساشاى من مادة الطعام مثالاً يوضح رأس الحربه.

ساشاى: " ويتصل بها عامود معدنى طويل (يرسمه كذلك بمادة الطعام) هذه الرأس تأخذ أشكالاً عديدة، وأهمها هذا الشكل الذى بينته. كما أن طول العامود يختلف بإختلاف رأسه. إننا أيضاً نستخدمها فى القتال، مع بعض التحوير والإختلاف".

وانتهى ساشاى من كلامه ناظراً بفخر إلى ما رسمه متنسماً نظرة رضى وإعجاب من اناث التى كانت تتطلع بأسى إلى ما صنعت يداه بالطعام المقدس فى عرفها. يد فنان موهوب ولكنه يجهل قواعد الرسم.

قال قضاعة ظافراً: " أوه. هذا جيد جداً، رائع".

ويغرف باستعظام ملء كفه رأس الحربه المجسمه بالطعام ويحشو بها فمه على مرات وهو يقول بإبهام بفعل الطعام حيث إنسد فمه به أو كاد: "أريدك أن تصنع واحدة. معدله مما تصلح للحرب".

قال ساشاى فى فزع كامل: " ماذا؟"

بدا على ساشاى كأنه يسمع لأول مره فحوى ما فاه به قبل لحظات. وكأن قضاعة عبد لئيم سرقة، هو مولاه وسيده، واحدة من دراته المعدودات. وكان قضاعة يأخذ باستلتئام قضمة من الفواكه يتبعها بأخرى من الطعام. قال بعد أن خوى فمه وكف فجأة عن الطحن: " أريدك.. أن.. تصنع.. لنا.. مثل التى فى جوفى الحين، إن السيد/ الإله سيسر بها كثيراً ".

فكر ساشاى بسرعة: " أه، وقعت. يا للداهية الماكرة ".

واستنكر ساخطاً على نفسه: " أبهذه السرعة؟ كيف حدث ذلك؟ ماذا أصابنى؟ عموما إنعقد الحبل حول عنقى وادعاء الجهل لن يخلصنى. أجل، علىّ الآن أن أحاول سحب رأسى من الخيه، وبرفق متناه، كى لا ينشد الحبل فيطبق على خناقى. الخطأ هنا لا تصحيح له، ولكن لا ضير من محاولة دقيقة ".

ساشاى: مولاى، إنما كنت مستهلكاً لا صانعاً. وأعلم أن صنعة يستغرق وقتاً طويلا ولا أظن أن هنا ورش عمل تصلح لذلك.

قال قضاعة كمسكين ورع: " إن أنا أطلب إلا واحدة. شيئاً جميلاً كالذى رسمته".

ويضيف مد..لا: " أتخذه شارة وصولجان".

ويتجشأ بلؤم قائلاً: " لقد فرغت من هضمها سريعاً كما ترى".

ساشاى: ثم أن أدوات تصنيعها وخاماتها ليست متوفرة حسبما أرى.

قال قضاعة مستنكراً: " ولكنك تراني. أذكر عليّ حاجتك تكون عندك بمشيئة السيد/ الإله قبل أن يتنفس الصبح.

قال ساشاى مستعيداً إتجاهه الصحيح. وكان إصرار قضاعة ساطعاً كالشمس.. فما سيقوله إن هو إلا تحصيل حاصل: "وإذا لم تكن موجودة نقبت عنها البلاد والوديان، بأظافرى هاتيك، حتى أحصل عليها إكراماً لمولاى وللسيد/ الإله. "

قضاعة: "إطمئن. سوف تكون الخامة بين يديك قبل زوال فجر غد، على أقصى تقدير".

ثم يصرخ هاتفاً: "يا غدنا الجميل أبشر. (ويهدأ) فكر ومر ونحن ننفذ يا خليل السيد/ الإله. ألا يكفيك هذا؟ بعلمك وسواعدنا – لا تستطيع أن تعدها – وبمشيئة السيد/ الإله – لا تستطيع أن تحيط بها – نشيد على الماء مدنا ونبث الروح فى الجماد من أرواحنا. سوف أرشدك، بعد قليل، إلى مكان أمين تعمل فيه، كما يليق بالمبجل خليل السيد/ الإله".

ساشاى: هل يسمح لى مولاى قضاعة بسؤاله عن المكان.

قضاعة: ليس بعيداً، إنه هنا، فى المعبد، فى الجناح الآخر. هل هناك مكان أنسب منه لذلك؟ سوف تتأكد من ذلك بنفسك. إن المعبد باركه السيد/ الإله منذ آلاف السنين. كما تعلم، إنه يحب السريه ولذلك سوف تكون أغلب الوقت وحدك.

تنصرف اناث بالقصعة حين ترى ندشب داخلاً وبذيله صخرة، من باب آخر خلاف الذى خرج منه من قبل. يسر ندشب أمراً إلى قضاعة ويتهامسان لحظات ثم يتراجع محدثاً صخرة: "هيا بنا". يستوقفهما قضاعة منادياً: "صخرة، أظن أنه من الأفضل ألا تتواجد هذه الأيام خارج المعبد. وأنت يا ندشب إصحب أحدا آخراً غيره فى هذه المهمة. "

ندشب وصخرة معاً: " سمعاً وطاعة يا مولانا".

ينهض قضاعة بعد دقيقة ويلحق بأثر اناث من باب ثالث غير الباب الذى غابت فيه دون أن يراعى وجود ساشاى. وهو يحك عضوه بإصبعه البنصر إشتهاء وشوقاً إليها. فيما كانت صورة عجيزتها – العادية - تملأ فضاء خياله بشكل كاريكاتيرى مضحك – أثناء خروجها – بينما كانت ساقاها البديعتين تضوى بمخيلة ساشاى وتنعم فى خياله بلمسات يده الحريرية.

يخلو المكان على ساشاى. وبعد فترة يتسرب القلق إلى نفسه ويتبارى معه الشعور بالعزلة والوحشة. ويستعظم أخطاءه من لحظة أن وطأت قدمه المعبد. وتداهمه الخواطر، طوفان جامح، لا يجمع شتاتها خيط رفيع. إتضح له منها ان هذا المعبد يجمع بين ثلاث، سر قضاعة: قوته وضعفه. وزهرة المعبد: اناث. وبؤرة الإنفجار فى الوادى كله:...

وقبل أن يتحرك إلى ثالثهما يتأمل القاعة بحرية كاملة لأول مرة. يلاحظ الجدران العالية. يستغرب عدم وجود نوافذ بالمرة ووجود أربعة أبواب فى جدار واحد من القاعة. تقع عيناه على الشعلة الزيتية يخطو نحوها ثم يتراجع. يقف أمام الباب الذى ولجته اناث مستشعراً إفتقادها.

يضع قدميه على عتبته مترددا وينظر الى الخارج. يعود إلى الشعلة فيحملها ويتغيب بداخله مقتحما، مرة واحدة. دقائق نستمع فيها إلى صرخات فزع متواصلة ونراه يرجع افلا فى إنكسار جم، مرتعشاً مرتابا، وقد إنغمست إحدى قدميه وتلطخ صدره بالدم.

يتلفت حواليه فى إنكسار ويصيح صيحة المائت الذى إصطدم عفويا، بينما أمل أغاثته يخفت بصيصه، بطوف الإنقاذ السريع.

ساشاى: هذا هو... جنتى.

وبعد ان يؤكد لنفسه مرات عده أنه هو، نفس المكان ويعيد إشعال شعلته المنطفئة ويثبتها فى مكانها، يلقى بنفسه فوق المقعد الخشبى البسيط صارخا:

"أ أه".

لا ترجمه لأهذه فهى ندم، تمنى، ضنى، تحذير، طرب، حمد، حياة وموت، وهى كأنها ضب منه فى روضة ورد فى رياض أطفال

أن يروى حكاية فتافيت السكر، حبه العسلى، فتبدى له الغول برغمه على بتر حكايته وتمزيق أطرافها ويلح بوحشية فى تغيير ختامها المعتق بفراديس من المسك والعنبر. هكذا فى منتصف الحكاية بالضبط تبخرت الكلمات، وولى نعيم الحكى والتذكر، وغامت عيناه، وحل السنط محل الورد.

قال ساشاى بعد ما إسترد أنفاسه: "نعم، هذا هو المكان الذى كنت فيه، لا أظننى سآلف غيره. إننى لن أبرحه وحدى قط. إنه جنة هذا المعبد المرعب. من الممكن ذبح العشرات دفعة واحدة كالنسمة لا يحس بها أحد فى الشتاء.لهذا إذن لم يهتم قضاعة بوجودى، بوحدتى. يعلم أنى لن أبتعد عن هنا قيد شعرة. ماذا رأيت؟ ما الذى يحدث هنا؟ هل كان يعلم ويقصده؟ ما رأيته لا يوصف، لا يحكى. من يحب إسترجاع الجحيم ولو فى الصور بعد ما ذاق عذابه؟

- آاه.

أطلقاها ثانية وهو يتملى الباب نفسه وينكمش فى مقعده على نفسه.

يظلم المعبد

قال الراوى: ما دام لسان ساشاى لا يطاوعه على أن يشرح لنا ما رأى فإنى أستأذنكم أن أقوم بهذه المهمة نيابة عنه ولا تنسوا أنى أدرى بالمكان أكثر من ساشاى نفسه بحكم ما أتيح لى الحصول عليه من وثائق لم تتوفر أبداً للمستر ساشاى. وهذا بالضبط ما يبرر لى شرعية الوقوف بين أيديكم.

لقد سألت نفسى كثير ' ماذا لو أن ما بحوزتى من وثائق ومعرفة تفسر كل شبر من الأرض فى وادى الرعاة بثمراته وأحجاره وخلجات نفس ساكنيه قد وقعت بيد ساشاى؟ كيف كان سيتصرف؟ هل كان سيكتفى باللعب اللذيذ مع حورا وقضاعة فقط؟ أم كان سيطمح بمنافسة السيد/ الإله نفسه؟

معذور ساشاى فما رآه بشع، مؤلم. كان قضاعة قد إستطاع أن يشترى من إحدى القوافل سراً، بمعونة زوبعة، كثير الكلام، كثير الآمال، عظيم النسيان، والذى تمكن مبكراً من السيطرة على روحه بفكرة السيد/ الإله الملفقة، ويمكنكم أن تقولوا المطلقة. تماثيل كثيرة بحجم الإنسان العادى ركبها على عجلات وألزم إلى جانب كل تمثال

حارساً يجره خلفه أينما حل. ولكل تمثال موضع بعينه يفئ إليه نهاراً فإذا جن الليل لبسوا العجلات وانطلق بهم الحراس يجوسون نواحي المعبد في عربدة مخيفة كالأشباح.

لقد دفع قضاعة ثمن الصفقة من الذهب الذى سبق وسرقه من نفس القافلة.

ولم يكن على استعداد لأن يدفع لهم كبشاً واحداً بدلاً من أرطال الذهب التى دفعها وبظنه أنه استغفلهم مرتين.

وهذا الجزء من المعبد، الملئ بالأسرار، المظلم حتى فى نهاره، لا تلبث تدوى فى جنباته صرخات هائلة لأحياء يستغيثون من تعذيب وقهر وحشى. وهياكل عظمية مصلوبة على الحوائط، وبرك دماء طازجة وأخرى متخثرة متفرقة هنا وهناك، وجماجم معلقة فى سلاسل حديثة كالكريستالات فى أيامنا هذه، وأصوات وحوش حبيسة، مخيفة، ونواح نساء وعويل دائم.

وزعم قضاعة للناس أن السيد/ الإله يحركها، ثم زعم فى مرة أخرى – والناس لا تنتبه – أن السيد/ الإله يبث فيها الروح، وقال فى مرة ثالثة - والناس لا تنتبه - أن للسيد/ الإله أرواح عديدة وبعضها تلبس أجسام هذه التماثيل فويل لمن يتعرض لها وياهلاك من يطلقها السيد/ الإله فى إثره. ويكون أول من يصدق فى هذه الخزعبلات – العقائد – الحراس أنفسهم ورسول السيد/ الإله.

وفى مرحلة تالية أصبح الحراس يتلثمون بأقنعة موحشة قاتمة، ويصدرون أصواتاً منكرة تهدد بأقسى العذاب للعصاة المارقين والتماثيل نفسها أصبحت تتخذ أشكالاً عديدة مقيتة.

واستطاع قضاعة مؤخراً أن يحصل على تمثال ضخم من النحاس مفرغ من الداخل، يقوم بإشعال النار فى جوفه فتخرج ألسنة اللهب من عينيه وفمه.

وكان هذا التمثال بالنسبة للناس إلهاً حقيقيا، خصوصاً بعد أن نجح قضاعة تماماً باختياره للمكان الذى يثبته فيه. أسفل الشجرة المباركة.

فأكسب كل منهما الآخر، الشجرة والتمثال، جلالاً أسطوريا، حتى أن قضاعة وقف يتأملهما من بعيد بعد أن فرغ من نصب التمثال متسائلاً كيف كان يمكن لأحدهما أن يوجد بدون الآخر.

وفي مرة من المرات، وقف أمامه مفكراً: " لو أن هذا التمثال يتقدم بنفسه خطوة واحدة إلى الأمام، خطوة واحدة، مرة واحدة، أمام الناس. لو.. "

ولكنه لم يجد طريقة لعمل ذلك بالحيلة أو بغيرها.

وحدث ان قبض أحد الحراس فرقاً بعد أن إصطدم بزميل آخر له، وفي مرة أخرى مات كلا الحارسين نتيجة الصدمة العصبية والنفسية. وكل ما يفهمه الحراس هي أن أوامر قضاعة إليهم هي مشيئة السيد/ الإله. ثم أنهم كأجزاء تتشكل باكتمالهم لوحة قضاعة الملفقة / الحقيقية – لا يرون من أنفسهم إلا ما تراه الأجرة من نفسها، بمفردها. ولا يفوتنا وعد قضاعة لهم بتوسطة وشفاعته في حسابهم مع السيد/ الإله عن خطاياهم التي هي بحسب تعبيره، مخجلة وتدعو للرثاء. وهي التي لم تكن قط، في الحقيقة، أكثر من مجرد أحلام ونوايا ولدت ميتة.

بعد ذلك، تمكن قضاعة من أن يعد فرقاً مدربة، وإن كانت قليلة العدد، تذهب خارج الوادي، بعيداً جداً عن حدوده، وتقوم بعمل كمائن للقوافل يباغتوا أطرافها ويسلبوها كل ما تصل إليه أياديهم دون تحديد لشئ معين إلا فيما ندر. وقيل أن تدخل حدود الوادي الرسمية كي لا يدخلوا معها في إشكالات قانونية ودبلوماسية وغير ذلك مما كلمهم به أحدهم ذات مرة وكانت لهجته تنم عن التهديد أكثر من كونه التماساً بالحماية أو حتى مجرد شكوى.

وكان صاحب القافلة في ذلك الإجتماع العاصف مع حورا قد طفح به الكيل من السرقات " "تعدده وحيث أن حورا كان بريئاً فعلاً من اتهامات الرجل فقد مكنه ذلك من الرد عليه بقوة وجسارة جعلته يخرج من عنده مؤمناً ببراءة الوادي من كل ما نسب إليه زوراً وبهتاناً. وكان المهاجمون بتعليمات مشدده من قضاعه يلوذون بالفرار سريعاً باتجاه الصحراء وليس بإتجاه الوادي مباشرة مما يجعل من العسير إقتفاء أثرهم أو تبين وجهتهم النهائية على نحو دقيق.

الوحيد الذي لم يحضر اجتماع حورا بالرجل، ممثلاً عن القوافل ومصالحها في وادي الرعاة، من بين كل زعماء الوادي هو قضاعة.

كان قضاعة يعمل منذ زمن على إلصاق التهمه بأكثر من واحد في وقت واحد بشكل متقن من خلال مكيدة ذات حبكة جيدة. وهي أن

يترك فى طريق كل واحد، على حده، شيئا من مسروقاته المميزة من القوافل فيأخذها صاحبنا باعتبارها عطية حباه بها السيد/ الإله. واستمر قضاعة بفعل ذلك ويحفظه لوقت الحاجة إليه. وعندما سأل حورا قضاعة بعد ذهاب الرجل وثبوت براءة الوادى قطعيا لماذا تخلف عن الإجتماع قال أنه لن يجيبه إلا بحضور الزعماء أنفسهم وعندها نظر إلى السماء وتلى دعاء واستغفارا ودلهم على السارق من بين المجتمعين بإشارة من إصبعه. وبحكمة القائد العظيم لم يتصل حورا بالقوافل ليخبرهم أنه أمسك بالسارق. وانما اكتفى بنفيه – وهو فى حكم الإعدام المؤكد – وأوقف الأمر عند هذا الحد. وبرغم انه شاع فى الوادى أن السيد/ الإله يخبر رسوله عن السارقين إلا ان أحدا قط لم ينبه من مكيدة زوبعة. ولا السرقة فى الوادى توقفت.

وجدير بالذكر، أن القافلة التى مرت بالوادى، وفاجأتهم بالغارة الكبرى التى سفح فيها دم الرئيس الصالح غصن. ثبت براءة القوافل منها حيث تبين أنها كانت قافلة زائفه سيرتها "الخروج" والقبائل المتحالفة معها.

وكان قضاعة شق المعبد الى نصفين، جناح لجنده وأسراره وما إلى ذلك من إعداد سرى وأفكار إستعدادا للحرب حتمية الوقوع بإعتقاده بينه وبين حورا. وهذا الشق لم يعد يرفع سقفه لا صيفاً ولا شتاء. ويقيم فيه هو واناث اضافة إلى ساشاى الآن.

وتعتبر الشجرة المباركة وهى تقع فى منتصف المعبد الآن بعد القسم الثانى الذى أنشأه قضاعة من أساسه.ضمن هذا الجناح عمليا، فى نهايته. وكان قضاعة يتوسع باستمرار من ناحية الغرب. وصارت الحراس أو الأشباح التماثيليه لا تهدأ هنا ليل نهار. وقد اضحى لهذا الجناح بطرقاته وغرفه، عدا المشغوله منها، ظلمة القبور فيما لو انطفأت الشعل الزيتية القليله المتناثرة هنا وهناك التى تضى الممرات بأقل من ربع إنارته الطبيعية.

وفى مرحلة ثانية قيد قضاعة حراسه إلى التماثيل بسلاسل حديدية كانت ضمن أسلابه من إحدى غاراته الخاطفة على القوافل. وبات المكان لمن يجهله جحيما أرضيا لا تستطيع البقاء فيه لاكثر من دقائق معدودات. وهو يتخذ منه، كأهم وظيفة لهذا الجناح، وسيلة ارهابية

لمن أراد به سوء ولمن يريد به هو نفسه سوء أو من شك فى ولائه للسيد/ الإله ويسهل خطفه من بين الساعين على أقدامهم.

وكان ييسر لقضاعة عمله ذاك، إضافة إلى الرئيس حورا الذى اكتفى منه بلمحة شكلية مختصرة عن أعماله من حين لآخر، أنه كان يكفى أن تخطر له الفكرة فيلقيها إلى الناس – شاهرى لواء العبودية ليلاً ونهاراً، وليتهم فى كذبهم يصدقون – باسم السيد/ الإله فتراها قد وجدت لنفسها لباساً ومناماً وقصراً وخدماً ووقفاً لا نهاية له، كل ذلك فى ليلة وضحاها.

وأما الشق الآخر، فيضم ساحة المعبد وعدد من الحجرات خصصت بعضها لإقامة الحرس الشخصى لقضاعة وحراس الشجرة المباركة وبعضها للهدايا والقرابين. كما يوجد بهذا القسم حجرة فاخرة، واسعة جعلت لكبار القوم المتعبدين، وأخرى لندشب، المدير المسئول عن كل كبيرة وصغيرة فى المعبد، ذراع قضاعة الأيمن.

يضاء المعبد من جديد

ويشرع ساشاى فى مخاطبة نفسه: "أين ذهب قضاعة؟ لماذا تركنى وحدى؟ أمن الممكن أن يكون ذلك من تدبيره؟ أراد أن يرينى بعض قوته. هؤلاء القوم؟ آه.عندما وطأت قدمى أرض هذا الوادى البدائى ظننت أنى فى غضون عام أصير أميرها وأملكها. لقد أسأت فهم قدرات الناس هنا. لا فرق بينهم وبين أهل بلادى، نفس العقلية نفس القدرة على الإرتقاء والسمو والرفعة ثم السقوط المهين، السريع، الحقير بعده بخطوه أو بلحظه. لزاماً علىّ الآن أن أطور خططى".

ويعود ساشاى إلى هاجس المكان/ الموت الذى هو من ضمن مكوناته الآن: "ماذا لو تسلل ههنا غريب منساق بفضول المعرفة؟ ياليته يمضى لقضائه فى فلوات الجوع والعطش. فهذا أهون من أن يضيع هنا إذا لم يكن من الفزع والهلع وحده ففى زحام حجراته وظلمتها وتفرع طرقاته ومسالكها وانعكاساتها المريعة. ويالهول إتساع التيه فيه وامتداد أرضه، كأنه وكر الشيطان. إن مكان كهذا لابد وأن يثلج صدر أى شيطان مريد،ويحوز رضى آبائه من كبار الشياطين، ويلقى فى قلوبهم الإطمئنان على مستقبل الإنسان. ويعطيهم

أثراً رائعاً كنتيجة لأعمالهم المباركة السالفة.... ولعمري ما كان لهم فيها دور. لم لا يكون قضاعة نفسه شيطان حقيقي؟ "

وإرتعدت فرائصه لهذه الخاطرة السامة: "إن الخوف بدأ يدب في فؤادي. ليدب ما شاء، فلن أسمع له، ولن أسمح لأذني أن تسمع إلا ما أريد ".

وبينما هو يذرع القاعة جيئة وذهابا قلقاً متبرماً. القاعة التي إتخذها قضاعة صالون حكمه. القاعة الوحيدة التي أتم حورا بنائها وكان يستعد للإنتقال إليها حين قرر منحها لقضاعة. سمع صوتاً جانبياً فركز سمعه مهتاجاً بجذعه، مرتجفاً.

يصمت الصوت. يهدأ ساشاي، ويعود الصوت مرة ثانية. يستجمع ساشاي قواه المشتتة ويسير إعتباطاً بإتجاه ما ظنه مصدر الصوت. وآب الصوت يشق السكون فجفل وسرت في جسده قشعريرة أحب أن يتخلص من فكيها باصطناع المزيد منها فأرعش نفسه بأقسى قوة وجهد ممكنين، بدا وكأنه الصرع، وبعث صيحة عنترية ثم هدأ، تشبع بالهواء طويلاً وهمس بتركيز محدثاً نفسه: "إنني البطل، قهرت الصحراء والمتوحشين في بلادي وفي الغابة على حد سواء، ولن يهزمني الفزع في قاعة مثلثة الشكل".

يتشجع أكثر ويتقدم بإتجاه الحائط: " إنه قادم من وراء هذ الجدار".

يعثر على خرم فيه، يستغرب وجوده، ينظر من خلاله في حذر،يصيح بفرح غامر أكل خوفه في لحظتين، وأجرى في قلبه السكينه وعينه لا تزال على الثقب: "اناث. أخيراً. أما من أخ؟ يا ناس؟ أحشائي خلف هذا الجدار".

يرفع بصره إلي أعلى الحائط فيبتئس ويوشك ان يبكي. يصرخ: " اناث. "

يقف أمام الجدار حائراً، يحاول دفعه يائساً: " لابد أن أعثر عليك، اناث يا جوهرة النشوى الطيبة، يا طيب أنفاسي، أين الباب؟ لقد ذهبت من هناك".

يشير إلى الباب الثالث في الجدار المجاور: "أنا أيضاً دخلت هناك؟ لا توجد أبواب، كيف نفذت إلى ما وراء هذا الجدار؟ أين

الطريق؟ ترى هل يستخدم قضاعة هذا الثقب لمراقبتها من هنا أم لمراقبتي من هناك أم لا يدرى عنه شيئاً؟ "

يتأمله قليلاً ويؤكد: " واضح أنه تم بفعل فاعل".

واستمر يخاطب اناث كأنها تسمع له: " اناث، إصبري. لقد إغتصبك الباغية قهراً من زوبعة، ومن كل من وقعت أنظارهم عليك من لحظة ميلادك الميمون، من آلاف الأحلام. ولكني سأطهرك من أثار ذلك الملعون، لابد أنه اذاك مراراً يا زهرة قلبي وأنسه الوحيد". يرجع النظر من الشق يتكلم بسعادة: " إنك تضوين، تبدين باهرة". يستغرب مندهشاً: ". أمن أثر الراحة والغذاء الوفير؟ ولكن أى راحة ألفيتها في الجحيم، اناث؟ هذا المكان قفر مطمور. "

يتذكر ما حل به منذ لحظات: " هذا المكان يكفيه كآبة سكنى قضاعة فيه. بل يكفى أن تمر سحابة وجوده على أرض فتمسى قفراً ملعوناً. أعتقد أنى سأوثق تعاوني مع حورا ضد قضاعة، أعتقد أنه الأفضل، على ألقل هو آدمي مثلي. أين الباب؟ يجب أن أكتشفه. يجب أن أقابلها، بدونها لن يتحقق شئ. اناث".

ويسير للخلف متسللاً، محاذياً الجدار وكفيه تتحسس الحائط العملاق حتى يختفي في جوف الباب الرابع.

المشهد الرابع عشر

إناث في حجرتها تطرق قطعة حديد مدببه بأخرى كبيرة على حجر صلد. كان واضحا ثقل الحديد على يديها الناعمتين وقواها الرخوة وقد استغرقها ذلك العمل تماماً غير ملتفتة إلى حبيبات العرق التي تتقاطر من جبينهات. الحجرة تمتلئ بأساس جيد متقدم نوعا ما هو أحد ما سلب رجال قضاعه الخاصة من القوافل.

توجد خزانة للملابس. سرير. في الوسط على الأرض، قعدت إناث على عملها ذاك كأنما الحياة تتمثل فيه. الحجرة بشكل عام أرقى، أنظف. وقد غسلت إناث ثيابها – نفسها – و ارتدتها من جديد فبدا وكأنه ثوب آخر تماماً لامرأة أخرى تماماً، أعطاها بريقا مضافا. وكانت قد لمت ثوبها في عقده إلى ما فوق ركبتها، وانكشف شينان سماويان نقول عنهما عادةً فخذان.

أطل ساشا برأسه حذرا ثم بكل جسده وهمس لنفسه في صوت هادئ دافئ النبرة. وعيناه لا تبرحان تتأملاها في حنان وبرغبة الحبيب في الفناء في المحبوب: " إناث ! مازلت كما رأيتك قبل أكثر من أسبوع. نفس الجلسة. نفس العمل. نفس الأمان والسكينة. نفس الجمال والنضارة ".

يجز على أسنانه وهو يضيف: " كيف "؟

يتقدم ساشا نحوها متسللاً على أطراف أصابعه ولكنها أحست به.

تدهش وتهب واقفة بقطعة الحديد. تحاول بسرعة واضطراب أن تفك عقدة ثوبها. يعيقها الحديد وترتبك فتسقطه من يدها، بإرادتها، كيفما اتفق. فيقع على الأرض مكتوما ملامساً مشط قدمها فتئن أنه واحدة وتكتم ألمها.

تتأكد إناث من تغطية لحمها العاري. تمسح بإحدى راحتيها على صفحة وجهها الضارب بحمرة الخجل والارتباك والألم، فتشتعل حمرته أكثر ويتوهج.

شعر ساشا بجذعها الذي حاولت صاحبته عبثاً أن تتصنع الهدوء من أول أن وقعت عيناها عليه فتوقف في مكانه قائلاً بالتياع حر وتوسل رقيق: " لاتخافي".

ثم قال بعد لحظة. مضطربا: " تريدين تقويم هذا؟ حكيه على قطعة حجر خشن. هكذا.. مراوحه من اليمين إلى الشمال. لأن عكس هذا (يعني من الشمال إلى اليمين) يصنف إلحاداً".

يمثل لها ما أشار به بينما كانت عيناه ترشقانها بسهام جيدة. وتبحث عن شيء ما في لحم شفتيها المكتنزتين. أما عيناها فقد أخذتهما منه وعبثاً حاول النيل منهما أو اللحاق بهما هاربين.

قالت إناث بعصبيه: " ماذا تريد؟ أمازلت هنا؟ ظننتك رحلت. أو.. "

ساشا: أو مت؟

ويضيف بهدوء وابتسامة صفاء تعلو شفتيه برغمه: "أيهمك وجودي؟"

ترتبك إناث وتصيح كيفما اتفق: "ولا عدمه. لماذا ترنو إليّ باستمرار هكذا؟ وكأني رمقك الأخير أو كأنك.. "

وتمسك.

ساشا: هو هذا " أحبك " وهذا صحيح أيضاً، رمقي معلق بأهدابك.

اناث: متيم ذاهل أم قناصة لاحت أمامه في نهاية النهار فرصة قنص أخيرة. هو الذي لم يحالفه الحظ بصيد واحد طول النهار؟

وتضيف بعصبية بالغ' ' أفق. هذه النظرة أمقتها ".

ساشا: يالك من فوية، ظالمة. إنما أبادلك نظرة بنظرة. منتهى العدل. منذ أول لقاء.. كم مرّة تقابلنا في الأيام الماضية؟ سبع مرات وسبع رسالات تسلمتها منك تقول: أحبك.

إناث: غير صحيح. أنت واهم.

ساشا: كيف؟ أنا قابلتك وراء الأفق، داخل أشيائي. يا ملكة أحلامي وملاكها الطيب. كنت معي نبني الجنات، جنة جنة، وكلما بنينا واحدة زهدناها ورحنا نبني غيرها، وكانت تغمرك النشوى والضياء طول الوقت.

قالت إناث باهتمام إلى حد ما: " إذن فأنت تحبني. حقا؟ "

قال ساشا سادراً في الحلم. مستنكرا سؤالها: " أنت؟ أنت بدايتي ونهايتي في وادي الرعاة".

ويضيف مسترخياً: هل تضارين إن فتنت بك؟

ردت إناث زاهدة: " بجمالي أم بحبي؟".

ساشا: لا داعي لأن نشرب من مياه السراب التي لا تغني عن عطش ولا حتى تمنحنا الصبر عليه. لا. لا داعي لأن نتجادل إن كان القدح ممتلئاً عند الحافة أم للحافة؟

إناث: إنني في العشرين من عمري. وهذا أولى بك لأن تكرر ما قلته على مسمعيك.

كان ساشا ما انفك يفكر في سؤالها الأخير فلم ينصت إلى ردها الجاف فقال بطلاوة وحماسة رهيفة: "أنا أشايع الجمال. والحب جمال. فهو موضوع للحب وأنت جميلة.. فأنت موضوع للجمال، وأنا أحب جمالك. وجمالك جزء من روحك، ومن الحب. ولا يمكن أن أحب جزء من كل. لأن جمالك ثوب هذا الكل. فهو لم يعد جزء، وأنا أحبك، فهذا جمال و.."

تقاطعه إناث وقد أرضاها لهجته في نطق هذه المحاضرة الواهية حتى لقد أسرها ذلك تماما، وأسرى عنها. غير أنها كبحت جماح أمارات البشاشة على وجهها. لقد مالت إليه، حافية. وكسب هو ودها وتعاطفها لا لشيء إلا لسرعته التي بث بها كلامه دون تلعثم واحد.

قالت اناث: "انتهى. لقد اقتنعت بوجهة نظرك الجيدة، يا سيدي".

ثم قالت بعد لحظة بدت لها جد موحشة: " تُرى كم عدد اللاني قلن أن لك وجهة نظر؟".

قال ساشا معاكساً: الجيدة أرجوك.

ثم أضاف مستبشرا، جاداً: أنت كلهن.

تكهن إناث لهجتها الودية وتتغير فجأة قائلة بجفاء: على كل إن أنت اكتفيت بافتتانك المزعوم بي، بجسدي – لعنتي – وحصرته على روحك فلم تسرحه لمطاردتي فهو لا يضيرني في شيء.

قال ساشا المغيب: من؟ الجمال أم الحب؟ هو الحب. لأن الجمال ليس ملكي. هو لك. ولا أملك غير الحب. انت جميلة لأن روحك جميلة. إن جسدك يستمد عنفوان جماله من روحك. وأنا أحبك. أحب

روحك. أيستطيع أحد، حتى أنت، أن يطالبني بردعه؟ ما من قوة على ظهر الأرض تجبرني على ردعه. ماذا ينبغي علي أن أفعل إذا كانت حبيبتي حسناء؟

يبدو على إناث أنها ستضحك. ويستأنف ساشا غير منتبهاً إلى ما أحرزه من نجاح سريع: "ها أنا.."

ويذكر ذلك كما لو كان يعنيها جداً أن يلفت نظرها إلى وجوده، لحماً ودماً، وعاشقا، مؤنباً نفسه على إغفاله هذا التنبيه من قبل. قال ذلك وابتسم فأشرق وجهه وتبدلت نفسه اللوامة بالمطمئنة فيما يضيف بفخر: "إنني لست من أولئك القوم".

إناث: وما شأني بذلك، إن كنت منهم أو عليهم؟

انبهر ساشا ثم قال بشجن: " صدقيني. من الجميل أن يدرك المرء الحب قبل الثلاثين. في الحب ثلاثة أرباع إنسانيتنا. أما العقل فينبغي أن نطالبه بالسير وراءه ذليلاً كما الكلب".

ويضيف بعتاب جميل: " لماذا تتكبر العصفورة الجميلة على حبيبها الذي جاء من آخر بلاد الأرض يقدم لها فريضة الولاء والطاعة".

إناث: حبيبي؟ حبيبي هو زوجي.

ساشا: ولكن هذه هي الحقيقة. الحقيقة التي طالما طالعتها مرارا في صفحة عينيك البديعتين.

تسدل إناث جفنيها مفكرة، وربما رافضة قوله. فيما يقول ساشا: " حتى إن أطبقتيهما فلن يغرب عن فؤادك الجوى ".

قال لي الراوي: "لا نستطيع إلا أن نؤكد أن الحقيقة التي دخل بها ساشا على إناث وأخذ يبوح بها ويوسوس عليها بإيمان خالص لم تكن موجودة قبل ثوان. وتلك النظرات التي أنشأ عليها حجته كان مردوداً عليها. فمن الطبيعي أن أي إنسان نحملق فيه تتخلق في نفسه انفعالات شتى ولا يسعه إلا أن يحملق هو الآخر ولو لجزء من الثانية محملا نظرته الضد معان كثيرة متساءله فتصبح نظراته من ثم غير طبيعية وعرضة لتأويل شتى. وعند الحبيب يصبح التأويل موافقا لهواجس نفسه قبل كل شيء. ومع ذلك. فالمرجح لدينا (يقلب الراوي في الأوراق أمامه) أن ساشا اقتحم أرضا بكر. ولا يسعني إلا أن أؤكد أنه

وجد لنفسه موطئ قدم ممتاز فيها. وليس ثمة شيء آخر جدير بالذكر والتنويه إلا أن تكون إناث قد خدعتنا جميعا في كل ذلك. خاصة وأنها هي دون سواها من قامت برعايته لعدة أيام أثناء مرضه الحامي. وكان فاقدا للوعي، ولم يكن يدخل أو يخرج عليها إلا زوبعة، فيما ندر. ولا نعرف أي شيء مما جرى بينهما ولا بماذا هلوث أو هلوثا معاً.

ويبقى دائماً حقيقة أن إثبات هوى النفس أو القلب على الأوراق مسألة تعتريها الشكوك بقوة. يدفع الراوي الأوراق بيده في إشارة على غضبه من عجزها وتقصيرها عن إثبات هذه الحالة بشكل قاطع".

قلت للراوى مجازفاً لمرة أولى وأخيرة: "لا أستطيع مجاملتك بتمرير هذا التحليل. لماذا تصوب على قلبى وتطلق بلا داع. اسمح لى أن أقول تباً لأوراقك ووثائقك في هذه النقطة من روايتك".

ردت إناث بسرعة وبآلية على آخر ما قاله ساشا: قراءتك خطأ. أو أنك أمي.

قال ساشا: " في لغة القلب، نعم. أنا أمي. ومع ذلك فقد كان الخط واضحا كمراكب الشمس.

ويضيف بانتشاء: " لا سيما الأسلوب. آه، الأسلوب".

ويكمل كأنه يشير بإصبعه لطفلة: " سنعقب على هذا فيما بعد أيتها الساحرة. والآن، تأكدي أن زواجك من قضاعه ليس زواجاً قلبياً. ولا يمكن أن نجهض إرادة القلب متى تكلم. كما أنه لا يحبل بالحب كما تحبل الأرحام بالجنس".

قالت إناث مستخفة بقوله: القلب حيوان أعجم. عضو من أعضاء الحيوان الأكبر. وحبه شهوة. لا تقدر علوم السحرة على ترويضه ونادراً ما تتمكن علوم السماء من أسره. إنه شهوة راقية. أو هي تحاول أن تكون كذلك.

وتضيف متهكمة: " في بلادي اتفق ابن يومين مع الشيخ الفاني على أن يزوجوا الحب باللا حب. وهو زواج ناجح لم يثبت فشله أبداً. والمثل في بلادي يقول: "زوّج العنب بالحصرم ينجبا كرمة عنب. ما دام.."

يقاطعها ساشا: إنني لست ابن هذه الأرض. فلن أسمح لك باغتيال قلبك وأنا شريك فيه. وأنا بالأصح ابنه. أو نصفه.

تستأنف إناث حديثها لا مبالية بقوله: ومادام القلب شاغراً فبالإمكان حشوه بأية عجينة.

ساشا: هراء. إنما أنت تتكلمين عن زوجين. وأنا أتكلم عن زوج واحد. هذه سنة الحياة الطبيعية، إما التماثل أو التنافر.

إناث: منذ متى منع زواج الحب بغيره على أن يظلا زوجين. أنت نفسك منذ لحظات قلت دعونا ندعوا العقل الى السير كما الكلب وراء الحب والمشاعر. فلماذا تعود الآن وتحاسبني بالعقل؟

ساشا: ولكنك تنفين جناحي الحب بدعوى أن له قدمين. أنت التي تفلتين الحب هشيماً إلى النار العارية. أنت؟ أنت بالذات التي تنكرين الحب؟ لا أصدق.

إناث: أي خليل السيد / الإله، ماذا تروم مني؟

قال ساشا بقوة: إما أنت أو تبيعيني أملاكك؟

إناث: أملاكي؟ لا أملك غير...

تتريث. تفكر. ترمقه بغضب.

قال ساشا متجاهلا ما تبادر إلى ذهنها قائلاً بوجد متيم: " بيعيني الثري الذي تتهادين عليه فيزهر في أعقابك حلو الثمر. بيعيني السماء التي تستظلين بأنجمها فتتوهج. بيعيني النسمة التي تحف بك عامدة لتترطب. ألا تتنفسين الآن؟. بيعيني أنفاسك. وجودك. صورتك. صوتك. بيعيني حبك".

مالت إناث رويداً رويداً إلى موادعته وقالت بشبه دلال: وماذا تملك لتشتريه؟

ساشا: أحجار كريمة. لآلئ. ذهب. أيكفيك هذا؟

قالت إناث مدهوشة: "ألديك مثل هذه الأشياء؟"

ساشا: هذه كل ثروتي. إنها من وادي الحب.

توشك إناث أن تضحك. هذه المرّة عليه. وتحاول أن تغير دفة الحديث: كيف جئت؟

ساشا: مثلما جئت.

إناث: تلعب بالكلام.

ساشا: لأجلك.. إن فضيلة الكلام الوحيدة هي أن يتحدث عن الحب.

إناث: ومن قال لك أن هذا يعجبني؟

ساشا: لا ينبغي أن تقولي. أنا هنا من أجلك، إن كنت ذهباً أو زبداً، فلأجلك.

إناث: من أين أتيت؟

ساشا: من المكان.

إناث: وماذا تفعل هنا؟

ساشا: أكلمك فتغيرين مجرى الكلام.

إناث: إن لحديثك أناقة لا أستطيع تحديدها. إنه شيق فعلا.

ثم تردد قوله متأملة ومعجبة: "جئت من المكان. لا بأس. كنت أسألك ماذا تفعل هنا، في وادي الرعاة. في المعبد، في حجرتي؟"

يتمادى ساشا بعد إطرائها: لا تسأليني ماذا أفعل في الدنيا، في الكون، في أفريقية الغالية، على مبعدة ذراع من فراشك ! من الفردوس.

ردت إناث باسمه باقتضاب: سألتك.

ساشا: لا فرق بين ما أفعل وتفعلين.

قالت إناث قاصده الهزء والتصغير فيصدر عنها بغيره: " وماذا أفعل يا حكيم".

قال ساشا باستغراب: تعيشين. أهذا غير واضح؟

تضحك اناث فيدنو ساشا منها فتثب كالنمرة أو هي نهضة جاموس ثم عواء زلزال قادم..

إناث: قف. كلمني من مكانك.

يقترب ساشا غير آبه لتحذيرها الصارخ: " قف. توقف ".

مازالت تحذره وهي تتراجع بجسم: " إياك أن تلمسني. سأستغيث".

استجاب ساشا لرغبتها القاطعة وتخاذل ثم قال يبكتها:

" لو أراد الحب أن يخضع عسكر الكره المدجج بأزكى الأسلحة بإرادته وحدها ما حال بينه وبين ما يريد محال ".

يضيف ساشا بعد هنيهة مشمئزاً ومستنفراً: غريب! لماذا لا ألمسك؟ تتقززين من ممارسة الحب.

إناث: من الجنس.

قال ساشا بعد فترة: ليكن. لكن لم تخبريني لماذا؟ وقبل هذا، حين دخلت عليك، أسرعت تدارين جسمك. مم؟ أنسيت أني، في السوق، شاهدت كل شيء؟ ولن يضيرك إن أنا رأيته ثانية. والحق يقال إن لديك كنز من النشوى فلمن تدخريه؟

إناث: لزوجي؟

ساشا: عجبا. لقد وضع خالقنا الذي لا أدريه في المعاشرة أعلى فنون اللذ - نستطيع بسهولة أن نرى فيها بعين واحدة أصالة وتميزاً. لقد أصلت للحيوانات بلا قيد أو شرط. فلماذا تقيد علينا؟

إناث: إنك تتكلم عن الحيوانات.

وفيم نختلف. حسنا، كان يجب أن نكون على صورة أخرى. إن صورتنا حيوانية صرفه. ثم إنها غريزة.

تضحك إناث ساخرة: عندما يخفق قلب الإنسان في مقاومة وصد أي شهوة بهيمية يصمها بالغريزة. يرتاح ويريح.

ساشا: نذل هو الإنسان يا عزيزتي. ولكن ألا تحسبين نفسك إنسان؟ هكذا اعتاد. وهيهات أن يتحول. ويبقى أمامنا طريق واحد لابد وأن نسلكه فنتعامل معه على هذا الأساس.

- كف عن المداورة.

- لك ما شئت. مع هذا فالإنسان لا يصعد بكل غرائزه على السلم.

- لا أفهم.

- لايهم أن تفهمي. فمثلك يجب أن تتمتع وتمتعنا. غضبت؟ حسنا، سأخبرك. لو كان للإنسان غرائز غير الغباء ما استطاع إلا أن يكنها كل وقته، كتلة واحدة.

يصمت ساشا حيناً ثم يضيف بغته فأجفلها: لماذا ظننتني أريدك عندما تقدمت نحوك خطوة. أليس من الممكن أني كنت أبغى قرص أذنك..

- بكلمة غزل. أليس كذلك؟

- ربما.

- ماذا كنت تريد؟

- لا تهربي. أم تتغابي؟ لماذا كان التحذير والصد هو كل ما جال بخاطرك من احتمالات عديدة. لا جواب. حسن. أنا أقول لك. هي الغريزة نفسها. غريزة الحب التي سعيت لقسم ظهره بينما كانت بيضاته تفقس.

- الحب أصول وقواعد.

قال ساشا ضاحكاً: أوه. طبعا. يالك من حسناء غفل. لقد وضح لي أمام سلوكك غير المبرر هذا أن ذلك القنفذ البري يستهويك أو هو يكفيك و يزهدك فيما عداه. ولكني أجزم لك، أن كثيرين دونه شوكتهم أمتع. وإن لم تكن بالضرورة أحد، وبالأصول والقواعد نفسها.

تخفي إناث وجهها بكفها صارخة: أخرق وسافل.

يبهت ساشا ويتجمد في مكانه. فنبالة الحب عنده غير منفصله عن العشق والتعاشق الجسدي وهو أراد بكلمته الأخيرة نبالة الجسد. ولكنه حزن وتأثر لحزنها وردة فعلها.

قالت إناث سادرة في غضبها: لولا أني لا أود أن تسفك الدماء بسببي ولو كانت دماء حشرة. ولو كان لي الحق كاملاً في إهدار دمها لاستدعيت قضاعه كي أرى صراخ الحشرة.

- تخادعين. مثل هذه النزاهة تكرهني في نفسي (يعني جنسه) بيد أني لن أكرهك. ليس باستطاعتي أن أكرهك. ولو أخبرتني صراحة أنك إنسية صالحة ما كرهتك. إنه الهوى. لو لم تحسي وحدة قلبي في غيابك. لو لم تعانقي نجواي لك منذ أن التقيتك، ما هددتني بقضاعه. ولا بألف قضاعه. بل كنت صرخت فعلاً.

ثم يزعق بأسى: " أنا لا أطالبك بالإذعان لحبي والتجرد حالاً. لا، ولكني أرغب بقوة في معرفة سبب ممانعتك. لماذا؟ لأجل أي شيء؟"

- لأن ديني يأبى عليّ الخطيئة.

وتضيف متوسلة: " ساعدني يا خليل السيد الإله لأتفادى السقوط بين براثنها. أرجوك".

- أوتصدقي فيما يزعم ذلك الدجال؟

- ماذا؟ دين من؟ إن ديني ليس.. أوه. نعم. إنه دينه على نحو ما. أعني.. لا. لا. إن ذلك يبدو من أول وهلة مضحكاً.

- ما الأمر؟ تكلمي وأعدك بشرفي ألا أضحك. بوحي إناث. إنا ها هنا غريبان.

يسكنان معاً في أسر هم واحد مشترك بعد كلمة ساشا الأخيرة ويستأنف ساشا مهدداً: "تكلمي أو أرحل ".

وكأن وخزاً سامًا سرى في كيانها. لماذا انقبضت نفسها بتهديده العابر غير الجاد. إنها لو طردته ما تحرك قيد أنملة من موطئ قدميه بعد كل ما عاناه من فراقها. ومن بحث حذر، عنيد، عن غرفتها. لماذا شعرت بالحزن والخواء والضنى يجتاح روحها كموجة بحر مرتعشة. صامتة. قاسية. لا توحي حتى على الاستدارة والتلاشي. لمجرد تخيلها أنه لن يكون هنا بعد دقيقة. وبينما كانت تفكر مشغولة بهذا الكرب الطارئ أخذ ساشا يلح في كلمته قلقاً عليها: "إناث. كلميني. انظري إليّ. لابد أنك في عوز شديد إلى من تكلمينه تبثيه لواعج نفسك. أفراحك وأحزانك ولو كانت ضريبة ذلك أن يضحك منك ساخراً. تكلمي".

تنهار إناث قائلة: "إني أكاد أتمزق. تصور. دينه صنيعة يده. هو الذي اخترعه. عقيدة وضع مكوناتها لبنه لبنة بجلد وصبر وبأناة. رصها. ساواها. شطها. قومها. علاها. وكأنه يبني خلوده على خلودها. أرساه بناء لا تهزه أقصى العقول فطنة وأحدها ذكاء. ولا أعجب أكثر من أن هداه تفكيره الوحشي إلى عقل الدين فانتشر ونجح. تاجر به وكسب. تصور، هو بمفرده فعل كل ذلك. فعل ما لم تستطع السماء فعله".

تصطرع عضلات صدغي ساشا طالما كان يسمع فأولاها ظهره مدارياً ما ألم به، محاولا السيطرة والتحكم في نفسه، أو جسده بالأحرى. كأنها حالة مرضيه تنتابه عندما يواجه أمراً ماساً بالدين خصوصاً أو فوق طاقة عقله الجميل عموماً فتصبح كما الصدمة العصبية أو ما هو قريب من ذلك. وعندما انتهت إناث كان هو قد استطاع التحكم بجسده واضطراباته فاستدار إليها وسألها: عما تتكلمين؟

- عن قضاعه. أهناك غيره؟

- هل صارحك بذلك؟

- أجل. إنه وله بي. هذا ما اعترف به مؤخرا. وعندما أخبرته أن لعبته التي صنعها هنا حقيقية منزلة من السماء في مكان آخر، لوى عنقه (وتضيف بصوت خفيض، كأنها لا تريد لساشا أن يسمع) وليتها انكسرت. لم يصدق وأنكر. أكدت له أن ما أقول صحيح. وحين أراد أن يصدق، بقسمي بإلهه هو فقط، وبإلحاحي المفرط عليه. قال أنه في كل مكان مصنوع ويقف وراءه أناس عظماء مثله.

حاول ساشا أن يبتعد بأفكاره عن سيرة الإله التي تؤذي نفسه فغاص في بحره أكثر.

- وهل تحجر عليك أي من الديانتين..

قالت إناث مقاطعة: أنا موحدة. وهذا ديني الذي باعوني به وبه اشتراني فضاعه. وأنا عازمة على الموت به.

- ليكن. فهل يبيح دينك تعطيل الممكن الذي أوجده الإله بذات يده.

تنظر إناث إليه مستاءة فيوضح لها: "الإنسان مثلا لا يستطيع أن يطير لأن السيد / الإله لم يرد له أن يحلق. فلم يجعل له جناحين وريش. ولكنه أودع فيه إمكانية الطيران بسواه، كأن يركب الصقور مثلا أو الحديد. هذا هو الممكن بالفعل. أنت امرأة. أنثى. جعلت بإمكانية أن تغشى من رجال كثر. حتى من رجلين في ذات الوقت. أو من قبيلة بأسرها. فلك أن تضاجعي ما شئت من ذكور أو ما هوت نفسك كل ساعة إذا رغبت في ذلك. وهو أمر ممتنع على الذكور. ويصبح سؤالي هو: ألا يبيح دينك القديم.."

تقاطعه إناث بشراسة النمر الجريح: قلت لك ليس لي دين قديم وآخر جديد. ديني واحد، ثابت لا يتغير. ونفوسكم المريضة هي التي ترى ما ترى.

آسف. اهدئي أرجوك. كنت أسأل، هل ألا يبيح لك دينك القديم، الجديد، الأول والآخر، هذا الممكن بالفعل الذي فرضه السيد / الإله علينا بنفسه، على الأغلب. أجيبيني أرجوك.

تقول إناث مستسلمة لطلبه، غير راضية عنه: هذا محظور تماما، فلكل امرأة زوجها.

- وإذا لم تكن متزوجة. وإذا كان زوجها عنينا. وإذا لم تتزوج مطلقا. وإذا تزوجت فطلقت. وإذا تزوجت غلاما فرأت — فيما بعد

زواجها – رجلا أو قبيحاً فأبصرت جميلاً. إني أتكلم عن هذا الممكن الذي فرضه علينا الإله وخلطه بفطرة خلقنا. بترابها. حتى أن لعابنا يسيل حالما نراه. هل نناهض مشيئة السيد / الإله الأولانية؟. وماذا نفعل في هؤلاء النسوة اللاتي استجبن لهذا الممكن بالفعل والذي وضعه السيد / الإله بين أفخاذهن؟ نعدمهن؟ كيف؟ ونحن القائمين بالمشانق نحب غزوهن فيه. إنها أجمل حروبنا ضد هزيمة نفوسنا على الأرض.

- إنك تغالط.

- أبداً. فهو المسئول الأول والأخير عنه. وتلك مشيئته. فالسيد / الإله هو خلاصة الدين. ألم يفكر قبل أن يقرر. وإذا قرر فأخطأ أيستكبر على نفسه معالجة ما أفسد.

- يا إلهي. إنك تجدف في ذاته القدسية.

قال ساشا مندهشاً ومستنكراً ومرحاً: ماذا قلت؟ إنك تفزعين دون مبرر.

- إن كنت تصر على أن تتكلم على هذا النحو فاسكت.

- لن أجيبك.

- إذن. فتأكد أني لن أسمع لك حرفاً واحداً. بل لن أسمح لك.

- مهلاً. مهلاً يا عزيزتي. إلهك نفسه وقف محايداً. لا في النزاع بيننا وبين بعضنا البعض. بل في نزاعنا عليه هو شخصياً. على أملاكه. على كلمته... من أعطاك حق المنع والمنح بينما إلهك الجميل ذاته، يقف على الحياد. ‍ ع كل. فأنا أفهم الإله خيراً منك وأكثر..

" يمسك ساشا فجأة.. ويلفهما الصمت برهة. يتردد ساشا في متابعة الكلام. وعندما يتكلم يبدو محرجاً كما لو كان يلتمس صفحها مسبقاً ويخشى رد فعلها الشديد.

- أليس الجنس امرأة. أنت؟ فكيف يتأتى لدين ما أن يحظر على المرأة توظيف عنصرها البداني الأول، البسيط والنهائي. الهيولي الذي صيغت حلتها منه كالمياه المتجمدة على شكل فم. المركب الكلي الذي يشعرها بوجودها، بكينونتها، الذي ترفس لجلالته نعيم الخلد وهو عن قرب منها. يكاد يكون تحت أقدامها، إذا لم يتضمن تلك العلاقة الحميمية الحتمية بينها وبين نفسها. وأعني: الذكر. ومن ثم،

عاقبة تكبرهم. عندما يصبح الليل وحده دائباً والنهار ملّ التكرار. ويضحى الإنسان خافقين. حان دوره ليلعب دور البطولة. يظهر أوراقه المغشوشة ويكتسح المائدة. عندما ينسق وجاهته مع الحذاء ولون السيارة وملابس لبؤته ولا يفكر مرّة أن تنسجم خرافاته اللعينة مع امتداد الجبال وزرقة البحر وصفاء السماء وكبرياء الجياد.

عندما يصبح الموت أسمى أهداف الحياة. عندما يلاحقون الخير والعدل والحق في الطرقات العامة تشع من جباههم أضواء النيون. عندما يتراهن الإنسان في موائد القمار على آرائه ودينه ووطنه. عندما تنتهي أسطورة ابن السبيل الذي علم الأمير الحكمة وارتحل يعلم آخرين. فاحتكار الحكمة محنة الجميع. ولكنه عاد بعد زمن يلقي على الأمير آخر دروس الحكمة التي عثر عليها في سفره. كان شكله قد تغير، فأمض في تغييره.. وسعى للقاء الأمير. لم يجده مرّة، ولم يقدر على النفاذ إليه مرات. ترصد له في الشارع. لكن الأمير لم يتوقف إليه. أرسل له وعرّفه بنفسه. حضر الأمير النبيل وسأل ابن السبيل حاجته. قال الأخير: "كسرة خبز". ابتسم الأمير له كالملائكة واصطحبه إلى قصره. وهنالك حيث لا يراهما أحد غير أبهة القصر والمعاطف الجلدية النادرة لحيوانات كانت نادرة. ثار الأمير. كيف لا يجد معلمه الكسوة؟ فصحح له ابن السبيل: "بل كسرة خبز يا أمير". هشم الأمير الصحاف والقناني وكئوس الذهب. وأشعل النار في كلماته. ولكن مذ متى تحطم قوام الذهب. خرج ابن السبيل من عند الأمير بخاتمه الذهبي. وأبى أهل المدينة المرابين أن يبادلوه خاتم الأمير بكسرة خبز. لأنهم لم ينسوا قط من قوّى الأمير عليهم حين علمه الحكمة. ونفق ابن السبيل كأي دابة. فالأمير كان قد تعلم حكمتهم هم. فأعطى معلمه الذهب بدل القوت. وماتت الحكمة إلى الأبد.

عندما يصبح الأشراف منبوذين من سكنى الأدوار العليا. عندما لا يتكلم العقل إلا ظناً. يتكلم كثيراً ولا يشبع نهمه لمزيد من الكلام. كل ظنه إثم. حسن، فليتوقف عن الظن، إثم آخر. يلغي الظن بمرسوم وبمرسوم آخر يعلي من شأن الظنانين المحترفين.

عندما يغير الإله خططه ويصنع إلى جانب الجنة ناراً. تريد الجنة لو تصبح ناراً، وتريد النار لو تصبح جنة. لا مفر. أعد كل شيء بمقدار. تدور مهما تدور فالدائرة واحدة. الجنة حجزها نفر قليل. والدرجة الأولى شغلها الصحابة بالكامل. لا مندوحة عن كفاف الدنيا أو القتال. أما انتم فكتب عليكم الدخول من أبوابها الخلفية - وهي كثيرة- وبالوساطة. وساطة شخص واحد لمليارات الأرواح. وفيها حتماً وبضمنها حتماً، الذكية. في الجانب الآخر متسع لنا جميعاً فاهدءوا. لن يقطع السعير نظرته الطامعة في لحمنا.

عندما يظن العقل أنه عاقل فعلاً. يختلي بنفسه ويعجب. يحلق بخياله في سكون لا نهائي. ما أزهى خفة دمه حين يكتب بالدم أسماء الرب الحسنى. يبحث عن صورة عقله في الزجاج لا يجد. يدش الزجاج لا يجد. يتتبعها في شقوق الزجاج المهشم، يضل في البحث. إنها هناك، صورته، تمشي بين الشقوق بدلال. يكتب شعراً على مرايا الراقصات وتفطمه أثداء كلب البحر. يتعثر في أدوات التواليت. يعلك حفنه من بلورات السكر الطبي. لا شيء بعد، يفيق على شبق اللحم في اللحم. زهرة خيلاؤه وهم. لا. لن يعترف على نفسه. إعدام.

في هذا الوقت، يخترق فضاء العباد صوت يتوشح بالنار. شهاب. صدى صوت. الصوت نفسه مات منذ زمان بعيد. يقول: يا زهرة يا برية احتشمي. العري حرام. والنظرة حرام.

والعطر حرام. والنبيـ[illegible]ـء حرام. وقناديل الغسق حرام.

أما الحريق الكبير، المشبوب بألسنة تطاول الجبال، حيث تكون أجسادنا وقودها. فعن ذلك لا تتكلم. لماذا لا يلمنا منذ الآن في حفرة ويشعل فيها النار. وينتهي كل شيء كما بدأ لا شيء. من السهل أن أمسكه من خناقه وأسأله: من يدرينا العفن من غلالة الصبح يا سيد؟ نعاني من قصور مزمن في العقل والوجدان. تعلم أنك سببه. يتجمهر الناس حوله أكثر فأكثر. لن أخلي سبيله حتى أفهم ويفهم. كل شيء وجدناه فاستعملناه. نحن أضأل من أن نعدّل عى صنعة يدك. وأركع تحت قدميه متوسلاً باكياً: إنا لم نخلق شيئاً، حتى أنفسنا. إنا أتفه من أن نبتكر الخطأ. يصادر الصوت وجودنا مبتسماً. من العار أن

يحكمنا صدى صوت. مازلت أسمع ابتسامته في الأثير. نهز رؤوسنا أهلاً.

ومادامت نفوسنا منصاعة للعجز عن أن تعرف وتدرك بنفسها فلن يفيد أي إقناع من الخارج. سألتهم مراراً دعونا نجرب مرة ونعدل. ونبني لحياتنا ما يناسب حياتنا. إنها حياتنا في أول وآخر الأمر. لكن أحداً لم يسمع.

وسوف نغدو بالنسبة لأهل ذلك الزمان وصمة عار. غزاة برابرة. وصمة عار في جبين كبريائهم. وسوف يسيئهم الانتساب إلينا. إذ يعلمون الحيوان. وما يعلموه شيئاً واحداً صحيحاً. ولكنهم، للحق، سوف يفعلون الكثير. سيغيروا الفصول. أو يلغون بعضها، أو يغيرون ويقدمون فيها متى شاءوا. سوف يعلموا البساتين كيف تزهر في الخريف. سيعلموا النبات كيف يعيش بلا ماء. والرياح؟ تحمل المطر إليهم في عز الهجير. هذا صوتهم أسمعه يهدر في وجه الحياة: يا نبته يا شقية — سبحي بحمدنا. تسبح المسكينة صاغرة. يا نجم يا دجى امشوا بعقبى. يمشوا منكسي الرؤوس. احتجاج أخرس. وأنت يا امرأة. نعم أنت يا من تعبرين الطريق وحيدة مع حسنها. أنت أسيرة ذكرى المثقف في الساعة القادمة. وهذا دواني أطلقه بالسهام وفي مقذوفات النار.

ونسوا أن يعلموهم البراءة. ونسوا أن يستعيروا منهم السلام. وبنوا حضارتهم فوق مركبة من حديد في وجهها ما سورة. آه أيتها القديسة في زمن العري المنحط. والدثار المنحط. كل الأسماء، الأشياء، الألحان، الإلحاد. كل المخلوقات مقدسة إلا أنت.

عندما يقدس الإنسان كل شيء صنعه عدا الذي صنع. عندما نقدس النار قدس الأقداس لأنها تحرق. آه، كم أرتاح لأن الكائنات نسيتنا. ثم نراه يظن مرة ومرة ولا يتعلم، يظن أن الترف ترف. والضرورة ملاذاً والتبرير ضرورة الجميع. سئمنا التكرار، أولم ير الإنسان أن يديه اثنتان وملابسه كتان. فلماذا تفرق يا ابن الزمن بين شيئين هما في الأصل واحد. ولكنه لا يسمع ولا يرى. ويتكلم كثيراً. وتتدفق الهبات، ثمن العبث.

عندما تباع الروح بأنجس ثمن لا بأبخسه. عندما يصبح مجرد أن نحيى صعب. عندما يعشش الموت في كل خطوة وفي كل مقعد. في الكحة والكلمة والزهرة والقبلة والعبرة وفي حضرة حفيد الملك ذو الأعوام الستة. عندما يهتك العرض نفسه، أو بواسطة امرأة. كانت والله امرأة قبل لحظات. عندما يقف واحد من ذلك الزمان يداعب الطموح خصلات شعره، يزأر في وجه الكرامة: سماح المرة. سأدق عنقك إن لم تعطينه المرة القادمة نبيذاً معتقاً في قارورة.

عندما يتنافس الإنسان المدجج بالسلاح مع الدود على لحم الموتى. ولأن الدود كل سلاحه الشرف، يهزمنا. عندما تنبش القبور بحثاً عن صدقة. أو عن قطعة مجد. وعندما يسفح الإنسان عرض زميله في الحرب تحت أزير صيحات الجنون والانتحار.

عندما تصبح روح الفقير لرجل الأعمال من كمليات الحياة، حياته. وإن كان ساعده هو الذى يحمل محفة أمواله من مكان لآخر.

في مساء ذلك الزمان تحاول زمرة اجتمعت على مشروبات برينة و مائدة شهية وسيجار كوباوي الغوص في جذور التاريخ بدعوى تحليله. في المفتتح يتشاجرون. فيصنعون مائدة مستديرة، ينتقلون إليها. يحمل أحدهم الكئوس قبل الأقلام. وآخر يلحق به يحمل مجلداً أصفرا من أوراق البردي وعلى غلافه صورة امرأة عارية. وثالث يحمل جريدة على صدر صفحتها الأولى صورته. لا يكف عن محادثتها من وراء نظارته السميكة. قال له صاحب العدسة أن منظاره لن يظهر في الصورة. لأنه لا يتحتم أن يظهر في الصورة ما يشوه سيرته الحسنة بضعف بصره مثلاً. واثنان انشغلا ببث بعضهما الأخبار الخاصة جداً، العائلية جداً عن زملائهما، النساء خاصة وهن جالسات على بعد خطوة منهما. ومنهم من اكتفى بحمل ذقنه المرسلة وهندامه الرث وقاذوراته. ولسوف يفشلون، واما ينافقون.

كالعادة، هؤلاء المتخمون بالشبع لا محيص فاشلون فى بحثهم لأن أبصارهم أغشتها سحب الدخان وأبخرة لغوهم فلم يروا السبيل الصحيح. لو أرادوه حقاً ما كان عليهم سوى أن يتتبعوا بأنوفهم الكلبية المدببة، نشأة الخمر وتطوره. لو أن أي واحد فيهم صدق مع نفسه

ونظر بصدق صافٍ إلى المرآة التعبة التي تنبض بصورهم على الجدران خلفهم، وتئن بحملها طوال جلستهم، هي ذاته، وهي الكأس. لعرفوا حقيقة الإنسان. حقيقة ما يبحثون عنه في الخلوات البعيدة وهو بين أياديهم. أشد وضوحاً من الشمس في كبد السماء الصافية. الإنسان التي تنطق جوارحه عندما يقضم أظافره لتطول أكثر. ويشذبها عندما تطول أكثر لتطول أكثر فأكثر، لتجرح الصخر يوماً ما. وسوف يتأكدون – إضافة لبحثهم، أو على هامش نتائجه – أن ما حققته البشرية شيئاً لا يستحق الذكر من فرط ضآلته، ويُخجل.

يعود ساشا إلى طبيعته وإلى وعيه. أما إناث فقد تيبست. باللاوعي وشلتها الدهشة التي تسابق الضوء في مقلتيها. ويعود ساشا مواصلاً كلامه وكأن شيئاً لم يحدث:

- هل تعلمين أن ديانتي كانت هي نفس الفكرة التي صعد ببنائها ذلك الأفاق إلى عنان السماء. على أية حال. كانت.

قالت إناث بعد فترة ولم تزل تراقبه بخوف وشك: "أي فكرة؟".

- فكرة الإله المطلق والرسالة. ولكنه – أظن ذلك – كان رسولاً حقيقياً غير زائف. بعثته السماء إلينا يبشر وينصح. يعلم ويصلح. لم يتفوه بكلمة تهديد واحدة. يربي نفوساً وعقولاً، كان يقول دائماً، تعلموا أن ترفعوا غطاء القدر لتروا جيداً ما بداخله. إن حياتنا الإنسانية، الحقيقية، تبدأ من بعد سطوح الأشياء بدرجة. ثم..

يضحك ساشا حتى يدمع. حتى تمتزج عبراته بزبده الذى تجمع وجف على جانبى فمه من أثر منولوجه السابق. ثم ينخرط في بكاء ونحيب. ويكمل حتى لا تكاد إناث تتبين ما قاله. وما قال غير كلمة واحدة: " قُتل ".

يهدر شلال الصمت في الغرفة. يتسمر ساشا في موضعه. وتنكمش إناث على نفسها بجرس الخوف والترقب وحده. غير متأكدة تماماً مما سمعت.

نسمع ونصبح عواء ريح في الغبراء البعيدة. ورعود لم نألف مثلها قط. وتصبح في النهاية أمام جو، كقطعة اقتبست من ميدان حرب توقف طرفاه اللاهثان لالتقاط الأنفاس. فيما بات يكتنف

الأرض رائحة اللحم الحّي المحروق وشذا الدم وأنين الجرحى المكتوم.

- من قتل؟

أجاب ساشا متماسكاً للحظة: " رسولنا. عفواً. رسول الإله".

وينفجر غضبه: " هذا الكلب الزائف نبح بالرسالة فنجح وربح. يقول إن الإله يراقب وينتظر حتى نفعل فيفعل. المخروق. هل يتبع الفعل الإلهي فعل المخلوق. حشد الناس وراءه من غير جندٍ خفيه. وآمنوا. لم يحتج إلى عمد سحرية. وأرسى أوتاده في الأرض بقوة وقسوة. أما رسول السلام، الذي جاء يتصدى للزيف بحقيقته فيقتل حرقاً. وافرضي أنه كذب وخدع فلقد كان صادقاً في تعاليمه لنا مع نفسه فلم نره إلا مثالاً وقيمة. كان نبضة حق لا تستحق الموت. وكان من الصديقين. لشد ما افتقدناه. قالت إناث في تأثر واضح: اسمه وعد؟

رد ساشا بدهشة بالغة ردت إليه شتات وعيه: كيف..؟ ويسكت عاجزاً عن إكمال كلمته. فأتمتها إناث: " عرفت؟ جاءنا النبأ ".

- لكن. آه. تذكرت. أنت من بلاد "أبراهام" التي تجاور بلادي. أليس كذلك؟

- نعم.

ابتسم ساشا بإجهاد وهو يسألها: " هلا أخبرتني كيف تلقيتموه في بلادك. ما كان رد فعلهم؟"

- ماذا تتوقع؟

- تراجعوا؟

- كلهم.

- إلاك. (ثم يضيف بعد هنيهة بشجن). إلاك يا عفة الغلط.

- ارتدوا مثلما ترتد اليد الملسوعة.

- اليد عجماء. ولكنا نستمد منها الفصاحة. حتى إن غفونا أو نمنا.

- وكأن ردتهم إلى الكفر فرصة نجاة من هاوية مُهْلِكة لرئاسة مملكة بدون هذه اللام حتى.

- وبدون هذه اللام يستقيم المعنى أكثر.

- حتى لم يراجعوا أنفسهم. لم يأخذوا وقتاً ليراجعوها، مع أنهم يراجعونها في أمور أقل أهمية من هذا، مترفعين عن أهم ما أصاب حياتهم بطول زمانهم كله ترفع الأجوف تحت أصابع عازفيه. إنها المرّة الأولى التي اتفق أن يصبح لديهم شيئاً لا يحتاج إلى إعادة نظر. وكفروا.

- الكفر؟ هذه سمية الرسل. أين الكفر لمن لاذ وسلم أمره بما وقع تحت بصره ولم يتبصر حقيقته. أمازلت على عهدك بدينك بعد كل ما جرى؟

ردت إناث بثقة جلها تأكيد خشية أن تضعف. "أجل. ولو كررت سؤالك ألف مرّة. فهذه إجابتي واحدة لا تتغير، كما إلهي واحد لا يتغير: أجل.

- ومازلت ترين الإله كما تفتحت أزهاره على قلبك ذات يوم مشرقاً كنور الصباح، مزداناً كالورد، حليماً كالأرض، شجاعاً كالقمر إذ يتبدى في سطوع الشمس أحياناً.

- وأكثر من ذلك. لأنه الوحدة التي لا تتجزأ. ولأنه محور العمل والتعطل.

- بعد كل ما علمت؟ لا أصدق.

ويضيف ساشا بعد فترة: ألهذا ما برحت تعتقدين ألا تعشق المرأة رجلاً بغير عقد ارتباط وإشهار يكون الإله ودم رسوله خير شاهدين عليه؟

يضحك ساشا بالصوت حسب. ساخراً. متحدياً. ومجروحاً جرحاً يكاد يكون قاتلاً: خرافة الخرافات. إنما أنت ما فتئت تؤمنين لأنك أنثى. والأنثى يعوزها دائماً إله، سيد. ولكنه جعلنا نحن الذكور على شبه منه. أسياد. فما حيلتنا؟

أرادت إناث أن تحول الحديث من جديد وجهة أخرى فقالت: هو كذلك. ما هي حكايتك؟

- تصرين على الهروب.

اندفعت إناث بكلماتها نحوه بغضب وشراسة: أصر على هزيمة من ليس لدنه سلاح وعندي كل العتاد. ألا تعلم يا أحمق أنه أمر خطير غاية الخطورة ألا نحب هذه الديانة، ونعولها، ونحميها. من

الواجب أن نتمسك بها وألا نفلتها منَ بين أصابعنا أو من صدورنا. إحمد الإله أنه أعطانا عطية وجوده... ومَا نسميه الديانة.
- لا. نحن لبها. نحن هي. إن النفس الشريفة لا تكون إلا نفسها. حبها. رغبتها. سعادتها. وأي كلام غير هذا، محض هراء.
- على أي شيء كل هذا الـ..؟
يقاطعها ساشا بجدية وحزم تجبرها على المضي معه وعدم الانسحاب: هل تصلين؟
تلتفت إناث نحوه بعصبية تاركة ضفائرها تنحل بعصبية بعد أن أخفقت في جره بعيداً عما يخوض فيه. واجهته مستنفره وهي تقول: نعم.
- وهل يعلم قضاعه؟
وهل أكذب؟ نعم. وقد وافقني إلى كل ما أريد وآمن بالهدى، بإلهي. كما آمل أن تؤمن أنت أيضاً.
إحدى رعايا الدين تدعو رسوله للإيمان؟ يا للسخرية. لا غرو ألا يثير دهشتي قول من قال أن كل شيء صحيح جداً أساسه خطأ عظيم.
يتفرس ساشا فيها لحظات ويردف: طبعاً كان هذا. (ويشير إلى جسدها) هو أقوى حجه عليه. هذا ما جعله يركع لإلهك وما كان يركع إلا لك. ولا بأس، أن يرجع وأن يسجد. هل رآه أحد. لا. وطبعاً أنت لن تقولي لأحد. لأنه لن يسمح لك بمغادرة هذا المكان الملعون حيّه.
- لقد قبلت زواجه في البداية باعتباره رسول الإله. ولما اجتليت حقيقته المزيفة حبست نفسي عنه إلا أن يؤمن حقاً. وقد فعل. ولأني صرت زوجة لا يجب أن أتصرف كحرة.
- ليس أمامك يا عزيزتي إناث فرصة لتكوني حرّة في حضن قضاعه.
كانت هذه المرّة الأولى التي ينطق فيها ساشا باسمها وجهاً لوجه. الاسم الذي طالما حلم بآلهته، مقدماً كل فروض الطاعة الواجبة. ففعل هذا النداء في نفسيهما فعل الثلج على النفوس المجدبة. بيد أنها قالت بمعاناة واضحة:
- وأنا لا أبغي الخطيئة حتى إن كنت حرّة. يجب أن تدرك أن هذا المكان، هذا البيت، لوجود زوجي فيه، أصبح وطني.

قال ساشا كالحالم: هذه الأرض مستعمرتي. وأبداً لن تكون وطني.

آب ساشا لحالة السكر. والفيض. بؤرة ضوء سلطت عليه مع بداية منولوجه الجديد وقد ارتدى وجهه قناع المنجون مجدداً.

قال ساشا:

- في ذلك اليوم المعين في الغيب. سيكون كل شيء إجراء. والثقة من تراث الماضي القذر. حتى المتوفى غير معفي من الأختام. وآخر الأختام بينما نحن نهيل التراب على وجهه. هذا الوجه الذي ابتسم ذات يوم في وجوهنا. هذا الوجه الذي طبعنا على خده قبلة يسرى فيها الدفء والأمان. هذا الوجه الذى كان يحدثنا ويرج الأركان بضحكاته العذبة، أن ندعو له بالرحمة. ممن يا أولاد الهباء. إن عذابنا هنا وليس هناك.

عندما لن نستطيع الخروج من بلد إلى آخر دون ختم. فما بالك بمن يخرج من الدنيا إلى الآخرة.

أنا حزين. لأني أريد أن أسب نفسي بسباب فريد ولكن كنائتي محدودة. هم يقولون ما أنت إلا بشر. أضعف من الحجر. وأنت – بأي منطق – أقوى الخلائق.

عندما يدان امرؤ فبإجراء. تبرأ ساحته بإجراء. للإدانة إجراء واحد وللبراءة ألف إجراء. يثبت شرفه بإجراء. وما عزته؟ وما سلطانه؟ إلا سلسلة من الإجراءات. أنا الوحيد الذي يتكلم دون إجراء. مجرد عناد وتفاهة. ماذا أريد؟ أن أفتح أبواب الجحيم؟ الجحيم أم النعيم؟ أن أعيد بناء الجنة وفق أسس عادلة؟ أن أفتح التحقيق من جديد في جريمة قتل هابيل؟ تريد أن تكون فبإجراء. تريد أن تتداوى فبإجراء. أليس الاتهام داء؟ تريد أن تترأس الديوان أو تمسي ذنباً لرئيس الديوان فبإجراء. تركب طبقة أو تقضم جزره فإجراء وطبعاً لكل مقام إجراء. ويصبح السؤال، كلاماً، أي كلام، مثبت ومنفي ومجنون وبلا أوطان ما لم يجتر في ذيله أداة الاستفهام، إجراء.

لا يهم أن يصير الظلم والاعتساف إجراء. ولكن الكارثة أن يصبح العدل إجراء. والشرف إجراء. هكذا تمشي الحياة على درب ويسير الرب على درب آخر. نحن وسموه متناقضان. ليل ونهار. من السبب؟ من بيده الحل وخيط الوساطة؟ المشكلة أن الضعة، والظلم

البزاءة، والفقر، لا يعوزه إجراء. أن تكون وضيعاً لا تحتاج إلى إجراء. وأن تكون عفيفاً غنيّاً تحتاج لألف إجراء.

قال النوايا النوايا. وقلنا المستندات المستندات.

كلا، لا تنبئق يا عقلي المجنون عن رشد. قل كلمتك، ولتكن مشيئة الرب، وليكن ما يكون. سألعنك ألف مرّة ومرّة إن خنت أو تمردت دون إجراء. ماذا سيفعلون بك أكثر مما وعد الرب؟ صدقني يا رب سأكون أكثر سعادة منك لو عاقبتني بنفسك. بطيب يدك، وفي اللحظة التي تنزل بي غضبك وسخطك سأكون آمنت بوجودك ولن أشي بك إلى أحد. صخ يا عقلي المجنون. هل تعلم معنى كلمة صخ؟ اعتصم بإرادتي. قلها مدوية. هم على أية حال ليسوا الرب. والرب مجهول العنوان. ترى كيف هو عرشه؟ ما شكله؟ أين هي السماء التي يحدثنا عنها؟ آه، قلت لي ذات مرّة أنك مالك فطنتي ووعيّ وأنا أملكك كما يملك البركان حممه وسليمان شياطينه والبرهان حججه وتملكنا سوياً أنفاس رتيبة، شهيق وزفير. فإياك يا عقل أن تنسى معي إجراء. الملكية إجراء والسفه إجراء. لو أعلم ما تفكر فيه يا ابن الكلب يا شقيق روحي. وما تدبر؟ لطحنت رأسك بإجراء. اصدع. أنا سيدك. أنا أمرك. سألته – عقلي – ذات مرّة. هات اشرب، فعجز. ماذا لو كنت مريضاً وكان الشراب دوائي؟ غير أنه للحق صاحب تقدير سليم في أشياء أكثر أهمية من الشراب والحياة ويفهم في القيم. سألته في مرّة أخرى، واعتذرت منه مقدماً عن أنانيتي ووقاحتي: لماذا يبدو الإله في صورة من لا يفهم؛ من لا يحاول أبداً أن يفهم: عالمه؟ أم أنه يفهم ويتجاهل. من يدري؟ لماذا رضى أن يظهر في خيالاتنا وتفكيرنا بهذا السروال المهترئ؟ أضعف أبصارنا بحثاً عنه، هل هذه صورته حقاً؟ وتلك الكلمات المعسولة، أهي كلماته؟ أهي معسولة حقاً. أم هو استعدادنا الطيب؟ أهو مريض. أهشيش السمع والإدراك؟ أم صورة أرادها لنفسه متعمداً. يخاتلنا؟ أم العيب في اللون؟ و لعله فيّ أنا؟ حتى لم يحاول مرّة أن يتودد إلينا؟ وسكت ابن الكلب. لم يجبني. لماذا يا إله تعذب دميتك الجميلة. حافظ عليها لأجل نفسك. لمتعتك الخاصة. عالجها بقدر الإمكان. حاول. سوف نقدر لك محاولتك. ألم تعد تلزمك؟ ابحث عن غيرها إذن. ولكن امحها من الوجود أولاً. معك

حق. فنحن مثلك غير جديرين بأي شيء. ولكن أين "العِشْرة"؟ إن المرء ليحب أخيه وكرسيه وبنيه، وحتى عكازه. بطول عشرته. ويصير الصاحب بطول صحبته أخاً. والمرء يحب أباه لأنه الأقرب إلى صوته إن نادى. وأمه أكثر فأكثر لأنها تجلس دائماً بجوار المدفأة تدفع إليها بالحطب دون توقف وهو مبتل، بارد. يا سيدي الإله الأعظم، تعلم أن هذا كله غير صحيح. وأنا نحبك. أنت خالقنا. ألم تعد تحبنا كقبل؟ هل افتقدت عاطفة الأمومة لسبب أو لآخر؟ ألا تحب خلقة يدك؟ اعطني عقلاً جميلاً أهمله. ولكنك وهبتني عقلاً رذلاً إن أهملته لم يهملني. ولساناً سباباً ألا أستعمله؟ نظرية الممكن يا قديسة. يا ابن المومس اسكت. غيرك أقوى علم وسكت. تتجاسر على السكوت بالكلام؟ حسناً، سوف يرغمك الكلام قريباً جداً على السكوت. سوف يثأر. كلامك هنه مغتفرة يا مجنون. حظك، إجراءات. بالإجراءات تفتح الأبواب. كل الأبواب. وتغلق بمفتاح واحد: إجراء. أليس غريباً أن يكون أداة القفل شيئاً اسمه: مفتاح؟ المرض إجراء. والحرب إجراء. والعلم إجراء. الوطنية إجراء. الصلاة إذ ذاك إجراء. يبطلها إجراء آخر. والذكي من يتمسك بإجرانه. لا يهم أن يصدق من قلبه ولسانه. أن يؤمن حقاً. من يعلم سره؟ من هو القاضي ليقاضي؟ من قال إن الإيمان يحتاج إلى إجراء: صلاة؟ وهل اكتفينا؟ كل إجراء يلزمه إجراء آخر. السلم والحرب والشقاء والحب إجراءات. الحب بدون شفايف صحراء جرداء. موات. البصر والأذن والأنف وإليتي إجراءات. هنالك ستخرج أبواق كثيرة ومثيرة بألوان كثيفة وفتية تلعن زمانها. يا مظلوم دافع عن نفسك مرّة ومت. واظلماه. دائماً يلعن الزمان. أبداً لن ينصفه أحد. دائماً مرزول مهجور. لماذا يا ببغاوات السيرك؟ هل كان هناك زمان ملعون بغير شياطينه الإنس. أينما حط الإنسان رحاله فالشقاء راحلته. الشقاء أيضاً إجراء، حتى عندما كان لساعة واحدة في الجنة لازمة الشقاء واختلف مع نفسه. وعندما أراد الإله أن يطرده شر طردة لم يستطع أن يتجاوز الإجراءات. الشقاء؟ هل هذه أمنية الإله الخالدة للإنسان. كأنما الشقاء عبيده، مستعمرته ورأس ماله، روحه، وفلكه الدوّار. إنه هو، كل شيء يتغير إلا هو. يا كثره مطحونة هبى. هاتي

العدل مرّة وانسحقي. الحق حق بالدم أو بالشيطان. يا كثره مغلوبة مغبونة. اطحني مرّة واحدة، لا ماء ولا هواء، بل دقيق يطهى ويؤكل شهياً. مادامت الأرصفة والجنائن وشاطئ البحر ودكاكين الوراقين شقاء. فأنت يا إنسان سطل شقاء الحياة. أنت شقاء الحياة والإله والحيوان. وشقاء نفسك. أنت العلة، الشقاء واقر بقلبك، لا يريم. المكان يتغير. الزمان يتبدل. فأنت الزمان والمكان الحقيقي. أنت، المصيبة الأم، وأفراخ الشيطان. الوقت طعام ويظنه الإنسان أسنان. والعلم؟ العلم تراكمات ظنية. من يجرؤ على اللعب في أساسها يُعدم. حتى من قبل أن يتم النظر فيها.

أليس الضوء شريط ممتد مستمر من الشمس لفيافي الأرض – ديكورها المستفز – ومع ذلك، سوف يمتطيه الإنسان، لا بداية ولا نهاية. ليس ثمة ولا شيء واحد حقيقي. ظنون وإجراءات. والعلم طب لا شك هو هذا: علبة سجائر مكتوب عليها: التدخين ضار بالصحة. بصحة الأولاد طبعاً.

كانت إناث حتى هذه اللحظة خليطاً من الاضطراب والتجاوب والرفض أمام كلمات ساشا السابقة. كانت تبدو وكأنها تفهم وتستوعب كل حرف نطق به وتعبر عنه بتأوهاتها مابين الذهول والشفقة والألم. وكان خوفها عظيماً، فتسأله برقة بعد أن استطاعت بصعوبة فك عقدة الدهشة من على لسانها: ما.. ماذا تقول؟

عاد ساشا لحالته الطبيعية. وكان يتمطع وهو يشرع في الإجابة على سؤالها:

- أوكلامي غير مفهوم؟ أوكنت أهذي؟ إني أتعجب من أخلاقك. أتدرين؟ إنها تشبه أخلاق الشرطة ورجال القانون. الأول يعيش كما لو كان شعباً بلا أرض. والثاني واحة خضراء إنما بلا شعب. إني أقدر الشرطة والقانون ولكني أرثى لهما.

ترمقه إناث باستغراب حذره. وقد بدأ يساورها الشك في لا وعيه بكل ما فاه به منذ قليل: لماذا؟

الحقيقة أننا نصنع القانون حارساً أميناً يصون مجوهراتنا الثمينة وسرعان ما يتمرس ويكون هو نفسه لصاً بارعاً. أما الشرطة فهي في الأساس لص شديد البأس.

قالت إناث شاكة حذره: أأنت بخير؟
- طبعاً. مادامت ذراعي تستطيعان الذود عني فأنا بألف خير.
- ما حكايتك.. سألتك ما هي حكايتك؟
- أيهمك معرفتها؟
- أود لو أعرفها.

قال ساشا وكأنه يصبو إلى اعتراف بالحب منها ولو من زلة لسان: يعنيك أم تحبين؟

قالت إناث بجفاء الصدق:

- إنما أسألك مجاملة. أسألك لتتخفف من حملك الباهظ. تفرج قليلاً عن كربك الذى لا أشك أنه سوف يقتلك. افتح صدرك يا ساشا فإني أرى لك مأساة سحيقة وأنت أولى بفرط عقدها. لا تبقى هناك واضعاً بين فخذيك صرّة الكآبة والحزن. افتحها قبل أن تكرسك للهاوية.

- لك فراسة جيدة. غير أني أود أن أسألك أولاً. بأي حق أحكي لك؟ وبأي حق تسمعينني؟

قالت إناث مجاملة له أكثر. راغبة في مساعدته. بدلال: ألا يكفي أني أريد؟

انطلق ساشا، متألقاً، بملابس العيد الزاهية:

- بل أنت تأمرين وما على العبيد غير الطاعة. ولكني أحب..

ترنو إناث إليه في ضجر فيردف بسرعة:

- أحب أن تحكي أنت أولاً حكايتك.

ردت إناث ببساطة. تتعجل الانتهاء لتسمع له:

- كنت ابنه وحيدة لتاجر ثري في موطني "ميت غلطة". ولما..

قاطعها ساشا مقهقهاً بملء شدقيه:

- ميت غلطة؟ ها ها. اسم بلادك "ميت غلطة"؟ ها ها. أهي بعدد سكانها أم أغلاطها؟ لابد أن البلد التي تجاورها هي " خرابة الصراصير". وهذه وحدها ألف غلطة. ها ها..

يبلج ثغر إناث بابتسامة ساحرة، هشة. وتستأنف براحة أكبر

أسرت في الحرب. وباعني واحد لواحد حتى انتهيت هنا. إلى هذه الغرفة. أمامك.

- أمامي. هذا أجمل ما في الموضوع. تماماً كما تتمخض أوار الحرب عن بطة مشوية لجنود يتضورون جوعاً.

- وأنوي الإقامة الدائمة هنا. هل بقى شيء؟ آه، ومن رجل إلى رجل وفقني إلهي لعبد صالح هو الذي علمني الاختفاء بهذه الطريقة وعلمني كيفية التصرف الصحيح كي أحافظ على شرفي.

- شرفي؟ يا لها من كلمة. فكيف آمنت برب " وعد "؟

- صلتنا تعاليمه قبل الحرب التي أسرت فيها بعامين بعد أن قُتل ببضعة شهور.

- أنتم إذن قريبون من بلادي كما توقعت منذ البداية ومن المرجح أن الذين هاجموكم هم.. نعم..

يضحك ساخراً بخفوت ويردف: هي بلادي.

قالت إناث باكية منهارة:

- كانت لي وصيفة ما عاملتها قط إلا كأخت. كنت أقدر استرقاقها وما حدست لحظة أن الاستعباد ولو على ريش نعام موت بطيء بسوط.

- ولو كان على ريش نعام في أحضان قضاعه المبجل؟

- ولكن ذلك كان مقدراً باللوح المحفوظ. وأنا الآن حرّة، وزوجة وهذا أيضاً كان مقدراً. لم يدر بخلدي لحظة واحدة أني ذات يوم أسبى فأمسي أختها بحق على نفس الدرجة. بيد أني لم أجدها هنا تربت على صدري وتواسيني كما فعلت معها دائماً.

- لا تبك. حين يتألم الإنسان بصوت عالٍ يصبح جباناً.

كفكفت إناث دموعها الحارة وسأل ساشا هامساً بحنان:

- ألم يلمسك أحد بتاتاً قبل ذلك الضفدع البري.

ردت إناث بغضب: من فضلك. احترس فأنت تخاطبني عن زوجي.

- أوه، نعم. هاك فرضاً من فروض الاعتذار. أجمل ما عندي فرضاً لا يرد. ولا تحتمل حروفه اللبس.

تنتظر إناث.. تنتظر.. يتقدم ساشا ويتوقف قبالتها تماماً. العين في العين. والشفتان إزاء الشفتين. كانا في طول واحد. لا ينقص ولا يزيد سنتيم واحد.

- الفرض الوحيد الذي أملكه حالاً.

يجذبها إليه على حين غره ويقبلها بقوة مباشرة في فمها. كانت قبلة طويلة ماهرة من ساشا. توشك إناث أن تستسلم لذراعيه الفتيه. لإرادته، لنضارة الحب من فمه. غير أنه لا يمضي أبعد من ذلك. تظهر يداه على خصرها وردفها، متردده، مرتعشه. يشتهي ويتأبى. يتقدم ويتراجع في حدود مليمترات تبدو لكليهما كأنها آلاف الكيلومترات. يدفعها ساشا أيضاً على غره بعدما كانت هي الطرف الموجب، أو الأقرب إلى أن يكون كذلك. تلك القبلة التي سوف تبدأ منذ هذه اللحظة في العيش على ذكراها. تلك القبلة التي سوف تبليها من كثرة استرجاعها في خيالها. تلك القبلة التي سوف تذكرها دائماً أن قضاعه زوجها يستحق القتل والتمثيل بعضوه في الأسواق.

تبحث إناث ثائرة مهتاجة عن شيء تقذفه به فلا تجد غير سعف نخلة ترفعها مهددة ثم تنزلها إلى جانبها صارخة: حيوان.. جلف.

قال ساشا راضياً تمام الرضى عن نفسه:

- أرأيت؟ نظرية الممكن التي حدثتك عنها. هل كان بوسعك أيتها القديسة الطاهرة إلا أن تمضي معي إلى النهاية، وكما أريد لها أن تنتهي.

ويضيف متخابثاً: ولكني لم أفهم مبعث ثورتك. ألأني قبلتك أم لأني لم أقبله هو أيضاً. (وكان يشير إلى قدس أقداسها) أرأيت؟ إن إلهك متعسف في مطالبه وغير موضوعي. كيف يوجد المخدر وعندما استعمله لمداواة جراحي يقول: قف. لا تفعل. إنه سام. أو إنه مرض؟ ويصرخ فينا من فوق العرش على بعد سبع سماوات: حذار. لأي غرض؟. ما المعنى وما الفائدة؟ كيف يوجد المرض ويأمرنا بالبحث عن الدواء؟ الدواء صنعته يا أولادي فقط ضعوا أيديكم عليه. إنه موجود، موجود في مكان ما. وأنا صنعته من أجلكم. يا سيدي نحن استغنينا عن خدماتك، فخذ المرض من طريقنا أو نعالجه بطريقتنا. أو نعترف به مرضاً منذ البداية. أو يقول، اصبروا. اصبروا حتى تموتوا بصبركم. حتى متى يقف سلبياً يسد أبواب الشمس ينهي ويأمر ويتصايح كالدجاج الذي لا يبيض قط ولا كان لحمه مستساغاً إن نحن طهوناه.

- الدجاج؟

- الإله. لقد صار اسمه مبعث إزعاج. يقول اعبدوني وهو يعلم أننا لا نعيد فراغاً. ويعلم ولعنا بالأوثان. بالمرئي وبالحاضر، ويخفيا أشد الخوف السحر وما خفى. الخفي والسحر والمجهول. كيف؟ كان يعلم طول الوقت أن الخنجر أعظم واعظ. لم يوضح لنا باكتفاء سر اعتزاله الدنيا. ولمن كانت قبلنا وكيف صارت لنا؟ لم يوضح وما أخفاه كالحواة أضعاف أضعاف ما بين وحيرنا. وما بينه يكاد لا يربو عما في فطرة نفوسنا من وش. يا ليته كان وثناً. لو أنه صارحنا كنا سنفهم ونقدر. ونتعاون على عبادته، حق عبادته. يعوزنا إله متواضع. نكلمه عن مشاكلنا ويكلمنا عن نفسه وعظمته اللانهائية، إله متواضع ومحب ومبتسم دائماً. فكل الرسل تعاقبت على الفشل الذريع ولم تُروى عن أحدهم نكتة. كلهم خرجوا من الظلام كالخفافيش وثلاثة منهم اشتهروا فيما طوى النسيان الباقين. ثلاثة فقط أصابوا قدراً من النجاح مع أنهم اختلفوا مع بعضهم والهدف واحد. وأرغمونا على تبني ميراثهم المتنازع عليه. وهيهات أن نعيد الإرث واحداً مرّة أخرى. ولما أبصرت عيونهم النور وأعلنوا عن هوياتهم الواحدة كان الشرك قد نصب والصيد وقع. وهكذا تواتروا كلهم على ذات المنوال.

كيف يصرخ في وجوهنا ليل ونهار: ابن آدم خطاء. ومن آدم؟ ابنه؟ مسكين آدم. الكل أدانه. لم يحتف به أحد. مع أنه جدنا الكبير، وأبونا الأول. لا أحد يهتف باسمه. لا أحد يطلب توقيعه أو يقف الى جواره ليطلب صورة مشتركة. ثم هو يتوقع أن نسلم له وحده. فإذا أمر رضخنا. غفل بذر الألوهيه في نفوسنا، قطعة منه، لا تقبل، مثله، شريكاً. ولماذا نخطئ؟ بعلمه أم بقدره؟ لماذا؟ أريد بعد إذنك أن أسأله: لماذا لا ينزل إلينا بذاته ويحدثنا عن كان وسوف. أليست الأرض أرضه. والأملاك أملاكه ونحن أفضل ما فيها. يحكي تاريخه ومجده. وعن نشأة العالم. ويقدم لنا نفسه بنفسه. يجمعنا حواليه. يلمنا بأيك رحمته. أكانت كلمة لا عائل لها؟ اعبدوني وكفى. دبروا أموركم، واعبدوني. يحق له وهو الخالق أن يطالبنا بعبادته. أفلا يحق لنا أن نطالبه بحياة كريمة.

ليست مسئوليتي ولا حجة عليّ أن بعضنا مجرمين، قطاع طرق. ليست من مهمتي إصلاح ما حولي أو غيري.

ألسنا أبناءه، صنيعة يده. إن الكلبة تفعل هذا بشرف مع أولادها تصوري، في ليلة شتوية هادئة، وهو النور والدفء. يتوسطنا الرب بحنان وحب. ونحن نقبل عليه بلهفة وشوق. أبانا العظيم. مالك السموات والأرض. نسمع له وننظر إليه بفخر. نتدافع بالمناكب حوله. نضحك من الزلازل وعواء الذئاب. يخدم كبيرنا الصغير. نشفع للشيطان عنده. لا يرضينا بقاءه وحيداً، في الزاوية البعيدة. يتأملنا حزيناً متندماً. إننا على أية حال أولاد عمومة. وربما كنا أشقاء بطريقة ما. نسأله: علمنا يا أبتاه كيف نصنع من الطين طيراً بإذنك. يا أبتاه، هبنا فنون الجنس الإلهية.

وأما جبال الظلام التي نراها ساعية في الناحية الأخرى، فبإشارة من إصبعنا تتحول إلى جبال ثلج، ليس لبياضه نظير. واأسفاه فهذا لن يحدث وأمل لن يتحقق. ماذا يحسب؟ من الطبيعي أن تكون آمالنا بمستوى خلقنا نحن أولاد الرب.

لا مانع أن يأمر: اسجد نسجد. أعبد نعبد. ولكن الظل لا ينفي الشمس علك تحبذين أن نصعد له. موافق. ولكن السلم. أين السلم؟ أوه، السلم كما قال معه. منطق معكوس. اعبدوني ثم تروني، أو أطيعوني أعطيكم جناتي. دعنا يا أبي نتمتع بالنظر إليك وسوف ترى إلى أي مدى نسبح بحمدك. واحتفظ بجنتك لنفسك. أعطانا المشكلة وحجز عنا أمل الخلاص. هل نتحداه أم نهدده بالانتحار الجماعي؟ أيتركنا نخبط رؤوسنا ببعض، وبالحجارة، ثم نصنع من جماجم بعضنا هرماً للوصول إليه؟ أليس بيده أن يمنع عنا العجز والعوز وزيغ البصر؟ كيف يتأخر كل هذا الوقت عن مد يد المساعدة لنا؟ أنه حاجتنا وسبب كل احتياجاتنا. إلى هذه الدرجة يحتقرنا. يحتقر مشيئته. صنيعة يده. كيف؟ ولنا حقوق عليه؟ أإلى هذه الدرجة نحن سيئون؟

- أية حقوق؟ لا حق للعبد عند مولاه.

- لا لسنا عبيداً. هو قال ذلك بألف لغة وبألف طريقة. نحن أبناؤه ولنا حقوق الابن على أبيه، الملك. ولن أذكر لك من ضمن هذه الحقوق حق ميراثه.

- ولكنه أعطاك حق الانتفاع بأملاكه، بلا مقابل. طول حياتك.

- هذا ما كان ينقصنا.

- أمرك غريب. حين أبين لك شيئاً مما تطالب به أو قريباً منه يكون هذا ردك؟
- أرجوك لا تتكلمي. فلا أحسبك تفرحين لو كنا عبيده.
- نعم. نحن عبيده. وهذا يسعدني.
- أنت لا تفهمي. نحن لا نتكلم عن زوبعة مالك الإماء في وادى الرعاة. إنه الخالق، مالك الملك.
- ولكني أرضى، بل وأتنعم بعبوديتي له.
- ألاننا نعبده بتنا في درجة العبيد؟ لا. لست عبداً له وإن عبدته. ولن أعبده. أنا ابنه. ولن أتنازل عن حقي في أبوته عليّ ولو غربلوا جسمي ببصقات من الجحيم. ولا عن أي حق مما للأولاد على أبيهم الثري. وأول شيء يتحتم أن يبادر إلى فعله أن يرد عني أخطار الحياة.
- وما الخطر الذي يتهددك؟
- حياتي كلها ألم. لأنه هجرني وأخذ معه خزائن القوة والمال والحكمة. لماذا لم يأمرنا بالغناء خمس مرات في اليوم أو كل أحد وسبت وجمعة. هه؟
إناث: لا تزد. احترس. قد أغفر لك إن أسأت لطهارتي. ولكني لن أغفر لمن يسيء إلى المبدأ.
ساشا: المبدأ؟ تعنين هو؟ لماذا تقتحمين عليّ مصلاتي وتتدخلين فيما بيني وبينه. كلنا أبنائه يا عزيزتي من أم واحدة. ومع هذا فسوف أؤكد لك دائماً أني أكثر كلفاً وتعلقاً به من أي كائن آخر. من آدم نفسه. آدم الذي حظى بلقائه وكلامه دون أولاده جميعاً.
بعد أن سكت وهدأت أنفاسه الثائرة وبعد أن ران عليهما السكون دون السكينة وكل منهما غارق في لجة عنيفة من أفكاره الخاصة. لحظات وعاد ساشا إلى بدايته. فقال مستدركاً. وكأنما لمعت في ذهنه خاطرة خطيرة:
- كيف تقولين بأنه لم يلمسك أحد؟ كنت باردة كالشتاء وكل البلاد التي مررت بها حارة. وهؤلاء الرعاة تسلقوا جسدك ومضغوا لحمك بعيونهم وبأيادي بعضهم وبعضهن.
قالت إناث في مسحة خجل:

- سكت عما يفعل بي لأني لم أكن أعيه. ولم أحسه. نعم لم أكن أعيه.

قال ساشا متحرشاً. تتجلى عليه آيات التربص. وأنه عزم ألا يدعها حتى تعترف وتقر بحبه. ثم يقتحم جسدها على إثر ذلك كما لم يفعل مع أي امرأة أخرى: مطلقاً.

قالت إناث مستسلمة لنظراته المتقدة: حسنا. لقد شعرت به لماما فقط.

وأضافت بقوة: تأكد أنهم كانوا كالهاموش الذي يزحف على أطراف خصلات شعرك وأنت مستغرق تماماً في أمر هام.

- كالصلاة؟

- نعم. كالصلاة.

- أو كالجنس.

تتجاهل إناث إشارته:

- صدقني. هذه هي الحقيقة. لم تجذبني إلى عبثهم جده. أكاد أجزم لك أني ما رأيتهم يفعلون ذلك وإن شعرت كما سبق وأوضحت لك.

قال ساشا مازحاً: إنك باردة فعلاً.

قالت إناث محتدة: لست باردة.

- ولم الغضب؟ هذا ما قلتيه فلم الإنكار والمكابرة؟

- قلت لك أني لست باردة.

- فأين كنت مادمت لم تري ولم تحسي؟

ويستدرك ساخراً: إلا لماماً بالطبع.

- اخرس. إلام تلمح؟ لا فائدة ترجى منك.

- لا تغضبي رجاءً. ولكنك أيضاً لم يكن مغمى عليك حسبما تنبئني ذاكرتي الحين. إنها يا سيدتي أيادي الذكور الخشنة الحارة التي لو بترت ودفنت في الرمال ولامستك بعد رحلة سفر طويلة شاقة لرفعت عنك لباس النوم.

- إن دماغي ملتهبة كالبنفسج ولست بليدة الحس ولست رجساً. إنما كنت إذ ذاك أصلي. ولا ألبث أخرج من صلاة حتى أدخل في غيرها.

- تصلين؟ نعم نعم. تصلين بفؤادك. أليس كذلك؟ إن صلوات الفؤاد آثره. لقد خبرت ذلك. إنها خير. وأصدق من تمارين الصباح.

إن أحداً لم يستطع خلال انتقالاتي العديدة، أن يجرب طهارتي أو يمتطي شرفي. إني طاهرة كالعذارى ولم أسلم نفسي إلا لزوجي

قضاعة. ولذلك، ركلني هذا إلى ذاك كالذي يتخلص من بضاعة رديئة قاب قوسين أو أدنى من الفساد والتلف. ويقلقه بل يقض مضجعه أن يشيع ريح عطبها في الأخريات فيخسر الجميع.

ساشا: لكني رأيتهم هنا، بأم عيني. رأيتهم يا عزيزتي وقد جثموا في مجال شرفك وعبثوا وتسكعوا بين روابيه الخضراء. ولا يوجد فرق كبير بين مركزه ومحيطه. إنهما يتساويان في نظري. إلا أن يكون لك رأياً آخر.

إناث: نعم. وإن كان كليهما خطأ فإن الخطأ غير الخطيئة.

ساشا: لا. إنهما يتساويان فعلاً، كالذي يتذوق نصف الثمرة، يأكلها، والذي يأخذ نصفها الآخر عصيراً. ما معنى التدنيس والعهر وهتك العرض؟ أهو التلقيح؟ أهذا هو قمة ما توصلت إليه حضارتنا الإنسانية؟ وإذن فهو يغاير معاشرة ليس فيها تلقيحاً صحيحاً. أثمة فرق؟ إذن أيضاً فالذي يتمدد فوق امرأته ويعلكها كما يعلك الفجر نتفه من عمرنا كل صباح ولا يعقب لم يمسس عذريتها. ومن يشهر "شينه" بصيصاً من نور على ظلمات اللذة هو أمر خاص وشجاعة أدبيه. كذب. كذب. إن الشرف أكبر من أن تتسع له صدورنا. هذا هو المختصر المفيد.

إناث: إنك أهوج. هل تسيير مديه على رقبتك دون عمل أو فعل، كرشقها فيه؟

من يدري، لعلها نار الغيرة هي التي تنهش قلب ساشا على فتاته. ولكن لا ساشا ولا إناث التفتا إلى ذلك. ولكن ساشا الذي لا يقبل بالهزيمة في أي مجال.. قال في محاولة جديدة لدك دفاعاتها:

- حسنا. اثبتي على موقفك. رددي ما قلته بينما أفعل فعلهم معك. مجرد تماس. ولن أرشق السكين في جرابها.

يشرع بالتحرك نحوها فيأخذها الهلع.

- لماذا انكمشت؟ ألم ..؟ حسناً.

ثم يتراجع قائلاً: لا عليك.. سامحيني.

واستدرك في خبث يناوشها ساخراً. قلت ما اسم بلادك. هاها، ميت غلطة؟ بالتمام والكمال؟ ألا تنزل بكم لعنة الصواب؟ ألا ينزل بأرضكم مغامر طائش فيسرق من كنزكم الثمين غلطة؟ هلا أعددتها

لي؟ أكانت آخرها الإيمان؟ آه يا ليت أحدهم يفعل، فسرقة الأغلاط صحيحة تماماً، حلال. ويشبه ذلك بالضبط نزول لص على زميله أثناء العمل فأي منهما يلقى حتفه هو معروف يحسب للقاتل مع أنه للأسف سفك دم أخيه في الحقل. آه، هذا لن يحدث. فهذه الفئة من الخلق باتت في زماننا هذا أشدها ترابطاً واتصالاً وتماسكاً وإخلاصاً وأمانة. إن الكثرة أينما حلت تحللت وتفككت وإنها لتنزع إلى الخروج والاستقلالية كما لو كان بعضهم لبعض عدو. إلا هذه الفئة. إنهم – اللصوص – كما قال قائل كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. هل مجرد اجتماعنا في وئام أصبح مطلباً عسيراً إن لم يكن مستحيلاً؟

سار ساشا في أرجاء الغرفة متفحصاً متأملاً واستأنف مداعباً إناث:

- أما وقد سألتني لماذا؟ لأن حاجتهم إلى الإتحاد، إلى القوة المجنحة، ماسة في مواجهة عدو ذو أنفه فارغة سموه بالمجتمع. ينظر إليهم كغرغرينة في قدمه. لا هو يداويها ولا هو يبترها. فقط ينظر إليها شذراً ويواصل سيره. وكأنه أمر طبيعي أن يكون منا المجرمون واللصوص. وأكثر ما يؤلمهم هو هذه النظرة المتعالية والمحتقرة. يا للأسف، برغم ذكائهم المؤكد فهم مازالوا متفرقين، فرادى. إن السرقة، لو فكرت فيها قليلاً، هي محاولة جادة من بعض الناس الأكثر سواء من غيرهم لاستعادة ما يعدونه حقاً طبيعياً لهم على المجتمع أو على إخوانهم الأغنياء بالوراثة أو بالحظ أو حتى بالعمل والكفاح. وهذا بالضبط منطق الحرب. والثورات.

كانت إناث وساشا يجلسان الآن قريباً جداً من بعضهما، فوق السرير. ذلك الشيء الذي استنكف أو أنف سكان وادي الرعاة من استخدامه منامه. وفضلوا عليه النوم على الأرض المفروش بالأوراق الخضراء والريش. وسمحت إناث لنفسها أن تمسح على شعر ساشا وهي تقول: الآن دورك.

يتطلع إليها بنظرة استفهام متمنياً، بعد لمسة يدها الحانية، لو ينتهي الوجود عند هذا الحد. فتردف: حكايتك.

قال ساشا متفكراً بحسرة: حكايتي؟

- هل ستحنث بوعدك؟

- لا. أبداً.
قالت إناث مشجعة: لقد اتفقنا وأنا أسمعتك حكايتي.
- ألم تحقدي عليّ بعدما علمت أن بلادي، وأهلي، هم سبب ما أنت فيه من بلاء؟
- كلا. ما أنا فيه، أنت فيه، إنه امتحان من الرب وأنا ارتضيه. وأنت على أي حال لم تحمل فيها سيفاً أو زيتاً.
تردد كلماتها ساهما :
- ولا قطرة ماء. كلا. عموماً فحكايتك ليست في روايتي غير طحلب طفيلي. إن أهم أيام عمري كانت يوم ولادتي حياً رغم إرادة الجميع. استقبلني أبي بنفس الروح وفي نفس الساعة التي ابن بها روح أبيه.
قالت إناث باسمة: من غير تعميق أرجوك.
قال ساشا غاضباً: هل لديك استعداد لتسمعي أم لا؟
تهز إناث رأسها أن نعم.
- إذن فاسمعي دون تعليق أو مقاطعة. لقد عشت أيام رغد طويلة آمناً مطمئناً. آتي على كل لذة بطرف ومن كل نزوة حتى آخرها. كنت أشغل وقتي بحثاً عن متعة جديدة تختلف عما سبقها. وفجأة دون سابق إنذار انهارت الجدران وانسحب سروالي على الأرض. والأرض الصلبة تحت قدمي مادت كعود لدن من الخيزران. وهزج الزن. فأخذ رأس يطن بأ ئلة ما ألفيت لها جواباً. إنها بحق أوجاع من غير بنيان، صداع في الأقدام. ففي ذات يوم اغتيلت أمي، أم أحبائي، ماتت وماتت معها روحي اللاهية. ولم يبد على أبي تأثر كبير بالحادث. فأرجعته في أقل من ثانية إلى صلابة الرجال الكبار أمثال أبي. كانت أمي تعني لي الشيء النادر، الفذ. كانت تعني الخالق شخصياً. من الجاني؟ لم أسأل. وبدلاً من أن ينشطر رأسي بهم البحث عن القاتل وقتله، سلك في فراغ الوحدة بعد موتها اتجاهاً آخر شقه بنفسه وحفره بأظافره. وبالطبع لم يكن هذا الطريق معبداً ولا مطروقاً من قبل. لم تكن المسألة محصورة على فكرة واحدة محددة تسيطر على كل البشر وتقوم خطاهم في مثل هذه الحالة: الانتقام لميت من قاتل حي يرزق. بل تفتقت في رأسي صورة الحياة. ليلها والنهار،

أرضـها والـسماء، نارهـا والمـاء، إنـسانها والحيـوان، وحتـى العـشب والنجيل لم يسلم من سـهام عقلـي. وتمثلت أمـام نـاظري مبحثـاً حقيقيـاً جذاباً وأثراً. وأسرت بالفعل. وكلمـا أوغلت فـي المسير استوثقت من استحالة العودة والرجوع إلى صفحتي الأولى البيضاء.

وحتـى فكرة العودة لـم تكن تستهويني، بل المضي قدماً واقتحام المجهول. وكلما أضيئت لي شمعة بعد مسيرة ألف كيلو.. كنت انتشي بلا حدود. وأواصل المسير نحو الألف الآخرى. فتشت ونقبت فـي كل شيء. وانقلبت المدارك. غدا العالم جديداً مثيراً أخاذاً وبدا أيضاً، ويا للغرابة، مألوفاً.. فيما صار عالمي القديم غريباً عليّ، وشديد الاتساخ. أوشكت أن أضل. رغم ذلك لم أتراجع. وهل كان في مقدوري؟ سـحر الحقيقـة المفاجئـة وراء سـراب الظـواهر. والواقـع الجديـد الـذي خلقـه عقلي كـان أمـضى مـن عزيمتـي. لقد طـار الغبـار عن آلاف الوقـائع والوجوه فبدا الذكر أنثى تتقدم مني عارية بأنوثة طاغية وتلمس بفمهـا الشهي أطراف عضوى. كنت أتقدم وأخرج من موضـوع إلى آخر، فوران جامح، ومن سبيل إلى سبيل، في سبات حيّ يقظان.

ومضيت في طريقي لا ألوي على شـيء كالمسحور أو كالمسعور أتأمل دار الحياة. وترف على شفتي بسمة رضا. لقد أصبحت أعرف. وأدركت وحدي ما لن يدركوه مهمـا بذلوا في سبيله مـن مـال وجهد. كرست كل قواي للهدف. مـا هي الحكاية؟ يجب أن أقف بكليتـي فـي خدمـة الحقيقـة. وكانـت الحقيقـة هـي التـي تتمـسح بـي. مـا هـذه القـوة الهادئة التي تجذبني إلـى فلكهـا الدوار؟ بدت الحيـاة مـشكلة شـائقة هـي نفسها التـي فتحت فطنتي وأطلقت حواسـي فهوداً ضـارية. كـان مـن الممكـن أن يـصبح أول فرائـسها الراعـي. وأول صـيد النتيجـة يـصبح السبب. كنـت علـى أيـة حـال استمتع بـالإغراق والغرابـة والبريـة غير المروضـة التـي نـدت عن ابسط الأشـياء المألوفـة. بل وحتـى التافهـة. وأيضا كنت أتعذب. حتـى أنـي فـي نهايـة المطـاف استطعت أن أقنن بعض الحلول لبعض المعضلات التـي كنت أول مـن أثارهـا وأثارتـه. وذات مرّة، دفعني الكلام إلى الإفضاء بشيء مما بجعبتي لأبي....

سمع لي بانتب.. لم أعهده ثم وقف وانصرف دون كلمـة. فيمـا بعد ألححت عليـه أن يتكلم. أن يتوقف ويواجهني. قـال: " ومـا فـي هذا "

انعقد لساني وجف ريقي. وأكمل: " من طلب إليك أن تبحث لنا عن مشكلات؟ فإذا أنت حللتها لا تتوقع منا أن نحييك على ذلك. لأنك حللت مشكلاتك أنت. إن حياتنا تسير بالمقدر لها فلا تحضر لنا الأرواح لنتصادم معها".

ورجعت كالأخرس إلى وحدتي، وآلامي، تزفني بشارة السوء والإحباط. مستحيل أن ينمو عقلي في عكس الاتجاه، وحده. إنهم مني وأنا منهم. أليس الظلم مشكلة؟ أليس الجهل مشكلة؟ ثم إن الحلول، لا مناص تأتي بمشكلات وكأنها حبلى به سفاحاً. ولكن حلولي لمشكلاتهم الأزلية كانت مجردة. وحتى السؤال بلماذا تأتي الحلول بمشكلاتها؟ فعندي جوابه. وهنا يصبح الحل نهائياً. وقبل أن يستدير القمر معلناً على الملأ نبأ جنوني وافتناني بوحدتي، بعالمي. ومجافاة نفسي للذة الطعام والشراب وحتى النساء. وقبيل أن أعلن اكتشافاتي على الملأ، ضارباً بتحذير والدي عرض الحائط. تأدى إلى مسامعي كسيلان الماء العذب بين نهديّ غادة بالكاد تتفتح على أول شعاع من يد ذكر بهي، ومتوعكاً كبراعم زهرة غافية يضربها سيل من المطر الغزير.

تأدى إليّ خبر " وعد " ورسالته السماوية. وأن الوحي يأتيه، وأنه لا ينطق عن الهوى.. كان مجرد أن أعلم بأن هناك إله واحد وسماء لم نكن نلتفت إليها مطلقاً، أو كما ينبغي. وأنه أرسل " وعد " من لدنه يضيء لنا الطريق ويرشدنا إلى بدايته الصحيحة، والبداية تبدأ من عنده. وتنتهي عنده. يضع بين أيادينا شعارات الحق والعدل والخير ثم يجعلنا نطبق عليها أيادينا إصبعاً، إصبعاً.

إله واحد، خالق، عزيز، مقتدر، رحمن. يا قلب غني. نعم. غرد قلبي وأنشأ يخفق. كعذراء فلت من ساعتها أغلال قوقعتها. كعذراء انحسر الخمار عن ملاحتها الربانية على مرأى فتيان نواعس. كعذراء اخضوضبت في دما الحيا القانية مفتونة بكلمات الغزل الصارخة من شفاه غضة هفية. كعذراء تضاعفت ملاحتها ورق قلبها على كلمات الغزل الصريح في العيون المسبلة. كعذراء سمعت لأول مرّة، مع أول سفور لها، كل كلمات الغزل الحلوة والإطراء الجياش بعاطفة الوصال. هل يمكن لأحد أن يشكك في كونها كلمات جارحة، ومخدشة للحياء.

هل هناك غزل خارج، وآخر مضمد للجراح. الرجل فقط يعتبره كذلك، ويالنبالته. وياله من واهم. مثله مثل الطرفة لا توجد طرفة مؤدبة وطرفة وقحة. أو طرفة عاقلة وأخرى مجنونة. الطرفة طرفة كما الغزل غزل.

ورغم ما تفتعله العذارى من انعكاس كاذب ورفض بشمم فإنما يفعلن ذلك لشعورهن الدفين أنهن أجنة في مجتمع. ولأننا مازلنا نطأ ـ غافلين ـ عصبهن الكليّ.

إناث: تلف، تدور، تعود إليّ؟

قال ساشا بهدوء معترفاً بملاحظتها الذكية:

- حسنا. لن أخرج عن الموضوع ثانية. كانت فكرة إله واحد، أكبر من كل طموحي وأبحاثي السابقة. أكبر من آمالي بواقع أفضل لعدد أكبر. إله واحد؟ هذا مالا يخطر بقلب بشر مهما اعترته من آهات الأمل والرجاء. مع أنه الآن، وبعد ما حصل، مازال المعقول الوحيد، الممكن. ونهاية حفائرنا إذا حفرنا. ساعتئذ، افتضحت كل أفكاري التي احترمتها وقتا طويلاً وطالما عانقتها تقديراً لبطولتها، بأكاليل الغار، افتضحت وأفصحت عن قصور وضآلة فقط أسئلتي، دون أجوبتها، أظهرت كياسة وعقلانية. إذ كانت رسالة وعد في جملتها باقة جامعة مانعة من أجوبة لا يتسنى لعاقل مقاومة نور وإشعاع الإله فيها. إنها أجوبة تجب ما عداها. نظيراً أو بديلا. إنه نور الإله الواحد المتربع على عرش قلوبنا في زوايا النسيان. هكذا كانت أجوبة "وعد". حال إن هوى نورها بقلبي تهاوت أصدافي. وسحقت ما ظننته لؤلؤاً بأحشائها.

تلقيت كلماته الأولى، وظللت حتى آخر كلمة نطق بها، بنفس اللهفة والعشق. عشقت وعد وكلماته والإله الواحد. عشقاً نبا صدقه نبراساً وجلاله براقاً نبيهاً. لم تخالجني لحظة شك واحدة في جدوى رسالته وصلاحها وصدقها. سعيت إليه بنفسي، وفي الطريق إليه فقدت كل شيء. ومن ذلك، بيت أبي وحماه وماله، الأصحاب والخمر والنساء، والولع بالغلمان كالنساء. وسرعان ما فقدته هو نفسه ـ أبي ـ عندما أهدر دمي ضمن من أهدرت دماؤهم فهدر قلبي بالغربة والوحشة أياماً عديدة. ولكن النبي " وعد " احتواني وتخطيت أزمة

كانت كفيلة بشطري إلى نصفين. كنت أحب الحياة. وأغرمت بها حين أعدت اكتشافها وحدي. وولعت بها بعد انبلاج الصبح في كف وعد.

كان أبي واحداً من زعماء القطر المعدودين ومن أغنيائه فاحشي الثراء. للمال واكتنازه في نظره وجه أنثى لها نهد نافر، وبئر شديد الحرج في أعلى الساقين. فيما بعد، علمت من " بهال ". واحد من عبيد أبي فرّ إلى الدين الجديد ولم يكن ثمة ما يخسره، وهناك في الأرض الجديدة ما سوف يكسبه، وأنه لكثير. كانت أيضاً محاولة منه لكسب ودي. أنا ابن مالكه السابق لإفشائه السر، وأصل حكاية موت أمي.

أخبرني "بهال" أن أبي كان يتربص برفقة الحاكم. وكان الحديث يدور بينهما عن رغبة أبي في ضم أراض جديدة إلى أملاكه، وبضعة مئات من الأقنان الجدد، وإن مساعد الحاكم كانت عينه على ذات الأرض.

وهما يتحدثان تراهنا على هدف متحرك. كان العبيد داخل القصر خلية نحل تعمل على تنظيف بقايا الوليمة والشراب المسكوب في كل مكان. وكان يقف قريباً منهما بعض العبيد يحملون أطباق الفاكهة الحلوة، والمالحة، وكئوس الشراب. كان الشفق شديد الاحمرار كأنه في لحظة تالية سوف ينزف دماً. تلفتا لم يجدا. كانت أمي تغرس بعض الحبوب. مستغرقة في عملها. وحال ظهور الحاكم فرّ من حولها في لمح البصر كل جواريها وخدمها وبقيت وحدها تتطلع إليهما بابتسامة صفاء. نظر الحاكم في نن عين أبي.

صرخ أبي: "ثعبان يا امرأة". ركضت أمي. صوب الحاكم. أخفق. ركضت أمي أسرع. "فرصتين في مقابل فرصة" هكذا قال أبي يكرم ضيفه. كريم يا أبي بدم أمي. صوب الحاكم. طاش السهم. ركضت أمي أسرع وأسرع. وانكفأت على وجهها مرات عديدة. قامت تركب أقدامها. فقدت الشعور بالاتجاه. كانت تجري الآن باتجاه صياديها. لمحت أبي يصوب. يحكم تصويبه. يطلق. ثبتت في مكانها. ربما ماتت قبل وصول السهم إلى قلبها. سقطت أمي إلى الأبد ومات بين شفتيها سؤال. امتدح الحاكم بروحه الحرّة مهارة أبي وقدرته الفائقة في التصويب على الأهداف ثابتة ومتحركة. ولم يفته أن يشكر له

حسن ضيافته. كان أبي هو القاتل. ولو كنت أشك في الدنيا بأسرها لما شككت فيه. كانت أمي زوجة بين زوجات عدّة لأبي. ولكنه لم ينجب لا منها ولا منهن إلا أنا. وهكذا كانت مكافأته إياها.

لم تفت في عضدي المفاجأة ولا كان بوسع آلاف مثلها أن تحيل بيني وبين وعد ودعوة وعد. كانت دعوته سامقة وصورته غناء شادية. رأيناه كصحن الشمس ناصعاً مبهراً فريداً. فلم يتخللني بمقاطعة أبي وعداوته المستعرة أكثر، يوماً بعد يوم، وحدة أو ندم. كان وعد يملأ الدنيا من حولنا بشخصه وتعاليمه بهجة وحلاوة لا ندري مصدرها. فلم يدع فراغاً حولنا أو خواء في صدورنا تملؤه العفاريت أو الأسئلة.

كان وعد برسالته شمساً انبلجت بنور ونار والنار للدفء الجميل. وأمست التضحية بالنفس أولى إسهامات المؤمن وأسهل علينا من التنفس لطالما استغربت ودهشت لعدم استجابة أهل بلادي، الأعلام منهم بالذات، وكلهم مشهود له بالنجابة والاستواء الذهني. ولكني الآن، من مكانتي هذه، وبعد كل ما جرى، أفهم لماذا لم يقبلوا على الدعوة؟ ولماذا عادوها منذ البداية المدهش يا إناث، أن خلاني ذكروا أني تنبأت لهم برسول ينفلق به صبح ذات يوم قريب. والحقيقة، أني لا أتذكر مطلقاً أني قلت شيئاً من ذلك. وحدث مثل ما قالوا مرّة ثانية وثالثة على فترات متباعدة، وفي أمور متفرقة، وما فتئت لا أذكر ولا أتذكر ولا أفهم.

إناث: كيف؟

ساشا: يقولون أني وبينما أكون أجاذبهم أطراف الحديث بشكل اعتيادي، أصبح كالمتغيب عنهم. أتكلم كثيراً بكلام غريب، ومن العسير فهمه تفصيلياً. وأني أعرق، وتعبس ملامحي، وأكون جاداً كالقيامة وهازلاً كالدنيا. يتغير صوتي ويضحى كالنعيق. وبعد أن أنتهي أعود إلى ما كنت انتهيت إليه من حديث قبل الولوج في تلك الحالة الأعجوبة. إن لي بعض الإلمام بالطب. ولا أظن أن هنالك شيء في الأمراض شبيه بتلك الحالة. طبعاً لا أكذبهم وأيضاً لا أصدقهم. غير اني وبغير اقتناع كامل استطعت الربط بين هذه الحالات التي تُغيب وعيي او افقده فيها. واستنبطت من ذلك أنها حالة

تعتريني عندما أواجه موقفاً فوق الاحتمال. أكبر من طاقة عقلي على احتماله أو إدراكه على أن يكون ذا شأن عظيم في نفسي مؤلماً ومعذباً لها.

- عليك أن تؤمن بذلك؟

- لماذا؟

- لأنك فعلت هذا الآن، مرتين. ألا تلاحظ أن فراشي يبدو وكأن معركة حدثت فوقه. بيد أني لم أفهم ولا كلمة مما قلت. أسماء غريبة ووقائع أغرب. ربما كنت تتنبأ بزمن بعيد بعيد. فات أو يأتي، لا أدري.

قال ساشا متطايرا، ثم بحب: أكثر من غياب في هذا الزمن الوجيز؟ ماذا فعلت بي الساحرة.

قالت إناث جافلة : أنا؟ أنا لم أفعل شيئاً.

قال ساشا ممازحاً : أولم أتنبأ بك؟

تصمت إناث مفكرة. شاردة. فيعود إلى نفس سؤاله جاداً.

- أولم أتنبأ بك؟ بقديسة مثلاً؟

- ربما. نعم. كنت تتحدث عن قديسة.

- ولو أني لا أدري. فلابد أنها أنت.

- لا تكترث وأتم حكايتك.

- انشأ وعد يحارب ونحن معه. ودعوته تسعر في صدورنا وفي ملاءات بلادنا فتشب بالمقابل صرخات ممانعة واستكبار متفرقة لم نأبه لها. ولم نألها حقها. فقد كنا وهم نزيد على حساب نقصانهم، عدداً وعدّه. كنا كقضيب من الحديد نحن طرفه وهم نهايته والحرارة تسري في القضيب من طرفينا. وكلما تأجج صوت الحق بصدرونا عمقاً واتساعاً، انتقلت إليهم النيران فيتأرجحون متخبطين صارخين وتسترخي أياديهم. كنا المبادأة وصار الطرق عليهم أهون. كنا نسعد كلما اتسع الحريق وارتفع الصراخ. كان صراخهم يخلب آذاننا ويجلب لنفوسنا لذة عظيمة. كنا أقوياء وكنا الفعل، وهم بالكاد يتحصلون على رد الفعل. وشرعت دعوة وعد تجنح للثبات وتشتد، تعضدها نفوس آمنت أنه الحق فتجاسرت، ورسخت أقدامهم. واجتذبنا إلى صفنا بعض البلاد المحيطة ثم عدنا إلى الداخل نجهز عليهم.

طمعنا في الحصول على قمة الهرم المعادي، وناوشناها. فلم يدم هناؤنا. الأرض الصلبة تحت أقدامنا مادت. صلبوها. مزامير الشرك المتناثرة توحدت، تكتلت. ولديها الإمكانيات والمادة. بالمادة تجيش الجيوش وتعدل النفوس والضلوع. صاروا أعنف، يردوا الصاع صاعين.

استعادوا تحالفاتهم، أو هي سعت إليهم، حينما أحسوا بقرب انهيار صروحهم وأبراجهم، وخطر الدين الجديد لمقولاته المعروفة. ولما تمكنوا من عزيمتنا بدءوا يضطهدونا بادئين بأتباعنا أولاء. ومن شكوا فيه دون أن يجهر بتبعيته الصريحة " لو عد " استهلكته السياط. ونخرت بدنه في ساعات قليلة كسوس شره ولا مغيث. لا يرحمه سوى الموت. أي ما يريدونه له، وما أصبح يتمناه لنفسه.

نعم. الموت يصبح بغتة المرأة والمأوى. أجل فقد كانوا غلاظ القلوب لا يعرفون من فنون التعذيب غير الهراوات وتكسير العظام. والتنكيل بأحدنا يعني مباشرة موته بجرعة عذاب مفرطة.

إناث: لماذا كل ذا؟ هل كانوا من عبده الأصنام؟

ساشا: أبداً. إنها مسألة دنيوية بحتة. الغريب أنا من بادأناهم العداء ولم نستشعر الحقيقة، حقيقة أنهم أهلنا ومن أنفسنا، إلا عندما اعترضوا على تمادينا وردوا العداء بعداوة. وامتلأت الشفاه بكلمات التعازي، والبيوت برائحة الموت والخراب. كانت حرباً أهلية طاحنة. وكنا على يقين أن الرب سيتدخل في الوقت المناسب. إنه فقط ينتظر الوقت المناسب، لينزل ضربته القاضية.

إلهي، إن كنت حقاً موجود. فتقبل اعتذاري واغفر. لكنك وهم، سراب خلاب. هل تسمعني. ها ها.

توقف الراوي وشرب ماء ثم عصيراً ثم خمراً. ثم قال وهو يمسح شفتيه بمنديل ورقي أحمر. قال:

أحيانا لا يسع المرء أن يترك الكلمة تعبر عن نفسها تعبيراً حراً، فالكلمة تحمل معناها، وماذا بوسعنا أكثر من ذلك؟ أكثر من حسن رصفها وبنائها؟ لا شيء. ولكني هنا، لابد وأن أتدخل. وقهقهة ساشا هي قهقهة المأساة الملهاة. أصعب ما ابتدعه الإنسان بعرض وطول تاريخه على الأرض.

تلحق به إناث قبل أن يسلك طريق التوهان والحقيقة التي تسكر بلا خمر.

إناث: وماذا حدث بعد ذلك؟

ساشا: واحد لا أدرية سمح له الإله. أليس كل شيء يتم بعلمه؟ إذن بموافقته. وهو البداية وإليه تنتهي. سمح له أن يوقع بي، بي أنا، أقوى شيعته وأنصاره. أنا من قالوا عني " شكيمته ".

أوه، من يسامح الإله إذا أخطأ؟ من يتجاسر فيعلمنا أنه أحسن هنا وأخطأ هناك؟ هيا نصفق له هنا، ونصفر عليه هناك؟ وإذا طعنت بالكبر في شبابي فمن يقاضيه نيابة عن موتي؟ لا يهم. لم يعد ثمة شئاً مهماً. عندما بلغني ذلك..

- من والدك؟

- من " بهال " وهو كما قلت لك من قبل، انضوى تحت لواء الدعوة مبكراً. هو من سمعت منه أول ما سمعت بخبر وعد. وكان من لحظتئذ قريباً إلى نفسي. كان قوياً، ضخماً، ذكي الفؤاد. وجسور.

تقولين من والدي؟

انتظري. لقد سمع بهال والدي يحرض بضرورة وسرعة القبض عليّ. قال لعصبته: إنه ولدي. مهما يكن أنا كفيل بالقصاص منه. أعيدوه إليّ حيّاً. إنكم تخطئون بمهاجمة وعد مباشرةً. هاجموا أجنحته. اقضوا عليها وسوف يقع قلبه بين أيديكم كثمرة مستوية. وعندئذ لا تترددوا فانهشوه.

فترة. يصرخ ساشا بعدها:

إذن كان هو. لم يكن يريد حمايتي من وعد ولا من عصابته المسعورة كما أخبرني البعض، الكذابين، الخائفين. عندما نصحوني بتسليم نفسي لأبي. ويعفو عني. إذن فقد كان هو، هو الذي قاد العدوان على بلادك وهو من أردى أمي وهو أخيراً من وشى بي. أبي. حتى أنت يا أبت وهم. أبتي الذي في السماء وهم. و أبتي على الأرض وهم. فلمن ألتجئ وأين أجد الحقيقة. وشى بالحق لدى الباطل. حقاً، ما كان ممكناً أن يعترضوا طريقي إلا بإذنه. نصحني وعد بالاختفاء ريثما يهدأ البحث عني عارضته. أمرني أن أرضخ. هربت في اللحظات الأخيرة، وهم في أثري. الأفق براح. والسهل منبسط

كسجادة، برغم ما لقيته من هرج ومرج في طريقي. زحام. الأمر صادر إليهم من زعيم كلمته أقسى من الماء المغلي. ثم أنه حدد جائزة تسيل لبريقها لعاب أكثرهم أنفه وأقصاهم عن الاحتياج. عدوت عدواً مخيفاً. نهبت الأرض. طويتها بين أصابع قدمي كالغبار. فلم تعيقني لزوجتها. كنت كذلك الفتى الذي ولد طائراً بغير أجنحة. كل الأشياء الثابتة تصطدم بي وتسقط. و الأشياء المتحركة تدوّم في عقبيّ. وأنا أشق سبيلي إلى الهرب كالمسمار الحلزوني بتمكن واقتدار، لا أحيد عنه ولا أميل مع كل صدمة عنيفة تجللها طاحونة في رأسي. وغدوت بطلاً وحديث منتدياتهم ومثالاً يحتذى في إجادة الفرّ. بطل يا نجاسة. من يدري؟ لعل أبي يشمخ الآن بنسله. ويتقبل العزاء في موتي، ولا يمل من ترجيع ذكراي.

صنعوني بطلا كما تصنع الظروف التعسة أغلب الأبطال. ومن صنع التعاسة إلا هم. كما يصنع اضطراب العقل الأفكار العظيمة، بمنتهى السهولة. ولكنه الرعب كان يقضم جوانحي ويتصارع بعضه ببعضه ويلم شمله فيندفع واندفع فيه، ومعه. لم أكن أهرب من الموت بل من شيء أبشع احتسيه قطره قطره وأبقى حياً. ليس أمر ولا أكثر من أن يشاهد الإنسان نفسه أسيراً أعزلاً يعصف به القلق تدريجياً لا يفيده أي عون من الخارج ويظل خلال ساعة يترقب النهاية وتتأخر النهاية وتصبح الساعة ساعات وشهوراً، وحين يوافيه الأجل لا يشعر به فلا يسعد بقدومه ولا يعرف أنه قبض. وأنه أخيراً، ارتاح. وأمن.

إني أدرى بأسنان أبي حين تصطك. لهذا كنت عظيماً مروعاً في فراري الأسطوري. ليتك شاهدتني، فرد واحد تطارده مئات الأقدام ما بين راكب وراكض. وأنا أتقدمهم كعصفور وحيد تلاحقه قافلة من الثيران المجنحة. لحسن الحظ أن الموت خطاف. والأنام – بضاعته – مكدسة. مرت أوقات كان أول القافلة المطاردة يكاد لو مد يده يمسك بي. وفي اللحظة التالية، كنت أبعد عنه لو طار ما لحق بي. وإذا كان الرعب يثبت الأقدام بالبخت حيناً ويعصف بها حيناً آخر فقد كان من حسن حظي أنه بث فيا القوة والجلد والسرعة، أضعافاً مضاعفة.

انطلقت كالسيل، أنفذ من السدود أو أركبها. أحطم العوائق في الطريق أو آكلها. وكان ذهني أسرع من أقدامي في تنبيهي على منحنيات الطريق والتواءاته.

لو أني أردت إتيان نصف ما كان مني. مني أنا نفسي، في الظروف العادية، الآن مثلاً، مهما اصطنعت الرعب أو رسمت المطاردين بحدقة عيني تحدوني الرغبة في المحاكاة نفسها ووضعت حب الحياة، وحب الحق نصب عيني لعجزت تماماً. ولسقطت قبل منتصف الطريق. وربما أمكنني تشبيه الحالة الثانية بالأولى برائحة الطهي في خيال الظل، مع أني في الحالتين، هنا وهناك، نفس الشخص، القلب والقدمان.

لا أتذكر أني كبوت مرّة. ولو أنهم لحقوا بي قبل أن أكن عن أنظارهم ويلفهم اليأس تماماً في النيل مني لاستعملوا معي الحسنى عوضاً عن استخدام أنيابهم.

إناث: لأجل والدك؟

ساشا: لا تذكريه عليّ، أبوته تصيبني بالغثيان.

إناث: فلأي شيء يسالموك؟

ساشا: لأنفسهم. ليجندوني في ملاحقة أبناء ديني بسبب ما أبديت من بلاء خارق. وإن كان الحين ضدهم. وإن كان الحين هرباً وفراً. أما وقد أصبحت في قبضتهم اختلف الأمر. إنهم قوم لا يفوتون فرصة يحصدون منها حفنة من الحنطة. أو يحبسون " الفرصة " في خزائنهم حتى تتعفن وتموت من تلقاء نفسها.

لقد نجمت قوتي وسرعتي وبدلاً من بليها تثبيتها، وبدلاً من علكها تنميتها إلى حدودها القصوى. ثم امتصاص رحيقها. إنها إضافة لقوتهم. مصلحة، فكيف يفرطون؟ هم يفرطون؟ إنك لا تعرفيهم. فالهروب يغدو هجوماً، والمناوأة تمسي ممالأة. وما كان ضدهم يصبح معهم وفي قاربهم.

عبرت نهراً صغيراً ضحلاً يفضي إلى غابة شاسعة، كأن أطرافها الخطوط المتوازية. لا يقدر على سبر غورها وابتلاء بشاعتها إلا من اقتحمها إلى ما تحت لحائها فقط. فهي نغمة طليّة، طروب لمشاهديها من بعيد، من على الحدود. تبدو كطبيعة خلابة وضفتها على النهر

أكثر من رائعة. أما بداخلها، أوه، هي ذلك الوعاء الذي ينزله المرء لحظات فيغادر محياه رسمه، يخرج منه بلا جلد. وبلا حياه. فالأشجار فيها متخمة بالكثافة، مهرجان وفوضى. معظمها شاهق ومعظمها صغير مورق، كثير الأوراق. ومن الداخل، فى قلبها، ظلمة استضافت ظلمة في عز النهار.

كان أهلنا وذوونا يتوعدونا بها إن عصينا أوامرهم. وأشاعوا أن بها جان ووحوش تقتل بمجرد أن تقع بصرها عليك. وهناك نيران تخرج من العيون ومخاط يذيب الجلد والعظم. فداخلها مفقود من خطوته الأولى ولا نجاة له. كأنما هذه الغابة السمحة من الخارج لم ينتزع منها غصن أو سقطت منها ورقة منذ بدء الخليقة. كأنما الخريف لا يعودها فنمت عشوائياً ورأسياً في مكانها. وكل شجرة منها لا تخلو من سكان، طائر أو زاحف أو متسلق أو بكل هذا. زحام. ومع كل حركة تصدر مني وبعد أن أكون ركنت إلى السكون كالحصان الذي قعد بعربته المشدود إليها في غير وجود الحوذي ولانقطاع الصلة بيني وبين مطاردّي، يخيل إليّ أنهم، وهم لا يجرؤون، خلف ظهري. وها هي الرماح مشرعة في أياديهم والسهام تطير في الهواء قاصدة ما بين عينى إن لم أتقدم خطوة أخرى. وما كان تراجعهم بظني عندما رأوني ألج الغابة إلا خدعة. وأنهم دخلوا وأنهم على بعد أمتار مني. أفزع وأركض هائماً على وجهي ويجن الليل. مجرد إحساس بالليل. فـ[illegible]ظلام ازداد كثافة ووقعاً. وتختلط أشكال الحيوانات بوجود مطاردي. بفم والدي الأمر: اقبضوا عليه.

والحيوانات في تلك الغابة زاخرة لاغيه لم يصد أحد منها أحد جناح عصفورة إلا من شاء حظه العاثر من سكانها فخرج عليها وعلى أمنه معاً، مهما كان. فقومي على حدودها يتربصون. ويبدو أن الاتفاق تم على هذا النحو من غادر منهم نحونا لا يعود. ومن دخل منا إليهم لا يسمح له بالعودة. وهم في غابتهم يصيدون بعضهم بعضاً، مثلنا، ولا يوجد بينهم كبير على الإطلاق. وإذن فهي لا تحوي غير الأقوياء أو الأصلح للبقاء، العصارة. وهكذا فكرت بيني وبين نفسي فارتعدت فر[illegible]ي. ودب في أوصالي الخور والتردي. لم أكن أعرف عنهم شيئاً. من الأقوي؟ من الأخطر؟ من الأدهى؟ رأيت

حيوانات ذات هياكل ضخمة، هائلة، كانت تنظر إليّ وتمضي، وكأنها لا تبصر. مثلما ننظر نحن إلى سرب من النمل، بعد أن تخلفني نظرتها العمياء في رعبٍ مقيم. حتى إذا لفحت وجهي جناحا حشرة حقيرة تتدرب على الطيران اصطكت أسناني فرقاً، ثم يا للعجب، أراها سقطت تحت قدمي ميتة لوهنها المفرط. كدت أموت بهذه الطريقة ألف مرّة.

ويا لخضرتها القاسية، طبقات من الأحراش والعشب والأوراق اليانعة والناشفة. ويا كثرة البعوض والنمل والعناكب التي نسجت بيوتها بين الأوراق التي تتفجر صدورها حياة ونماء.

وعندما ملت على شجرة كالطود مالت معي. ولا أحدثك عما حدث. إنها القيامة لسكان الغابة، تجربة مصغرة، هياج وفوضى وموت يحاول النهوض من بين الأقدام التي تدهسه، ليمسك برقاب بعض الذين يدهسونه. البعض يطير والبعض يهرب والكل يجري في كل اتجاه احتميت بسرعة البرق في ظهر شجرة أخرى أقل حجماً. ولكنها تبقى كالطود أيضاً. ولا أدري إن كنت قد فقدت الوعي أم لا؟ والمؤكد أن كل شيء قد عاد كما كان بعد فترة طالت أو قصرت، لا أدري. وجدتني افتح عيني وأواصل السير مترنحاً. بدا لي أن لا آخر لها. وأنها بدأت قبل الزمن. ظللت أجوب فجواتها، طرقاتها، وبقيت على هذه الحال ما يناهز الأسبوع. نفد صبري. تداعى. أوشكت قوة احتمالي أن تتقوض، فيض' . ما الفيضان بأسماله الجارفة جميعاً إلا نقطة مياه زائدة؟ وإذا فاض، فاض في طرفة عين جارفاً أمامه، بهذه النقطة الزائدة، الدمار مجتاحاً ما بني وتأسس في أعوام، المدهش أني لم ألفت نظر الحيوانات بشيء. وما كانوا، هكذا أظن، يبالون بي لولا فزعي وتخبطي واصطراعي مع نفسي وهواجسها، مع خيبة الأمل والضياع والتشرد. ولابد أنهم اعتبروا سلوكي البائس لا ينطوي على ود. هم على أية حال لم يجدوا فيّ ما يعجبهم. بعضهم مال عليّ وتشممني وانصرف. وبعضهم كاد ينام في حجري. أجهشت بالبكاء وبلت على نفسي وصرخت ملتاعاً: يا حيوانات بلادي. يا وحوش البرية أنت أرأف بي مما أنا فيه. أنا هنا. تعالوا خذوني. فقط أعطوني جرعة ماء وفراش أموت عليه. ودعوني أتطلع لحظة واحدة الى

شمس الصباح قبل أن أموت. لن أموت كجيفة، لن أموت ظمئاً منهكاً. رفرفت الطيور بهلع حين سمعت صوتي. وحين سكن كل شيء من جديد، لم أعد أسمع سوى الضنى، ضنى شاسع ولأي وإعياء، وإغماء لا يحدث. ورأيته يختال. كان جحشاً صغيراً، أظنه ما زال لم يفطم. همست لنفسي أن الجحش لابد وأنه يرتوي من مكان ما. أين؟ هل أركبه؟ ولم آمن ألا أن يكون مثل إخوته في وطني. تقت أن أفعل فأشعر، ويا للذة، أني أتقدم دون مجهود. فقط سأجلس على ظهره مسترخياً وينقلني من هنا إلى هناك. هل أقدر على القفز على ظهره. لا. جهدي استنزفه الخوف بعد الهروب الكبير، يتتبعني عن قرب وأتتبع الحيوان الغبي عن قرب أكبر. وسار يهدل في نعيمه الخاص، ومسيره سقيم. كان كثيراً ما يدور حول نفسه ويعود بي إلى البداية. أعلم أنها البداية. وأعود فأتبعه من جديد، ولا حيلة لي. وتساءلت: مما يخاف؟

نجحت خطتي في النهاية، بفضل أنفاسي التي لم تغض من صدري. وعبرت للشمس، للهواء، للحياة. كانت رائحتي المقرفة كالشذا في أنفي، إنها رائحة الحياة. لم تك الغابة من الطبيعة في شيء. كانت أتون وأنياب. ومن أول وهلة، تبينت طريقي خارج الغابة: النهر.

قريباً جداً من نفس النقطة التي عبرت منها، بحسن طالعي، إلى الغابة. إذن فأنا لم أتعمق كثيراً بداخلها برغم ما رأيت من أهوالها لم يكن ثمة بد من العودة وإلا فأين أذهب؟ لا يجدي التسول في الصحاري القريبة. ولست كفؤاً لتحدي الغابة ولا مؤهلاً للحياة وحدي.

لم أشعر بندم على إسلامي بـ " وعد " ولا بحنق على الدين الجديد الذي أوصلني إلى ما أنا فيه من ذل ومهانة. وقلت في نفسي أن يد الإله لم تحنث بوعودها. من يصدق أني نجوت مما كنت فيه؟ لقد لفظتني الغابة. وهذا لم يحدث قط من قبل. لطالما ابتلعت من نساء وأطفال ومن الرجال أشدهم. وها هو جبيني يندى بالخجل لأني لم أواظب على إيماني في كل ثانية اختلج بها صدري. وسمحت للشك

أن يناوش عقلي بسهامه الناعمة. غير أن المفاجأة التي كمنت في انتظاري على الطريق كانت هائلة وقاسية.
قابلني توأم " بهال " الصغير وكنا نكنيه كذلك لقصره وضآلته مقارنة " ببهال ". إنه واحد من المطاريد على شاكلتي. فألقى إليّ بصورتي الجديدة في عيون قومي. صورة البطل كما حدثتك عنها. وأخبرني أنهم عدوني مفقوداً وأقيم الحداد في أرجاء القطر إكراماً لأبي ولنفوذ أبي. ثم اعلنوا بعد قليل دون أن يتحدد مصدر القائل أني مت، وتم التأكد من موتي بواسطة فرقة كاملة مدججة بالسلاح اقتحمت الغابة إبان نوم حيواناتها. وقال إن وعد قبضت عليه الكفرة واقتادوه يرسف في الأغلال إلى ساحة المعبد للإله " شمباري ". إله الظلام غير الممثل بأي صنم. ولكن فقط صندوق به فتحتان عن قدر العينان، ينظر منها العابدين فلا يروا إلا الظلام بطبيعة الحال. الظلام وما توسوس به نفوسهم.
وعمد حزب الكفر إلى أن يدوروا بوعد مكبلا أكثر من مرّة عبر شوارع المدينة وأسواقها.
أطلقت ساقيّ للريح باتجاه المدينة وأنا اصرخ بحمية في توأم بهال الصغير: "لابد أن ننقذه".
استوقفني أخو بهال زاعقاً بعصبية: " كان هذا قبل يومين.قف".
صرخت مجدداً بتلقائية حمقاء: "لماذا لم تتدخلوا لتخليصه من الأسر؟ هل تركتموه يواجه عصابة الشر وحده؟"
استوقفني أخو بهال مرّة ثانية، أكثر هدوءاً، وهو يحثني على الصبر والتريث وسماع الحكاية كاملة. وتقييد قدمي السريعتين، قال: "كلنا آمن أن الإله يكفيه، وهو خير نصير. لا تنسى يا ساشا أننا بعدما أعلنوا عن موتك اهتزت بقوة آمالنا في النصر عليهم. وبدأنا نرى بوضوح أننا مهزومون لا محالة. اعتزل السوق البيع والشراء، وأفرغ من البضائع. وحضر الحاكم، والحاشية وأمم من الناس.. نصبت المحرقة. وأحضر وعد، ويا للدهشة نظيفاً، لم يمسه أذى. أدنى أذى.
وبعد أن تفننوا في قيده وبالغوا أمطروه سباباً وتباروا في جلده ببذاءاتهم. رموه بأوساخهم وجيف الموتي من الحيوانات النافقة ومن البشر القتلى في المعارك الأخيرة. وكان وعد صامتاً، جلداً كالفولاذ.

تمادوا. هزءوا به، سخروا منه بمرارة. قليلاً قليلاً غادروه إلى ربه، مرسلة، قال أحدهم: "أهو الآخر من حاملي راية الصمت؟".

أخيراً نطق وعد. يختلط وجهه بعصير الطماطم والدم الحار من جسده الشريف. توعدهم. أنذرهم. ضربوا على وتر غلوائهم ثائرين: " تنذرنا بمن؟ إنا للحق نريده هو. لو ظهر سنطلق سراحك، ونقيده في مكانك. وسيكون لنا بعدها حديث طويل. "

كان هناك " امبو " أحد كبار المدينة، تعاطف معنا منذ البداية. سأل وعد بخبث قاصداً منحه طوق النجاة. ولكي يطمئن فؤاده هو ليقدم على خطوته الأخيرة. ويعلن إسلامه على رؤوس الأشهاد. ويا لها من طريقة للإعلان. كان امبو منذ بعض الوقت بدأ ينحاز إلينا ويستميله وعد خطوة بعد خطوة. وفي كل خطوة لم يبخل الرجل علينا بالمشورة والدعم سراً. وانفتحت ثغرة لم يستشعرها إلا المؤمنين. قال امبو: "يا وعد. فك وثاقك بنفسك أو ادعو ربك يفكه عنك. ادعوه يفلتك من قبضتنا أولاً ثم هدد وتوعد ما عن لك ". ورد آخر منساقاً إلى حيلة امبو: " نعم. ناديه لو كنت صادقاً ". وقال ثالث: "أوتحسب أن لك إلها؟ أو كان لك أنصاراً، خدعوك فقالوا صدقنا و إنا لمؤمنين".

وهكذا أخذوا يزايدون على أنفسهم حتى عادت الكره إلى صاحبها. قال امبو: " وإني لمن المصدقين إن صدق ". وتشجعت الكثرة وتأرجحت كفتي الميزان وشعرنا بإغراء الأمل والنجاة. انخرست الألسنة المعارضة وأولهم أبوك، مرغمه. وفي النهاية تحول القوم جميعهم إلى الاعتدال. وخيّر وعد بين أن يدعوا ربه فيطلق سراحه أو يموت ويثبت كذبه وافترائه. وإن نجا فهو صادق وإنهم لمسلمون له الدين.

وتعلقت الأبصار بوعد وبالسماء من فوقه كأن على رؤوسهم الطير مشدوهين بالآتي وبالنار التي أُضرمت في أغصان الأشجار الناشفة التي قيد وعد إلى جذع ضخم منها نصبته زمرة من الرجال الأشداء.؟ ولكن وعد لم ينبث ببنت شفه وأطرق حتى النهاية. قعقعت النار وطعمته بهدوء دونما عزاء. أو تبكي النار من لم يبكها؟ لم يستغث ولم يلن وإنما في لحظة معينة فاضت روحه في العدم في

صرخة واحدة. ومات وعد محترقاً. ولكن المفاجأة الوحيدة في كل ذلك أن النيران انطفأت فجأة إثر صرخة وعد وتصورنا أنه سيخرج علينا حياً من تحت الأنقاض والدخان الكثيف. فلم يك له أثر على جذع الشجرة الضخم. وساد صمت رهيب وجليل، وانتظرنا أن يخرج علينا مقهقهاً، مزهوا بنصره على الطغمه الكافرة. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. ووجدنا جثة وعد متفحمة وسط الركام الذي اشتعل نصفه فقط. كانت النار قد أكلت الحبال التي أوثق بها " وعد " وسقط إلى الأسفل.. هذا ما قاله توأم بهال. ولما سألته لماذا لم يرتد كالآخرين؟ قال ويا للغرابة: " سيدي ساشاي، سر بين الناس ومنهم الذلول الحقير وصاحب التاج العفة الشريف وسوف تجد منطقة – منطق الإله الواحد – رب العالمين - متحزب على الألسنة قاطبة لغة واحدة، مفردة نظيفة ولن تشعر إلا بما لا يتردد صداه إلا عن أصل قوي حقيقي وإنما المال يمنعهم. المال، أفضل برهان على سوء صناعتنا. مات وعد أو قتل لا يعنيني في شيء. المهم عندي ما قاله، رسالته. وأن لا أستطيع أن أواصل حياتى بدونها. ذهب وعد وبقيت كلماته وأفكاره. وهذا ما يهمني".

قالت إناث:

- سواء كان وعد حقيقيا أو مزيفا، صادقاً أو كاذباً فالدين حقيقة مؤكدة إنك به وحده يمكنك أن تعيش دون خوف من الموت ومن ألف شيء وشيء تمتلئ به حياتنا، ساماً كالثعابين. لأنه الهدى والنور. لأنه ما يجب أن يكون. إنها الروح التي يمنحها الإله للحياة والموت على السواء. هذا ما رآه صاحبك توأم " بهال " واخطأ في التعبير عنه.

ساشا: لا أنت فهمت خطأ. إن شقيق بهال قصد من وراء كلماته أنه تجاوز وعد إلى ما جاء به وعد. ارتفع بالشخص إلى ماوراء طبيعته.

ربما أنت على حق. ولكنه سوف يصل بك في نهاية الأمر إلى ما ذكرته أنا.

قال ساشا مفكراً :

- لماذا؟ لماذا لم يدع وعد ربه، وهو صادق، إن ينجيه. حقاً، أنا لا أصدق أنه كذب علينا وخدعنا. ولكن ما منعه؟ لماذا تلكأ ونكص حتى

أهلكوه؟ أكان يطمع في الشهادة؟ ونحن؟ ألم يفكر فينا؟ هل ينس هو الآخر من إصلاحنا؟ خذلنا؟ من؟ هو أم مرسله؟ ألا يوجد مشعوذ أو مهرطق يجيبني ويقنعني بالكذب أو بالخديعة، وأقسم بشرفي الذي احترق مع وعد. أن أقتنع و أباركه. تصوري، النار تطقطق تحت قدميه وتقترب، تقترب منه ومن قلوب آلاف الناس الذين وثقوا فيه. كل هذه القلوب القتيلة حرقاً كانت بين يديه وكان يكفيه كلمة واحدة: واغوثاه.

أين كان الإله وقتئذ؟ من شغله عنا؟ ماذا كان يعمل فوق؟ خلق جديد أم تعديل على ما سبق خلقه. هل أحرقوا رسوله على غفلة منه؟ لماذا لم ينجده؟ أولم ينظر؟ أولم يرى؟ أوليس له بعد نظر أو حاسة سادسة؟ أم أنه يفتقد الحواس جميعاً. كيف لم يعرف هو أو رسوله، أو كلاهما معاً، نصف نتائج هذا الخنوع والاستسلام الذليل على عشرات الأمم التي دعاها وعد إلى الإيمان بالإله الواحد القهار، فاستجابت له بحسن نية. ما هو الاتفاق الذي جرى بين الإله ورسوله ولم نعلم عنه شيئاً. وهل تم تجاهلنا أم راعياً مصالحنا؟

أليس هو العليم يعلم ما خلق ويجب ما خلق؟ يعلم الجهر وما خفي؟ هذا ما تعلمناه على لسان وعد وبصحبته. هذا غرسه في صدورنا. وما كانت يده التي تغرس كما قال بل يد ربه. والمؤكد أن وعد كان يرتعد: "واغوثاه". ولو لم تنفرج شفتاه بحرف من نداء الاستغاثة. أولم يسمع الإله نداء صدره؟ أم ستقولين أيضاً أن وعد لم يناديه بلسانه وأن نداء القلوب لا يُعترف به في محكمة الإله أو على أرضه؟ قتلوا وعد وهو قتلنا بعد أن أحيانا. قتل الأمل ونثر جسمانه على رؤوس الجبال وفي صحاري البحر. واأسفاه، أن أجزائه لن تتجمع مرة أخرى. وضاع الأمل إلى الأبد.

المعقول الوحيد في حياتنا لم يلبث طويلا، فعلى يدينا نما وكبر وتحت عيوننا تفتت. ولم يعد له وجود.

انسلخت فكرة الإله الواحد من فقرات الأعمدة الفقرية لأقراني لكنهم عادوا إلى سيرتهم الأولى باكتشاف غير مؤذ أنهم خدعوا. أما أنا فقلت في نفسي ماذا هنالك؟ إن هي إلا حياتنا التي نحيي ولهذا أنا عازم بقوة على أن أعيشها على ما هي عليه وأن آخذ نصيبي فيها

حسبما أقدر. سأدخل من باب الحياة وأحيي كما يحيي بنو آدم العارفين. إنني إذ أرسب في ابتلائه – إن كنت على خطأ – فلست وحدي من قبل ومن بعد. لقد لقيت أولاد الهول وفرضوا عليّ صحبتهم أعواماً عديدة. ويجب أن أعوض بأي شكل ما أضررت به وبما يوازي أو يساوي ما تكبدت من العناء والألم. ولو كتب عليّ أن أستحيل ذراعاً وأرضاً تنبته. وشقاء أبدياً للآخرين. ولو كتب على أن ألطخ وجه السماء بأطنان من الدم والأشلاء وروث البهائم. لن أفئ إلى مخدعي بذات قلبي الذي أطفأ نوره وعد وربه. إن لي عامان أسير الإحن والأنين المتواصل وعامان آخريان مع وعد وهموم الدفاع منه. وماذا جنيت في النهاية سوى الوهم وحصاد الهشيم.

إناث: لماذا لم تعد إلى قومك؟

ساشا: مستحيل. فأنا في موتي أفضل لوالدي مني حياً. هكذا بات الأمر ومن المستحيل تعديله. وحتى إذا عدت فلن يتردد والدي لحظة في إبقاء الحال على ما هو عليه. وسيقتلني في لمح البصر كمدع ينتحل اسم البطل. وكان ساشاى محقاً. فقد تغير شكله كثيراً. وبات وجهه يفتقد أدوات زينته التى لم يكن يستغنى عنها قط، من منعمات ومطهرات وروائح ودهان، كانت من اندر وأغلى الأنواع. وأشدها تأثيراً على البشرة والوجه.

إناث: فكيف وصلت هنا؟

ساشا: إني لم أقصد الوصول إلى وادي الرعاة دون غيره من أوطان الأرض العديدة. إنها محض صدفة. كان برفقة توأم بهال شخص آخر من الهاربين بدينهم مثلنا قبل أن ألاقيه بعد نجاتي من الغابة الوحشية، هذا الرجل نفق معدماً تعيساً كما تنفق الدابة الجرباء فعدنا سوياً، أنا وتوأم بهال إلى جثته واستلبناها ما كان معها وكانت الطيور الجارحة أخذت حصتها منه حتى أننا وجدنا صعوبة في إبعادها عن الجثة وحملت أنا ما كان يحمل وما عجز بهال أول مرّة عن إضافته لما كان معه من زاد وسلاح. قضينا أياماً كثيرة متشابهة إلا باختلاف الأخطار. وكان هدفنا بحسب نصيحة التوأم طريق القوافل. نتربص بها ونمضي في إحداها خلسة حيثما ذهبت ذهبنا. ونغادرها قبيل أن تفرغ حمولتها. ولكن بهال مات فجأة بعلة ذات

وطء شديد فتضخمت وحدتي. ما كان عندي روح تبكيه ولا قوة تقدر على حمل ما معه من سلاح وزاد. فدفنتها معه تحسباً للظروف. ولكني دفنت السلاح أولاً. وكان ذلك قبل دخولنا أرض وادي الرعاة بعدّة ليالي. أبكيه؟ كان كلانا يفكر بصوت يكاد يكون مسموعاً وبنفس الحروف تقريباً أسمعه ويسمعني: "لو نفد الزاد فسآكل صاحبي".

ولولا القوس لكنت موضوعاً على مائدة لألف فك مفترس. ومنهم من لم ير فيّ غير عظمة منخورة بسوس شيطاني إن يأكلها تعطب أسنان الشهية لديه إلى الأبد. وكثير منهم ترفع شمماً عن مجرد تذوق لحمي. ربما لفكرة سالفة عن طوالح الجسم البشري – في عرفهم - الخالي من أي ميزة غذائية، السام دائماً.

فتحت عيني مرّة على قط وحشي، بحجم غزال، تشممني ومضى. يا ليتك رأيته، كان كبيراً، قوياً ومهيباً، متوحشاً وجميلاً. عندما التقت عينانا تلوت فيها معان الرثاء الممزوج بالاحتقار.

وأخيراً جاءت القافلة فتسللت إليها تحت جنح الظلام ودسست نفسي بين حوائجها. ومن بلد إلى آخر. ومن جبال لوديان علقت حياتي بأقدارها. ولما بدأت أستشعر أن اكتشاف أمري بات دانيا وإن بصمات وجودي، غير الشرعي، في أحشائها باتت أكثر وضوحاً وهجرتها، وأنا لا أعلم إلى أين؟

وعلى حين غرة عثرت أو عثر عليّ ذلك البغيض زوبعة. كنت منهك القوى، متهالك. وقد نفد مني الزاد والماء ولأني كنت سأروح ضحية الإرهاق النفسي والبدني معاً رغم ما ملأ كياني وجوانحي من حب شهواني للبقاء والانتقام من الموت بالحياة الطويلة. حاولت، وكادت المحاولة تمنى بي، ان أقنعه بينما كنت مطروحاً على الرمال كخرقة بالية الفظ أنفاسي بصعوبة بالغة فيما يقف عليّ بظله، بكبر وعظمة لم أر ما يدانيها. هكذا، رأيت هذا الضفدع الهزيل، زوبعة وقتها. شامخاً عالياً كالنخيل. تمنيت على الإله ألا يتحرك. أن يحجب قرص الشمس المتوهج عن عيني ولو لدقيقة واحدة. كانت الشمس تلسع وجهي بمرارة وقسوة فوق ما تلهب جسدي حرارة الرمال ولكني ما كنت أشعر بذلك قدر ما كنت أراها مستميته بفعل فاعل في

إيلامي. لكم حقدت عليها في ذلك الحين كما لم أحقد على نجم من قبل. ونتيجة هذا، إن وجدت جسمي كله مقروحاً.

كان زويعة يتحرك ويدور حولي فأتحرك وأدور معه، محاولاً البقاء في ظله. عرضت عليه فكرة أن يشتريني معدداً له ما حسبته من مميزات تخصني. رمقني بكره واشمئزاز ولم ينطق. كنت أصبحت مسلولاً كالطيف أتضور جوعاً وخوفاً وإن بقى في نفسي حتى اللحظة الأخيرة ما يملأ منه بنزراً عميقة: الأمل. فقد عرفت من كل ما مر بي إن الموت يجافيني. وشرحت له فكرة ميثاق يشتري حريتي به ويملكني بمقتضى نصوصه. وإذ هو يبيعني يربح كثيراً.

قعد على إليته وقال إنه يتاجر في الإماء وحسب. قلت له أن الذكر ليس كالأنثى. وهو مربح أكثر.

أبدي تردداً وشكاً وسحب ظله من فوقي فانسحبت روحي وراءه رغم ذلك كله لم يقتنع بشرائي إلا لشئ ثانوي أن أصنع له قوساً كالذي كسرته بعد أن أشفي واسترد ما فقدت من صحتي وعافيتي. فبعد أن أبي منهياً مزايدتي على نفسي. هددته بالقوس أنكر عمله. تحاملت. وضربته بسهم ارتجالاً فأصاب بالصدفة المستحيلة حيواناً كان يمرق خلفه فكومه في مكانه متخذاً شكلاً شديد الشبه بإنسان يتعبد. وكان وجهه المنكس في الرمال — ناحيتي.

فهم زويعة أني كنت أ يد أن أجربه أمامه وأني أقوم بإغرائه ولم يشك لحظة أني كنت أصوب عليه فعلاً. سال لعابه. انبهر بعمل القوس. بيد أنه دون مفاجأة كبيرة، حاول أن يغدر بي ويخطفه. لكني اندفعت عليه متحدياً سياط الشمس ونزيف روحي كأني اقتحم حدقتها مسيطراً على حركة ظله هو بعد أن دبت في أوصالي القوة جميعاً وعضني الغضب من قلبي فوثبت عليه بفدائيه وانتزعته من بين يديه وحطمته تحطيماً. وأذعن أخيراً لشرائي، بكلمة لم يقلها أبداً لأن رقبته الحزينة كانت ساجدة بين جلال يدي. ثم حدث بعد ذلك العقد وما شابه. الغريب أنه لم يذكرني بأمر القوس ولا مرّة واحدة فيما بعد. ويبدو أن الخوف شل قلبه إلى درجة أنه لم يفكر بإعادة الكره بينما كنت فاقداً تماماً لوعيّ.

هكذا تم أول لقاء لي بإنسان بعد رحلتي الخطيرة في القوافل. ولولا حاجتي وقتئذ إلى صندوق القمامة المدعو زوبعة. وفي آخر لحظة، بهذه القوة المفاجئة لحطمته هو بدل القوس. فما عاد إلا هذا "الصرصار" التافه يجعل لنفسه علي أنيابا تنهش وتعض. أنا الذي قهرت طغام الغابة و طغام بلادي. أسلمت له نفسي ولم أدر بها إلا وأنا في دار زوبعة وسط الإماء. وقد علمت أن المرأة الدميمة في بيت زوبعة هي من رعتني لفترة طويلة، أنت.

إناث: كنت فاقداً للوعي، مشوهاً ودميماً أكثر مني. ولم تقبل أي أمه على رعاية جثة.

ساشا: وأنت قبلت؟ (لا ترد) إن هذا ليثلج صدري.

يصمت برهه، مفكراً: إذن فأنا مدين لك. سأعمل على رد دينك قريباً.

ثم أضاف بعد لحظات: وإذن فقد لازمتني أسبوعين كاملين.

- ليل نهار.

- وحدنا ؟

لا ترد إناث. يبدو ساشا سعيداً، طرباً، جذلاً، لا يعرف كيف يعبر عن نفسه.

ساشا: جسدي هذا حظي برعايتك، بلمساتك. لكم أحسده. ألا يحظى صاحب الجسد بيوم واحد من اهتمامك. ألا ترين إناث أن خيوط القدر تأبى إلا أن تربطنا ببعضنا. بقدر ما أنا ناقم على كل ما جرى بقدر ما أنا سعيد لأني وجدتك في نهاية النفق المظلم كرة من النور الجميل. لماذا إذن حينما أفقت لم أجدك إلى جواري بل وحتى لم تحاولي الاقتراب مني. ما الذي كان يقصيك عن دفء أحضاني. مما تخشين؟ يا حبيبة قلبي. (تطرق). هل كنت تخشين قلبك؟ إن يتعرف على توأمه؟ عموماً، فأنا مدين لك بالكثير ولن أسمح لك أن تحرميني من رد الجميل. انظري يا حبيبتي لقد أردت أن أردى ذلك الزوبعة. هو من ساقه لي برج حظي السعيد لانتشالي من هلاك محقق ولكن

قاطعته إناث:

- أعلم أنك لم تفلت من كل ما حاق بك بسبب بطولتك الخارقة حقيقية كانت أو زيفة. وإنما الإله نجاك ووهب لك الحياة مرّة بعد مرّة. وبدلاً من أن تفتح عينيك وترى ذلك العطاء الكريم، وبدلاً من

أن تصلي له شكراً جحدت بنعمته عليك ورحت تجدف في ذاته القدسية لأنك لو كنت صرعت زوبعة، قبل أو بعد أن برئت فإنها كانت ستكون ورطتك في أرض لا تدري عنها شيئاً. قد يكون خلاصك الوحيد منها على الأقل هو الهروب مجدداً. وأظن أنك اكتفيت هرباً، بإرادتك وبدونها. ولا أظن أنك من الحمق بحيث تبتدئ حياتك، ميلادك الجديد هنا بمشكلة إن كان البقاء هو اختيارك.

- إن تحليلك رائع ويشبه الحقيقة كثيراً. لقد ملأت جوانحي ثقة بالنجاة والانتصار وعرفت أن خطواتي مباركة. لذلك فبعض ما قلتيه صحيح تماماً. إني لست على استعداد لأن أطل على مشارف الوادي مهما كلفني ذلك إلا إذا كنت محمولاً على أعناق أهله. لن أعود لحياة التشرد حتى لو اضطررت إلى اشعال الحريق في العالم أجمع هل تفهمين؟

- إنك تتحدث كما لو كنت تصنع لأطفالك قصة قبل النوم. لماذا لا تجرب اشعال النار في اصبعك لتعرف طعم هذا الذي تتكلم عنه؟

- هل تحسبين أن جلدي هذا، غضاً طرياً أخضراً، لا يا عزيزتي إناث، لقد أضرمت فيه النيران مرات عديدة من قبل. على كل، لقد وطنت العزم على أن أقيم هنا ولن أسمح بطردي أو نفييّ مرة أخرى. كما ترين، حتى في ذلك تتفق أهوائنا مع اختلاف السبب. إن العناية..

يمسك ساشا وتهرول إناث إليه بكلماتها.

إناث: هيا. أكمل. قلها. لعناية الإلهية.

قال ساشا معانداً:

- إن عناية الأبراج، الحظ السعيد، التراب، أنفاس الصباح تأبى إلا أن تجمعنا.

إناث: إعلم أن النظام هنا صارم. وأي هفوة قد تكون حياتك هي الثمن التي يتوجب عليك دفعة دفعة واحدة.

ساشا: وأنا تسعدني تلك الصرامة.

ثم يضيف مستنكراً: من يخلص عليّ؟ من؟ أن يوماً واحداً من عمري ليقابل عمر سيدهم أو رئيسهم من الفه ليائه. كلا. لا أحد يستطيع. وليس هنا إله يتحكم أو يحكم من بعيد ويضرب تحت

الحزام، جبان. الإله هنا أكلمه ويكلمني، يعد ويتوعد، وهو قادر فعلاً، ولن استخف به أبداً. وهذا يناسبني تماماً.

قالت إناث في تعزز:

- تقصد قضاعه؟

- طبعاً. الإله الذي نجح هو قضاعه. لا يوجد هنا من يفوقني قوة وعلماً بعلم بلادي وحضارتها سأنتصر عليهم. العلم والتقدم سيكون الفيصل الوحيد بيني وبينهم.

إناث: إن لهم علومهم الخاصة أيضاً.

قال ساشا ضاحكاً:

- علومهم؟ أين؟ إنها قشور زائفة. وحتى هذه القشور تعلمتها في فترة وجيزة.

ردت إناث بثقة:

- ليس كلها. لا. ولا حتى بأي نسبة مئوية منها. إن علومهم الحكمة ورأسها حورا. هي لا تدرس بل تستلهم.

ساشا: حورا أو غيره بئره مفتوح، وسوف أغرف حتى قراره. الحمقى لا يدركون إن تجارة العبيد من الذكور أربح من تجارة الإناث. لقد أخفيت عنهم عمداً أنهم في بلادي يستعبدون الرجال والإناث سواء بسواء.

- إنهم يعتبرون ذلك عيباً خلقياً لا يصح.

- عيب؟ بل العيب كل العيب أن نلقي بنير العبودية على كاهل المرأة وحدها. ونخصها بأبشع مسلبه إنسانية. من اخترع هذه التجارة؟ من بدأها؟ أو أشار بها؟ رجل؟! إن الرجال قمينون بالاستعباد وأقدر على حمل نيرة وأثقاله من النساء.

تدنو إناث منه مشفقة عليه من مأساته، من أفكاره، وقد أرضاها كثيراً ما قاله في حق النساء المهدور. تضع يدها على يده بحنان جم وعيناها تصفي تقاسيم وجهه وخلاله بانتباه ثاقب. الغريب أن ساشاي الذي لم يكف عن محاولة تعريتها قطعة قطعة وإرغامها على الاستلقاء تحت فميه رافعة بكلتا بيديها ساقيها في الهواء، استعداداً لدخول الطاحونة عاد بسقوته الأخيرة فألبسها كامل ملابسها.

لم يحاول ساشا أن يمسك بيدها الناعمة، الضاغطة على شرايين أورده يده النافرة، بداية الارتقاء. وإنما اكتفى بأن ترك لها يده في وداعه قط أليف.

قالت إناث:

- إني أطمئن إليك، ساشا

- أنا أيضاً أحس بالسكينة والاطمئنان معك. ولذلك أدعوك بكل تواضع إلى مشاركتي طريقي. وسوف يسعدني أيما سعادة أن توافقي.

ويتردد قبل أن يضيف:

- شاركيني حلو طريقي، ودعي مرّة لي.

- هو إذن مر؟

- يا عزيزتي. الصبح يشرق منذ الأزل فهل لدى أياً منا ضمان على أن يكون لغدنا بالذات شروق آخر؟ وإذا لم يك لحمك مرّاً، فتأكدي أن لحوم الآخرين مريرة وأنا ذقتها مراراً.

قالت إناث باسمه:

- لم أفهم يا حكيم ساشا؟

- ما أقصده هو أن لا مسئولية عليك فيما أفعل. وكل ما أطلبه منك هو أن تكوني بجانبي. هو أن تتيحي لي فرصة استنشاق عبير أنفاسك، طول الوقت.

- إني لم أتعرف عليك كما ينبغي.

- وتريدين أن أصدقك في هذا أيضا؟ لا بأس، سوف أمنحك مزيداً من الوقت.

يتوقف لحظات ثم يقول متفكهاً:

- هل تكفيك ساعة؟

تبتسم إناث بعذوبة ويذوب العناد من بين شفتيها. فيما يستأنف ساشا: لقد تعارفنا بأرواحنا قبل أسمائنا. فلماذا..

قالت إناث مقاطعة: أعلم أولاً ما هو طريقك.

- إلى الجنة.

- وما هو طريقك إلى الجنة؟

أن يصبح لي أحد المركزين. رئيس الوادي أو رسول الإله. كخطوة أولى، كتمهيد. وأنا أعني السيد / الإله، مملوك قضاعة. بعدها أمتلك الوادي قاطبة.

تفزع إناث ثم تقول: حنانيك، هذه مفاجأة ما توقعتها قط.

- ولم لا؟ ألأني عبد؟

تخفض إناث رأسها.

- نعم.

قال ساشا غاضباً:

ارفعي رأسك يا قديسة. ولىّ زمن الخجل. إن عبوديتي هي أفضل هدية لحكم الصدفة. وكان يمكن أن أتمناها ولا أحصل عليها. إن عبوديتي المؤقتة بالتأكيد أتاحت لي التسلل إلى موائدهم وحتى في مخادعهم دون أن يشك أحد. أو يسعى للتخفى وراء قناع. وحتى إذا تخفى فإني هناك أشاهده.

إن وادي الرعاة درة لإنشاء وطن وشعب. سوف يفاجأ الجميع بمليكهم الجديد، وبمشاريعه.

- مثلما فوجئت أنا. أوليس للوادي وطن وشعب. ثم إنك أجنبي و لن أذكر عبوديتك التي جرت باختيارك و..

- وليس لي أنصار. ستفهمي قصدي حالاً.

كانت في رأس ساشا الخطوط العريضة لمشروعه الطموح. ولكن مناقشته مع إناث أجلت تفاصيله، عيوباً ومزايا. لهذا رأيناه يعدل من أفكاره أثناء عرضها على إناث. وكان أهم وأخطر ما عدّله تنازله الموضوعي العقلاني عن فكرة الملكية المطلقة. مكتفياً بذكاء واضح بأن يكون القالب الذهبي الوحيد الذي يصب فيه الملوك.

قال ساشا:

- توجد هنا مساحة شاسعة من الأرض تصلح للزراعة. صحيح أن إنتاجها قد يكون هزيلاً في البداية إلا أنه يمكننا بمزيد من إروائها بالعرق أن ننتزع من جوفها أشهى الثمرات. إنهم في وادي الرعاة لا يحرثون الأرض بقصد حراثتها ولا يعرفون شق القنوات. كل شبر من الأرض يصلح للزراعة سوف يزرع. هذا ما أوجدها عليه السيد/

الإله. وتركها بلا زرع وحصاد. اجحاد لمشيئته السماوية ولكنهم يجهلون فن الزراعة. ومن هنا، بدايتي.

يمكن أن ننشئ، أنا وأنت، عملية جذر ومد من تلك الأراضي لإنشاء مدينة حضارية حديثة. فالأراضي التي تستخدم للرعي حالياً يمكن نقلها إلى الأراضي الفقيرة فيما حولها بعد تهيئتها رعوياً بأقل تكلفة بينما تتفرغ تلك الأرض نفسها للزراعة الحديثة.

الحمقى لا يستخدمون المياه لري أراضيهم. وينتظرون حتى تسقيها السماء. وكبير الحمقى، قضاعه، يزعم أن الماء السماوي – المطر – هو الذي ينبت زرعهم – وليس الماء الذي يشربونه. ومن أول شبر من الأرض لا أمل يُرجى في إصلاحه ننهض بمدينتنا الجديدة. إن الآبار هنا ثقوب في بئر كبير تفضي إليه بالمياه قناة أرضية تستمد مياهها من نهر عظيم يبعد إلى الشمال بعشرات الكيلومترات. فيما وراء الكثبان الرملية المهلكة. إنهم يعلمون ذلك، غير أنهم يخافون السكان المقيمين على الطريق المؤدي إلى النهر قبيلة كبيرة، متعددة الأسباط، تسمى " الخروج " يروضها حورا بمهارة منقطعة النظير بواسطة خيط رفيع من الترغيب الوهمي والتهديد الحقيقي وهذا النهر من الاتساع بحيث أنه لما يجف توصد أبواب القناة الأرضية نفسها بتلقائية. فهي نهر جوفي ذو قناطر، إنها كالبذرة التي تُسقى وتُرعى ثم تنمو إلى أسفل. يبدو أن الأرض في الشمال مرتفعة عنا إلى - ما.

- هل ذهبت هناك؟

- لم أذهب. لكني لم أضيع وقتي. إنني ابن بلادي. هذا ما لم ينتبه إليه كلا الرجلين الكبيرين، قضاعه وحورا. إني أعتمد على نفسي لا كسلاح حيّ فقط بل كحضارة. وهذه من تلك وتلك من هذه.

- واضح. لقد خططت لمشروعك بصورة جيدة في زمن قياسي.

قال ساشا منطلقاً في حديثه بنعومة ورومانسية:

- التخطيط، الزمن، الهدف، عمد الحضارة في كل زمان ومكان. إضافة إلى ذلك فإن الوادي كمعبر، يمكن تحويله إلى مركز تجاري كامل.

ومادمنا قد حللنا مشكلة المياه. انحلت مسألة القوت وعشرات من المشاكل الرديفة. فالقوافل التجارية بين الأقطار الكبيرة تمر بنا ذهاباً وإياباً. وكل ما سنفعله هو أن نقوم بدور الوسيط بين سلعة وأخرى. بين تجار الشرق والغرب وسوف تجد القوافل منا كل العناية والاهتمام. (ويضيف مبتسماً) سنزودها بالماء واللحم و الفحش وكل ما تفتقده في مواطنها. ولن يكون ذلك نقداً أو بالمبادلة كما هو الحال الآن. بل بالنسبة المئوية. وكل قافلة تمر سيؤخذ اسم صاحبها. من أين وإلى أين وتاريخ مرورها؟ وسأبعث إلى بلاد القوافل المميزة منها ما يأتيني بخبر عنها لتسهيل اتفاقنا وللدعاية لوادينا. سوف أجعل الوادي مقصدهم ونهاية الرحلة. ومزاراً للناس أجمعين ولو اضطررت لأن أجعل على كل حجر في الوادي لؤلؤة صغيرة وكتاباً يحكي سيرته في الأولين. سأبيع لهم تاريخ البدائية الساحر بأغلى ثمن.وسأوكل من يعيد كتابته كتابة ساحرة، أخاذة.

والناس لن تأتي بسهولة، أعلم ذلك ولهذا ينبغي أن نكون مبدعين وأقوياء، عنصرا الجاذبية الخالدين للهاموش البشري المتكاثر. ويمكن أن نطور ذلك في مرحلة لاحقة إلى المتاجرة لحسابنا، فنصبح طرفاً أصيلاً في التجارة الدولية. اشتري من هذا وأبيع لذاك. وأعيد صناعة ما أنتجه غيرينا، سوف أزرع وأصنع. والأفضل من كل ذلك التجارة.

سأشيد مدينة حضارية كاملة ولن أسمح بأي توسعات للمباني على حساب الأرض المستصلحة للزراعة ولو ناموا في بطون أمهاتهم. وسأنشئ دوراً متخصصة للهو والترفيه بأحدث طرائقه. إن للوادي جيراناً لم أرى أكثر منهم تعطشاً للهو والمجون. وآخرين ولا أكثر منهم افتقاداً للتطور والإحساس بالزمن. إن فكرة الدور المتخصصة هذه الفكرة الذهبية خطرت لي في السوق وأنا أعرض للبيع كعبد حقير. ولإنجاز كل ذلك بيسر وسلاسة يلزمني في كل خطوة دعاية ضخمة منظمة. إن ذلك أكثر ضرورة من طرق العقل الصعبة المجهدة بطيئة الحركة، قليلة الفاعلية.

سأكوّن جيشاً قوياً مدرباً بأحدث العجلات الحربية وبابتداع وسائل هجوم جديدة باستمرار. سأغزو المناطق المحيطة بنا وعلى رأسها

قبائل الخروج، أخضعها لنا مباشرة أو أتركها مقابل جزية تكتم أنفاسها دائماً. إن قوتنا الواضحة للعيان هى أكبر ضمان لخضوعهم الدائم لسلطان الوادى. سأجمع من بقايا الناس والمكان إمبراطورية كبرى مهيمنة. المشكلة أنني حتى الآن بلا نصير أو أعوان و ينبغي أن أضع هذا العيب القبيح محل اهتمامي الأول في المرحلة القادمة. أعلم أني سوف أواجه صعوبة في جمع أنصار يعتد بهم لكني أعلم أيضا إني أستطيع فعل ذلك. ولحسن الحظ أن سكان الوادي ما كانوا يتأثرون بتقدم أصحاب القوافل، بل نظروا إليها دائماً، بفضل غرس حورا وقضاعه معاً، كما ينظر الطاهر المتمم إلى الرجس بالمياه كما لو كانوا هم المتخلفون. ولحسن الحظ أكثر أنهم ما عادوا يخالطونهم بعد أن.. آه، قضاعه، ابن الشيطان، لقد عنى بإبعاد القوافل على حدود الوادى حتى لا تحتك بسكان الوادي فينتقل إليهم من حيث لا يشعرون ولا يريدون بعض الوعي الحديث. أو بعض آلهتهم الوثنية التى يمكن أن تنافس السيد / الإله في عقاراته وأراضيه التي ثابر على جمعها زمناً طويلاً. إن لديهم وعياً ممتازاً ولكنه قديم متحجر.

إن سكان الوادي لا هم لهم إلا التكاثر، خصوبة فتيه. وهذا أيضاً من حسن الحظ وفق مشاريعي. فليلهيهم التكاثر وليعطوني مزيدُ من الجنود. شد ما احتاج إليهم في البداية فقط لأن التضحيات بالنفوس ستكون جسيمة.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك سأضطر أنا إلى وقفهم عند حد. لا مزيد من الإنجاب.

- كيف؟

- ولو اضطررت إلى ذبح العشرات منهم يومياً لن أتراجع أو اتوقف. يجب أن يتوقفوا عند حد. هذا أمر. وليس لديهم هنا اختيار.

- إذن. أنت ستبني لهم الوطن العظيم.

- من دون شك.

- ولكنك ستكون كل الشعب.

قال ساشا بعد قليل:

- وأنا لا أنكر يا عزيزتي إناث. إنها الضريبة الحلال يا موحدة. فأحوالهم المعيشية سوف تتحسن على عهدي. وعلى عهدي سوف

يتذوقون حلاوة الحياة، وطعم الحرية لأول مرّة. ومادمت أسودهم فسوف يسودون هم الناس.

- وفي يوم ما، تغزوا بلادك الأصلية.

- وأقتل أبي. ألم أقل أن لك حس مرهف؟

- ما أشد طموح الإنسان وجشعه، كل هذا تريده في آن واحد، أنت حالم. مازلت عبداً، أفق. حتى وإن كان شيئاً فشيئاً فإن مجرد سرده على هذا النحو شر مستطير. حتى ولو كانت مجرد أحلام يقظة تظل أيضاً شراً مستطيراً كما هي.

- لماذا تقولين ذلك؟ سأعلمهم وأحضرهم.

- ألا تخشى على مطامعك؟ أليس في ذلك خطر داهم عليها؟

- مطامعي؟ أنا؟ بل هو معروف أسديه لمن يعيشون كالسوائم و أسديه لهم دون مقابل. حقاً، بالرغم من معرفتي الحقه أن التعليم الجيد والرخاء الموعود خطر واضح، حيث لا تستطيعين التحكم في سقف مطالبهم بعد ذلك إلا أنه يتعين البحث عن شيء ما يشغلهم عنا من حين إلى آخر دون مس لهذا الطرح الضروري. ولا مانع من طرح بعض الألغاز في الأسواق. علينا أن ندخل في روعهم دائماً أنهم أفضل شعب وأكرم أرض. وأن هناك أعداء متربصين طامعين ليس على حدود الوادي بل على أبواب منازلهم. وعلينا بالحرب دائماً.

سيكون ذلك – صناعة التجهيل – في حدود، بمقدار. شديد الدقة. على عكس التعليم الذي يجب أن يكون مفتوحاً على مداه. إني لا أرضى لنفسي أن أقود قطيعاً من البهائم وأسميه جيشاً أو شعباً وإلا كيف تفهم البهائم خططي وأوامري وتنفذها على أفضل ما يكون.

سيمنحهم العلم القوة. نعم. لكني أتحدى قدراتي على قيادة الأقوياء وإلا كنت أنا هذه المرة غير الجدير بحكمهم. إن العلم سيمنح الوادي قوته الحقيقية. كما أن ثورة العالم خير ألف مرّة من ثورة الجاهل وأيسر منالاً في احتوائها. والاتصال والتواصل معهم أيسر من غيرهم. وبتعبير آخر: سهولة شرائهم.

- سيفهم بعضهم سياستك، ألاعيبك. وسيخدرونك بطاعتهم التامة. أتظن أنهم جميعاً أغبياء؟

- لا. وأنا لا أريدهم كذلك. لن أسعى لأن يكون سياستي التعليمية في اتجاه واحد. مدرسي. جامد. فمن طبيعة الأشياء ألا يكون كل الشعب عبقرياً. فما الضير أن كان تعليماً مفتوحاً بلا حدود. أما المواهب، فهم أبنائي الحقيقيون. ولهم منزلة بل منازل في قلبي وعلى أبواب قصري. سيكون أكثر عطائي لهم وبالتالى لن يكون بهم حاجة لإعتراض طريقي. هذا إن لم يعملوا من تلقاء انفسهم على افساح الطريق أمامي. بهم سنتقدم على غيرنا من الأمم. بهم يكمن سر قوة الوطن. أما حصانته فعليّ تدبيرها.

ولن أدخر وسعاً في سبيل تحضيرهم، لأن البداوة شدة وأنا أريدهم ليني العريكه، خفافاً كالفراشات، سريعي العطب كالفراشات.

يجب أن أقسم الناس فلا يتفقوا على رأي ولا يقطعوا بهدف إلا إذا شئت. ليكن لدينا ألف حزب ولكن واحد أو اثنان أمر يخيف.

سيكون علماني وسيلتي إلى بث الفرقة في آرائهم. فالعلم في ناحية من نواحيه وقود الشر. سريع الاشتعال، سريع الانطفاء.

أنا لا أخشى الناس كما يخشاهم حورا، ولا أنفي وجودهم كما يفعل قضاعه بل يوم تمتلئ جيوبهم بالذهب ولا يجدون لها تصريفاً، حينئذ ينبغي علي أن أقلق. وهذا ما لن أسمح بحدوثه. سوف أسعرهم على الحياة المتع الحسية، التملك. سأملأ جيوبهم قليلاً قليلاً وأفرغها أولاً بأول. سأنفي وجود الإله من على الأرض نفياً أبدياً. فوجوده يخلط الأوراق ويشوشر عل‍ الصفاء..

يتكلم الناس عن الحكم. إني أتركه لمن يريد، للشعب. المهم أي الأحكام تنفذ. وأي الشرائع تسن. لكل إنسان إرادة ظاهرة وأخرى مستترة. والتي تريد فتفعل هي إرادة الحاكم. ولو لم يجلس على العرش. من هو الحاكم؟ هو من يشاء فيصدع بإرادته الآخرون، هو أنا.

- إنك واهم. ويحسن ألا تكرر هذا على نفسك كثيراً فتصدقه. استفق أيها العبد ساشا.

- اسمعي. هناك غيري، هارب آخر مثلي، لفظه الإله من قافلة رحمته أو أنه عرف في منتصف الطريق موت حاديها. إنه على الطريق، سوف يأتي لا محالة، ستقوده قدماه حتى هنا. وسوف يصنع

مثل ذلك وأكثر. ولكنه لن يجد إلى جواره القديسة إناث كي تحبط خططه.

قالت إناث في توسل وحب: المهم ألا يكون هو أنت.

- ولماذا لا يكون هو أنا، هذا الفارس المنتظر؟

- ألا تقول أنه أت فهل سيتركك؟

- وماذا بوسع الجائع أن يفعل للطعام وقد أصبح في بطن غيره.

قالت إناث يائسة: لا أعرف كيف أرد عليك وعيك.

- دع عنك هذا. اسمعيني وحسب. اسمعيني جيداً.

تجلس إناث مغتمة وهي لا تريد أن تسمع. ولكنها بالتدريج تعود وتنصت له.

ساشا: هناك أيضاً مشروع القنب والخمر. إنهم لا يشربونه على أصوله. ليس لديهم، واأسفاه، سوى نبيذ أبيض به قدر كبير من اللزوجة والشوائب يصنعونه من الأرز. وكذلك فهم لا يشربون لبن الماعز أو الجاموس. وسوف أستغل هذا المال المهدر وما أكثره. ولكني سأحرم القمار أو ربما أقمت داراً تعمل لحسابي.

سأنشئ شبكة من النفوذ وأجمع الخيوط كلها بيدي هذه. أما من ينأى بنفسه عن مجال نفوذي فيتساوى مع من يقف ضده. أما الذين أقصيهم من الجيش فالمعبد كفيل بتأديبهم. أو ما سوف أسميه المحرقة. إن قضاعه وصل في هذا المجال إلى منتهاه ولا إضافة عليه أما حورا ففعل مثل ذلك لتأديب الخوارج أكثر مما فعله لتأديب شعب الوادي.

صدقيني إناث، المكان هنا بكر يوحي لأي إنسان قادم من خارجه بهذه الأفكار بسهوله طلوع " الصويت " على فقيدنا العزيز الشاب غير أنهم يجهلوها، ربما لأنهم في قلب المكان لم يغادروه. ربما لإكتفاء الصراع وتحديده بين قضاعه وحورا.

- إنك شاذ. انفض عن قلبك هذه الأفكار، الغبار. فإني أرى الموت والهلاك أقرب إليك من الوسادة تحت رأسك.

- بل هي فر ـــة عمري، وإذا كان من المتفق عليه إستحالة ان امدين الناس بدون قوانين.

- تمدينهم؟ أنت؟ من تخدع الآن؟ تقصد أن تسيطر عليهم بسيف القانون.

- وأنا لا انكر. فما التمدين إلا سيطرة

- وأنا سأحتكر تفاصيلها وتفصيلها. ومن يكسرها أو أراد عليه أن يدفع. أوه، كلا، ليس دائماً. فالسلطة مع المال أهم من المال الوفير وحده، ليس دائماً على كل حال. إن الأمور أوضح منها في عقلي منها عن الكلام المجرد أنس ما قلته أخيراً فالصحيح أنه يجب أن نقدس القوانين لا أن نعرضها للبيع في الأسواق. ومادت أنا من يضعها فى القالب ولكي أستطيع أن أعيش آمناً وأخلد إلى النوم مطمئناً يجب أن أرقى بالقوانين إلى منزلة الآلهة. كما يجب ألا أتوسع في احتكاراتي. بل الأصوب هو العكس، يجب أن أضيق نطاقها قدر الإمكان. ومن ذلك التشريع.

سوف أصدر قانوناً يحرم الزنى وتعدد الزوجات والطلاق حتى يقبلوا على تجارة العبيد وبيوت المتعة بالأجر، تلك التي سوف أشارك فيها زوبعة. أجل يجب أن تكون كل مشروعاتي شركات وأسهم بيني وبين زعماء الوادي. على أن يكون لي فيها نصيب الأسد. فهم سند وحماية لأني سوف أصبح جزء من مصالحهم ومصدر رزقهم الوحيد – الوفير.

وهم قوة لسلطتي وبطانة لصديري. سأعمل على أن يكون لي ذراع من حديد ولن أسمح لغيري بتقليده. سأنشئ جهازاً لجمع المعلومات التي أحتاج إليها. لا يهمني أن أنفرد بالسلطان علانية. لأني سأكون وبدون مقامرة مباشرة، السلطان المطلق في الخفاء واليد التي تضرب دون أن ترى. الظهور أو العلنية لا تهمني، ليس دائماً على كل حال. ويمكن لها أن تستنزف قواي، ولكن من بعيد أستطيع أن أرى جيداً وأراقب المشهد بتفاصيله وأتدخل أن تطلب الأمر تدخلي. دعهم يلعبون فلن يحدث شئ دون إرادتي. نعم. إن وجودي خارج إطار السلطة المباشر يتيح لي فرصة الرؤية على نحو أفضل لكافة جوانب الرؤية المتعددة. سأمشي مع الناس وأعيش بينهم، أغرقهم بالمال وأنزع قطراته من على جلودهم في ذات الليلة. سأحولهم إلى جند وإلى عبيد.

يجب أن يرتبط بي كل إنسان عادي في وادي الرعاة بالحب. والزعماء بمصلحة. والوسطاء بجميل أو بمشورة. لأجعلنهم يكرهون القانون لا شخصي وقسوة الحاكم الظاهر لا القانون.

بهذه الطريقة أجمع كل الخيوط في يدي ورؤساء الأسر ورائي. حيثما أقف أو انتقل ينتقلون معي بتلقائية. سأصنع الملوك وأنجب ملوكاً طبيعيين. سأجعلهم مهووسين بأرضهم. بترابها. ولن يعشقوا الوادي إلا وهو متمثل فيّ.

هنا طاقات هائلة معطلة، الجميع سيعمل وينتج ويصنع وأنا سأتاجر. الرجال في وادي الرعاة كسالى جدا لأن حورا وأد طموحهم وأنا سأنفخ فيه الحياة، وأكثريتهم يعملون مدراء، كل واحد يدير جيشاً عاملا من الإماء وصغار الأولاد بالسخرة، وبعد أن يستتب لنا الأمر بمدة. ينبغي أن تكون هناك نسبة معلومة لا يصح تجاوزها بين العاملين من النساء والأطفال والرجال. بل يجب أن أفعل مباشرة وفوراً. إن التأجيل والإطالة فيروس قاتل شديد الخطورة على أعمالنا لا يجب أن نتوقف قليلا لحساب رد فعل العامة على كل أمر نأتيه. سأكون الملك/ الإله، هل تصحبيني يا أم الملوك؟

ترد إناث يده الممدودة متألمة. كانت تسمع له في كل هذا بعمق وتأثر وبدا عليها في النهاية حزن عميق:

- إن من يرى مجده في استعباد أخيه الإنسان لا يمكن أن نتوقع منه غراماً في يوم ما. كما أن من قتل لا يمكن أن نتوقع منه في قتيله، عزاء. وبصرف النظر عن كل ما أبنت فأنا زوجة قضاعه. وأنا وأنت أسرى لديه.

قال ساشا حانقاً:

- إنما أنت تفكرين فقط في كونك زوجة. وربما كنت تفكرين في الأمومة. من يعلم بزواجك منه؟ لا أحد سواك. ولا أحد يحترم زيجتك إلاك، حتى الزوج. نعم، قال لك مرةً: " هيا إلى الفراش يا زوجتي العزيزة. " لكنه نسي ذلك بعد ساعة. أتعرفين لم؟ لأنك طالبتيه بشيء لا يفهمه ولا يحترمه كجسر ومعبر إليك، وإلى رضاك. وقد فعل، كما كان أي امرؤ اخر سيفعل لماذا يقفز من فوق أسوار الجنة طالباً دخولها بينما دخوله عبر الباب لا يكلفه غير كلمة.:" آمنت بربك.

تزوجيني ". هل نلوم الأعمى إذا أقتيد عبر قنطرة ولم يعلم كنه ما اجتازه. هكذا كان زواجك. اتخذه قضاءه قنطرة إلى..

- حسبك. لا تكمل.

- لشد ما كان ثمنك رخيصاً، مهيناً في نهاية المزاد. بعد كل ما فعلت لرفع السعر في البداية.

- لكنه اهتم. وسأل. سأل كثيراً.

- مظاهر يا عزيزتي. من يدري؟ ربما استغفلك لمآرب أخرى.

قالت إيناث في أسى حقيقي:

- لولا ارتباطي بهذا الرجل لكنت معك. أعينك على عبور المحنة التي ألمت بك إلى شاطئ السلامة. إن بقلبك خير وفير لم أرى مثله عند أي إنسان من قبل ولكنك تكبته وتخشاه وتحاول عبثاً التمرد عليه فما قلت أكثره ثورة ليس إلا. ثورة وخيبة أمل، ليس إلا.

قال ساشا بصوت جهوري:

- أولابد لي أن أسفح لك دمه لتحلي لي؟

قالت إيناث في مثل بساطة روحها نفسها:

- هذه حيوانية.

- حيوانية. هاهاهاي. وهل قلت لك أني لست حيواناً؟ هل ادعيت غير ذلك؟ الإله نفسه لم يميز الإنسان عن الحيوان بشيء جدير بالذكر أو خصه بفضائل جمالية أو روحية تتفق مع تكريمه وحدبه المزعوم علينا؟ ها هي دماؤنا (يفتق ساشا لحمه بإظفره الطويل الحاد ويتركه ينزف) كدماء الحيوان سواء بسواء. انظري، نفس اللون، نفس الرائحة المقززة. ولكنه ميز كل حيوان بميزات لا يفتقر إليها الآخر، إذ لديه البدائل. إنها ليست أكثر من بدائل يا عزيزتي. وكلاهما – الانسان والحيوان – خاضع لنواميس الحياة نفسها، النواميس التي خلقها الإله، نفس الإله. فأي فضل وأي تفضيل تتحدثين عنه.

إن الحيوان كالزمان إحدى خلائق الإله الأكثر تعرضاً لصفعات ظالمة من الإنسان. وربما كان الزمن حيواناً لم نتعرف عليه بعد. اسمعي، لقد عرجت على صديق لي قبل أن يتبدى في الوجود " وعد " وأسررت إليه أني أتمنى لو أصير كلباً ينسج من نباحه قصائداً في الغزل والحب، فبحلق فيّ وفر من أمامي، حتى لم يسألني أي نوع من

الكلاب أفضل أن أكنه. وظل صديقي الصدوق هذا يتحاشى قدر استطاعته النظر بعيني أو التوقف بكل الطرق التي درجت على المرور بها ولو أنه سألني لماذا؟ لوجد عندي ما يرضيه.

- وما ذاك؟

- أولى قصائد مدحي في الوضع الجديد كانت فيه. المدهش في المسألة أكثر، أن صديقي هذا مات غرقاً بعدما طارده كلب انفلت من عقاله. هو الوحيد الذي ركض حالما رآه ينفلت من عقال صاحبه بينما العشرات وقفوا في أماكنهم آمنين. طارده الكلب مسافة طويلة حتى تخلص منه صاحبي بإلقاء نفسه في النهر. وغرق رغم إجادته العوم.

نفر دم ساشا فجأة وزاد سيلانه وهو يعاني من ضغط دم هائل ومنفعلاً مهتاجاً طول الوقت الذي قضاه مع إناث فأسرعت إليه تضمد جرحه ولكنه لفظها وابتعد متماً مقالته فيما قبعت هي بمكانها حزينة وقالت بعد أن فرغ واستكان:

- ليس عندي ما أقوله. كما ليس عندك ما أعقب عليه.

- وماذا يمنعك إذن؟ آه، الإله. كنت قد نسيت. أو مازلت تصدقين هذه الشخصية؟

قالت إناث بحماس فاتر:

- إنه الطريق الأوحد للأمان والسكينة. ماذا تفعل وأين تمضي نفوسنا بدونه. حتى وإن اسخنتنا الحياة بالجراح، حتى وإن كفرت به رسله ومبعوثيه ذاتهم فإني سأبقى رهينة عقيدتي. أنا أؤمن به ألا تفهم.

- مبعوثي العناية الإلهية. ها ها. كان كذلك. لكنه وهم. سراب. سمعت أن رسولاً بعثته العناية الإلهية فكفر بها بعد أن رأى في مطالبها غلواً تنوء بحملة الملائكة الخالدين أنفسهم. لم تحمه العناية الإلهية حتى من نفسه بفرض أن له روحاً شريرة غير مهذبة هذه واحدة. والثانية إن تتخلى العناية المذكورة عن موازرة مبعوثيها فكيف تعني بالمرسل إليهم أولاء. والثالثة. إذا لم تستطع العناية المذكورة حمايته من نفسه فكيف تحميه من الناس إن اعتدوا عليه والرابعة والخامسة.

- إنك تجدف. لأنك فقدت الإيمان واغتربت حتى عن نفسك ومع هذا مازلت أستشعر بذرة النور في فؤادك. إنك تحاول أن تخنقها ولا تستطيع. وهي تأبى إلا أن تضئ.

قال ساشا ثائراً وكأنها مست عصباً حيّاً في قلبه:

- هراء. هذا غير صحيح. لماذا تجاهلت ما قلته عن العناية الإلهية. ردّي عليّ. ربما صدقتك. أثمة ما يشير حولنا إلى أي نوع من العناية الإلهية. إياك أن تقولي الشمس والقمر و.. أنا أتكلم عن حياتنا، عن الإنسان. الشمس والقمر يضئ للحشرة كما لحشيشة القنب كما للعقرب.

- والإله ما أنا بمحيده صحيح كان هذا الذي تقول أم غير صحيح. فأنا واثقة أني على الدرب السليم وأني أفوز بالسلام في الدنيا وبالحياة والنعيم في الأخرى. وهذا يكفي.

- لماذا؟ لماذا يتحتم علينا شراء واحدة بالثانية؟ لماذا لا يمكننا الاحتفاظ بكليهما؟ لا. لا تقولي أنه يمكن الجمع بينهما، فهذه محض خرافة. إما الأولى وإما الثانية. ولماذا لم تك واحدة، إما هنا أو هناك وانتهى الأمر؟ أي لعبة جهنمية يلعبها معنا الإله؟ أو نخرج من بطش الملوك في الأرض فنواجه ببطش ملوك السماء، يجب أن نفهم. الفهم؟ هذا هو الاختلاف بيني وبينك يا جميلة وفيما بيني وبين إلهك الجميل.

- إن الإيمان يرتفع عن العقل. ثمة حقائق يجب أن نركع لها مسلمين. حقائق يتحتم أن ندعها لو لم تك موجودة بفرض أنها لم تك موجودة قط. أتفهم؟ أي دمار تريد أن تلحقه بالعالم، بي، لو نشرت كلماتك المسمومة بين الناس في وادي الرعاة أو في أي مكان آخر؟

قال ساشا مكتئباً، شارداً:

- سامحك الإله. أنا أضرك إناث؟ أنا؟

التقطت إناث كلمته بسعادة وقالت بحرارة طاغية:

- ها أنت قلتها: الإله.

قال ساشا منفعلاً من جديد:

- مع هذا، العكس صحيح. العقلانية لا تضاهي الانقراض. العقلانية سمو وارتقاء. العقلانية لا تتعارض مع أية قضية إيمانية ولماذا لا تقولي أي عمار تريد أن تلحقه بخراب العالم ونفوسهم إن

نشرت كلمة الحقيقة والاستفاقة. ولماذا ترين السم في كلماتي. ولماذا يترك لنا الإله فسحة لكي يقول بعضهم دعونا نختلق ما يناسبنا، لقد غفلة الإله. إنه الإله عزيزتي الطيبة إناث. ولسنا نتكلم عن بهال الجنايني في قصر أبي. انظري، كم آمنا بالإله، بوجوده. عبدناه ولم نره. رفعنا لواءه وهو لم يعطنا قماشه. ولم نطالبه بالدفع الفوري. أخلصنا له ولم نسأله من أنت؟ أو كيف تقضي يومك؟ أحببناه وتخلى عنا، خيانة. ما معنى أن ينسحب ونحن في الميدان والمعركة معركته. اضبط. مخاتلة. تركنا لقيمات سائغات في فم عدو يبغضه. أهذا جزاء إحساننا؟ جزاء من يملك كل شيء يضاعفه أو يعدمه بكلمة. ولكنه بخل علينا بالكلمة. لقد سئمت كل شيء إلا ما تقبضه يدي، يدي وحسب.

- هناك بعث وحساب. إنه لم يقم بالميزان بعد.

رد ساشا في غضب:

- بعث؟ حساب؟ أنا لا أفهم هذه الكلمات الكبيرة. إنها أكبر مني. أو إنها جوفاء. أي حكمة في ذلك حدثيني؟ أي حكمة في إحياء الميت وقد مات؟ وفي إنزال العقاب وقد زالت الدنيا والناس والأسباب وقددت لحومنا وأرواحنا المآسي والكوارث؟ أي حكمة في استمرار العرض وقد أسدل الستار؟ إن القائد العسكري البشري، لا يبيع جنوده الذين حملوا على كواهل أنفسهم الهشة لواء مجده. كلا. إنه لا يفعل. أما الإلة فقد باع رسوله ولم يفده حتى بكلماته السحرية. كيف؟ إني أكاد أجن. أوتحسبي هذا يسيراً عليّ؟ أوتحسبي أني كنت أتردد في التضحية بنفسي في سبيل كلمة ينطق بها وينقذه؟ ليس أمامي من تفسير إلا أن أؤمن مضطراً أن الأمر برمته كان لعبة هزلية. وأن مخرج العرض ليس أفضل حالاً منا. وأن ذوونا أصابوا كبد الحقيقة في الصميم. كانوا رجال أعمال، وذوي نفوذ ومناصب ولهم إبداعات وحضارة. كانوا عظماء. ولا يمكن أن تشيد عظمتهم ويرتفع بناؤها على فراغ، على خواء عقلي. هل ندرك نحن الصغار، عديمي الخبرة، أفضل من إدراكهم لأمور الحياة؟ من يدرينا بما يجري الآن فوق رؤوسنا في هذا الاتساع الكوني اللانهائي. وإن كان محدوداً في نهاية الأمر؟ من يدري؟ قد ينهار عرش الإله فوق رؤوسنا في أي

لحظة. ولن يمكننا أن نطالب بتعويض. لماذا اختار السماء – وليس الأرض – مقراً دائماً له؟ ولماذا دس علينا أن الأرض تعني دائماً الانحدار والضعة؟ ألانه غادرها؟ ألا يزورنا فيها أبداً؟ ألانه طردنا إليها فصارت ملعونة بالمطاريد؟ ألانه بني بيته فوقها. ولكن ملائكته – الخلق السوي – نافسونا على سكناها؟ انظري، المخلوقات كثيرة، أكثر مما نحتاج، تحيط بأرواحنا من كل اتجاه. تتحول إلى أخرى، مخلوقات أخرى، فليس هناك شيء أصل نفسه. جوهر نفسه. أي خلق هذا الذي يتحول إلى غيره ويتكون من غيره؟ وأي تمايز لنا عنهم؟ كل زمن يولد يظن نفسه نهاية العالم. وأن الدهر السابق عليه هو الأجود والأكثر شفافية ورخاء. يذم الحاضر ويحسد الماضي ويأمل في المستقبل، ثلاثية لا تتغير أبداً.

يا حمقى، إن الحياة لا آخر لها ولم تك ذا بداية قط. هذا فوق المنطق. صحيح. نحن الذين اختلقنا الإلة خلقاً كي نعيش. فأريني بحق المنطق ما هو المنطق المعقول في كل ما نرى ونعيش؟ وماذا كان يظن أبينا الأول الذي لم تك له أم تحتضنه وتدفئه، ولا أب عطوف شفوق يوجهه؟ ولكنه تربى كأي.. ونحن ورثنا أخلاقه. مسكين آدم. وعند أول خطأ اقترفه أسرع الإله إلى نفيه، وكأنه كان يترصد له أخطاءه، حتى لم يعطه فرصة ثانية، أخيرة. بينما نحن، خلق يده، ونفخ روحه، اخترعنا الفرصة الأخيرة. وإذا كان الإله قد قام برعايته (آدم) وأخفق فماذا يتوقع من أولاده ومعلميهم، رسله. الأقل كفاءة منه؟ عندما سألنا وعد في بداية الدعوة: سل الإله يمد لك يده ويرسل لك مدداً. قال: هي لنا فما حاجتنا إلى طلب مدموغ. وكان ما كان. خدع فانخدع وخدعنا. إناث. يجب أن تأتي معي. يجب أن ترافقيني.

إناث: إلى أين؟

قال ساشا منتعشاً بالأمل:

- إلى الحياة. سنكوّن جزئ واحد، روح واحدة. لنا هدف واحد ومصير واحد.

- نقتل الناس الأبرياء، نخدعهم. ندمر الحياة التي تدعوني إليها؟

- سبق وخدعنا الإله. ثم إن الأهداف العظيمة تحتاج إلى تضحيات لا تدعو أحداً إليها، ولا تفتح أبوابها إلا لمن سعى وطرق أبوابها بقوة أو حطم أقفالها إن استدعت الضرورة.

- لا أستطيع، أتركني.

- إنها تلك العقيدة اللعينة تتمسكين بها وكأنها أمك. اسمعي إناث أيتها المخلوق البديع — أيتها الربيع الدائم. هذا المحتال الأفاق قضاعه أقام دعائم الدين أوتاداً راسخة. منطق خارج عن كل احتمالات العقل. ومع ذلك صدقه الناس وتبعوه وبايعوه. لم يعاكسه أحد. لم ينكره أحد. أتدرين لماذا؟ لأن دين السماء مهيض الجناح. واه، مشروخ. ليس له ممثل دائم على الأرض. خالد، ينظر في مظالم الناس. ويبت فيها بالعدل والسوط في الحال. أليس ذلك أفضل من آلاف الكلمات والتعاليم التي سودت آلاف الأوراق ولم تزل، وذبحنا بعضنا البعض في سبيل تفسيرها. وعلى أي وجه تكون؟

المشكلة، أن ليس له عشيرة تحمل اسمه وتعود عليهم بالضرورة منافع ملموسة آنية إذ يعيلونه ويروجون له ويبسطون على اسمه وتعاليمه قداسة وحماية حقيقية. المفروض أننا كنا هذه العشيرة. وطالما السماء بعيدة عن الأرض فلن يقوم للأولى أمر وسلطان على الثانية.

إناث: أتريد أن يصبح الدين بضاعة؟ سلعة؟

ساشا: أقول لو. ومع ذلك فإذا كانت هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لا لنشره وجماهيريته الفعلية وحسب. بل ولضمان فاعليته فما المانع؟ ألا يفهم الخالق جبلة من خلق؟ إناث، لم لا تستبدلي بدينك دين قضاعه. سوف ييسر علينا ذلك أن نتفق. قضاعه موجود على بعد خطوة. ويمكن أن نجد طريقة للتفاهم معه.

- ماذا تقول؟ هل تهرج؟

- لم أكن أفعل. ومع ذلك أسف. يالك من امرأة تتميز كقطرة ماء عذب في بحر مالح. ابعد كل ما عانيت ومازال لديك استعداد لمزيد من التضحيات. أعني الآلام؟

- إن ما تحسبه أنت معاناة لروحي أراه أنا تطهير لذنوبي. إني أريد أن ألقاه متخففة قدر ما استطيع من الذنوب والآثام.

- أنت، لديك آثام مثلنا؟ غير معقول.
- إن الإله حق وبدون الحق لا يحق لنا أي حق.
- لا فائدة، لا فائدة. حسناً. وإذا افترضنا أن دينك لا يسمح لك بالزنى..
- بل لم يحله. إنه حرام.
- حسناً، لنقل بتعبير ألطف وربما أدق وصحيح أيضاً: حرم عليك الحب. فهل..
- إذا كنت امرأتك. هل كنت تقبل أن أرضخ لنفس ما تطلبه مني مع غيرك.
- ولكن ثمة اختلاف.
- نعم أم لا؟
- لا. ولكن ثمة اختلاف..
- الاختلاف في عقلك وحدك والإله لم يقبل، لم يرض لنا غير ما نرضى ونحب لأنفسنا دون زيادة أو نقصان، ولن أقول لغيرنا. ولكنا نفسد بأيدينا، ولن أقول بيد الآخر، نداء فطرتنا. بسبب وجودنا أجنة في مجتمع. والاجتماع مفسدة، وأم الشرور.
- حسناً، مادمت استطيع أن أهتدي بنفسي لسواء السبيل فلم يتدخل ويربك، بحسب تعبيرك، فطرة نفسي. ما معنى اهتمامه بنا، إذ يبعث لنا رسولاً بعد رسول إلا دلالة قاطعة وفظة على اغتراب فطرتنا وسوء صناعتها، وهشا: خامتها. ومامعنى ذلك أيضاً إلا تصحيح لخطأ ما حدث في وقت ما ولسبب ما وقت خلقنا.
قالت إناث ضجرة
- حيرتني. تريده هنا بيننا أم لا تريد؟
- قطعاً أريده أريده فيما لا أستطيع أن أكونه. أريده فيما أعجز عن فعله. أريد عرشه هنا، وسطنا. بجوار بركان لا يهدأ. يحكم ويحاكم. يمنع ويمنح، ونتشاجر على مرضاته. وعلى منحه و عطاياه الإلهية. لماذا اللف والدوران؟ لماذا الرسل والكتب والوحي وعزرائيل وإبليس و.. و.. لماذا لا يقيم الأرض جنة وعلى يمينها النار؟متى يمنع عنا الأوبئة والمجاعة والجنون؟ ومتى يسير فوق الصحاري سحب المطر؟ لقد سئمت نصائحه من عل. كلام كلام. متى يحضر جنائزنا

ويقول لأسرة مات عائلها لا تحزنوا أنا هنا. ويكتب لها معاشاً إلهياً. أولى به أن يعلمنا إدارة الأعمال بدل آلاف الكلمات الجوفاء عن كان وسوف.

- إنك مريض. مريض.

- وإنك قديسة. تهجوني فأمدحك. هذا شأن القديسين. ليس بوسعي إلا أن أفعل. دعيني أسألك سؤالاً واحداً، هل يجيز لك دينك معاشرة مدع أفاق مثل قضاعه، إلى درجة المحافظة على لمساته السحرية فلا يبدلها ولا يمحقها إلا هو؟ فلتعلمي، إنك لست في حياته إلا سريراً يلجأ إليه في ساعات ضيقة، بضعة دقائق ثم يغادره دون ان ينظفه أو حتى يعيد ترتيبه. وربك، أليس هذا ما يجري بينكما؟

قالت إناث في إلحاح ويأس:

- دعني أفكر. إن كلماتك تدوّم في أذني وفوقي وتحتي. دعني أفكر، أمهلني بعض الوقت.

قال ساشا مستغلاً لحظة ضعفها، مقتحماً عينيها، ممسكاً بيدها بين يديه بحنان انتقل إلى روحها مباشرة:

- تفكرين؟ فيم؟ في العدم؟ لا. لا. لم يسألك أحد كيف انوجد العدم. أو كيف ينعدم؟ استفيقي. ألا تستطيعين تصور ما عرفتي من قصتي وحدها.

- كلا. أرجوك، أمهلني لحظات استرد فيها أنفاسي، افهمني. أرجوك.

قال ساشا كما لو أنه استمرأ الهجوم عليها، وجرحها. أو أنه استعذبه وربما لأنها المخلوق الوحيد الذي باح له بسرّه، بمأساته. والأخطر: بمستقبله. كما رسمه في خريطة عقله.

ساشا: ها. الجنون يدعو العقل إلى منحه بعض الوقت. يا ترى لماذا؟ هل ينوي تعليمه الحكمة. ولكن العقل يناشد الجنون والعبث والعدم أن يعقل. يوعيد ضبط حساباته. إن قضاعه زوجك يا حبيبتي، أشرّ من في الوادي طراء، رأس شريرة لا ذنب لها ولا قلب. مجرد رأس فارغة وممتلئة بالشر. أليس عندكم في شريعتك ما يسمح بفسخ عقد الزواج من أمثال قضاعه أم هو صلة قدسية على أي حال وبأي وضع؟ أليس ثمة "شرسوط" يطفئ بها جمرة تستحق شراب الحياة

والتي هي سمها الزعاف: قطرة ماء. لا تسكتي إناث، ردي عليّ. كلميني.

- وأنت. هل ترى نفسك أفضل منه؟

- وافقي، لا تتخلي عني. وافقي ثم افعلي بي ما شئت، غيريني. قوديني على أي طريق تشائين. سأكون عبدك الذي لن يجحد بإلهه قط.

- قلت هذا من قبل.

- لا، فأنت هنا معي. أراك، أكلمك، أما هو فكان لا شيء منذ البداية. كل ما كان، سمعناه من شخص مثلنا، أما هو فلم يحدثنا بشيء. شخص لا يزيد عنا لساناً أو عيناً.

- افهمني يا ساشا. يجب أن يكون هناك أولاً إلهٌ جميل و..

تنخرط في بكاء غزير، غير مستطيعة إكمال جملتها.

ينجرف ساشا إلى دوامة الهلوسة واللاوعي. دوامة الكشف الضروس. الطاحونة:

- ستمضي الحياة يا حبيبتي، ولكنها ستفتقدك. إناث الطاهرة. سوف تبحث عنك وعن موضوع للحب، لن تجد غير السراب ومجرد ذكريات متآكلة. لأنه لا أحد صار يزرع نبتة الحب. وقليل من الأحياء يحصدون ثمرته في مزارع الموالح دون قصد. بينما يتسابق الجميع على غرس بذور الشر في مشاتل الأرز. والأرض طيبة تعطي ما يلقى إليها مضاعفاً، وهكذا يصبح الخير من مضاعفات الدواء. ولا أحد يقتني نبتة الحب الشيطانية. ولكن أحفادنا بعد سنين طويلة سوف يحرثوا الأرض من جديد فالخير مازال يظهر في الغربال ولن يشبعوا حتى يحيلوا وجه الأرض كالغربال ويصبح الإنسان كالماء فيه. ستقول فئة منهم من لا يرى من الغربال أعمى، ولن يروا الغربال نفسه. سوف يبلغون بالعلم، الوثن الشائع يومها، النهاية. ليعودوا إلى نقطة الصفر من جديد، هذا محتم. يجب أن يتريثوا في تقدمهم، لأن النهاية ليست في صالحهم. سوف يتحدون الشمس بأضواء شمعة في حجم عقلة الإصبع. وتنسحب الشمس خجلى أمام هرطقتهم وقدرة قنابلهم الذكية.

وقتها سيعاد صنع تابوت أوزوريس من جديد،لأول مرّة، ويمسي كالدمية في يد طفل أو يد مأفون. كالمنديل الأبيض في يد مأذون أعزب، يكسرها بفرح طاغ وتسأله لماذا؟ فيؤكد أنه يوشيها. آه، ما أكثر حكمة الإنسان العاطلة.

الأسطورة هي حاكم الإنسان الرشيد، والجهل فانوس العيد السعيد.

رددت إناث همساً، خجلى

- إنـي أحبـك، أحبـك، كفـى. إنـي لا أفهـم. عمـا تتحـدث، اسـكت أرجوك. لا تلغز، هل تحتمل الصورة المشوهه أي لمسة خشنة؟ هل يحتمل الأفق الأسود أي إضافة داكنة؟

ولكن إناث كانت تخاطب فاقداً للوعي، الوعي كما نعرفه، فاقداً للوقت، ومستمراً في غيابه، لا يقدر مخلوق أن يوقفه إلا أن يتوقف بذاته. ويا ليته سمع ما همست به إناث، يا ليته سمع لتغير وجه التاريخ في وادي الرعاة.

ساشا: لماذا يسيطر الأسود. يطير؟ من جعله السيد، رمز الرذيلة والجريمة، ولماذا كانت وجوهنا بيضاء وقلوبنا سود؟ لماذا كان الجوهر هو الظلام، وهو القاعدة والأساس؟ ليس ثمة شعاع مظلم لكنها كتلة، كاسحة، غاشمة، وعيوننا غير مهيأة لاختراقه.

ولكن النور الصافي الجميل يتجزأ، يتضعضع ويموت لأنه قبل القسمة على واحد. الواحد أصل كل حكاية. إن الأمور لتبدو بسيطة وأبسط منها الكلمات، ولكن. خطأ. توقف. إنها تزدوج وتتزاوج، زواجاً غريباً. ولكن الإنسان المخلوق الوحيد المعقد، المركب، شرّعه. والإله وقف يتفرج، لم يمل الفرجة بعد؟ عشرات آلاف السنين ولم يمل ينتشي بدميته التي تنطق وتفكر دون أن يبدو عليها أنها من طين وصلصال. ربما يسعده تحديها إياه. ومن يدري؟ ربما تآمر على دفعها بهذا الاتجاه. ويفرح بنجاحه كما يفرح الأب بابنه غض الاهاب الذي قتل عشرة أو عشيرة. الحمار، نسي الفضل لمن؟ لابن أرضعته الدببة. ليس فيما صنع بسالة أو نباله، ما رمى غير كره صغيرة و شد فتيل. هي التي قتلت وأصابت، وهي البطل.

أخي، ابن الكلب، كيف حالك؟ أخي ابن الكلب في كل مكان أستاذ. يظن أنه ذو ملكات ولكنه بالفعل ذو ملكه وحيدة جيدة. فكل سوءاته

صناعة يده، ابتكاره، وهو في الجريمة عبقري فذ، وهو في الخطيئة بطل لا يشق له غبار. إنه لا يصنع بإرادته كما يظن، أو بعقله كما يعتقد وإنما بالمال. المال سيدي وسيدك، هو إله الناس، وهو الذي أقام حضارتنا الغبية. هو الذي صاغ الهزائم وأدار الهمم ونشط دورتنا الدموية العملاقة وأنشأ ماكينة حضارتنا الشهوانية. آه، النكتة في كل ذلك أن ابن الكلب هو الذي صاغ المال، والإله منحه براءة الاختراع. ولكن الذهب وجدناه في طريقنا إلى المغادرة، فعدنا. والمال قادر يستطيع ان يصنع من كل شيء شيئين، موجب وسالب، وتدور الدائرة. ومن كل زوجين اثنين، متناقضين. فليس بوسع كل أولاد الكلب أن يمشوا في الأنفاق ذات الاتجاهين أو داخل المرايا. فالطريق مزدوج مع أن الواحد منهما واسع عريض يتوه فيه السائر كأنه الدائرة التي مركزها على محيطها. فكيف يمضي سالماً إذن؟ وكيف لا يدرس تاريخ الحروب وفن الانتصار بذبح الملايين؟ كيف؟ وأية حياة مملة تكون؟ كيف لا يجذب ابن الكلب أحدهم في طريقة ليجرب قدرة عجلاته على الفتك بالأرصفة وجودة سبكها؟ كيف انسقنا وراء صنم الوثنية الحديث وكل همنا وأحلامنا أن نكون أول المتعبدين في محرابه الذهبي؟ لأن الذهب هو السعادة كما تفهم عقولنا المنحرفة، زائغة البصر والبصيرة. لماذا لا يتعلم الساسة فن الحكمة، وبساطة الأشياء؟ بدلاً من ركوبهم غول المصلحة المفترس، الهائج، على الدوام.

في ذلك الزمان، كل شيء يصبح أصل وصورة ويوماً ما بعد سنين تطول وتطول يصبح أصل واحد وألف صورة شوهاء، ممسوخة، غير متشابهة. وحينئذ، تطحن الصور الأصل وتتنازع فيما بينها، أيهم الصورة طبق الأصل من الأصل القتيل؟ فيبهت ضياء الأصل الحقيقي ويتوزع دمه ويختلط بصورة أو يعتزل. ثم لا تبقى إلا الصور، ولا يعترف بسواها. هل كانت حياة الإنسان أكثر من شريط قطار يبغي سحق هذا الأصل بامتداده اللانهائي. سنحتاج وقتئذ إلى "وعد" آخر، حقيقي هذه المرة. "وعد" لا يقتل. وعد يطرد الخواء ويغني ويسخر من العدم. ويطارد فلول الصور المدعية، لا بأس إن كان رساماً، أو عازفاً على ناي. فنان. وعد حقيقي لا يستسلم ولا

يتراجع. ولكنهم سوف يبددونه. وما هو أيضاً إلا نسخة من أصل قديم تاه بين آلاف من نسخ محرفة. ومن أصلها جميعاً؟ هو.
قالت إناث في جملة خبرية أو استفهامية. لا أدري :
- هذا هو الإله.
قال ساشا مستمراً في غيابه:
- لا مانع أن يعبدوه، وإن كان ليس هو المعبود الحق. يكفيه أن يُحيى الخلق وهي رميم. ليس في المعامل، ولا في أبراج من ملكوا القوت والذهب. بل في الشوارع العامة وأسواق الخضار.
في هذا الوقت، سوف تجد كل ألوان السفالات مكانها الفخم محجوزاً في سم الخياط، وفي الفن. ويقولون جبار، ديكتاتور. يا قذارة، ألم ألبسكم تاجي وصولجاني.
يستيقظ ساشا من أحلامه أو من غيبوبته الكونية المبهمة متوافقاً مع صوت الواقع القوي.
إناث: يبدو أن أحداً قادم. لا يجب أن يراك هنا أي احد. اذهب. إني أسمع صوت أقدام تقترب، أسرع.
ساشا متعجلاً: سأتوارى. ولكني سأعود.
ويتوارى ساشا، بينما يلج قضاعه وهو يتلفت حواليه ثم يصوب نظرة شك نحو الباب الآخر وإلى إناث متسائلا :
- رأيت شبحاً يمرق من هنا. من كان؟ المارق؟
إناث: شبح. ألم ترى شبحا؟
قال قضاعه يرجها بعنف: من كان؟
- لا أحد. لم أر أحدا. دعني.
تركها قضاعه مقتنعاً بصدق إجابتها: اسمعي واعي.
ولما استشف منها وسوسة وقلة انتباه قال: ألم تعاهدي إلهك إن تطيعيني؟ ألست زوجك؟ أجيبي.
قالت إناث مرغمة وكأن الكلمة تجرح حنجرتها: نعم.
ألازلت على عهدك.
شعرت إناث أنه يمهد الطريق لإعادة سؤالها. فقررت ترك الأمر للسانها، إن فعل.
نعم.

ينبغي أن تسلم نفسك بما تسلم به لسانك. لست أنا من سيعلمك ذلك. إنها أوامر السيد / الإله. وأنا أذكرك ليس إلا. وإني لقادر على إرغامك، فأنت لم تري إلا وجه القمر المضيء. أما الوجه الآخر، فاسعي ألا تريه أبداً. بوسعي أن أطلعك عليه في منامك وداخل غيبوبتك ولكني استحرم ذلك معك. إننا على دين واحد. فلا تدفعيني إليه.. لقد رأيت ذلك الفتى؟ ذاك الذي كان يجالسني على العشاء قبل أيام؟

- نعم.

- أتذكرينه؟

بعد قليل.

- نعم.

- أووف. نعم نعم.

قالت إناث بنفاد صبر محتجة: وماذا أقول؟

قال قضاعة بحماس. بتصنع: إنه كنز.

نعم. (تتدارك) أعني أنه كنز.

قال قضاعه غير ملتفتاً إليها:

- بالنسبة لمن يفهمون في تثمين نفائس الأشياء فإنه كنز. كنز مطمور. واعتقد أنه يجهل ذلك. ويظهر لي انه منحرف العاطفة.

إناث: ماذا تقصد؟

- أعني أنه يميل إليك. إلى ما ليس له فيه حق. وأنا أطلب منك باسم السيد / الإله..

قاطعته إناث بقرف، مستشعره رائحة غير نظيفة:

- أي إله؟ أرجو أن تحدد، إلهي أم إلهك؟

- إلهي إلهك. هل نسيت؟

قالت إناث متراجعة فجأة، بصوفية:

مؤكد، كلنا في أكف إرادة إله واحد مستخار.

تضايق قضاعه وقال:

- اسمعي جيداً. هذا الفتى، لديه شيء يخصني، وأريد منك أن تستدرجيه، غرري به، أعصريه. أريد أن تنقلي إليّ كل ما في قلبه

وعقله في حزمة مصرورة جيداً. مثل فاتح شهية. اعرفي منه الآتي. أولاً..

قاطعته إناث باستنكار. بهدوء ما قبل العاصفة: أولاً. أغريه بماذا؟

قال قضاعه مدهوشاً: بنفسك طبعاً.

- بنفسي؟ كيف؟ ماذا تقصد؟

قال قضاعه شاكٍ غضبه، ومشمأنط :

- وماذا تملكين سوى هذا؟

ويشير بإصبعه على جسمها من فوق لتحت وبالعكس مرة ومرة. بينما تسارع هي لإخفاء جسدها قبالة ما يشير إليه صعودا وهبوطاً.

ويثبت في النهاية إصبعه قبالة ما بين ساقيها. قائلاً:

- ماذا عندك يفيدنا سوى هذا؟

إناث: " ثائرة ": أوتجسر؟ أيها الرجس. أيها الجيفة الحيّة. يا دمل. يا.. إنك حقاً لمعتوه. لم يدر نجلدي لحظة واحدة أن تتدنى إلى هذا الدرك. يا منحط. يا وضيع..

قال قضاعه مكشراً عن أنيابه:

- امسكي لسانك يا امرأة. من دربك على سلاطة اللسان؟ هذه مفاجأة سارة أي وسيدنا الإله. إناث الرقيقة تسب؟ ولكنه لايليق بك. هيه ! إن جسدك يغوى بأعذب الكلمات، دون ترهات، وبلا إكراه. يفصح بغير نطق، ويخترق دون أن يوجه. ويكاد يبين دون أن ينزع ملابسه. فماذا عساه يفعل لو استنطقناه وعلمناه لغات؟

ويضيف منهيا أمراً منتهياً بطبيعته:

- لن تتعبي كثيراً أو قليلاً في الحصول – به – على ما تريدين. وسبق أن حصلت به عليّ أنا، قضاعه، رسول السيد / الإله. ما عليك إلا أن تفوضيه في الأمر.

- اخرس. اخرس.

ولم يعطها فرصة لتغطي وجهها بكفيها فقد أنزلها بسرعة وعنف ولطمها بقوة. فتقع. ثم قال وهو ينهضها بيد واحدة تقبض على ذراعها البض وتضغط عليه بأقصى قوة لديه بهدف إيلامها. وكانت تتألم وتتأوه وتنسال الدموع بغزارة على خدها من قبضة يده الحارقة، الكاوية، على جسمها.

- حذار يا حلوة، يا امرأة قلبي. ألا تخافي على جمالك البديع أن تشوهه النيران المقدسة؟

ثم قال وهو يتأملها كالشارد:

- والسيد/ الإله إن حقل جمالك ممتد بلا حدود.

ثم عاد إلى طبيعته:

إذا لم تخافي، خافي إذن على نفسك بدونه. يمكنني، إن ضغطت قليلاً أكثر على ذراعك أن أسمعك صوت تحطمه. " سنّة " واحدة ويتحطم.

ويحاول أن يقترب من هذه " السنة " بحسب تعبيره، فتئن إناث عاجزة عن الصراخ تماماً، مستنزفه قواها في تحمل الألم. وأظن أن لا أحد في المعبد أو خارجه قد سمع أنينها. ولكني أحسب أن واحداً كان يجلس في شرفة منزله السحري، الذي يطل منه على الوادي مباشرة، سمع ورأى. حتى أنه كان بإمكانه أن يمد يده – لو أراد – ويلتقطها كما نلتقط نحن الشعرة من العجين.

قال قضاعه ومازال قابضاً على ذراعها:

- يمكنني أن أدفنك حالاً، في مكانك، بأنفاسك التي تكاد تنفجر في صدرك الحين، وأنت واقفة، كما أنت.

يفلتها قضاعه ويأخذ في الترتيل بينما تخترق كلماته إذنا إناث فيضاعف من شعورها بالحتد عليه.

- إن من يعارض أوامر السيد/ الإله يصبح نهباً لضرباته المقدسة، ومن ينزل به غضبه حلت عليه لعنة الأبدية في الجحيم. فتنهش طيور النار قلبه. وعندما تتصفي دماه يعطي دماً جديداً، ليُصفى من جديد، وهكذا، دواليك. وبنفس آلام جراحة يكون شفانه. ويتلاشى من قلبه الأمل في النجاه قبل إن يفكر السيد/ الإله في العفو عنه. فأي عذاب يكون هذا؟ أيها المارقين الجاحدين إني أنتظركم على أبواب الجحيم.

ويضيف ملتفتاً إلى حركة شفايف إناث السريعة، المتوترة. وكانت تحاول التغلب على صوت نهنهاتها.

- هل عندك شيء تقولينه؟ (تطرق) حسن. هكذا أحبك وأقدرك. ثم إني أهدهك على ما تهواه نفسك. والسيد/ الإله ما قصرت معك. بل

إني أزيدك عن كل الجواري في المعبد، في عدد المرات وفي الوقت. فماذا تريدين مني بعد ذلك؟

يرفع قضاعه يده مانعاً إياها من الكلام فترضخ في الحال. شاعرة أكثر من ذي قبل بنبضات ألم ذراعها المتوترة.

- لا داعي للمحاجاة. اعقلي وطاوعيني على ما أريد تكونين سيدة الوادي الأولى لأني أنا سأكون سيده الأول. كوني وديعة طيعة واقدحي نفسك على شرورها الصغيرة. لاحظت أنك تأخرت عن الصلاة اليوم. هل أنت مريضة؟

- لا.

الغريب المدهش، أو المدهش بلا غرابة، إن إناث راحت تمارس شعائرها الدينية، الحقيقية، أمام الشجرة المباركة، تحت أقدام صنم قضاعه النحاسي الذي يفح لهباً ودخاناً. وإن كانت تسجد مع الساجدين فإنها كان تسجد للإله الواحد وليس للسيد / الإله صنيعة قضاعه، ومملوكه.

وانتهى قضاعه قائلا بحيوية، راضياً عما آلت إليه قطته البرية الجميلة من لطف واستكانة:

- سأمضي الآن، وداعا. نفذي ما أمرتك به. أريد نتيجته بسرعة. اخلصي للعمل وتفاعلي معه، اعطيه روحك. وسوف يأتيك كجرو جميل وأنت تعلمين ما ينبغي أن تعطيه، وما ينبغي تعرفيه، أسراره، أفكاره. أريد كل المعلومات عنه منذ ميلاده حتى وفاته، لو أمكن. قومي أنت بما كان، واتركي لي ما سوف يكون.

غار قضاعه. فشعرت إناث بارتياح لانفرادها بنفسها بعد لقاء ساشا الطويل العاصف، ومن بعده قضاعه بلقائه القصير المهين والعاصف أيضاً. راحت تتدبر شؤونها وتحاول معالجة ذراعها المتورم من قبضة قضاعه الموجعة. إذا كانت تعلم تمام العلم أنها برفضها طلب قضاعه لم تتعد على حدود الشريعة بل على العكس وقفت عند حدودها لم تتجاوزها قيد شعرة. ولكن صوتاً خافتاً يأتي من أغوار نفسها كان يدعوها إلى الاستبشار بهذا الطلب وعدم مقاومته. إنه زوجها ومن الواجب أن تنصاع لطلباته لا سيما وأنها مصحوبة

بتهديد يمس الحياة. على كل لم تحاول إناث إلقاء حجر لاستكشاف أغوار البئر.
ترى إناث فجأة من يتسلل خارجاً من الباب الجانبي بمحاذاة الحائط فصاحت به ملتاعة. محاولة إبداء قدراً أكبر من التماسك:
- من؟
فزع الرجل وارتبك ثم قال في خفوت وفي خوف وربما غطرسة وهو يتوقف على حافة دائرة الضوء في الظل:
- إنه أنا.
اطمأنت لخوفه وأخافتها نبرة التكبر في صوته. وبعد لحظات قالت ساخرة:
- ومن أنت يا أنت؟ تقدم..
قال الرجل وهو يتقدم نحو النور تحت الشعلة المتقده تماماً وقد عرفها على الفور. وغمرته نشوى مفاجئة:
- كاروا ابن سيدنا حورا.
يبدو أن أقوالها عن صلاتها الغيبية ساعة أن كانت تعرض للبيع وما رافق ذلك من عبث بجسدها وبقشرة طهارتها كان صادقاً. فهي لا تكاد تتذكره. وإن كانت بطبيعة الحال تعرف حورا، بمنصبه.
قالت إناث ساخرة. تشجع نفسها، هي سيدة الدار وهو المقتحم:
- فمن كاروا ومن حورا؟
- لا تهزني يا أمه. كاروا هو الواقف أمامك، ابن حورا العظيم رئيس وادي الرعاة وسيده المطلق. أثمة من يجهله؟
ثم صرخ في وجهها بمكر: ومن تكوني أنت؟
قالت إناث جافلة: أنا؟ أنا..
- لا يهم. لست هنا لأبحث أمرك. ربما لاحقاً. سنتقابل بالتأكيد عما قريب. والآن؟ هلا أرشدتني إلى ساشا.
- لماذا؟ عليك أن تخبرني أولاً كيف دخلت هنا؟ لا أحسبك جئت من تحت الأرض. فوراء هذا الباب حجرة صغيرة استخدمها للغائط وليس لها منفذ سوى هذا الباب، أي من غرفتي هذه.
رد كاروا بقوة: لا شأن لك.
قالت إناث بتهويل مصطنع:

- أوتقتحم عليّ مخدعي وتسألني بوقاحة أي شأن لي؟ لماذا لا تركبني وتقول خليك في نفسك، لا شأن لك بما أفعل؟

قال كاروا مندفعاً بضيق الوقت وحجم المخاطرة:

- انتبهي لنفسك أو أنبهها بطريقتي.

يستل كاروا من فوق خصره مدية حادة لم تك بجرابها المماثل للون ردائه ظاهرة لرائيه بشكل كافٍ. والحقيقة أنه برز بداية وكان يشهرها في يده. ولكنه أعادها إلى غمدها بعد أن وجد أن أول وجه قابله كانت إناث. حدث ذلك، في الجزء ضعيف الإنارة من الغرفة. ولم تلاحظه إناث التي كانت عيناها مسلطتان كلية لاستكشاف الوجه القادم عليها.

يدنو كاروا بسلاحه من إناث فتتقهقر متراجعة في فزع وتتعثر ولا تستطيع النهوض بفعل الرعب فيبرك عليها كاروا مطمئناً هادئاً ويأخذ بخناقها صارخاً صرخة مكتومة متعجلة حانقة:

- أين؟

قالت إناث مرتعبة: هل أدلك لتؤذيه؟

- وهل هذه تؤذي؟

يلوح بالسكين في وجهها. يقربها أكثر فأكثر من نهر عنقها الجاري بالحياة المجيدة. تأوهت إناث مرتعشة.فقال كاروا مخادعاً:

- هيه ماذا قلت؟ أين هو أو أقتلك، اختاري؟

قالت إناث وقد همد صدرها وأغمضت عينها كأنها ماتت فعلاً:

- اقتلني.

تفاجأ كاروا بقوة:

هل تضحين بحياتك لأجله؟

يلكزها بكوعه لترد. ولكنها لا ترد. متمسكة بإطباق جفنيها فبرز جمال رموشها الذي لم يستطع الإهسال والبكاء المتكرر مداراته. ويرد كاروا طرفه إليه من لحم عنقها الشهي، من رمش عينها ذو الكبرياء الجامح، من خصلة شعرها الذى ظن لوهلة أنه ما برح ينمو فى كل لحظة فوق صدغها. ويهزها بعنف وقد أصبح متوتراً للغاية، أخوفاً عليها؟ ربما. أخوفاً من سيده حورا إن فشل بمهمته؟ ربما.

- استيقظي عليك اللعنة. هيا. أنا صديق. ألست إناث التي هام بها ساشا؟

تفتح إناث عينيها بإجهاد فيردف: هذه إمارة صدقي. وهو أمر لا يعلمه غيركما إلاي.

قالت إناث غير مطمئنة: فلماذا تريده؟

- جئت أمد له يداً تحتمها الصداقة الطيبة بيننا. جئت أخلصه من ذيول إخطبوط قبل أن تستدير رأسه إليه. ساعديني إذن. يجب أن تدليني إليه أو رتبي لي لقاء معه.

إناث: إن الجميع هنا، يحبونه. لا. إني خائفة.

قال كاروا مغتاظاً غيوراً:

- عليه؟ إلى هذا الحد؟ ينبغي إذن أن تخافي من شيء آخر، أقرب إليك منه، لأنك ستجترعينه حالاً، الموت. وإذا كنت رأيتني وإذا كنت علمت من أين جئت. فلن تخبري عني أحداً، لأن أرواح الموتى الأجانب بأرضنا لا تبعث من جديد.

ويعود إلى إشهار سلاحه والتلويح به. يخب صوت ساشا مجنحاً في الفضاء قبل أن يظهر لهما بنفسه راكضاً:

قف. لا تفعل. إياك.

ثم يدخل عليهما مندفعاً:

إنها معنا. إبعد هذا الشيء في الحال.

يربت ساشا على كتفها وينهضها من تحت كاروا الذي تباطأ في رفع نفسه عنها وفي تخلي عينيه عن شفتيها وعينيها. وبعد أن تقف إناث على قدميها تميل برأسها على صدر ساشا وتبكي منهارة. يرمق كاروا إناث بابتسامة وجْد ممزوجه بالحقد والأسى لما يستشعره من حظوه وقابلية لساشا عند محبوبة قلبه.

كاروا: لا تخافي. ما كنت أنفذ فيك نصلي مهما حدث.

يترك ساشا إناث ويتجه إلى صاحبه، يأخذ بيده إلى زاوية الغرفة ويتهامسان.

ساشا: كيف دخلت؟ لقد حاولت الخروج مرات عديدة باءت جميعها بالفشل.

يكز كاروا على أسنانه هامساً:

- لماذا فعلت ذلك؟ لعل قضاعه رصد محاولاتك. أين عقلك يا صديقي؟ أين ذكاؤك؟

ويرمق إناث بنظرة إدانة.

ساشا: لا. ليس لها شأن. لا تعلم عن هذا كله شيئاً. لا تحشرها بيننا قط. لقد كنت قلقاً، محموماً. وعلى كل كانت مساعي مستترة متقنة فلا تشغلن بالك مطلقاً.

والحقيقة أن ساشا لم يحاول إلا مرّة واحدة. وهذا طبيعي فما اكتشفه من دقة وإحكام النظام في المعبد جعله لا يفكر في مجرد تكرار المحاولة. وإنما قال ذلك بدافع إغواء صاحبه للبوح بطريقة دخوله.

كاروا: إن هذا البيت كان لنا. ووهبه سيدنا لقضاعه، ناكر الجميل. ونعرف له مداخل ومخارج عبر أنفاق لا يعرفها مالكه اليوم.

ساشا: وهل فات قضاعه ذلك؟

كاروا: طبعاً لأ. لقد أغلقها جميعاً إلا هذا، لا يستطيع هو ولا عشرات غيره يتوالوا على المعبد أن يكشطوا غيمة أو يمزقوا أستاره. دعني أقل سراً، اقترب، اعطني أذنك. إنه النفق الوحيد الذي يتصل بالقصر مباشرة.

قال ساشا مداهناً:

- آمل ذلك من كل قلبي. فما رأيته من قضاعه لا يمهلني لحظات للاسترخاء وطلب الراحة. يجب أن أظل متيقظاً طول الوقت. دلني عليه.

- ماذا؟

- النفق.

- النفق؟ كلا. كلا يا صديقي العزيز ليس من الواجب أن تعرفه. ستعرفه عند الضرورة. لا تتعجل يا خليل السيد / الإله.

- أعرفتم؟ هل أعلن قضاعه هذا في الوادي.

- ماذا؟ تقصد صفة خليل السيد / الإله؟ وماذا يصبح هو؟ طبعاً لا. لم يعلنه. أنت هنا وكأنك لم تك أبداً.

ويكمل مطمئناً ساشا: هذا بالنسبة لقضاعه. ما يبقيك حياً بالفعل استمرار علاقتنا ببعض.

قال ساشا مرتبكاً، خائفاً:

- حسناً. ينبغي أن أعلم طريق النفق، ارشدني إليه.
قال كاروا بحزم: لا. ليست عندي تعليمات بذلك.
قال ساشا عصبياً إلى حد ما:
- لكن يا صديقي، لابد لي أن أعرفه حتى إذا انكشفت عرفت طريقي للنجاة. إني أشعر هنا شعور الدمية بالجمال على صدور الأخريات، الناهدات. ومعرفتي به سوف تساعدني على تأدية عملي على خير ما ننشد جميعا.
- كلا. لا تجتهد فيما لا طائل منه. وطالما لم يأمرني سيدي صراحة بكشفه لك. فإني اعتبر عكس ذلك هو الأمر الصادر إليّ، هذا ما علمتني إياه حكمة هذه الأرض التي نطأ وجهها بأقدامنا.
يحاول ساشا أن يجرب أسلوباً آخر، لعل وعسى. قال:
- طيب. لماذا لا نستعمل هذا المنفذ، الثغرة. ونغتال قضاعة ونخلص. يمكنني أن أرتب لكم ذلك، أو حتى أقوم به وحدي.
- لا يمكن. أولاً حتى لا ينكشف هذا النفق بكثرة المترددين عليه. ولأنه لا يمكنني، أنا أو أنت، بحكم الضرورة أن نقتله. الآن على الأقل. كما أني أعتقد أن هذا النفق أو الثغرة كما أسميته أنت، يساوي في أهميته وحتمية الحفاظ عليه لسيدنا حورا نصف الوادي. إذن لا يمكن بأي حال أن نغامر نصف الوادي. وبدون أوامر صريحة مباشرة من سيدنا حورا. وثانياً..
قال الراوي:
- صحيح أن كاروا هو من شعر بأهمية النفق القصوى لمولاه حورا. حتى أنه لم يعلم به إلا قبيل تكليفه بمهمته. ولشد ما كانت دهشته وهو يعلم به فلم يسأله عنه شيئاً. إلا أن ساشا هو من فهم تلك الأهمية ومغزاها. ربما لاتساع نطاق تجربته. ولم يملك إزاء ذلك إلا مزيداً من الإكبار والتقدير لحورا.
واستأنف كاروا تحليله محاولاً الإطالة ليوحي إلى ساشا أن إقتناعه بالأمر الصادر إليه بعدم وجوب معرفته موقع النفق الآن يمثل أهمية قصوى بالنسبة لهم فيذهب غضبه، ويرضى:
- وثانياً إن عدونا لم يعد يتنقل دون حرس مدجج بالسلاح ومدرب جيداً. ومحاولة قتله الآن غير مضمونة النجاح وفشلها غير مضمون

العواقب فضلاً عن أننا نفتقد حتى الآن المعلومات الكافية. وإن شئت الدقة، المعلومات الصحيحة، المؤكدة. فنحن لا نعرف حقاً في أي مقام يبيت. وكما ترى، فالمعبد شاسع، مفرط في التفاصيل. لقد أدخل الملعون قضاعه عليه تعديلات كثيرة غيرت ما نعرف من معالمه إلى حد أنه بات يصعب علينا التعرف عليه أحيانا. لقد رأيت بأم عيني باباً ينسد وحائط يتحرك إلى زاوية أخرى، ولا أريد، رغم هذا، ان أقول أنه يسحر. وإذا نحن تعجلنا، وهو أمر لا أعده حكيماً بالمرة، فوضعنا خطة لاغتياله وفشلت فإن ذلك سوف يؤلب علينا الوادي ويلتهموننا لحماً نيئاً. لا تنس قط أن من نتكلم عنه هو رسول السيد/ الإله.

فضلاً عن ذلك، فإن أتباعه وحوارييه لن يسكتوا على تبديده. ولا يمكننا تعويضهم جميعاً. وسوف يعلنونها حرباً عرمرم. هذا احتمال. وقد يسلك نفر منهم نفس الطريق فنخاطر بحياة سيدنا الرئيس أو نكون قد وضعناه على حافة خطر دائم. أقصد أن يلجأوا لنفس الأسلوب: الاغتيال. هذا ممكن. وهو ما لا نريده. بل إن من أهدافنا الدائمة بتوجيهات سيدنا الرئيس أن نتجنب السقوط في ذلك الفخ المهلك. وقد تقف الجماهير ضدنا وهذا كابوس، أو يساومون ويناكفون وهذا مزعج. أيما إزعاج. إن مارد الكثرة إن أطل من قمقمه فعلى القلة السلامة. بينما نحن لم نأخذ أهبتنا كاملة ولا حظينا بالتهيؤ المجيد والاستعداد الذي نطمئن إليه. هناك فرق بين أن تقتحم المعركة يحدوك الأمل بكسبها وبين أن تدخلها يدفعك استعدادك الجيد لخوضها إلى الأمل بكسبها. لقد اكتشفنا يا صاح في الأيام القليلة الفائتة أي درجة من النفوذ بلغها قضاعه. والحمد للسيد الإله أن مكننا من اكتشاف حقيقته في الوقت المناسب. اعلم أننا نسير وفق خطة موضوعه، وإذا أدخلنا عليها عناصر جديدة تبعاً لأهوائها، تضعضعت وضعفت. إن قوة الخطة في صلابتها وكفايتها وإلا فما احتياجنا إليها أصلا. نريد تصفيته علناً وبالقانون والشرعية فيرتدع الأذناب ولا يسمع لها صوت أبداً بل يكونوا معنا عليه.

إن هدفنا الرأس والأطراف جميعاً في ضربة واحدة، خاطفة، شرعية. وقليلة التكاليف ما أمكن لنا ذلك. ويصبح من يفلت من

الذيول خارج دائرة القانون والنظام الذي ارتضاه المجتمع ويخضع له، اختيارياً، بجميع طوائفه.

إن خطأ أي سلطة في مواجهة أعدائها سواء كان فرداً أو حزباً هو مبادرتها إلى مهاجمتهم دون أن تحاول – وتنجح لا مفر – عزلهم خارج إطار النظام والقواعد التي تأسس عليها المجتمع. وبهذا يصبح المجتمع كله عدواً لهم وعليهم – لو استمروا – مواجهته كله والسلطة بضمنه وهو ما يستحيل تنفيذه عملياً. وهم إذا نجحت بعض ضرباتهم الموجهة إلى المجتمع بأسره، وأوجعت، ما استطاعوا إسقاطه والسلطة جزء فيه. ولأنها قمته وتشكل الجزء الأعلى والأقوى والأشد حصانة في الهرم الاجتماعي فسوف يحاولون النيل من أجزائه الأخرى الأكثر ضعفاً وهشاشة: القاعدة. وهذا خطؤهم القاتل.

يقول الراوي:

- في الحقيقة من الصعب الفصل بين أفكار كاروا وأبيه في هذا الشأن. ولكن فيما يتعلق بقوله عن خضوع المجتمع – اختياراً – للقوانين التي ارتضاها لنفسه. والتي قامت السلطة الحاكمة دون غيرها بصياغته وتقنينه. كان كاروا يقصد، ربما بحكم سنه وأحلام الشباب المتطلعة دوماً إلى امتلاك العالم بوردة وقصيدة. الاختيار الحر، الحقيقي، الفعلي. بينما كان اختيار الوادي لنظام حكمه في الواقع اختياراً صورياً فحورا الذي محى الفقر من عمره مرحلة الشباب المثالية واجتثت من صدره آلامها وأحلامها، كان حريصاً للغاية على هذه الشعيرة " الشكلية " في الاختيار وعلى استمرارها. كان حورا، القلب المعذب، يعرض على الناس اختياراته ويفضل أن يبصبص لهم بحاجبيه، ويغمز بعينه، وذيله نحو الاختيار المطلوب على أن يرفع الهراوة فوق رؤوسهم، ولا مانع لديه أن يرقص لهم أحياناً وأن يضحكهم في أحيان أخرى. المهم، أن يؤشروا في النهاية نحو الاختيار المطلوب، اختياراته هو لا اختياراتهم. هم يعرفون ذلك، وهو يعرف. ولكن من منهم يستطيع الإدعاء بأنه أجبر أو خرط السوط جسده؟ على أية حال، فسرعان ما سيدمر الخوف من الآخرين، ومن أطماعهم، مثالية كاروا الحقيقية.

لكن، كيف لم يستشف من قضى صباه لاعباً في باحة القصر الكبير، ومرق من بين أقدام الحاكم مراراً، وتلهى على حجره، وعلى كرسي الحكم، أن الأمور لا تسير كما بيّن. بل وضد ما بين. كيف وهو المراقب القريب للغاية لم يستشف الحقيقة المجردة وراء الظواهر الخادعة. كيف؟

ويمضي كاروا في تحليله الهادئ متسائلاً:

- لماذا نقوض كل شيء في لحظة يا عزيزي ساشا، نحن في طريقنا لإصابة الهدف، وكل ساعة تمر تقف وقوفاً بيناً إلى جانبنا. قرّ عيناً، ولا تخف.

يلتفت كاروا حوله، فيجد إناث استسلمت للنوم. نامت إناث بحثاً عن هدنه مع الألم. فيهمس لصديقه محتداً:

- لا وقت لدي، كان حضوري هنا مجازفة جمه بكل أوراق قوتنا، لولا أن سيدي حورا رأى ألا يغامر بكشفك إلى أي مخلوق آخر ولو كان عفريت نفسه.

ساشا: بل خشي افتضاح أمر النفق.

لا يبالي كاروا بتعليق ساشا ويكمل متعجلاً:

- لولا ذلك ما جئتك شخصياً، مخاطراً بنفسي ولما وافق سيدنا.. هيا، أخبرني بسرعة موجز ما آلت إليه الأمور هنا. هل هناك معلومات عن حرب وشيكة كما بلغنا أو عن موعد محدد؟ وماذا يعتزم قضاعه أن يفعل في غده؟ تكلم.

كان ساشا يستمع إليه. وينصت أكثر لهدير شلال طارئ في عقله.

قال ساشا بإقرار نهائي لما يدور في عقله:

- جد شيء واحد فقط، انتظر.

ومضى ساشا خارجاً، فينادي كاروا هامساً على إناث بحرقة ووجد مشبوب. لكنها لا ترد. فقط تتقلب في رقادها. يدنو منها مأخوذاً بالشوق وفتنة الجمال المستلقي المستسلم أمام عينيه. وقبل أن يلمسها يعود ساشا شاهراً حربه ضخمة. ملاحظاً محاولة صديقه الاقتراب من قلبه الذي سميته: إناث.

ساشا: أترى هذا؟

قال كاروا مأخوذاً: ما ذاك؟

- كما ترى، إنها آلة أساسية في معارك بني قومي ضد أنفسهم قبل أن تكون ضد غيرهم.

رد كاروا متلفتاً، متخوفاً: هل رآها قضاعه؟

- ليس بعد. هو من أمرني بصنعها.

يقرض كاروا أسنانه مغتاظاً ويسمع صوتها: وكيف تبوح له؟ كيف تستجيب؟

قال ساشا وهو يمعن النظر إلى صديقه وبلهجة تقريرية باردة:

- إنها وسيلة هجومية فتاكة. ولكن عندي ما يبطل عملها، أصغر حجماً وأشد فتكاً وأسرع حصاداً. أتدري لماذا هي كذلك؟ لأنها اختزلت الزمن، لأنها الأسرع. كلما كان السلاح يؤدي عمله عن بُعد بنفس كفاءة عمله عن قُرب كلما كان النصر أدنى. لأنه يطيل من عمر وعدد جنودك المهرة المدربين ويتيح لك فرصة عدم استنزاف احتياطيهم بسرعة، ولا يتم استخدامهم مباشرة وجهاً لوجه مع عدوك إلا في المرحلة الأخيرة، للتمشيط، وتثبيت الأقدام. وعموماً، فالنصر لا يتم بقتل الناس، بل بإرهابهم بالقوة والمزيد من القوة. سأريك كيف تعمل. انظر.

ويقذفها في الأرض فتنغرس بثبات ويرتج عامودها الطويل. تجربة ناجحة. حتى أنها تضرب يد كاروا بقوة حين حاول مد يده باتجاه قناتها بينما هي لم تزل ترتج. فيبتعد عنها. يأخذها ساشا وينظف رأسها مما علق بها من وجه الأرض من قذارة وهو يقول:

- سأجرب ثانية على هدف آخر، حيّ.

يرفع ساشا الحربة. ويدور بها في الغرفة، تدور معه عينا كاروا مترقبة، متشوقة، غير منتبه لمقالة ساشا. وفي اللحظة الموعودة تتواجه عيونهما معاً تخترقان أنسجة الروح، تتكاشفان. ويهوى ساشا بحربته في لمح البصر إلى صدر كاروا فتنغرس ببطنه وتأخذه خطوة للأمام وخطوة للخلف، ويتوقف.

ترى، هل أخطأ ساشا حقاً صدر صاحبه؟ ساشا، أحد أبطال الرماية في قومه. الحائز على بعض جوائز مسابقاتها. وصرخ كاروا صرخة ألم هائلة، صرخة لم تسمع أبداً لأنها لم تغادر شفتيه أبداً. وأنّ

أنه واحدة كحشرة هينة، كفراشة لسعتها النار فماتت قبل أن تهوى إلى الأرض.

تصحو إناث في تلك اللحظة منتفضة على ما وقع عينها عليه. تظل واقفة لحظات كالمسلوب الإرادة، منومة، واعية. تتقيأ، ويتقيأ كاروا من عينه، دون فمه المطبقة شفتيه كالحجرين فوق بعضهما زمناً طويلاً وتقيأ من عينه التي جحظت درجة دماً وصديداً. وانثنى ممسكاً بقناة الرمح بصعوبة بالغة وتوقف على ذلك وعلى فمه الذي لان قليلاً وانبجست من ثغره دماً وسؤال وبنفسه ثأر: " لماذا يا صديقي؟ أي شيء عظيم احتوت عليه أرض وادي الرعاة دفعك إلى ذلك؟ انقذني، دعني أعيش بعض الوقت لأكل من كبدك ".

لمح كاروا إناث ورأى دموعها من خلال ضباب دام يزداد كثافة، وينأى بصورتها بعيداً بعيداً فرفت على شفتيه ابتسامة ساخرة كان واضحاً سيطرته التامة على مشاعره رغم طبيعته الانفعالية في تلك الثواني الحرجة. المودعة. لقد جرده ساشا من كل ملابسه، ولم يعد أمامه إلا أن يتخلى طواعية عن القطعة الأخيرة بشجاعة تليق بكاروا خليفة حورا العظيم. استدار بصعوبة بالغة نصف استدارة، محاولاً ألا يظهر آلامه ونظر إليها. قال بعينيه المطموستين بالدم والدموع نتيجة تأثره بدموعها: أحبك.

أراد أن يقولها بلسانه نفس الكلمة، نفس الحروف الأربعة، فلم يقدر وتضاعف قيئه الدموي. عدم قدرته في الواقع على إعلان إناث بحبه والجهد الذي بذله في سبيل ذلك هو الذي قتله.

كاروا الذي مات مقتولاً مرتين، بحب إناث وخيانة صاحبه.

تمنى ساشا لو يشيح بوجهه عن جنازة صاحبه، ألا يرى جناية يده لكنه عاند نفسه وصمد وأخذ يتابعه في ثوانيه الأخيرة بألم مفرط.

ربما كان ساشا أكثر معاناة وألماً من صاحبه وأكثر قرباً منه إلى الموت في تلك اللحظات.

قال ساشا في سريرة نفسه: " احتمل. تجلد. لن يستمر نزيف موته دقيقة أخرى. لو انتصر عليك موت كاروا، فإنك ستلحقه بأسرع مما تتصور ".

وفعلاً، تحركت واحدة من قدمي كاروا نحو إناث فسقط مرتطماً بالأرض الخرساء. وتتفجر صرخات إناث متوالية فيسرع إليها ساشا مكمماً فمها بيده ولكنها تعضه بشراسة وتطلق سيلاً من الصراخ بهستيريا غريبة. فيعود ساشا إلى تكميمها بقوة محاذراً هذه المرة من مشط أسنانها الحادة، ويجثو بها على الأرض وهو يهدئ من روعها ويهمس لها بحنق:

- اصمتي يا طائشة، ستهلكينا، مالك عطشى إلى الصراخ هكذا. اهدئي. اسمعيني ثم ولولي أو شجي رأسك في أقرب حائط. لم أعد أبالي.

فما أن يرفع يده عنها مطمئناً إلى استكانتها وخضوعها لأمره حتى تعاود بعد لحظة صمت من رفع يده عنها الصراخ متتابعاً حاداً وضخماً كالبرق والصواعق. وينفلت زمام الأمر من يد ساشا فينهض مبتعداً عنها وينزوي في ركن قاص، وفي الطريق يلفظ كلمة متحدياً أو مستهتراً: " ليكن ما يكون ". ويستعيد حربته من بطن كاروا بآلية صرفة كما لو كان يستل سيفه من غمده.

وفي الحقيقة أنه كان متفهماً شعور ودوافع إناث التي كانت محتقنة على نحو فظيع وساوره شك بإمكان أن تموت بين يديه عندما كممها. ولم يذهب شكه إلا عندما رآها تندب على الميت وكأنه الرجل المعجزة وكأنه والد أمها وأبيها معاً.

تدخل شرذمة من الجنود – الحراس – بينهم ندشب وصخرة مما عرفنا آنفاً. ويحدثون ضجة عالية حتى يزأر ندشب منادياً صخرة:

- صخرة، اذهب وأنبأ مولانا قضاعه في الحال. إلحق به قبل أن يدخل على السيد / الإله. هيا، لا تتلكأ، الوقت ضيق.

يقابل صخرة مولاه على الباب فيستدير ويتبعه – يدخل قضاعه مهرولاً مضطرباً يساوره القلق وعندما يرى إناث وساشا يتوقف محدثاً نفسه بصوت مسموع: " من إذن المغدور؟ "

قال ندشب بخوف عظيم، وهو جالس على قائميه أمام القتيل: إنه كاروا..

صرخ قضاعه متفاجئاً. " كاروا "؟

ولم يكد يتم اسم العلم حتى بدأت مكائن عقله تهدر بالطحين من أفضل أنواعه. يدنو قضاعه منه لكن بصره يصطدم عفوياً بساشا ويتبصر لأول مرة الحربة التي لم يكن قد رآها للآن. ولا كان رأى مثلها من قبل، ومع ذلك فقد تعرف عليها بوجيب قلبه حالما وقعت عيناه عليها في يد ساشا والدماء قد صنعت بقعة دم أسفل رأس الحربة. فيختطفها كالمسعور قائلاً بامتنان: "هذه هي؟ لم تخبرني من قبل يا خليل السيد / الإله أنك انتهيت منها".

قال ساشا واقفاً:

- كنت بسبيلي إلى إبلاغ مولاي.

قال قضاعه مترنماً غير مبالياً برد ساشا:

- ما أجمل المناسبة. هي ورأس كاروا في آن واحد. إن الدم المضرج بها آية صلاحها وجودتها. وأي دماء.

قالها بأسف حقيقي ولكنه غير إنساني ثم يشير إلى صخرة الذي يأمر الجنود بالانصراف ويمضي معهم بعد أن تهامس مع ندشب باهتمام. وها هو قضاعه يقول بلهفة ماكرة، متسللة:

- أي ساشا، خليل السيد / الإله. ما الخطب؟

أشار ساشا إلى جثة كاروا كما لو كان لا يعرف شخصيته:

- لقد هاجمني وأراد أن يسلبني إياها.

في إشارة إلى الرمح.

قال قضاعة مقاطعا. مانحا إياه الإحساس بعدم أهمية ما يقوله خاصة وأنه مابرح يتأمل السلاح الجديد بانبهار وحبور مثل الأطفال الفرحين بلعبة جديدة، مميزة: اسمها حربة. أليس كذلك؟

ساشا: بلى.

قال قضاعه مستحسنا اسم الحربة. لاعقاً رأسها الدموي بلسانه بشبق:

- نعم الاسم، وماذا بعد؟

- قاومته، وكان ما كان.

قال قضاعه غير مصدق، ساخراً: قاومته؟

- كان سيبطش بي على أية حال بعد أن يحصل عليها فلم لا أقاتله وأموت وهي بين يدي دفاعاً عن مصالح السيد / الإله ومولاي قضاعه؟

- حقاً؟ اسمع ساشا، انسى ما حدث. امحوه من ذاكرتك، ولا تخف من أي شيء. كائناً من كان. ولكن ينبغي أن تسمع وأن تفهم ما سأقوله. ينبغي أن تعلم أني أصدق روايتك عن الحادث لأني أريد ذلك. فلا يكون لك رواية غيرها. ولو كررتها ألف مرة. لا تزد ولا تنقص منها حرفاً.

- نعم يامولاي. فهمت. لكم جزيل الشكر.

أسر قضاعه لنفسه متشائماً:

- إن أفق هذا النهار ملبد بالغيوم وما برح ينبي عن خطوب وآثام جليلة.

ثم سأل فجأة " ندشب ": كيف دخل إلى المعبد؟

ندشب: لقد أصدرت أوامري فوراً إلى " صخرة " لتحري الأمر.

وسأل ساشا:

- وأنت، ألا تعرف؟

- لا أدري يا مولاي، لعله كان رابضاً في مكان ما.

وانتبه قضاعة مباغتاً ساشا في مكر:

- ماذا جاء بك هنا يا خليل السيد / الإله؟

وعندما يلمح إناث متكورة على نفسها. قابعة في مكانها. ينقبض صدرها وينبسط إمارة على شدة هلعها. بينما يسمع نحيبها خافتاً رتيباً. فهم سر تواجد ساشا وظن أنها صدعت في إغراء ساشا فاستدرك فوراً:

- لعله استدرجك إلى هنا؟

قال ساشا متردداً: أجل.. أجل.

يقترب قضاعه من إناث، مواسياً بعطف جم. متصوراً أنها عملت على إرضائه على أي حال:

- إناث، إناث، ما بك؟ لك أن تغبطينا فإن النصر قد لاح.

ويضيف مشيراً إلى جثة كاروا: وها هي بشارة السيد / الإله.

ساشا: لن تجيبك يا مولاي.

قضاعه: نعم. أعرف. الفجيعة تضغط على صدرها. إني أعرفها أفضل مما أعرف نفسي.

وفي هذا فقضاعه صادق تماماً. والجميع يعرفون إناث بأفضل مما يعرفون أنفسهم.

علق ساشا شارداً: هذا حق.

قضاعة: سأدعك معها يا خليل السيد/ الإله. ليتك تستطيع التخفيف عنها. إناث، هوني عليك.

ويصيح برجله الأول مشيراً إلى كاروا: ندشب، احمل هذه الكومة واتبعني.

يستوقف ندشب قضاعه وهو يصرخ في فزع مبتعداً قليلاً عن الجثة.

ندشب: مولاي. إنه حيّ.

تفيق إناث بوخز السعادة وتوهج الأمل. ويبدو الأمر لساشا لافتاً للانتباه لا أكثر، يعرف بالنظر الى ما نزفه من دم وحجم الحربة أن فرصة نجاته معدومة. يُفاجأ قضاعه مكشرا عن أنيابه كصفعة تلقاها على غير توقع: كيف؟

ندشب: إن نبضات قلبه ضعيفة للغاية ولكنه مازال يعمل. إنه حيّ.

قال قضاعه ساخراً كأنه لم يسمع ولا يود:

ماذا قلت؟ حيّ أم ما هُوَ حي؟

ندشب: لم تزل به بقية من الروح.

قال قضاعة بغضب بعدما فشل بعينيه التي تطق شراراً في تنبيه مساعده: يا أبله. هذا لا يحول دون موته. يا أبله. هي ساعته. فهل نعمل ضد مشيئة السيد / الإله. أم أنك ترتأى شيئاً آخر.

ندشب: لا بأس عليه يا مولاي. ليفرغ ثمالة روحه على مهله تماماً في جدثه.

قالت إناث متوسلة، محتجة: أتكفنون حياً؟

يرد قضاعه عليها ببرود، بينما تظهر الراحة على وجه ساشا المربد المسود منذ بعض الوقت: هذا قضاء السيد / الإله. وإسعافه تحريف لقضائه.

صرخت إناث: ولكنه حي. حي.

وتذهب فترتمي فوق جسد كاروا وتحتضنه بقوة.
أمسك قضاعه بذقنها برفق. وقال:
- هذه الرقة لا يجب أن يتعكر مزاجها لحادث تافه كهذا. إبحثي عن شيء آخر أيتها الدمية الحسناء واشغلي وقتك به.
وأمر ندشب: هيا، احمله وتقدمني.
ندشب: بل اتبعك يامولاي.
قال قضاعه منشرحاً، ضاحكاً:
- لعمري. إنك أكثر الحيوانات تأنساً في حظيرة السيد / الإله.
قال ندشب متملقاً. بسعادة. بدهاء: بفضل رعايتكم يا مولاي.
إنك مجتهد. بيد أني أتوقع أن يتملك الذعر هذا المساء.
سأل ندشب خائفاً، وجلاً: لماذا يا مولاي.
قضاعة: بسبب البقية الباقية من روح المرحوم.
قال ندشب مداهناً:
- إذا أراد مولاي ذلك فإني مجتهد على الامتثال لأوامره.
قال ساشا محاولاً التخفيف عن إناث المنهارة بمشاركتها رأيها واكتساب عطفها: مولاي. إنه حي وأظن..
قال قضاعه مبحلقاً فيه. حتى أن ساشا أرخى عينيه على الأرض:
- أتشفع له؟
- لا. ولكن..
وسكت. فما كان يدري. فعلاً ماذا يقول؟
قضاعه: ولكنه اعتدى علينا حياً. لا ميتاً. إننا نعاقب حياته لا مماته يا خليل السيد / الإله.
ساشا: إذن أجهز عليه.
تئن إناث عند سماعها الاقتراح الأخير. ويضطرب ساشا بسبب اقتراحه السيئ الذي دمر جهوده السابقة جميعاً، بل وعكسها عليه. بينما يقف ندشب حاملاً كاروا وقد بدأ يتعب ويزيد انغماسه بدم كاروا.
قضاعه: لا أحب القتل وسفك الدم. سندعه يموت موتاً طبيعياً ولن نحرمه أخر لذات الحياة، لذة تذوق الموت الطبيعي. شيئاً يشبه اجتراع العصير الطبيعي. إن العامة يا خليل السيد / الإله تحسب

الموت مؤلماً، وانسحاب الروح من الجسد زلزالاً مدمراً. لا. إنه ناعم جميل. وله لذة كبيرة. وعلى كل. كان المرحوم مغرماً بالطبيعة، لندعه ينزف حتى الموت. أجل فهذه الحربة سقطت من السماء – ولعله كان يجدف في ساكنها الأعظم – إلى صدره مباشرة. كأي مرض قد يصيبنا في أي لحظة، نازلاً من هنالك، حيث السيد / الإله لا يغفل ولا ينام. إن عنايته التي لا تغرب عنها الشمس ولا تستطيع احتجازها جموع الملائكة الطيبين و البراكين مجتمعه هي التي أردته. وهي التي أوعزت للحربة بالإصابة. كان يمكن أن تخطئه، كان يمكن أن يتفاداها. ولكن السيد / الإله لم يشأ إلا أن يصاب. لقد صارت الحربة مباركة بإرادة الرب، ودم كاروا. ويجب أن نثيبها في احتفال خاص. هيا ندشب لقد صرفنا وقتاً ثميناً في سجال لا معنى له مع زوجتنا العزيزة إناث وعندنا أمور جسيمة يجب بحثها فوراً في ظل الوضع الجديد.

يخلو المكان على إناث وساشا الذي يقتفي أثر مولاه ومساعده حتى يتأكد من ذهابهما فعلاً وعدم وجود من يتجسس عليهما ويعود بعد لحظات. يتحير ساشا قبل أن يستفتح حديثه:

- إناث..

فترة ثم يعود فيناجيها:

- إناث..

ترشف إناث نشيجها، ترمم أعصابها المنهارة. ترفع هامتها إليه بوجه غضب، مضبب من أثر الدموع، خالٍ من أي معنى محدد، وجه محطم زابل.

إناث: تقطعت كل الخيوط بيننا. بترتها بيدك. لم يهمك شيء، أي شيء. ولن أغفر لك أبداً.

قال ساشا منقبضاً:

- وأنا لن أطلب غفرانك، لأني لم أذنب. ما فعلت إلا ما أملاه عليّ قلبي وعقلي. افهميني إناث. إناث، لا تشيحي عني بوجهك. لست سفاحاً ولن أكون. سأبين لك.. إناث..

- أفهمك؟ لم يعد بمقدوري أن أفهمك أو أفهم أي شيء. ما رأيت وسمعت يرغمني على عصيان أي محاولة للفهم والغفران وسوقها إلى الجحيم.

- يجب أن تسمعيني. أرجوك، امنحيني فرصة.

- إعلم أني سأقف بالمرصاد ضد أي محاولة للتبرير أو التأثير عليّ. هيا تكلم. أي تبرير عندك يمكنه أن يستوعب في عباءته حجم الظلم الذي جرى، وإهدار روح برنيه. والإمعان في إهدارها حتى آخر لحظة. هيا. تكلم، قل أي كلام. لماذا يا إلهي تتوحش الحياة بينما قلبها أبيضاً كاللبن مستساغ؟ لماذا لا يجف ضرعها ونخلص؟

- إناث، الحياة لنا وإن سامها القحط. الحياة نحن. إناث. انظري إليّ لا تعذبيني. أعينيني على البوح، اللامعقول الذي تزعمين. لقد بدا لي في لحظة بعينها أن أكون طموحاً ووسيلتي في ذلك أنت الطهارة والشرف. فلأريق ماء وجهي، كبريائي، ولأصبحن نمراً، وتكوني إلى جانبي، نفسي الحقيقية، وجهي الخالي من مشاعر الضعة والجهل، والنقص، وقلبي الأبيض. ولكني وجدت نفسي أعمل في وسط كلٌ يعمل لأجل نفسه، قناديلهم ذنبية، تمتص وقودها من دم الآخرين، ووجوههم قذى يملأ العيون. ولو لم أصرع كاروا اليوم لغمرني بفضله غداً.

قالت إناث في حسرة، توبخه، تدينه: جاء لينقذك؟

قال ساشا مدهوشاً: ينقذني؟ ممن؟

ويستأنف ثائراً بعد هنيهة:

- أوكل كلمة حق؟ أوكل رؤية صدق؟ أوكل نبضة حياة تعني الحياة؟ أحياء بالآلاف لكنهم موتى. وموتى بالآلاف أحياء. لقد كان يخنقني ببطء، لم ينقصه إلا أن تسنح له الفرصة والتوقيت.

- لكنه لم يفعل على كل حال. فهل أعطيته أنت الفرصة.

- تطلبين المستحيل. نحن اخترعنا الفرص لا لنهبها للآخرين بل لأنفسنا بادعاء أنها لهم. أما الفرصة الحقيقية فعلقناها في واجهات المحال وتحتها لافتة بخط رديئ: ليست للبيع. هل كان قضاءه أعطى حورا فرصة. لعلك تعتقدين أني أطيب نفساً وأقر عيناً بينما عدوي يتحرك نحوي، إلى نحري بالذات. ولعلك تودين لو أسرع إليه فاتحاً

صدري لسهامه كي تحل لي بركة الدفاع عن نفسي. ألا تفهمين؟ هل بمقدور نفسي إلا أن تذود عن نفسها. وإذ هي تدافع هل بوسعها إلا أن تهاجم. وعلى كل، فقد فعل، عندما رفض بإصرار، وأمامك، أن يطلعني على كيفية الدخول والخروج من هذا المعبد الموبوء بالردى. البركان الذي يغلي وإن لم يثر بعد. كانت هذه خطوته الأولى التي أسالها في سبيل هلاكي. شككت، نعم. قضاعه يوصد الأبواب علينا وكاروا قادني بنفسه إلى سجنه فدخلته وأنا هانئ سعيد. وكان لابد من عمل ثغرة. كل منهما يريد أن يستأثر بي، بمعارفي، وأن يغرف من البئر حتى إذ رأى قراره استغنى وقام يسيطر على السجن والمساجين. أما أنا فأبقى هنا وحيداً رهينة سوء الحظ والتقدير الخاطئ. إن حسن الحظ الذي لا ينبغي أن أفتقده لا يعني أكثر من الحذر والفطنة و التخطيط الجيد. والحقيقة أني كنت رهينة تباطئي وإهمالي. رهينة الاثنين، قضاعه يداعبني كفأر تجارب حبيس مصيدته. وكاروا في الخارج حراً طليقاً، يشدو ويعزف بأغنيته المفضلة:

يا صاحباً قد هلك
من بعد ما ملك
قلبي وما اندعك

أو بأغنيته الأخرى الشهيرة:

كا ياما كان
حبيبي كان
جوه المكان
شايل قلبي
بإيديه الاتنين

لم لا تقولي ابقى رهينة المشيئة الإلهية. أوه، أعني العناية الإلهية. تعرفينها؟ وفي هذا ذبحي المقرر. هي التي قادتني إلى هنا، إلى ما أصبحت عليه. ولكن من سيقودني منذ هذه اللحظة عقلي وقدمي.

أصبح ساشا الآن يمور بالثورة والغضب ويموج من حول إناث كالبحر العظيم. كاد تسع له فحيحاً. ولكن إناث لم تكن تشعر أو لم تكن تبالي بالحظر الحي المتحرك حولها من كل اتجاه.

ساشا: لم يكن في يميني من أيهما، قضاعه أو حورا، أي ضمان. أي حق. إذن ليس لي عندهما ثمن. ولا ضامن يجير حقي لديهما. حتى حقي في أجلي أصبح رهن أياد وحشية مازالت تخمشه وحسب حتى إذا ما اكتشفتْ أن ليس له أنياب قبضت عليه وأودعته في صندوق العجائب، للذكرى. ولكني لن أكون أليفاً بالأمر أو لمجرد أني وحيد. كل يريد فيأخذ ولا يعطي أي مقابل. إلا الوعد الشفاهي بمقابل مجزي. أهذا عدل أم نار أصطليها وحدي؟ استسلم أم أتحوط؟

- أنت من أراد ذلك.

- أردته وقابل لكل ما ينتج عنه فلا تلوميني إذن على اتجاه التيار الذي ليس لي يد فيه. لقد حكيت لك قصتي، إن الدرجة على السلم تؤدي إلى التي بعدها قادمة من التي قبلها وعندما استعبدني زوبعة كان منتهى أملي أن يوافق ويرضى باسترقاقي. فهل من الجيد أن أتوقف عند ذلك، وأخنع. أم أسعى إلى انتزاع حريتي. وأحارب في سبيلها. وهذا ما أفعله، لا أكثر ولا أقل.

وأضاف ساشا كما لو كان يفكر بصوت مسموع لا مخاطباً إناث:

- آه لو حذر القطبان أن معيني ناضب. لا يجب أن ينضب ولو أعطى تبراً زائفاً. لا يجب أن أدع الشك يتسلل إلى عقولهما باحتمال خواء جعبتي. يجب أن أعطيهما شيئاً من علمي وصناعتي كل حين. ليبقيا متطلعين إلى التالي. إناث، من يدريني أنهما لن يتخلصا مني بعد أن ينال كل منهما مأربه عندي أو ثأره لدى الطرف الآخر. هذا أكيد. نعم. وكل ما عـــهما لي وعود لم يشهد عليها أحد. وقد يتصالحان، وأنا غريب عن الوادي. وليس عندي من يبلغهما صوتي أو يكون حاضراً عني. وما أسهل أن أروح ضحية السلام بينهما وكبش فدائه. كفاني فداء، ريشة في النار.

إناث: زهقت نفساً بريئة. عاقبتها على نواياها. أوهامك. فماذا استفدت!

رد ساشا متفاخراً. مرتدياً زي الطاووس:

آه. إناث، إنها ولا شك ضربة موفقة. أنا الآن الورقة الرابحة والفيصل الحتمي بينهما. فأنا في يمين قضاعه دره. وفي شمال حورا دره لها نفس الوزن والقيمة. هل تسأليني في أي صف أكون؟ في

صف نفسي طبعاً. بموت كاروا فإن احتمال أن يتصالحا انقطع بغير رجعة. واحتمال أن يتلاقيا بغير طريق الحرب أصبح من خبر كان. سأعمل على أن يعلم حورا بسرعة، أن ابنه وعملته وخط دفاعه الأول لم ينثره في العدم إلا قضاعه. ألم يدفنه حياً. ومهما قيل عني فلن يصدق. وهكذا يحتدم الصراع بينهما ويرجع السلام، مرغماً، إلى موقعه الطليعي والطبيعي: مجرد حلم. رغبة. نزوة.

إناث: حتى إذا نجحت ونشبت الحرب بينهما وقبض أحدهما كما تأمل فالآخر لن يسمح لك – وقد علمته التجربة بالنظر إلى ما يحدث الآن – باحتكار أحد طرفي ميزان القوى. ولا تنسى أن المنتصر أيا كان بانتصاره ستتضاعف قلاعه وحصونه ورجاله أي قوته.. ولن تستطيع منافسته ولا أقول غلبته.. وربما فكر، بل وغالباً ما سيفكر في احتكار كفتي الميزان. والجمع بينهما في يد واحدة.

ساشا: إن هزيمة أحدهما لا يعني بالضرورة انتصار الآخر. ولا يضاعف قوته كما تحسبين بل يخل بميزان القوى في الوادي ويقوضه. ويخلق فراغا ينادي من يملؤه. ويتيح لحظة شرعية لن تتكرر لقبول من يعدل الميزان. أما في هذه الآونة الحرجة فأنا عزمت على أن أقيم على هامش صراعهما الذي لن يطول به الوقت حتى ينفجر. لا يحوجني شيء على مجرد إطلاله فيه. واعتقد أنهما يشاركاني هذه الرغبة لن يجرءا على الزج بى فى أتون حربهما. فأنا لدى كل منهما سنده وسدنته. مع السلامة يا كاروا، يا منافسي القوي ماضياً، وورقتي الرابحة مستقبلاً.

إناث: اللعنة. تريد أن تكون هالة الصراع وقطبه الخفي، وتقوم مقام السلاح لدى الطرفين. لكن لم يخطر ببالك أن أياً منهما لن يسمح للآخر أن يسلبه إياه. وهو ما لابد حادث. ولو اقتضى الأمر إشعال النار فيه وتدميره. وأنت في كل الأحوال مضطر أن تبيعهما السلاح أو ما يعني نفسك. وحتماً ستفعل. وحتماً سيشتريان. وحين تنزلق قدماك إلى الحلبة – وهو ما لن يمكنك منعه – فكل شيء متوقع. وسوف تتمزق حسبة الخيال على أرض الواقع. تذكر أن إناث قالت لك ذلك. ولم تسمعها جيداً.

يصمت ساشا متفكراً، مكدراً بينما تنهي إناث كلمتها قائلة:

- إنكم جبابرة. شياطين. والشيطان يُهزم بحصوه.
قال ساشا محتدا: ولماذا لا نكون؟ لماذا لا نكون؟
- ولم لا تكونوا كأولئك العوام الطيبين؟
- ومن أين جئنا؟ أليس من بينهم؟ من أصلابهم؟ زوجك قضاعه يراهم في كل الأصقاع خنازير مفتاحهم السيد / الإله. وحورا يراقبهم ويحاذرهم كقوة يجب كسبها بالقوة (أو بادعائها) أياً كان منبعها.
- وأنت يا من تحسب نفسك متمدينا عليهم، ماذا تحسبهم؟
- جزء من الطبيعة. موجات قوية لأتون جحيم عائلي. موجة بحر تغشى الشطآن الضعيفة وتتكسر على الصخور المنيعة وتترك السفن العملاقة تركبها في هدوء. وهذه طبيعتها، فطرة خالقها. لا حيلة لنا في تغييرها، ومضطر إلى التعامل معها كما هي.
سألته إناث تاركه عينيها تغشى عينيه وتملؤهما: وأنا؟
- أنت لغز. أنت الشيء الجميل في حياتي كلها. أما هؤلاء الذين ذكرتهم فمغلوبون على أمرهم، على طبيعتهم.
- هؤلاء؟ أليس هؤلاء بمثابة أتون الشمس؟
- أوه، تتجاهلين الفرق بين العقل ومجرد الكلام.
- بل هم اختاروا الخير.
- الخير؟ دعيني أوضح. أنهم مغلوبين بطبيعتهم لا على طبيعتهم. الخير؟ أي خير اختاروه بدون إله تتمثل فيه السلوى والعوض. إن الخير عطاء، انتقاص، وليس أناشيد تتلى في حماماتنا. ولكي أعطي وأسخو بعطائي فلكي خذ من صندوق السيد / الإله. وبالفوائد المركبة. ولكن الإله معدوم. هل يأمرنا بالخير ولا يعلم كنه الشر. يملأ الطريق بالأشواك ويعاقبنا لو انجرحنا؟ يغرس في نفوسنا بذرة الشر ويطالبنا بحصاد الخير؟ عبث. أنا أطالب بإعادة صياغة العقد بيننا وبينه على ان ينشر في الصحف الصفراء حكرا. أتعرفين، إن الوهم، وليس أي شيء آخر، يملأ نفوسنا ويحيط بها كالنار الموصدة. فلا شيء حقيقي.
- لا تحاول أن تشككني في الحقيقة. في نفسي.
- يا حبيبة قلبي. إنهم طيبون رغم أنفهم. وهم أشرار بطبيعتهم ولا فضل لهم في هذا أو ذاك. ولكن لظى شرهم في الحضيض. ضئيل.

بسيط. مهزوم. شمس مطفأة. ربما بسبب المكان. البيئة. الظروف غير المواتية. الجهل بالعقد الاجتماعي. التزييف. الاستنساخ. الحصار. كل شر حسب طاقته وعتاده وما ملكت يمناه ويسراه. رغم أنفه وأنف الجميع. هم أشرار يا حبيبتي ولا عزاء للجميع. لكن شرهم صغير، لأنهم صغار أو لأنهم صغار فشرهم صغير والفرق بينهما حرف تشبيه، كما ترين. شرهم صغير، يكاد لا يستبين، ليس له صهيل. لأن الشر الكبير من الكبار يغشاه، ويستره عن الأنظار. أنظار الشر الأكبر والتحكيم العدل. ولأن وهجه لا يكاد يمس الكبار محتكري الشمس. فهم يجهلوه. وهم من بيدهم مقاليد كل شيء. كل سكان القصور مثلك يجهلونه تماماً. هل رأيت اثنان منهم يتقاتلان نهاراً بأكمله على سنتيم أكبر من قطعة خبز جافة حين أراد اقتسامها. هي قطعاً بالنسبة إليك: "لا تؤكل". ولكن هذا السنتي يعني لهما الشمس والقمر والكواكب ما ظهر منها وما أفل.

انزلي أيتها الحكم العدل وعيشي بينهم، عيشي حياتهم ولسوف تفجعك الحقيقة بوجهها المنتفخ الأوداج. وسوف تعرفين أن الشر / صفر يدور على عتبات بيوتهم، وبين ظهرانيهم، كما ترينه أنت نفسك فيما حولك الآن، في أروقة المعبد، بيت السيد / الإله. له نفس الأثر. ونفس الحريق. تماماً مثلما تسطين على راع كل قطعانه ناقة واحدة وراع في مزارعه ألف ألف ناقة وما سلبت من كل واحد منهما إلا ناقة. هل تحسبين لسعات النار المستخلصة من شرارة بين حجرين مهملين أقل من لسعات النار في الجحيم أو من صاعقة سماء.

إن آلاف الحرائق الصغيرة، وفقأ العيون، والأكاذيب، والمؤامرات والقتل، وآلاف الجرحى المبتورة أطرافهم تحدث كل يوم ولكن أحداً لا يسمع بها. ولكن، كذب الرئيس حورا تدوي له الدنيا وتقرع الطبول. إن رجلاً، يا منية نفسي الدائمة، تلاحق ظهره سياط الجبروت والظلم بينما ينكفئ على وجهه مراراً تحت أحماله الثقيلة نظير ما يسد رمقه ما كان ليلفت نظرك قدر ما بذلته شاهرة سيفك في وجهي لأني حدثتك بلا أدب عن قلة أدب السيد / الإله. ولكن، لتعلمي يا منية نفسي الدائمة أن رجلاً يتضور جوعا يهمني أمره ألف مرة

من أمر سيدك / الإله. ومن آداب الحديث عن جلالته. هذه هي العلامة الفارقة بيننا.

- وأنا أعلم. أعلم أنك لو أرجعت قدمك إلى الخلف خطوة واحدة. كنت معي على الطريق نفسه.

- ولماذا لا تتقدمي أنت بالخطوة نفسها إلى الأمام؟

- ساشا، الخير حق. الخير حقيقة. هو البداية وهو النور. هو الإله. لا يمكنك بأي حال أن تتخطاه. ويجب أن نحمي وجوده ولو ألبسناه قطعاً من نور عيوننا ومن نسيج أرواحنا.

- الخير أم الإله؟ ومن يحمي من؟ من يمد الغطاء على الآخر إن تعرى؟ الخير؟ ما الخير بدون إله؟ هل بإمكان الإنسان أن يعرف؟

سمعت قضاعه أمس وهو يخطب في الناس بساحة المعبد محذرا، إن أعضائنا ستشهد على شرورنا يوم ننكر نحن. ولماذا ننكر؟ وهل سيتاح لنا حقاً أن ننكر؟ أن نتكلم؟ ومن يضمن لنا حياده؟ ومن يضمن لنا أن ذمة جوارحنا لن تشترى؟ ولن تجرحنا؟ هو – الإله – يستخدمها ليبرهن على القسط بيننا وبينه. ويعترف ضمناً باستقلالنا. الاستقلال التام أو الموت الزؤام. كأنما بتنا أندادا له. هل يخشانا؟ استعجل. وقبل أن نشكك في حكمه أو عدله فها هي أعضاؤكم شهود أبرار عليكم. بأي منطق تشهد عليّ ذراعي. وأقبل. هه؟ ها أنا أرفض سلفاً حكمه؟ واطعن في شهادة الشهود. من إذن يحكم بيننا عند اختلاف وجهات نظرنا؟ ومتى تشهد؟ إذا أبدلت النار جلودنا. إرهاب. إلهك يا عزيزتي إناث غير متحضر. ماذا يفيد أي شيء وقد انتهت المسرحية وأنزل الستار. وإذا نضجت جلودكم أبدلناها بأخرى. يا سلام. إرهاب. والجوارح. هل كان محتماً إلا أن تكون هكذا: جوارح. ولماذا لم تكن أعضاء طيبة، رشيدة، تدلنا على منبع الطيبة ورائحة العدل بدلاً من أن تدفعنا إلى الهرب منه. وإنكاره. وبالقليل: الشرك به. لماذا لم تك لنا أعضاء جيدة الصنع تحبب إلى نفوسنا الإخاء والعدل بيننا وبين بعضنا، تقودنا إلى الصواب وما ينبغي عمله.

اناث: يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم؟

ساشا: علمني البيان.

اناث: لم ينزل الستار بعد:

أوماً ساشا برأسه مفكراً. ثم قال متردداً.

- أتريدين أن تعرفي سر قتلي لكاروا؟ لقد قتلته من أجلك.

ارتعبت إناث من فكرة أن يكون لها دور في تلك الجريمة البشعة دون أن تعتبرها محاولة من ساشا لجر قدمها في بركة الوحل المنصوبة في دهاليز المعبد بقيادة قضاعه زوجها، رسول السيد / الإله.

- لأجلي أنا؟

نعم. وإني مستعد لقتله عشرات المرات لنفس السبب.

- أي سبب؟

- لأنه كان يطمع فيك. للحيلولة بينه وبينك. لو أخذك لم أكن أستطيع استعادتك من عنده. ولو وهبت طاقية الإخفاء.

ثم أضاف كالشارد. بحزن: لعله أحبك. من يدري؟

قالت إناث غاضبة:

- تجرؤ على هذا القول بعد كل ما بيته لي من خططك الجهنمية للسيطرة على الوادي، وما خفي كان أعظم. كان الأولى بك أن تبادر إلى استخدام مقالتك هذه، خدعتك الجديدة، من قبل. ربما كنت كسبت بها ما لم تحققه لك أطماعك في الناس والحجر. لماذا تجرني إلى محرقتك وتدعي أنك ترغب في تدفئتي. لماذا ساشا؟

- أنت تفهمينني كما ينبغي وأفضل مما ينبغي ولكنك تخادعين نفسك من حيث لا تدري. فأنا لم أطمع في شيء ليس لي. ولكنها الطريقة المثلى الطريقة الوحيدة لكي أرفع أيديهم عنا، عني وعنك. وعلى كل، فهذا لا يغير من الحقيقة شيئاً. لقد قتلته لأني أحبك. ولأنه أحبك.

قالت إناث مستنكرة إصراره على الزج بها في أتونه الخاص:

- وما أدراك أنه أحبني.

قال ساشا يائساً: أعرف وحسب.

قالت إناث بحب:

- ساشا، لماذا لا تحاول أبداً أن تتقرب مني وتفهمني.

- أنا أحاول دائماً أن أحبك أكثر مما أحبك.

قالت إناث شاعرة بغربة عن نفسها، عن ساشا نفسه. الرجل الذي تنادي كل جارحه من اسمها باسمه:

- ساشا، أنا هنا، لست وهماً في خيالك. امسك يدي. أنا هنا، ألا تراني.

- أنت لغز. الطهارة. الشرف. الإخلاص. ألغاز، وقريباً جداً أجد لها مفتاحاً. إناث، فيما نتجادل الآن، إناث، إني أريدك.

- كان يمكنك أن تتجنب إهدار دمه. إنه صاحبك، كان يمكنك أن تساومه، أن تحقق ما تريد دون أن تقتله.

لا. ثقلت موازينه. كان طمعه فيك القشة التي قسمت ظهر البعير ودقت ناقوس الخطر. أراد أن يشاركني حبك. ألا تعرفين ما أنت في قلبي. أنت الوجود في العدم. النعيم في أرض مجدبة، فانية، قذرة، تدفئها البراكين وأنفاس الرجال اللاهثة وراء لقمة العيش وتداويها السموم. أنت، وباختصار، الوجه الجميل من الدنيا محمولاً على جناح قلبي؟

- ربما كان هذا بوسعي من قبل. أما الآن. فلا. لا يمكنني.

- تكذبين. لا كان بوسعك من قبل. ولا بوسعك الآن.

- إنني أخافك فكيف أرافقك. وإن رافقتك كيف أسلمك نفساً متلاطمة وعينين تلهثان بحثاً عن أياديك لتفتش فيها عن مدية وأثر دم. بينما أنت تفتش في جدائل شعري وتحت ثيابي عن ساعة خلود.

قال ساشا بانقباض:

- لو كنت أحببتني حقاً ما خفت. ولو استحالت أصابع يدي ثعابين سامة.

- كيف تقول ذلك. ماذا تحسبني؟ أنا إنسان مثلك. والثعبان الذي يخيفني في الأحراش سوف يخيفني أكثر وأيضاً وهو في يدك.

- تعالي معي.

وأشاطرك ما تقتل. وما تنوي قتله. لا. لن أرضخ لك بعد ما رأيته منك. لا أقدر. لا أقدر.

- ولم لا؟

ويضيف بعد لحظة صمت :

- على أية حال فأنا لست حزيناً. لأني أعلم أن الخوف كالشجاعة كالخير ظرف طارئ. والثابت الوحيد المؤكد مات.

ويعود بغتة إلى مناجاة اللاوعي. تصطك عضلات وجهه. تتيبس ذراعاه على جانبيه. يبدو وكأنه يحاول استعادة رأسه من خيّة مجنونة. وأحياناً العكس فهو يحاول بجهد جهيد رفع رأسه التي إلتمت بين كتفيه بشكل منفر. يعرق. يمشي كأن به عرج.

ساشا: وإذا شمس الحقائق كورت. وكل شيء عندئذ عدد. في ذلك اليوم الذي يصبح فيه الشهر ألف يوم. ثم يعود يوماً واحداً لا يتكرر. ويعود ملايين الأنام واحداً كما بدأوا واحداً. ونسي الناس أن الطفل يولد في لحظة بعد تسعة أشهر كاملة. أو هكذا كان يولد. والإله يأمر فيخلق. ولكنه لم يحدثنا كيف تأتيه الفكرة؟ وما هي أحلامه لنفسه؟ وهل لنا في أحلامه حصة؟ كيف خلقتنا بكلمة من فمه. وبألف كلمة من فمه أيضا عن أفعل ولا تفعل. ولا يتحرك أحد؟ في ذلك اليوم يخرج أحفادنا عماليق. على أظافرهم نقوش فرعونية. وعلى أسنانهم بريق الذهب ويصبغ الرجال شعر ما بين أفخاذهم. ويرسموا عرش الملائكة لينام عليه العضو الذهبي. لقد ابتدعوا بدعاً وملأوا الدنيا زياطاً فخافت الأرانب على نفسها. وهكذا راحت تلد في كل مرة عشرة. وحفرت أعشاشها في التراب: أفضل كاتم للرصاص. وتحولت الأسود إلى فئران تقتات بالإحسان. أسوأ ما صنع البشر بزازة الأطفال وأفضل ما صنعناه تكلم وذمنا. وقالت الآلهةاصنعوني من جديد لتستمر الحياة. لهذا أنشأنا في كل فصول الدراسة فصل خاص للتحطيم والتوليد.

في ذلك اليوم المبتكر. حين تصبح الحياة يوماً واحداً. تشرق الشمس ساعة ويحضر الظلام ساعة. ولكنا لا نجد راحتنا هكذا فنطالب الظلام بساعتين والنهار بساعة. لن يكون ثمة حب. الشارع طويل وهناك آلاف النوافذ تدعوه للحب وآلاف القوادين يرفعون المشاعل. وحينما يصعد لا يجد نساء الشياطين يضاجعنه برغمه ويهربنا. ولكن البذرة ألقيت إليه. وهو كان يعلم منذ البداية. قالت له عفاريت الأحلام الطيبين: لا تذهب.

عندما يقيم العلماء معالملهم فى أبيار سلاسمنا. وتنظر الحكومات إليهم بريبة ولا مبالاه.

في ذلك الزمان الصغير ولكل شيء صفير. والتمثيل فن العالم الأول. وصرخة جنونه البائسة. يتحالف مع كرة القدم. ولم يسأل أحد لماذا ينظر البسطاء نحو اليابسة وهم أرادوا السفر إلى ما ورائها؟ وإذا أحب أحد أو ادعى الحب، أحب ما في قلب الحبيب من خبز وحلوى و تذكرة لحضور الأولمبياد ومنفعة يتوقعها أو يأملها أو يتكلمها. ولكن آخرين ينظرون لما ينظر له الأولون. فريق واحد مقسوم على اثنين. وكلاهما يمد يده إلى نفس القمر. في نفس الوقت. مسكينة الأرض. لم يشرق عليها إلا قمر واحد. أهي الحياة غريمنا أم أنفسنا؟ ويمد الفريقان أياديهم إليه ويتوقعون ويأملون وتتسارع الأنفاس ويتولد الصراع ويفوز واحد. دائماً الفائز واحد ويعود ألف واحد منكسي الرؤوس يتمخطون. لن يطيروا باحلامهم قبل عام آخر والحياة قصيرة. كانت دائماً هكذا. لطالما رأيت مثلهم في أحلامي لكن الحلم أبشع من الواقع.

والحكاية باختصار. أصل الحكاية. صوت وصدى صوت أصل وصورة. سيصبح لكل اسم عاشقيه ومريدوه لابد وأن يصقلوه فيضوي بما أرادوا له أن يضوي به. سيتخموه بالمميزات والمناقب. انظروا كم هو جميل هذا الصنم. لأنهم استبعدوا من المنافسة الأولى. اعتراض: الأرض مشاع في أصلها والجند احتكرها. والخير مشاع في أرضنا واحتكره الرب. والـ. من يملكه؟ ويفتحون صناديقهم لتلقى النذور والهبات. من أجل بريق صنعوه صنعاً وصبوه صباً. ثم يقتلوه قتلاً رحيماً. ويعودون من باب آخر، يصنعون بمنتهى الرقة والحساسية الحديد المقاتل وسفن الفضاء. ويعود أصحابنا إلى جثث قتلاهم السابقة – أقمارهم – يحيونها باستماتة وينفخون فر روحها مزيداً من المميزات، والتعديلات ويقاتلون بقسوة لأجله. في النهاية آض وثناً. ونزلوا بأنفسهم، بأقدامهم إلى الشرك الأعظم، عبيد ما صنعت أياديهم. ترى هل تسكت الأوثان الأخرى؟

سوف يكون لكل قمر ألف مدفع يقف على رأسه يدافع عنه ويحافظ على مبناه وقوامه وتحصل على بركات لا حصر لها.

وتحتال من أجل الحصول له على أنفاس دودة القز. ولكنها – لا مفر – تتقوقع في نهاية المطاف. لتبدأ الحكاية من جديد. ويبزغ نجم اليهود، ويعلموا الدنيا فن صناعة النجوم. والأساطير ونحاول تقليدهم ونفشل لأن أسلحتنا من صناعتهم.

ولكن آخرين مبدعين سيبزغ نجمهم فوق الأولين الذين طردوهم في المبتدأ ونبذوهم في حياة العدد. لابد لهم من قمر يعشقونه، صناعة أياديهم، وعلى الجميع أن يقدموا له القرابين بالقوة.

يصنعون الأوطان. وأغاني الشبيبة. وأنا الشعب والمقامات و سيد الأبطال: الخرافات. أواه، لا شيء يحدث صدفة. دائرة لعينة، مقيتة تدور على كل الرؤوس. وطالما بقي الخير محتاجاً لمن يعوله، وصاحب مآثر. فإنه سيظل موجوداً. فلا تخافي يا قديسة على نفسك سيفرض الخير وجوده وبدون مظلة الإله.

سيظل الخير موجوداً ما وجدنا فيه منفعة. وطالما بقي له عاشقين يتكسبون من ورائه. وطالما القس يقبض راتبه بانتظام والواعظ على المنبر مبجل محترم لم يسنة قدره ووزنه في ازدياد باطراد. ونهيقه يجذب الرواد، سيوجد القس والواعظ وهما سيقيمان أود الخير. ويأتي للشر عشاق يشهرون جمعيتهم السرية في المكان الموبوء بالغرابة وبالآخرين وبما يسمونه خير. كل ذلك في دنيا العدد. إن هي حياتنا إلا عدد واحد مفارق ومليارات الأصفار.

تفيق إناث من دهشتها. تصفع صوت تأملاته الخاوية بصوتها المطمئن الآمن:

- أحب الإله.
- تحبين لا شيء. وأنا لن أغار عليك من لا شيء.
- أحب الفكرة. جادة الصواب، الحياة.
- سأحبه لأجلك لا تعذبيني.
- الخير فطرة النفس فلماذا غيرتها يا ساشا؟
- والشر؟ أليس منها. أم هو تنزيل السيد / الإله. كنت أعمل لسنوات كما أخبرتك، قبل وعد ورسالته المشئومة، باحثاً عن الحق والخير والعدل. ومنذ قليل قتلت. متى جاءني الشر؟ لم أسمعه يا حبيبتي يطرق بابي. من فتح له صدري؟ كم مفتاح لصدري؟

الصدري مفاتيح ليست معي؟ مفاتيح لا أعلم عنها شيئاً؟ كيف استساغ الإله خلقي دون أن يسلمني مفاتيح نفسي بداية؟ كيف أوجه نفسي الى عبادته وأنا في الأصل لا أعلم ما كنه نفسي؟ لأنه ببساطة استساغ ألا يخبرني ماهي؟ كيف يمكن أن أعرفه بما لا أعرفها ابتداء: نفسي. حسناً، كنتي تكلميني عن الشر. من أخذ يده بيدي. قبل أن أقتل كاروا وعندما كنت أقتله لم أشعر أن قتله شر. لا خير ولا شر. لأن قتله كان واجباً وضرورة. لا أكثر ولا أقل. ربما أحسست ببعض الأسف والأسى لأن قتله كان لا مهرب منه لأبقى حياً. كنت أريد أن أبقى حياً دون أن أضطر لإراقة دمه. أما وقد وقف في طريق حياتي. فليمحى من الوجود. كلا. لم يكن شراً. هل أنزله الإله ليشقينا به دون حاجة إلى إيلامنا بالضرب المباشر؟ لعله استكثر علينا صدقته؟ أو ربما غير رأيه. هو حر من يدري؟ ربما وسوس له الشيطان. هل كفر بنا؟ لو كان هناك إله حقاً فهو شرير.

- كلا. الشر كالشعر صنيعة أنفسنا بموهبة فزة.

- وبفرض. فلماذا نخلقه؟ بأي مادة؟ وبأي يد؟ أليس بمادة الشر الأزلي التي خلقها هو؟ وبأيد نفخ فيها من روحه هو؟ وأعطاها الممكن الذي طالما ذكرته لك. ونحن استغللنا هذا الممكن ببشاعة تفوق كل تصور. كل شيء يرد إليه. هو قال ذلك وردده بإصرار جميل. إننا عاجزين تماماً عن فعل خير واحد لذاته. لأننا ببساطة لا نعرف ما هو الخير.

- الإله لطيف. منحنا الحرية. نفعل بها ما نشاء. وعلى قدر مشيئتنا سيثيبنا إن جنة أو نار. وهبنا الحرية هل تنكرها؟ أجبني. سر معي بلا مراوغة ولنرى أي طريق نصل إليه بالاتفاق نتبعه.

- إلى هذه الدرجة أنت واثقة؟ إنك تخيفيني.

- سيشرح الإله صدري بالحق.

- من واجبي أن أحذرك، سوف تخسرين.

- سأكون لك.

- أريدك على ما أنت عليه. اني أكرر تحذيرك تراجعي عن تحديك.

قالت إناث مندهشة للغاية ويشاطرها الراوي دهشتها وأكثر:

- لماذا تحذرني؟ ألا تريدني بجانبك، على طريقك أنت؟

يحمر وجه ساشا ويتدفق الدم إلى أذنيه فيحرقهما. ولكنها لا تنتبه بدرجة كافية إلى ما انتبه إليه الراوي.

قال ساشا متحدياً بقوة:

- هيا.. إني أوافق. ولو أني أشك في الإيفاء بوعدك.

- ألست حراً. مطلق الحرية؟

- بلا مراوغة؟ نعم. إني بالفعل كذلك. هذا ما أحسه وأقرره لنفسي منذ زمان بعيد.

- ولمزيد من التأكد، فلك إن لم ترضيك الحياة، وجودك، أن تتخلى عنها. أن تطعن وجودك. تقتل نفسك. وتقول ملوحاً لنا: وداعاً. وثق أننا لن نراك بعد ذلك مطلقاً.

- كم تمنيت هذا. يا له من أمر رائع. بيد أنه واأسفاه غير صحيح. فقد حرم علينا الانتحار.

- ولكنه ممكن.

- وأخيراً تعترفين بالممكن.

- إن الحياة هبة الإله. والروح كلمته فحرمها.

- ولماذا يفرض عليّ كلمته؟ ألانه الأقوى؟ إني أسلم له إنه الأقوى، الأعظم. ولكن هل انتهت كلماته؟ دعيني أجيب. لا. فلم يصر على وجودي؟ هل يحتاجني؟ دعيني أجيب أيضاً. لا. وإن كان. فعليه أولاً أن يغير من معاملته لي. وأنا هنا أتكلم عن نفسي. لا عنك ولا عن أي أحد آخر. هل خلقني ليبلوني في امتحان وضع أسئلته هو ولم يك هو معلمي؟

- لا تذهب بعيداً. ابق معي.

- آسف. فكل الطرق تؤدي إليه.

كنت أقول إن لك أن تسبه إن لم يرضك. وأنت تكيل له الكثير منه، حراً غير مقيد بأوهى رباط. لك أن تكفر بوجوده. أو بأي صفة أو شيء يرجع إليه. وإذا وجدت على حال مهما كان فبإمكانك أن تغيره أو ترفضه أو تشوهه والوسيلة إلى ذلك غير محدودة. إذا لم تعجبك ذكورتك إلغها. إذا لم تعجبك الحياة فارقها. مت. صحيح أنه حرم الموت قتلاً [illegible] انتحاراً ولكنه على أية حال لم يحبسك في دولاب الدنيا إلى أن يقرر إخلاء سبيلك. ومادام قد هيأ لنا معنى الحرية فلابد

من موضوعات تشغل هذا الفراغ من معنى الحرية المتاحة. ففاضل بينها وفق تعاليمه.

ساشا: أخبرنا وعد أن رسولاً نزل على أجدادنا من قديم الأزل، لم يأت ليبين لهم طريق الشر من الخير بل حط عليهم بالخير لينهي شرهم. والذي لم يكونوا يميزوه عن سواه.

اناث: إن الشر مميز عن الخير بالسليقة. أنت في قرارة نفسك تحسي بذلك البون بينهما.

- حقاً إني أحس بالشر نائياً جداً. مبهماً وله قوة جاذبية آثره ولكني بقوة الفكر أعلم ذلك الفارق. أما عندما أقتحم الواقع ينقلب الأمر رأساً على عقب فلا أجد فارقاً بينهما ولولا القوانين والعقاب الإلهي ما كنا اعترفنا بالخير. ومن يمتنع – كل على قدر استطاعته – عن تذوق لذة اتيان ما ندعوه شراً فما ذاك إلا خوفاً من العقاب وآلامه، من العقاب ونتائجه. أيضعني الإله في الاختيار الذي لا أستطيعه وإن تمنيته؟ فحكمي غلط ونفسي غلط، ركبَها في الظلام. لماذا؟ إني لم أردها ولم أوكل من يطالب بها – بنفسي وبتلك الحرية – نيابة عني. أما الشر فهو ألفة نفسي وميلها فضلاً عن أن عطائه أكثر من الخير. ففوائده مرتفعة للغاية. ومادام كل الناس أشرار وبعضهم أقل شراً، أي خيرين، فيجب أن أكون أكثر من غيري شراً – أو بالأصح اقل خيراً – لأستطيع أن أجد لنفسي موطئ قدم في الصفوف الأمامية. ومادامت للشر الأكثرية الساحقة والصوت المسموع إذن فالخير مفروض علينا من عل، منه. أما الشر فقد سقى به قلوبنا وأغدق، الحقيقة أني لا أجد أبداً فيما أفعل أي خير خالص. إن الخير ليس نبته أرضية بالمرة. وأنا إذا كنت أعرف الآن أن الشر هو الذي ضد مصلحتي فإني لا أعرف شيئاً بالمرة عن الخير.

إناث: ولو بوسيلة غير مشروعة.

ساشا: أو مشروعة. فإني أرى ذلك العمل موجهاً ضدي يستهدف النصف الألوهي في نفسي. كما أني لا أحسن العمل إلا بما تسمينه شراً. إن نتائجه أكثر تمكناً على أرض الواقع مما تسمينه خيراً.

- إنك تشعر يقيناً بالفرق بين الطريقتين. لكنك لا تحفل وتعاند ضميرك لأن مصلحتك تتغلب على إرادتك. نحن نريد دائماً الخير

ونحبه ولكن نظرتنا الضيقة الغبية لمصالحنا تدفعنا للوقوف ضده أو، لضده.

ساشا: أوافقك. لأنهم علموني في بلادي وبدهاء شديد حب الخير وروافده. لأن الخير يخصم من جشعنا ويحد منه. وأؤكد لك لو لم تعلمنا السماء إياه ما كنا عرفنا له طريقاً. إنه هديتها الأفضل على الإطلاق لنا. كلا. لا أريد أن أتحدى بالباطل. إن نفسي هي التي أرادت وساعدي هو الذي نفذ بتفويض مطلق من ضميري وأخلاقي وديني وحبي، أنت. لأنها مصلحتي. ونموي. وبقائي. مصلحة ونمو وبقاء كل ذرة يشتملها وجودي ككائن واحد حي يرغب في الحياة ويحبها ويريد لنفسه طول العمر والبقاء. ولكن لماذا لا يتوافق الخير والمنفعة في اتجاه واحد؟ لم لا يتصاحبا؟ ذلك هو السؤال. ويمكن أن تعكسيه: لماذا يتنافران؟ وهذا التنافس فيما بينهما التضاد بين القاتل والمقتول من يُسئل عنه؟

تغلق إناث أذنيها ببطن يدها وتهز رأسها بعنف كأنها في زار شعبي وقد أطالت بعض الشيء، علامة على أنها لا تريد أن ترى بآذانها. استطرد ساشا بعد أن اتجه إليها وأنزل يدها قسراً:

- ليكن. إن الشر موجود. والإله يبعث بمن يقودنا على طريق الخير والحق والفضيلة. ودائما حق وخير وفضيلة. وهو الحق الأسمى والخير الأسمى إذن فالأساس هو أننا لا نعي هذا، أي أننا لسنا مجبولين على فطرته. ليس الخير والحق إذن من فكرة خلقنا في شيء. وإذن فالإله هو الأساس فإذا ألغي الإله انتفى الشر حتماً لأننا وببساطة لن نتبينه بدون كلماته. بدونه.

- يا لك من مجادل أحمق مخادع، طالما أن الإله هو الأساس. هو الخير الأعظم ينبغي إذن أن نحافظ عليه. لأن الخير خير للناس أجمعين. والشر يخص صاحبه..

ساشا: إن أعمالنا قسمين أما خير أو شر. أليس كذلك؟

إناث: نعم.

قال ساشا بدهشة:

- ألم أبين لك أن الإله انجلى لثامه عن أكذوبة. أكذوبة مكيفة الهواء. أكذوبة خلابة. مكينة، مجنحة؟

ويكبر بالكلمة الأخيرة ويرجعها مرات عديدة:

- هل تعلمين أن الإله أساء إلينا عندما أرسل رسله؟ عندما غير في النص والممثلين لنفس الفكرة بينما المخرج واحد. هو. وهو يعلم أن سماحة نفوسنا وهمية. وأن عقولنا تقتات على الأعشاب البرية. وأنه ليس بيننا خيرين حقيقيين. هكذا بمكر شديد بث فينا الفرقة والعداوة لبعضنا البعض. والتمس كل ذي رسول في هذا التغيير حجة يحقق بها مآربه وأطماعه وتفوقه على سواه. وعلى حساب سواه. وانجرف نفر من الصالحين بحسن نية مع التيار نفسه. وكان هذا أعظم انقسام بشري على مر العصور تحقق بفضل السيد / الإله. ثم أنه ما لبث أن أتحفنا بابتكاره الرائع بفكرة النخبة والشعب المنتخب على ما تؤمن به قبائل الخروج المتاخمة للوادي.

اناث: أصل الشر حاجتنا. ونحن نتنازل طواعية عن نصفها لأن الإله وعدنا بما هو أعظم وأغنى وأبقى. ويعدنا وعد إله. وهذا هو الخير.

إناث: أصل الشر حاجتنا. ونحن نتنازل طواعية عن نصفها لأن الإله وعدنا بما هو أعظم وأكثر وأبقى ويعدنا وعد إله – وهذا هو الخير.

ساشا: بحسب معرفتي عما يطالبنا به فلا أقل من أن نتنازل عن كل احتياجاتنا للوفاء به، أي عن الحياة نفسها، طالما بقي الإنسان محتاجا للكسب كي يعيش.

إناث: إنك واهم فيما ذهبت إليه فهو لا يطالبنا من أجل الثواب والعقاب في الأخرة بل من أجل حياة سعيدة للجميع على الأرض. "والسعادة للجميع" هى أساس الهناية الإلهاية بنا.

ساشا: لماذا إذن نصنع الشر؟ لماذا لا يكفي الخير وحده في قيادة عربة الحياة. لماذا لا يكون الخير ماديا، أكواماً مكدسة تفيض عن حاجاتنا؟

- هذا هو الاختلاف بيننا، ترى الخير والشر في هات وخذ. وفي المصالح والمنافع الضيقة. وهو روحاني، خلقي. أولاً وأخيراً.

- ومن أوجد روحي؟ هو؟

- إن الخير موجود في أرواحنا، لكنه واهن كالخريف. ولأن الشر قوي كالثيران. ولأننا جميعاً لسنا أشرار. فالشر قوي لأن هناك خير مستضعف. لماذا نلقي بالتبعة على الإله في كل نواقصنا. لماذا لا نبذل جهداً معقولاً إن لم يك لتنمية بذرة الخير في نفوسنا فعلى الأقل حفاظاً عليها كما هي. حفاظاً على حياتنا من الاندثار.

- ولماذا هو ضعيف مستضعف؟ لماذا؟

- إنه ليس ضعيف بذاته. بل لأن المؤمن علق أهدابه بالسماء. وبالإله تحديداً. ويتعشم فيه الكفاية في كل شيء. السلوى والعوض كما يقولون. فنهض الشر وقال ها أنا هل من مبارز. ولم يردعه أحد. وحين يقتنع الإنسان اقتناعاً لا تشوبه شائبة في جدوى اختياره فإنه لا يكتفي باعتبار الإله مكملاً له بل بديلاً نهائياً عنه وهذه زلة الخير الأبدية. يتجاوز دائماً باتجاه الحدود القصوى لتعاليم الرب. فإذا قال الرب يا عبدي اسجد دقيقة. سجد له ساعة. وإذا قال لبعضنا ادعوا الناس لي، أجلسونا على الخازوق حتى نقر بما لم يطالب به الإله نفسه. أنت نفسك ثائر طول الوقت. لا على رحمة الرب وإرادته. بل تريد أن تجلس معه، وتحبه وجهاً لوجه. فنقمتك نقمة محب لا كاره.

فوجئ ساشا بكلمات إناث الأخيرة. وشعر بها تهزه من داخله. بل شعر بألم خفيف في أحشائه. ولكنه مضى على ما هو فيه بلهجة أخف حدة وأقل وطأة على نفسه قبل أن تكون على سامعه:

- يخيل إليّ أن ليس بوسع الخير إلا أن يكون مع أو ضد السيد / الإله. وأنه ليس مهيئا بطبيعة خلقه على الوسطية. وما أسميته بخطأ أو زلة الخير الأبدية أحسبها أيضاً حتمية. وبهذا نعود إلى نفس الدائرة العبثية.

تتجاهل إناث كلمته وربما لم تفهمها. ولو أنها شعرت باقتراب اتفاقهما شعوراً غامضاً

اناث: ليس للخير تكالب الشر على الحياة وزينتها. فانزوى تاركاً الأرض يفعل بها الشر ما يشاء. ولأن الإله قال أنا الخير. والخير وسيلة محدودة للعيش في فترة انتقالية. فإن الخير أسرع يجهز نفسه للانتقال منذ الآن..

ساشا: تقصدين الخير وسيلة لمحدودي الدخل.

إناث: ماذا؟

ساشا: لا شيء. أكملي.

إنـاث: لا مفـر لأي مـؤمن حقيقـي أن يتقيد ويكـبح جمـاح رغباتـه ولهذا فالشر قوي لأنه لا شيء يحد من حريتـه وفرعنتـه علـى الأرض لا شيء يصبغ أسلوبه فالشر هو القائل الغايـة تبرر الوسيلة والخير قال أنا الوسيلة لرضى الرب. ولأن الطمـع يجبل نفوسنا نسرع بإلقاء كل المسئولية عن أكتافنـا إكتفـاءً بكتف الإلـه. ولأن فهمنـا قاصـر، لا نتقيد بـالمغزى الحقيقـي لكلماتـه. ولا حتـى نحـاول فهمهـا علـى وجههـا الصحيح. الكلي. وليس الإغراق في تفاصيلها.

ساشا: وأنا قلت إني إنسان. مخلوق وخالق.

تنظر إناث إليه بغضب.

ساشا: أكملي لا عليك.

إناث: على كل، فجميع المؤمنين ليسوا بمـؤمنين طـول الوقت. لا يمـر يـوم كامـل علـى مـؤمن أبداً. فالحاجـة، حاجـة الجسم للحيـاة بكـل طرائقها تتغلب وتظفر بحصتها الطبيعية أحياناً.

الطبيعة، نعم. والإيمان؟

- الإيمان ملخصـه أن يكون لك من كل حاجة طرفها. دائمـاً نصفها أو أقل. يجب أن نعتـرف بهذا ولا يخجلنـا اعترافنـا. يجب أن نعتـرف بـه ونعلنـه ويكفينـا إدعـاءً ومداهنـة للظـواهر. ونحـن نحتـاج للشر لأنـه يكفينا بين خلق ليسوا جميعاً أبرار. فالبعض مضطر إلى ركوب الشر والمؤمن يركب نصفه.

ساشـا: إذا كنـت تريـدين الحقيقـة الخالصـة فـالخير والـشر صـفات اجتماعيـة بحتـة لـسلوك بـشري طبيعـي. فالإنـسان مـثلا يـتكلم وهـذا طبيعـي ويـأتي الآخـرون ليحـددوا: فهـذه اللفظـة الحـاد. وهـذه اللفظـة إيمان. وهذه مخدشة للحياء. وتلك فيها فتنة. وتلك حب وهيام.

إناث، في حلقي سؤال لو أجبتني عليه ستنفك العقدة لوحدها:

- إسأل.

- هل يمكننـي أن أكـون شـريراً موحـداً. وبتعبيـر أدق: هـل يـربط الإله، برأيه هو، من وجهة نظره هو، بين الشر والكفر؟

- أهذا سؤالك. هل ستحيي الإجابة عليه العظام وهي رميم؟

- ربما. لا أبالغ أن قلت بلى.

ويفاجئها ساشا بلا وعيه المنفلت قبل أن تشرع في الإجابة على سؤاله بحركات وصوت المنجون دائماً. قال: سيأتي يوم لا محالة.

اناث: أي يوم؟

قال ساشا مستمراً في غيابه غير منقطع عنه وغير سامع لسؤالها المتكرر. تطور آخر لحق به في مرضه هذا. أصبح الآن يخلط بين الحاضر والغياب في الزمن. بعد أن كا يخلط الماضي السحيق بالمستقبل البعيد:

- خرج أحفادنا صغار البنية. أصبحوا في حجم الفئران. ولكنهم لم يشعروا بذلك التغير. شعروا بالضد أنهم عماليق. يقال عنهم: جهابذة علم. فيما أصبحت عقولهم في حجم البنايات الشاهقة ولكن اساساتها بقيت مقيدة على أوراق الرسوم الهندسية ولم تنزل الى الشارع قط.

كان في الدنيا وقتئذ لكل واحد ألف ألف حاجة. لم يكفي القانون ساعتها لسد الفراغ. والقضاة قليلون. من يحافظ على القانون. تجمهروا وتصايحوا على بعضهم كالغرقى في الطوفان الكبير. ودوا لو يسقطوه لولا جبنهم. كل القوانين تتصادم كالأحجار وتحترق بشررها قبل أن تحرق إرادتنا.

بحثوا عن الإله، المخرج الوحيد الباقي، القاضي الأكبر. لم يجدوا لأثره أي مظهر. لم يخلف وراءه أي حضارة. قال بعضهم: " كان موجوداً هنا قبل لحظات ". تلفتوا حول أنفسهم دون جدوى، قال آخرون: "لقد شاهدناه هذا الصباح متجولاً في حقول القمح". فتشوا في سنابل القمح وعبير النشادر وقطرات البول. وقيدوا في المحضر: " لم يستدل عليه ". خاف البعض. وشعر البعض أنه تيتم رغم أن والديه إلى جانبه يمسكان به كل واحد بيد. ما الحل؟

صنعوه وعبدوه. كل أمه صنعت لنفسها إله. وخضعت له بمحض إرادتها لم يستطيعوا مواصلة السير بدون رفقة إله، أي إله. ثم أصبح لكل فرد إلهه المقرب وكاتم أسراره. يعفر رأسه تحت قدميه. يبثه همومه وشجونه وإن لم يعجبه أكله. ذلك الإله هو: نفسه. وهي أيضاً كعبته. المشكلة هي الآخرين يجب أن يعبدوا ما أعبد وإلا فالويل لهم ولأقمارهم.

ساشا: " مستمراً في غيابه " وصار الإله ذكرى. لأنه في الواقع إله غير فعال، سلبي. الإله هو الاسم والعنوان الصحيح لمعنى ضياعنا. قتل وعد. والكيذبان أفلح. قتل رسول معناه بين آلهة الأرض الصبية المتكاثرين إعلان حرب. سيل العرم. ولكن إله السماء والأرض لم ير في قتل رسوله شيئاً يثثيره. لماذا لا يتكاتف البشر لأجل حياة سعيدة للجميع؟ لماذا لكي أنجح يتحتم علي أن أهزم الآخر. أسقطه وأمر. هل هذه من قواعد الحياة الأساسية التي وضعها الإله شخصياً؟ لكنهم ليسوا متأكدين من أنه لا إله هناك.. ربما يقبع بين السحب أو في جوف كل واحد على حده. من يعلم. شك تخبط ضياع. قتل "وعد" (يبكي) وهم في بلادي حيث قضى وعد نحبه. أعلنوا الحرب عليه. ألم يقتلوا رسوله. وسحقوا كلماته بالنار على ألسنة من رددها. وانتصروا لأنه لم يرد لهم الصاع صاعين. ثم إنه سكت حتى بادروه باللطمة الدامية. نكس رأسك يا إله. واخجل. واأسفاه لا يعرف الخجل. سيأمرنا.. لا. لن نخجل بدلاً منك. لا. ولن نعبدك مواساة لجراح قلبك وكفرياءك. يعدنا برسول آخر. آسفين، لا نريد. هدد الملاحدة الكفار وعد بالحريق: عد من واحد لعشرة. لم يستسلم وعد. فكيف إذا ما توعدنا الرب بعذاب الحريق أن يتوقع أن نسلم له ونستسلم، إنها مسألة مبدأ. ما كان يجب أن ينطلق من منطلقات أنصاف الآلهة. ولا أن يسلك سلوكهم. هل يقلدنا؟بل أنه لا يستطيع حتى أن يجاريهم. حتى لو عاد وسحقهم بعد آلاف السنين بأظافره المتكسرة فإنه إله، إله. ألا يفهم؟ ما كان له أن يدعهم يحرقون رايته. هم انتصروا عليه وقضي الأمر. انتصروا لأنه أراد لنفسه الهزيمة. لا تتوقع منا أن نعذر أو نقدر أو أن نفهم دوافعك النبيلة، حين قبلت بالهزيمة على النصر. كم مرة هزمت يا إله. أنا حائر. أأحزن لأجله أم أشارك إخوتي الآلهة الصغار نشوة انتصارهم عليه؟ حتام يا إله تتمترس خلف ردود أفعالنا؟ يعود ساشا إلى نفسه وإلى الإحساس بالمحيط حوله على وقع خبط. كانت إناث تضربه بقوة بمقشة من سعف النخيل وهي تردد منذ زمن: زن. زن.

بينما كان يسعى وئيداً ويديه مصلوبتان إلى جانبيه في تعرجات والتفاتات وانحناءات وانتكاسات وتشنجات بخواطره المسموعة.
وحالما يلتفت إليها تقع المقشة من يدها وتتعثر برجفة الرهبة العتيدة.
قالت إناث باكي: سممتني. سمك يلتهم الحقيقة.
قال ساشا غير مدرك جلية الأمر ويظنها تتكلم عما انتهيا إليه قبل توهانه الغريب: إلى هذا الحد هي ضعيفة؟
- عما تتكلم؟
- يد الخير.
- ما تقوله ترهات سكران وهرطقة بسبب صدمتك فيما جرى لوعد. ولكن نفسك طيبة واستعدادها للخير واضح. ولسوف تبقى النفس الأكثر صلاحاً وتقوى دوماً أقربها للانكسار والتفتت.
- بل اقتنعت. ستكونين معي. أليس كذلك. كوني معي. قولي إنك معك. أتوسل إليك. قوليها. لا أقدر على العيش من دونك.
قال إناث صارخة: لماذا؟ هناك إناث غيري كثيرة. اذهب واخطف لبوه من تحت سيدها لو تقدر. وحذار أن يراك لأنك لست منافساً كفئاً له. تريدني أنا؟ لماذا أنا بالذات دون الآخريات؟ إن الغابة ملأى بالإناث.
- نعم. أنت بالذات. وأنت الأكثر دراية مني بالسبب. لأنك لباسي هنالك، في الغابة، كما أشرت، كل سيد وله زوجته و أنا..
- وأنا من تريدها لا زوجة ولا شريكة حياة بل لتتسيد عليها. او لنقل باعتباري الإضافة الحتمية لجنابك. فأنا مسخرة لك كأي شيء. كالمراكب. كالماء.كالهواء. مسخرة لمتعتك ولأعقب لك. متعة أخرى. لأحمل عنك هزائمك ولأنفض عن حذائك التراب وأحياناً أنفق عليك من مالي الخاص. وما عملي داخل البيت إلا لأجلك أيضاً. وألعق عضوك بلساني قبل وبعد شاكرة ساجدة لجلالك. وسوف تسمح لي أن ازعم أني أعقب لنفسي وأتمتع بك وأعمل لأني أريد العمل وأرعى البيت لأني أحب النظافة ولن تسمح بأن يكون لنا رأيان وستقول: "تكلمي يا حبيبتي كما شئت فلن يكون إلا ما قررت". وأخيراً فإن لي أن أفخر بإذنك طبعا بكوني الإضافة الحتمية لسيد الخلق أجمعين. لا. هذا لن يكون.

قال ساشا متوسلاً، مستعطفاً:"بل أنت سيدتي".

قالت إناث ساخرة. مغتمة: "هراء. لماذا تعكس منطق الطبيعة والفطرة؟ فطرة الممكن بالفعل. أنا سيدتك؟ سيدتك حتى متى؟ ومنذ متى؟ حتى أذعن. حتى لا يبقى بين مسام جسدينا فاصل. حتى يتلاطم جسدانا ببخر آهاتنا اللذيذة. سيدتك لأني بعيدة. نجمة في السماء لا تطولها يدك. أما عندما نتعانق كالكلاب وتنظر إلى نفسك فتجدها فوق وأنا تحت.. تحت. فسوف تقول ها هو مكانك الطبيعي. ابق عليه.

وعندما أصرخ: " لنتبادل موقعينا " توافق بامتعاض. لحظات، ونعود إلى ما كنا عليه. أنت فوق وأنا تحت. أصرخ. استغيثك. لا ضمني أكثر. لا. أكثر قليلاً. هيا. هيا اطرق الباب برفق وادخل بقوة. وأظل ممسكة بك أدعو: لو نبقى للأبد هكذا. ولكنك انتهيت وارتخت ذراعاك ونامت المسلة. والأعمال تنتظرك. حينئذ تصير سيدي. زتعلن على الملأ أنك خدعت وأن نجمة السماء الغالية ، المتوهجة، انطفأت بين يديك في أقل من دقيقة. وأن المرسوم منها في دفاترك أجمل وأبقى. وهكذا اخترعت الفن. وأنك سيد الآله بالأمر الواقع. وأني تآمرت عليك. اركع. هيا أبرك تحت قدم جاريتك. اركع كما يركع البشري الحقيقي أو المزيف للإله الحقيقي أو المزيف عندما تتحقق دعواته الحقيقية أو المزيفة. آه، اسمها مطالب. التماس. عندما بعث للإله عوضاً عن صلاة كريمة، خاشعة، نتفه من لحم مطلبه الذي تحقق. وبعد أن يمصمصه يقذف بعظمتها في وجهه. لماذا نفهم الأمور بأقل من نصف ما هي عليه فعلاً، دائماً. لماذا؟

تضيف إناث مهددة. مستثارة للغاية:

- إذا لم تركع أمامي حالاً..

وقبل أن تتم تهديدها يجثم ساشا تحت قدميها كالمقهور بالسحر أو بمارد السلطان بمشاعر متلاطمة. وكان حتى هذا الوقت مبهوراً مبهوتاً يرى إناث جديدة، قوية. يتوسل إليها باندفاع.

- أنت سيدتي. الآن وفي كل وقت. لو لم تكوني لأخذتك عنوة ويمكنني بالقليل أن أتمطع في مجالك الخاص وهو رحيب.

قالت ناث، هادئة: على رسلك يا خليل السيد / الإله. انهض. هل مات الآخرون. هل انقرضوا. انهض قلت لك. انهض يا سليل

الحضارة. انهض من تحت أقدام راعية الغنم الملّوثة بأحلام العذارى الجبلية. انهض واقتتل معهم. ليس من أخلاق الفارس أن ينسحب من دائرة الوغى وهي قيد الاشتعال ولو كان هدفه الذود عن ممتلكاته ونسائه. انهض وبارزهم. اشتبك معهم واحصل على يدي بدم سيفك. انهض وخذ مكانك بين الأسود.

ساشا: إناث، تعالي إلى صدري. صدري مفتوح على مصراعيه لك. هيا ادخلي فيه. تعالي، إناث..

إناث: اذهب قلت لك. سوف أسلم نفسي للأقوى المنتصر هذا وعد. ولن يمسني من الآن فصاعداً لا قضاعه ولا جنس مخلوق وسأحفظ نفسي للفائز الوحيد منكم أياً كان.

ولم يكد ساشا يخطو إلى استعادة رزانته المعهودة حتى يدخل قضاعه منبهاً على قدومه من نفس مكان دخول كاروا، مقتحماً متهللاً يصيح بحيوية فائقة ونشاط غير عادي: وجدته. وجدته.

يجفل ساشا بداية ثم يدير إليه رأسه وانتباهه.

كتب الراوي في دفتر ملاحظاته:

إن حظ ساشا في الحياة، هو المغرم بها، قليل. فكلما اقترب من لحظة التطهر والرؤية السليمة وأوشك المجد البشري على استعادته إلى صفوفه. إلى درجة متقدمة منها. إلى عالمه الرحب وإن ضاق في شكله كخرم إبرة، لا بالسفاسف والتفاهات التي داوم على ترديدها منذ لقائه بإناث. بل بأفضل ما هو عليه فعلاً، حدث ما رده عنها. حدث ذلك مرات عديدة في حواره البائس مع إناث إناث التي داومت على الغناء بالضد من ترنيماته النازفة، النزقة. ولم تلاحظ ما نبهنا إليه من سوء حظه.

ساشا: ما الذي وجده سيدنا ويسعده إلى هذا الحد؟

قال قضاعه ولم تزل تتقاطر من وجهه غمرة السعادة: الطريق إلى معبدنا يا خليل السيد/ الإله. نفق طويل تحت الأرض ممتد إلى خارج سور المعبد بثلاثمائة قدم أو نحو ذلك.

امتقع وجه ساشا. كان قد بيت النية على اكتشافه لنفسه. أو بيعه لقضاعه في أسوأ الأحوال. والآن – بهذا الحدث – انقطعت صلاته بحورا وخسر أرباحاً محتملة. وفكر، بالنسبة للأرباح وتعويضها فلهذا

تدبير آخر، مازال ممكناً تحقيقة من نفس المشروع الذي لفظ أنفاسه منذ قليل، من حواشيه، من فضلاته، من أصوله الثابتة. وابتسم معجباً بفكرته. لا يجب أن يموت شيء دون اعتصار فوائده حتى آخر قطرة. حتى يصبح عدم. أما حورا واتصاله به فلابد وأن تكون تلك مشكلة حورا لا مشكلته. ليتركها لصاحبها يتصرف فيها بمعرفته. وهو واثق من أن حورا سيجد حلاً ما.

كان ساشا يود بقوة لو يسأله أو يتأكد إذا كان النفق المكتشف يتصل بالقصر في آخر امتداده. ولكنه أمسك بتقدير رائع لعواقب هذا السؤال.

قال ساشا متصنعاً الطرب، مشاركاً سيده فرحه: هذه خطوة نحو النصر. مبارك لمولاي قضاعه.

يتمتم قضاعه في هم مباغت: أجل. خطوة ثانية يا وجه الخير.

- مولاي. ماذا بك؟

- أوه، لا شيء. كنت فقط أفكر فيما عسى أن يكون عليه حال حورا الآن. وما يزمع عمله. اعتقد أنه سيأخذ بعض الوقت حتى يتنامى إلى علمه نبأ موت كاروا. واكتشافنا لموقع النفق الملعون.

- مولاي. لقد سلمتك السماء – بموت كاروا – وباكتشاف النفق زمام المبادرة فلا تفرط فيها. إن النفق يدل ولا شك على نواياهم اللئيمة ضد المعبد.

- ولكنك لا تعلم حورا. حورا ليس بالخصم السهل أبداً. سلني أنا عنه إنه عدواني بطبعه. يجب أن نسرع ونبادره بخطوه ثالثة ونقضي على رأس الحيّة قضاءً مبرماً.

ساشا: في عقر داره.

قضاعه: بالتأكيد. طالما ثمة مفاجأة فحقلها الخصيب هو دار الخصم حيث تتشتت النفوس وحيث أكثر من شيء يخاف المرء عليه وتنازعه نفسه البقاء بجواره ساهراً حامياً. والجندي وقتئذ ممزق الخواطر، خائر العزيمة، وأكثر مسارعة إلى الفر من أي وقت ومكان آخر وبظنه أنه يعرف من أماكن الاختباء ما لا يخطر على بال أحد. بدلاً من الاستبسال والظفر متأثرا بسعي العوام من غير الجنود للهروب والنجاة بأنفسهم. على أرضه، يلتحف العدو بالشتات

وتجتث البسالة من الصدور ووقتئذ يمكن أن نلجأ إلى شيء من قبيل: من أغلق عليه داره فهو آمن.

قال ساشا مخادعاً: مولاي. هذا تعجل في غير محله. كما أننا بصدد الاحتفال السنوي بالحداد على أرواح الآلهة الشهداء.

قضاعه: لقد قررت أن نبدأ الهجوم بعد الانتهاء من مراسم العيد مباشرة

ساشا: في أي يوم يا سيدي.

قضاعه: ستعلم في حينه.

إن ساشا شخص علمته التجربة مكامن الحنكة والمهارة فهو يحرض. سيده على المبادرة بالهجوم وبعدها بدقائق يعود فيوجهه إلى التريث ويحذره من مغبة التهور وهو في كلنا الحالتين صادق مقنع ولكن ما يميز هدفه المزور من الحقيقي هي طريقة التوصيل. وروح الكلمات.

ساشا: كنت أريد أن يطلعني مولاي بخصوص بعض الأشياء المهمة عن استعدادنا وما إلى ذلك. ليطمئن قلبي إلى ما نحن سائرون إليه. وربما استطيع إفادة مولاي ببعض الأفكار الجديدة..

قال قضاعه مقاطعاً. شبه ناهراً إياه بفعل الحماسة: كفى. تعالى معي. سأريك شيئاً ما رآه قبلاً أحد سواك.

ساشا: والسيد/ الإله؟

قضاعه: طبعاً طبعاً. إنه هدية منه على أي حال.

يخرجان في مرح.

قالت إناث تحدث نفسها. بعد لحظات حيره:

إناث: هؤلاء الثعابين هم رؤوس الأفعى / الشيطان. يجب أن ينمحوا من الحياة. يجب أن يتركوا الحياة لمن يستطيع أن يعيشها. لا أن تعطي للذي يدمرها. يجب أن نقطع رأس الحية. ولنرى بعدئذ كيف يسير الشيطان، عديم البصيرة، دون رأس، بلا فم أو عين.

وتصيف باكيه: لكنهم سيقضون على بعضهم البعض وسوف تكون الضحايا من الأبرياء خلق كثيرة. وأنا أضعف من أن أوقف شلال الدم القادم. من أن أتكلم. أو أفصل بينهم أو حتى أكون ضدهم.

فليـصفوا أنفـسهم إذن حتـى لا يتبقـى مـنهم إلا خلاصـتهم، المنتـصر.
وحينئذ اقتله وأقتل نفسي. ولنترك الحياة تمضي خالية من شياطينها.

المشهد الخامس عشر

نفس مكان المشهد الحادى عشر. القاعة الرئيسيه من منزل قضاعه. ليلة العيد. قضاعه متكئاً على مقعده يتأمل فى الفراغ. ثمة بعض الحرس فى الخارج نستمع لصليل أسلحتهم أحياناً، ولبعض أحاديثهم الشخصية أحياناً. ونفهم أن الإنضباط العسكرى مازال فى مهده فى وادى الرعاة. نستمع أيضاً لتراتيل دينيه مستمره فى الخلفية أظهر وأوضح لنا حتى من احاديث الجند. إنها ليلة الإحتفالات العظيمة بالآلهةالشهداء الذين أفدوا بنى الإنسان بحياتهم.

قبل أن يدخل ندشب مقتحماً يتأتى إلى مسامعنا أمره للجند دون تعنيف كبير إلتزام الصمت.

ندشب: مولاى، إصطاد رجالنا اليقظى رأس الأفعى

ينتفض قضاعه وهو يسر لنفسه غير مصدق: حورا؟

ويزعق فى ندشب متوتراً: هاته.

ثم يتابع محاولاً الهدوء:

- إسمع، أريد قبل أن تحضره أن تقف فرقة كاملة من الحرس فى خارج هذه القاعة على أهبة الإستعداد، وأن تكون انت واقفاً همزة وصل بينى وبينهم. إياك أن ترخى عينيك من فوقى لحظة.

قليلاً ونرى بالباب حورا وهو يغلق الطريق على ندشب الذى أراد أن يتقدمه إلى سيده وينجح فعلاً فى إعتراضه ومن ثم إستباقه إلى قضاعه رغم أنه كان مكبلاً بين حارسين أشداء من خيرة الحراس فى المعبد. ويستقبله هذا بغرور وترحيب كبيرين.

قضاعه: اهلاً ومرحبا حورا.

ويضيف مخاطباً الحراس بنبرة إدانة وتوبيخ:

- دعوه. وفكوا قيوده.

ينفذ الحارسان أمره ويتحولان إلى جانب مولاهما موجهان نصل أسلحتهما إلى صدر حورا نظر قضاعه إلى حارسيه ممتناً وقال:

- عذراً حورا ظنوك لصاً متسللاً. وهما على هذا معذوران لأنك لم تدخل من الباب؟

بعد دقيقة نرى خلالها حورا يذرع القاعة جيئة وذهاباً متوتراً لأقصى درجة. وقضاعه يترقب حديثه بحساب وضعه الجديد كأسير لديه

حورا: غير الباب الذى أغلقته سيكون هناك دائماً منفذ إليك. انت لم تردم إلا البعيد. إننا أقرب إليك من حبل الوريد. من دمك الكريه.

قال قضاعه متلطفاً بعد هذا الرد الحار، ساخراً:

- لكنك حضرت سريعاً. بصراحه، لم اتوقع أن تجئ البته، لا من باب ولا من شباك. كان يكفيك أن تأمر باستدعائى فأكون ماثلاً بين يديك فى أقل من دقيقه.

حورا: هل تتصور حقاً أن جندك أسرونى. خسئت؟ أنا فقط أحببت أن أقدم عليك من الطريق الذى قدمت منه لأوصل إليك رساله معينه وأرجو أن تكون قد وصلتك. أنا من طلب إلى الحراس أن يقتادونى إليك لكنهم تكاثروا علىّ بغتة وقيدونى. الأوباش. ولقد عاقبت نذالتهم وغدرهم وقتلت كبيرهم.

ينظر قضاعه إلى ندشب متسائلاً فيهز هذا رأسه مضطرباً نافياً ما ذكره حورا.

فى الحقيقة عندما أرسل حورا إبنه للقاء ساشا وانتظر عودته متفرغاً من كافة مشاغله على نحو استثنائى مما ضاعف من ثقل الإنتظار ومن سرعة إحتراقه فمرت الساعات بطيئة ثقيلة وانتهى اليوم واليوم التالى ولم يظهر لكاروا أثرا. لم يحدث حورا مخلوقاً بهذا الشأن وتظاهر بأن كاروا قد خرج من الديار فى مهمة تتعلق بالمصالح العليا للوادى قاصداً قبائل الخروج واكتفى بأن شرح المسألة لعفريت على طريقته طالباً منه تقصى الأمر بنفسه. وفى المعبد على وجه الخصوص. وخلال بضعة أيام قدم له عفريت تقريراً يفيد بأن خليفته كاروا حى مأسور فى المعبد نافياً قتله أو دفنه حياً، كان العيد باق عليه يوم آخر فانتظره على مضض. وإنتهز فرصة إنشغال قضاعه بالإعداد له. وكان هذا الأخير مهتماً بإخراج الإحتفالات هذه المرة بحلة لم ير مثلها قط شعب وادى الرعاة. وقدم على قضاعة بمفاجأة عظيمه.

قال الراوى:

- متى نكف عن الحاجة إلى هذا التعبير: " فى الحقيقة "؟

قضاعة: لقد فاجأتنى تماماً بحضورك شخصياً يا حورا، خصوصاً بعد أن جربت واحداً من أقوى رجالك وأهمهم على الإطلاق. حضر ولم يعد، خساره.

قال حورا مقتحماً صلب الموضوع مباشرة: قضاعه أين كاروا؟

- عند السيد/ الإله.

رد حورا بقوة. بنفاد صبر: دعك من المزاح المقيت فلن تقدر على إعالته. أخبرنى أين كاروا.. ولدى؟

- رحل. كاروا رحل.

قال حورا بدهشه: رحل؟ متى؟ آه، رحل هو وحضرت أنا. أفخ هو؟

- إطلاقاً وحاشا. إنها لعبه

قال حورا فى إزدراء وسخرية: إستغمايه هزليه سخيفه، مؤلفها صغير..

- لا تتسرع وتشتط يا حورا. إن مؤلفها هو السيد/ الإله.

أضاف حورا بنفس اللهجه، ساخراً : وهو البطل.

- وهو المنتصر دائماً. نعم.

- إله فاشل، كتاباته رديئه. ودوره مخنث. ليس موهوباً بالمره.

- يكفيه أن يكون الخالق.

- الإراده وحدها لا تكفى لأن يخلق النحات الفاشل من الحجر خلقاً جميلاً، بل إنه يشوهه وربما حطمه: وحتى لا يوجد أدنى أمل بإمكان تقدمه فيما بعد. فالموهبه لا تصنع بل توهب. وساخرج أنا على قواعده التى لم يستشرنى قبل أن يقررها، قاعدة فريدة لا نظير لها ولم يحسب حسابها. والآن؟ أين كاروا يا قضاعه؟

- حسناً - ما دمت مصرا – يؤسفنى ان أبلغك وما كنت أود ان أزف إليك النبأ بنفسى. إن كاروا مات.

صدمة لم يتوقعها حورا أبداً فراح يزأر: كاروا مات؟ قتلته يا كلب. أوتقتل سيدك وابن ولى نعمتك.

إهتز قضاعه شيئاً ما، وأحسها حراسه وجنده الذين إستغربوا هذا الضعف المستتر أمام حورا، أسيره. هم على أية حال يرون قضاعه رقم واحد في الوادى. وأضعفهم إيماناً به يحسبه رقم واحد مكرر.

قضاعه: سيدى لا تتسرع وتخطئ.

حورا:حتى الأسر إستكثرته عليه؟ إلى هذه الدرجة شق عليك اسره؟ كلا. إنك لم تفعل. لا تجرؤ على شئ من هذا القبيل. لا يمكنك، أنت جبان.

قضاعه: عفواً سيدى لم تربنى على المساومه.

قبل أن يتحرك حورا من مكانه بدافع من قوة هائلة لا يستطيع السيطرة عليها يرى ندشب وجنده مثابراً على أهبة الإستعداد فيمسك على ما هو فيه.

قال الراوى:

- من الواضح أن الحرب النفسيه بين القطبين كانت بالإيماءة أوضح منها بالكلمات الصريحه المباشرة.

قال حورا غالاً بحقد: لك هذا. لم لا تنهض وتنظر من النافذة يا خليل السيد/ الإله؟

يطل قضاعه برأسه دون ان يتحرك من مكانه إلى صفحة السماء مباشرة فيرى القمر بدراً.

قضاعة: هل يروقك منظر القمر الليله؟ حقاً، لم أره بازغاً بمثل ما هو عليه من بهاء وصفاء قبل اليوم.

قال حورا كمن يحدث حسه ناظراً من فوق أكتاف قضاعه للسماء:

- حقاً إنه فى أبهى حله له الليله.

- ما هذا؟ أنعى إليك ولدك فتدعونى إلى ملاحة القمر. اى تهريج هذا؟ لهو بلهو دعنى أقول: مازال لدينا أشياء نشترك فيها.

رد حورا بجبروت: قم وانظر على الأرض.

ينهض قضاعه متثاقلا يستند على الحربه بعد أن أعطى بعينه لندشب أمراً بالإنتباه.

قال حورا: لا تخف. انظر جيدا. خذ وقتك.

صرخ قضاعه فزعاً: ما هذا؟ حصار؟

قال حورا راضياً متشفياً:

- إعصار. عشرة ألاف مقاتل. كل الوادى، جموع من الرجال الأشداء وبحر من النساء، والغلمان والعبيد، مسلحون بالنار والحديد. وبلسانهم أزفك بالبشرى، لقد خلعك السيد/ الإله واختار كاروا رسولاً له بدلاً منك.

قال قضاعه بفرح: كاروا مات.

قال حورا مناوراً : سلمنى كاروا. إنى لم آت لحربك. بوسعنا تدارك الأمر

رد قضاعه كالمتندم: كاروا مات.

إصغ قضاعه. إذا لم تخرج لى كاروا أو جثته، ما دمت تدعى موته، هدموا المعبد، عش الحيه، على من فيه.

قال قضاعه ملاحظاً بذكاء:

- يحاصرونى وقائدهم، رئيس الوادى ذاته فى يدى. هل يضحى المرؤوس برأس قائده تحت أى ظرف. إقبضوا عليه.

يحدث هرج ومرج وفى النهايه يلتم حول حورا مجموعة حراس يعيدون تكبيله بقوه قبل أن يفكر فى أى عمل آخر. وبإشارة من قضاعه يعود كل إلى مكانه. اما قضاعه الذى أمن تماماً على نفسه فقد سلم ندشب الحربه وراح يصول ويجول فى القاعه أمام أسيره متقاطعاً مع نفسه كخطوط الغاز المتاهه الى أن قال:

- إهدأ يا حورا. لا فائدة من مقاومتك.

يهدأ حورا بسرعه لم يتصورها قضاعه.

حورا: اعلم أنها إذا كانت الوسيله الوحيده للنصر فلن يترددوا بالتضحية، ولو بالرئيس ذاته.

قضاعه: إذا فعلوا فبناء على أوامره؟ وأنا لن أمكنك من ذلك. لن أعطيك الفرصه أبداً.

حورا: وأنا لم يعد يهمنى، كل أملى الآن ما عاد يتجسم إلا فيك. إلا أن أراك مصلوباً على سواعد من رفعوك، وأشلائك تتطاير فى الفضاء كالهباء. أن أراك تتهاوى ككتل الرمل الذى أراد أن يكتسى بالصخر.

قضاعه: أملك يكاد يكون معدوماً. سوف تموت قبلي على أية حال. وكل ما ستناله وأنت تودع الحياه مجرد أمنية فارغة بأن ألحق بك بأسرع ما يمكن.

حورا: لم أعد أحفل إن أموت أو أحيي. بل إنى أنشد الموت. سوف تغرق معى لا محاله فحياتك مربوطه بحياتى ولا مجال للفصل بينهما. كم ستستمر فى إحتجازى، يوم؟ يومان؟ فى النهايه سوف يهجمون.

قضاعه: فى هذين اليومين أستطيع أن أفعل الكثير.

حورا: تستطيع أن تقتلنى. فكأنك تقتل نفسك، لا شئ غير هذا. وأنت مغرم بالحياة، ولن تقامر لتتأكد من صحة قولى.

قال قضاعه مذعوراً: ولكنك ستعيش.

ولكى يقاوم الخوف الذى بدأ يهاجم قلبه وينهشه أضاف بلا تفكير: سيدنا/ الإله أقوى. سوف يفك الحصار وينصرنى.

حورا: صدقت؟ لم لا تصدق أنت أيضاً لعبتك. ألم يصدق وادى الرعاه من قبل؟ ألم يستنكروا الحقيقه لما صارحتهم بها. يا للإنسان الهش.

قضاعه: ما سر زهدك المفاجئ حورا. لا أصدق أنك هو، حورا الجبار. هل أفقدك فقد كاروا توازنك أم هى خدعه أحكمت نسجها؟

ويستدرك بعد لحظات مفكراً. مشيراً إلى شعب وادى الرعاة:

- إذا كان كلامك صحيح. فكيف هم هنا؟

حورا: هم هنا لأنى هنا. هم هنا بإرادتى. هم هنا واقفون تحت عباءة سلطانى يقودهم الخوف والرجاء واللجام بيدى. ومع ذلك دعنى أخبرك سراً، لولا أنى غافلتهم بسرعه لأقول أن السيد/ الإله عزلك بدلاً من أنه غير موجود لواجهت إنشقاقا خطيراً يصعب السيطره عليه. لم يكن ممكناً توحيدهم ولا قيادتهم إلا بزعم رفتك انت وبقاء السيد/ الإله. لا تنظر إلى أتباعك، فلم أكن أعلم شعب وادى الرعاة بالنبأ وأحشدهم إلا قبيل مجيئى مباشرة. يبدو أن الناس يعوزها التجديد باستمرار حتى فى رسل السماء. اعتقد أنهم فرحوا وتقبلوا عزلك بسعاده. وبعضهم هنأنى مهللاً على حسن إختيار السماء لبديلك، كاروا.

قال قضاعه ثائراً:

- إفك وضلال. إنى رسول السيد/ الإله المختار. إنى الناطق بلسانه المعبر الوحيد عن مشيئته. كيف صدقوا؟ كيف إنخدعوا؟

قال قضاعه ساخراً:

- أوحى إلىّ كما أوحى إلىّ منذ ثمانية عشر عاماً أنك رسوله. هل نسيت؟

قال قضاعه متداركاً فى خضوع:

- سيدى حورا، ثمة سوء فهم ولبس شنيع. عد حورا الذى أعرفه وسوف نتفق.

قال حورا قاطعاً: أعد إلىّ كاروا.

قضاعه: كاروا مات، ألا تفهم؟ يمكننا أن نتدارك الأمر والوقت لم يأزف بعد والفرصه مازالت سانحة. مولاى حورا، لقد كنت فى طريقى إليك ولكنك سبقتنى. سلنى لم؟

يصمت حورا مبدياً بالإيماء إستعداده لأن يسمع. ويكمل قضاعه:

- لأسلمك قاتل اخى العزيز كاروا. لقد كنت عند الشجره المباركه حين سمعت كالأخرين بالنبأ المشئوم. وأسأل من شئت. أنا فقط لم أرد إبلاغك بوقتها حتى أتبين المجرم الذى سولت له نفسه أن يغضب السماء بهكذا جرم.

قال حورا زاهداً: ومن قتله؟ السيد/ الإله أليس كذلك. أنت أو هو سيان.

قضاعه: بل قتله العبد الأجنبى..

قال حورا مقاطعاً بحسم:

- كذاب، ساشا، محال. إنك فى دائرة مينوس الخروج منها ولكنك ما إنفككت تحاول خداعى حتى اللحظه الأخيره.

قال قضاعه فى حالة لا يحسد عليها، متخاذلاً:

- لماذا لا تصدقنى. لماذا تأبى أن تصدق أن هذا العبد الملعون هو قاتل ولدك، سيدى كاروا.

حورا: أيها الوغد اللئيم، إنك تؤكد المرة تلو المره خستك ودنائتك. أتريد أن تنسب زهق روح كاروا إلى عبد؟ كن شجاعاً مرة واحدة فى حياتك وواجهة الأمر الواقع بشرف. ولماذا يقتله ساشا؟ أكان غريمه؟

ساشا معنا، يعمل فى صفنا منذ البدايه. أنا دسسته عليك ليراقب نواياك الآثمة. ولطالما تمنيت أن تخيب ظنونى. وما جاء كاروا إلا للقاء ساشا باتفاق مسبق.

جن جنون قضاعه لما إنكشف له وجه ساشا الحقيقى – كان يشك فيه وراقبه فترة لكنه أبداً لم يستطع إلتقاط الخيط الصحيح. أما حورا ذلك المحارب العظيم الذى لم يعرف فى حياته إلا طعم الإنتصار وطعم الظفر فإن ما كان يهرى قلبه ليس مقتل كاروا، إبنه، بل كاروا خليفته.

ما كان يؤلمه فعلاً: هزيمته. وممن؟ ممن أخذ بيده ووضعه على بداية الطريق، وكان ما يزال حتى الأمس القريب يشعل مزيداً من الشموع على طريقه. ومع أن حورا كان يسلك سلوكاً بالغ النرجسيه حتى ليظن كل من يتعامل معه، وبضمنهم كاروا نفسه، إنه لم ولن يحب إلا نفسه، غير أن هذا كله ظهر فى النهاية على حقيقة مغايرة فلم يك إلا قشرة صعبة تخفى وراءها وجهاً إنسانياً عادياً. بعد إنهيار خط دفاعه الأول، المنيع، المتمثل فى كاروا لم يعد بنائه الضخم لسلطة مطلقة بدون وريث يمثل له أى قيمة.

قال قضاعه متعثراً فى ضيق الوقت والمفاجأة والحقد على ساشا بينما يقاطعه حورا دائماً فيزيد من شقائه وإحساسه بالعجز: الخائن. سيدى حورا، انصت لصوت العقل واصرف جندك. يمكننى أن أعوضك ما شئت عن فقد كاروا ولو أن ذلك لم يك مسؤليتى..

حورا: انصت؟ تقول انصت؟ كيف انصت وقد سلبتنى أذناى غدراً.

قضاعه: بل إنى أعتبر نفسى مسئولاً لأن الجريمة وقعت فى معبدى.

حورا: معبدك معبدى. هل تذكر؟

قضاعه: مولاى حورا، هبنى إنتباهك لحظة.

ويضيف متعجلاً: ساشا صنع لى أسلحة لمحاربتك و..

حورا: بل أجبرته. اتحسب أن البطل يصير بطلاً لمجرد أن ضحى بحياته فى سبيل رد كلمة جارحة ضد وطنه. أنصت أنت يا قضاعه، كاروا كان ولدى وخليفتى. وساشا بطلى ولن تأخذه منى.

قال قضاعه بتوسل وإلحاح وقد إلتبس عليه الأمر: أنت مخدوع يا سيدى. هذا العبد ساشا أراد الفتنه بيننا لـ.. لـ..

وعجز عن التبرير. فقال حورا:

- لماذا؟ منحته حريته ووعدته بالمال والمركز، وأنت أكثر من يعلم قيمة عطاياى.

قضاعه: أعلم يا سيدى. ولكنك لا تعلم. منحته أنا أيضاً ما هو أكثر. صدقنى. تسألنى لماذا؟ لا يهم. المهم أنه أراد الفتنه بيننا. إحسبها معى، قتل كاروا، ودخل معبدى جاسوساً لسيدى، وصنع لى أسلحة مدمره.. مؤكد، قتل كاروا فى المعبد ليشعل نار الحرب بيننا، وهو يعلم أى حرب ضريره سوف تنشب بيننا، بين قطبى الوادى.

والسؤال الواجب طرحه تلقائياً هو: لماذا يريد الحرب، والدمار هذا العبد الملعون. والجواب الفورى: ليضعفنا. وبالتالى يسهل عليه السيطره على الأرض. ليقيم من الأنقاض مملكته الخاصة. هذه هى الحقيقه جليه كالشمس. ذلك العبد الأجنبى ما جاء إلى وادى الرعاة إلا ليغزوها من الداخل. ومن يدرى من يقف وراءه، ربما دفعته إلينا بلاده. ياللمنحط الضائع. كان يجب أن ننتبه إليه ونضعه تحت المنظار منذ البدايه هل هناك إنسان طبيعى أو عاقل يبيع نفسه. وأعمال المجانين كما يعلم مولاى حين تصدر عن العاقلين ينبغى أن نتوقع من وراءها شر مستطير.

يسكت قضاعه برهة وهو يتميز من الغيظ والغضب للامبالاة حورا وإنكاره لكلماته جملة وتفصيلا. فينقلب عليه راعداً:

- تتكلم عن الغدر؟ هل خطفت كاروا من الطريق؟ هل غررت به؟ ماذا جاء به إلى هنا؟ لأجل ماذا؟ جاسوس. من ساقه إلى الموت غير قدميه؟ وبأى طريق جاء؟ هل طرق أبواب المعبد كسيد كريم؟ لئن قتله خائن فإنه يستحق.

حورا: أردت أن تخنى وتغدر بى أنا من مهدت لك المنصب ورفعتك عالياً. لماذا؟

قال قضاعه م[illegible]اجاً بعصبيه وضح فيها وفى الموقف برمته اثر تربية حورا له قديماً:

- لأنك قاتل أبى، سيدك. إغتصبت ملكى وشردت أهلى، فماذا كنت تنتظر منى؟ أزوقه لك أم أغبطك عليه؟

إهتز حورا لحظة بفعل المفاجأة ثم لفته جسارته المعهوده بسرعه.

حورا: لم يحدث. كذب وتدليس، وأنت قاتل إبنى.

إستخدم حورا بفطنه عامداً لأول مرة كلمة إبنى أمام ترديد قضاعه لكلمة أبى. فى الحقيقه كان حورا ينظر إلى مقتل غصن فى حينه كما ينظر للطعام فى إفطاره كل صباح. ولكنه بعد أن تقدم به العمر بات ينظر إليه بشكل أكثر ليونه بإعتباره عمل بطولى كان من مصلحة الوادى. ولو لم يكن بينهما الآن شهود لما تردد فى مصارحة قضاعة باعتقاده هذا.

يهدأ القطبان.

قضاعه: على أية حال، لم نتبادل الإتهامات؟ هنا شاهده. هل لك فى سماع شهادتها؟

وقبل أن يجيبه حورا ينادى على مساعده: ندشب، إذهب واتنى باناث. عجل. (يخرج ندشب) سيدى. إنى أفوضك فى الأمر بعد أن أستجوبها أمامك. سوف ترى. إنى متفائل بإمكان الإتفاق بيننا على أسس جديده.

ويأمر، مطمئناً لأقوال اناث قبل أن تكون، مطمئناً إلى طوف الإنقاذ قبل أن يجدف باتجاهه، بفك قيد حورا مرة أخرى. وبإحضار مقعد له. تدلف اناث، وتقف بعيداً فى خوف شديد وإعياء ووراءها ندشب مرتكزاً بالحربه فى تؤده وإستهتار أيضاً. كان ندشب قد أعطاها نبذة عن هدف المقابله وما ينبغى عليها قوله.

خاطبها قضاعه بحنان قائلاً: تعالى يا اناث.

تتلكأ فيدفعها ندشب للأمام بقناة الرمح فيضاعف هذا من رعبها وتوشك أن تفقد السيطرة على كامل إرادتها وأعصابها.

- قصى على سيدك حورا ما حدث.

قالت اناث متلعثمة بفعل الخشية: فيم؟

رد قضاعه غاضباً: جريمة القتل التى حدثت.

اناث: لا أعرف القتيل.

قال قضاعه زافراً بصبر: أيتها الحمقاء. أونخطبك له؟ إنك تعرفين القاتل. وأنت وحدك التى شاهدت الحادث. هذا والد القتيل، سيدنا حورا، فأطلعيه على الحقيقه كامله، بالتفصيل.

وانتهى من كلماته فى إطمئنان كامل للنتيجه. بينما كان حورا يترقب شاكاً نهاية هذه التمثيليه التى حسبها حتى الآن جيده. والتى أسند فيها قضاعه لهذه الحسناء دور البطوله. إنه لم يرها من قبل وشكلها لا ينبئ بإنتماءها إلى الوادى.

كان حورا الرجل الوحيد الذى رآها ولم يقع صريع هواها حتى لم يبد عليه التأثر والإندهاش من رفعة جسدها وجمالها الفحل. وإنما طافت بخياله حين وقعت عيناه عليها وجه إمراته الأثيره الذى لم يتعلق قلبه بغيرها من قبل ومن بعد: أم كاروا. مما ضاعف من تأثره فى هذه اللحظه بفقد إبنها/ إبنه كاروا. لعل ذكراها شكلت حاجزاً منيعاً ضد تأثره برؤية اناث. قالت اناث فى اهتزاز واضح:

- لا اعرف. لم أشاهد شيئاً. أنت دفنته حياً.

يفقد حورا عند سماعه ذلك سيطرته على نفسه تجاه قضاعه قبل أن يفقدها الأخير تجاه اناث ويهجم عليه كحيوان متوحش بمديه إستلها بلمح البصر من أسفل خصره فى اللحظة التى كان فيها قضاعه يهجم على اناث بمدية أخرى. إلا أن ندشب يلحق به قبل هدفه جاعلاً منه هو نفسه هدفاً لرمحه. يغرسه ندشب فى ظهر حورا على مرتين. الأولى جمدته مكانه والأخرى حين هم أن يتقدم ثانية مصوباً لعنه على قضاعه الذى جمد بدوره فى مكانه لا يدرى من امره شيئاً. وهو يرى فى جزء من الثانيه هجوم الموت عليه. دون أن يطول اناث بخدش واحد. ويسقط حورا كالجبل من السماء. لا يولى قضاعه القتيل، رئيس الوادى، أى انتباه بعد ذلك ويتخطاه ماشياً من فوقه مندفعاً بكل قوته وغضبه وحقده السابق على حورا صوب اناث التى حاولت الهرب عبثاً وهى تصرخ مستغيثة بساشا ثم إنهارت تحت أقدام قضاعه قبل ان يمسها.

ينهال عليها قضاعه بالضرب والسب عشوائياً حتى ادماها ثم يتركها فجأة دون كلمة. يخلع الحربه من ظهر حورا فى عودته ويتوجه بها إلى النافذه.

ندشب: مولاى، ما العمل الآن؟ الجماهير فى الخارج تهدر مطالبه بحورا والموقف يتأزم.

نهره قضاعه بحزم:

- كفى ثرثره. إهدأ. خذ هذه اللبؤة أولاً، إذبحها، مزقها. أريد أكبر قطعة من لحمها الأبيض الشهى قانياً مقززاً بحجم سبابتى. هيا. نفذ. هل ستقف الليله كلها تبحلق فىّ؟

يجرها ندشب من شعرها وتحاول هى أن تجر نفسها معه بقدميها. وبعد أن يخرج بها بجلبة ثورته مع رفضها الصامت الممزوج بأنينها المتواصل يصيح عليه قضاعه محموماً. فيرجع إليه ندشب دون اناث لاهثاً: أمر مولاى.

قال قضاعه بلوعه: إنتظر. لا يمكن. اعنى إنى أصفح عنها.

ويضيف كالكاره: إنى أحبها. خذها، إسجنها فى القاعه الوسطى.

ثم يضيف محذراً: إنتبه، ليس فى القاعة الأخيرة.

- ولكن يا مولاى. هذه القاعه دفنا فيها كاروا ومن المناسب..

- نفذ الأمر يا حمار. ولا تنسى أن تغلق المدخل خلفك.

قال ندشب باستغراب شديد: أردمه؟

- نعم.

القاعه الوسطى هى قاعة حصينه تحت الأرض ذات مدخلين لا يعلم بسرها مخلوق عدا ندشب الذى لم يعرف أبداً أن للقاعه مدخلين لا يعلم بثانيهما إلا قضاعه نفسه بعد أن قام بذبح المهندس والعمال الذين قاموا بشقه. وقد صممها لتكون ملجأه عند الحاجه إلى الهرب. أما الشئ الأخر الذى لا يعلمه ندشب أن قضاعه قد قام بنقل جثمان كاروا منها إلى بداية النفق الذى ولج منه الفقيد من ناحيته الأخرى خارج المعبد، غير مستنكفاً حمله على أكتافه فى ظلمة أعتى وأشد من ظلمة القبر فيما لو انطفأ مشعله. كان قضاعه قد أخذه هاجس أن ربما عاد حورا أو أخرون وحفروه من جديد. ووجود جثة كاروا فى بدايته كفيل بإرهابهم إلى الأبد. هذا من ناحية، وتحسباً من حورا ورد فعله إن دفنت جثته فى المعبد. ودرءاً لشبهة قتله بداية من ناحية ثانيه. وإذا صادف واكتشفها العامه فسوف يهز ذلك سطوة حورا ويتقولوا عليه. ولكن حورا فاجأه فعلاً بقدومه شخصياً وبدخوله من

منفذ آخر لا يعلم عنه شيئاً. فعرف متأخراً أنه كان من الخطأ الجسيم أن يبنى معبده فوق أرض كانت فى الأصل لحورا. على كل، لقد بنى معبده أو معظمه على أساس وضعه حورا وانتهى الأمر. فلم يعد امامه إلا أن يزيده حصانة فيما بعد ليس إلا.

أضاف قضاعه قائلاً إلى ندشب: إذهب وانجز مهمتك بدقة وعد إلىّ سريعاً بالملعون ساشا. لا تعد بدونه ولا تحدثه بشئ مما جرى. لا تتأخر.

ثم أشار إلى الحارسين الباقيين: وأنتما، إذهبا معه.

يخرج ندشب ويدخل ساشا فوراً من ناحية اخرى. ينتبه قضاعه إلى وقع خطاه ويبتعد عن النافذة فيما يتعرف ساشا حالاً على جثة حورا المسجاة على سجادة من الدم. وحالما يراه قضاعه يتهلل متصنعاً المرح ويقوم واضعاً إحدى قدميه فوق الجثه محدثاً ساشا:

- آه، الجميع يحضرون بسرعه هذه الأثناء.

ينظر ساشا إلى الجثة بهم.. جثة حورا حليفه المرحلى المفضل.

فيعلق قضاعه قائلاً: إنه ممن يحضرون سريعاً.

ساشا: مولاى، ماذا يحدث حولنا؟ ماذا حدث هنا؟

- لا تشغل بالك يا عزيزى ساشا يكفى أن ألقى إليهم بهذه الجيفه فيولوا مدبريين. أى ساشا خليل السيد/ الإله. اخى. إنى أجهل لم قتلت كاروا وهو من أرسلك عيناً علىّ؟ وأبغض شئ على نفسى أن تعلم جهلها بشئ وتظل على جهلها به، فإنها تفضل على ذلك إعدام الشئ مبعث الحيره والبلبله. فهلا..

يسمع قضاعة صوتاً يهتف باسمه من الخارج فيطل من النافذه فى حذر موارب من الخطر الداخلى القريب والخطر الخارجى البعيد. ثم يعود إلى رباطة جأشه ويتم كلامه على نحو آخر:

- لا يهمنى هذه الساعه أعلم أولا أعلم فأمامنا خطر كاسح سيدهم المعبد ويفتته بمن فيه. بالإختصار. عليك أن تعمل معلماً لبعض الوقت.

ساشا: أنا؟

قضاعه: أجل. ستعلمنا صنع النبال وفى الحال. لأنه إذا بدأ الزحف على المعبد لن يصمد فى تقديرى أكثر من يومين أو ثلاثه. قد

يصمد أكثر أو أقل لا ادرى. فأنا لم أختبره من قبل. ولم أصممه أساساً لصد مثل هذا الزحف الهائل.

ويضيف كمن يحدث نفسه:

- كان المفروض أن يبدأ الزحف من هنا، من هنا على كل وأى مكان أخر، لا عليه. هكذا خطط للأمر.

ساشا: مولاى، ما الأمر؟ من هؤلاء؟

وكان يشير إلى الخارج.

قضاعه: إنهم جند حورا، أكثر من نصف الرعاة. إنك يا عزيزى فى مأزقين: فأولهما يضعنى وإياك فى سلة واحدة. الأن علم شعب وادى الرعاة بأسره أنك قاتل كاروا ابن رئيسهم. وأنى قاتل رئيسهم. وثانيهما يضمك وحدك ويكتفى بك من دونى. ومن دواعى الحكمة أن يتخلص الرفيقان من مأزقهما المشترك ثم يتفرغ كل لشئونه. فهذا على الأقل يمنحهما بعض الوقت لمراجعة نفسيهما ويضمن نجاة أحدهما. قد يكون أنت وقد يكون انا. من يدرى؟ إنى أحتاجك الأن..

فى حين كان ساشا يفكر فى نفسه:

- وأنا لم أعد أحتاجك ولا تنقصنى القوه أو الشجاعة.

بيد أن المدهش هو ما قاله مقاطعاً قضاعه بمنتهى الجدية:

- كيف علمت بأمر النبال؟ هل أخبرك السيد/ الإله؟

- السيد/ الإله؟ طبعاً. اجل. إنه يبسط علىّ حمايته بل ويقدمنى احياناً على نفسه. ومنه علمت بأمر نبالك الخارقة. هيه، ماذا قلت؟ هل ستصنعها؟ إنه الأمر الذى ادخرك لأجله السيد/ الإله المبجل. هيا أرنى مهارتك وإلى اى حد يبلغ إخلاصك له. إنه يومك يا ساشا ها هو السيد/ الإله هيأ لك فرصة عظيمة لتفعل شيئاً فى سبيل إعلاء رايته. الفرصة التى كاد ينفطر قلبك من اجل الحصول عليها. هل نسيت؟ انظر إلى رمحك، لقد صار صاحب كرامة، فى البداية دم كاروا، إنى اكاد أراه. وفى الإبتلاء التالى مباشرة دم حورا العظيم. لم يجف بعد من رأس الرمح. فالسيد/ الإله كما ترى يبارك اعمالك.

ساشا: حقاً؟

كان قضاعه قد علم بأمر النبال، السلاح الخارق، من زوبعه المأفون الذى وصفها له وضخم للغاية من شانها وعظمتها والسحر

الكامن فيها ولهذا ركض خلف ساشا منذ البداية ونجح في وضع يده عليه معتبراً في الوقت نفسه أنه إذا لم يتمكن من انتزاع أسرار هذا السلاح الخطير الجديد أو لم يستطع استيعابه منع خصمه اللدود، حورا، من الحصول عليه لنفسه. وقد فعل.

قال ساشا مصححاً وصادقاً: هذا غير ممكن.

رد قضاعه مستثاراً: لا. كل شئ ممكن. علمني المرحوم/ حورا (كان قضاعه يتكأ بقدمه في هذه اللحظة على جثمان حورا) أن لا شئ مستحيل.

يضربه بقدمه ويبتعد إلى مكانه جالساً تحت النافذة مراقباً ما يجرى في الخارج من حين إلى آخر. قال ساشا بهدوء، بل ببرود:

- تعليمه سهل. ولكن صنعه مستحيل في هذه المدة القياسية بعدد مفيد أو مجد وعلى فرض توفر الخامات. إنه عمل فني أكثر منه إلى أي شئ آخر.

- الخامه؟ أليست خشب؟ سأقطع الشجرة المباركة إن لزم الأمر. سيعمل رجالي ليل نهار.

قال ساشا باقتناع تام:

- مستحيل. إنزل إليهم يا مولاي، كلمهم. أو اقذف إليهم بجثة حورا لعلهم يولون الإدبار كما قلت.

قال قضاعه مرتجفاً: أنا؟ لا يمكن. نفذ ما أمرتك به وكفى.

قال ساشا بحزم وقد يأس من محاولة إقناعه: لا.

قضاعه: أتصر؟

ساشا: لا حيلة لي. إبحث عن حل آخر، وستجدني معك.

قضاعه: إذن لم تعد بي حاجة إليك. وهذه لن تجدي معك.

يلقي بالرمح إلى جانبه. ويستل سكيناً يتلألأ يتخذ عدة أشكال، يطول ويقصر. يبدو أنه من مسروقات القوافل رغم تأكيد قضاعه على عكس ذلك. يتكلم قضاعه وهو يشق أمواج الهواء بسلاحه مباهياً. مستعرضاً إمكانياته.

قضاعه: هذا سلاحي. سلاح الأجداد. انظر إليه، أليس جميلاً؟ انظر، خذ وقتك، كثيرون هم الذين يتمنون لو يمن عليهم السيد/ الإله بطعنة نجلاء منه، شرف ما بعده شرف.

وعندما يشرع قضاعه فى التزحزح صوب ساشا كما تل الرمال الخبيثة يخرج ساشا قوسه فوراً ويرميه بسهم على عجل فتخيب الرميه وينفجر قضاعه ضاحكاً بعد أن كاد يقف قلبه لما رأى السهم يمرق كالصاعقه قريباً من رأسه محدثاً دوامات هواء فى أذنيه وصريراً فى قلبه، مصفراً كالقذيفه. ضحك بعنف حتى كادت مدينته المسحوره تقع فيمسك فجأة عن متابعة ضحكه ويتجهم. يتردد قضاعه ويقلق ساشا. يتحسس قضاعه السهم المرشوق خلف رأسه ثم يقول مواجهاً ساشا وجهاً لوجه:

- ما هذا؟ عود قش، راميه هش. بخ بخ.

فى أثناء ولع قضاعه بالقهقهه والسخريه من خصمه الشاب كان ساشا قد تغلب كالبرق على صدمته بفشل رميته الأولى وحشى قوسه بسهم آخر وأخير. فلم يكن معه غير سهمين. يقترب كل من صاحبه فى جرأة وتصويب ويدوران حول بعضهما. بينما يراوغ قضاعه برأسه فى كل إتجاه فلا يستطيع ساشا أن يتمكن من هدفه.

وينطلق السهم أولا وأخيراً فى اللحظة التى يهم فيها قضاعه بالهجوم فينغرس فيما بين عينيه ويصرخ صرخة ميت ما شك يوماً انه خالد:

- آ آى.

يتوافد أتباع قضاعه، ندشب، صخره، وآخرون. فيهلك ساشا أكثر من واحد بسلاح قضاعه الحاد إلى أن يرتمى عليه صخره بفدائيه مغلولا بموت مولاه أكثر من أى مخلوق آخر. ولئن قتل نتيجة إندفاعه الأحمق إلا أنه مكن ندشب من أن يغافل ساشا ويكسر قدمه بضربة سيف ردئ فعشرة مدى على الأقل تنغرس بصدر ساشا فى الحال والتو. اكثر من عشر مديات تجمعت وتصافحت داخل صدره بحرارة الشوق بعد الإفتراق، وبما يشبه حفلة سكر.

أما الكلمة التى ارتسمت على فم ساشا فى لحظاته الأخيره الداميه فهل كانت إسم اناث. هل كانت إسم السيد/ الإله الحقيقى؟ هل كانت..؟ لا أدرى. لأنها ارتسمت بريشة فنان مبتدئ طمست معالمها.

أعتقد الجيش الثائر فى الخارج أن الرئيس حورا أعطى الأمر بالهجوم عندما سمع صرخة قضاعه. وكان قد أتفق على اشارة

الهجوم: الآى. والتى لم يستطع لفظها حورا فى رمقه الأخير. يسمع صوت شرنقه فى الخارج من بعيد متحمساً: هجووووم.

ثم ضجة عاليه وقعقعة سلاح وأصوات معركه شرسه وبينا يدور القتال فى الخارج يدخل برنل وهو يقود زوبعه بعصا. وزوبعه لا يكف عن الصياح: اناث. أين انت يا اناث؟

يتواريان بسرعه.

يظهر ندشب وشرنقه يقتتلان. يبرز ندشب اولاً من الجانب الشرقى للقاعه ومن الناحية المقابله يبرز له شرنقه، يتقابلان فى المنتصف يتبارزان. يظهر ندشب قوة غير متوقعه وخفة حركه هائله فى مواجهة شرنقة العملاق.

يظهر من خلال ظلال عملاقه لكليهما تقهقر ندشب أمام ضغط هائل وإصرار من جانب شرنقه وهو ما لم يكن بإمكاننا رؤيته وإجتلائه بدون هذ التكبير الهائل لصورتيهما نظرا لسرعة حركة ندشب وإلتفاتاته الكثيرة حول شرنقه.

بينما نرى الراوى، فى منطقته، ذاهلا وهو يتابعهما كمن يريد الفصل بينهما ولا يستطيع. لا يستطيع.

ويظل ندشب من خلال خيال الظل يتراجع أمام شرنقه حتى يختفى كليهما عن الأنظار. يختفيان كأشخاص اولاً ثم يلحق بهما على نفس النحو ظلاهما. ويدخل المنجون بعاصفة فى الجو، ينقل قدماه بصعوبه بين الجثث الآخذه فى التراكم. ويتوقف عند جثة حورا وقضاعه وساشا ومن خلال نظره واحده على مجملهم يمد يده ويرفع جثة واحده غريبه لجندى مجهول ويبعدها. ونكتشف أنه يقف داخل مثلث متساوى الضلعين تشكله جثتا حورا وقضاعه وقاعدته ساشا.

قال المجنون بصوت طبيعى لإنسان طبيعى. متزن. وحسن:

- إسلمى إناث

مات الزعماء

فماتت العلل.

لماذا نشبت أوار الحرب؟ حرب أسره واحده؟ والأب هاجر بعد مولدهم مباشرة. وليتهم، المتبقين من دائرة الوغى الجهنميه، يعثرون عليك يا إناث. فتقتلى نفسك كما وعدت نفسك.

فأنت المنتصر الحقيقى. على أية حال لن يعثروا عليك. لأنهم لن يبحثوا. لأنهم زعماء جدد.

يقتحم المكان بضعة جنود فارين بلا سلاح يصطدم أحدهم بالمنجون فيسقطه أرضاً ثم يقول كالمعتذر له:

- الخوارج هجمت علينا واستولت على الوادى كله.

إنتهى الفصل الثالث المحذوف من الروايه
المسرحية الشهيره

يصدر قريباً للمؤلف
" ميتافيزيقا البيادة
في غياب عرفه "
رواية

